التفسير بالمأثور

تأليف
دكتور
جمال مصطفى عبد الحميد عبد الوهاب النجار
أستاذ التفسير وعلوم القرآن
فى كلية أصول الدين - جامعة الأزهر
بالقاهرة

الطبعة الأولي
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

الناشر
مطبعة الحسين الإسلامية
٢٥ ح المدرسة - خلف الجامع الأزهر
تليفون: ٥١٠٦٧٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه، ونستغفره ونتوب إليه.

ونشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، ونشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا رسول الله.

صلِّ اللهم وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين، صلاة وسلامًا وبركة عدد خلقك ورضا نفسك وزنة عرشك كلما ذكرك الذاكرون وغفل عن ذكرك الغافلون.

وبعد

فلقد عاشت البشرية قبل بعثة النبى ﷺ قرونًا متطاولة تفسد فى البلاد، وتئن من ظلم طغاة العباد، وتتخبط فى دياجير الظلمات، ومتاهات الكفر والسيئات، حتى أصبحت الحياة جحيمًا لا يطاق، ونارًا تلظى، لم يسلم من سعارها صغير ولا كبير، ولم ينج من الاحتراق بها عربى ولا أعجمى.

وبينما البشرية على هذه الحال إذا بالرحمن الرحيم يتداركها برحمته، وينزل عليها قرآنًا منيرًا، ويرسل إليها بشيرًا ونذيرًا، ليبدد الظلمات، ولينير الأرض والسموات، وليعيد للحياة اتزانها، وللبشرية استقرارها.

أرسل الله إليها محمدًا بن عبد الله، وأنزل عليه قرآنًا فيه

صلاحهم فى الدنيا، ونجاتهم ونعيمهم فى الآخرة.

ولما كان العمل بالقرآن متوقفًا على فهم معناه - إذ العلم مقدم على العمل - ولما كانت بعض معانى القرآن خافية على بعض الناس، خاصة الذين لم يشاهدوا الوحى والتنزيل، وعلى العجم الذين دخلوا ويدخلون كل يوم فى دين الله أفواجًا.

لما كان الأمر كذلك فقد تكفل الله ببيان معانيه، كما تكفل بحفظ ألفاظه ومبانيه.

فكما قال الله تعالى: **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾** [الحجر: ٩]، قال: **﴿إن علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، ثم إن علينا بيانه﴾** [القيامة: ١٧ - ١٩].

وهذا البيان إما أن يكون من الله عز وجل مباشرة، وإما أن يكون عن طريق رسول الله ﷺ، وإما عن طريق علماء الأمة فى كل جيل، من عصر الصحابة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن البدهى لدى الكافة أن الناس متفاوتون فى مداركهم وعلومهم واتجاهاتهم.

وبطبيعة الحال فإن هذا التفاوت ينعكس على من يتصدى لتفسير كلام الله عز وجل، لذا وجدنا لكل منهم اتجاهًا ومنهاجًا، وبذلك ثرت المكتبة التفسيرية ثراء عظيمًا، وكان هذا الاختلاف فى المناهج من نعم الله عز وجل، ليملأ كلٌّ حوضه بما يشتهى، ويتوافق مع رغباته وميوله.

ونستطيع أن نقسم تلك المناهج على اختلاف اتجاهات أصحابها إلى قسمين رئيسين:

١ - منهج بالمأثور.　　٢ - منهج بالرأى.

ولكل منهما خصائصه، ومباحثه.

وقد شرح الله عز وجل صدرى إلى وضع كتاب مستقل لكل منهج من المنهجين، أتناول فى كل كتاب أهم قضايا كل منهج لتتضح مسائله أيما وضوح، قدر ما يفتح الله به علىّ.

وها أنذا أشرع فى الكتاب الأول الخاص بالتفسير بالمأثور، لأتحدث فيه عن أهم قضاياه.

وقد استقرت خطة هذا الكتاب فى ذهنى إلى أن أقسمه إلى تمهيد، وثمانية فصول فى نحو ثلاثين مبحثًا، على ما هو مسطر فى فهرست الموضوعات فى آخر هذا الكتاب.

مع وعد بإرداف هذا الكتاب الكتاب الآخر - إن شاء الله - لأتحدث فيه عن التفسير بالرأى وأهم قضاياه.

ولعل القارئ الكريم يجد فى كل كتاب من الكتابين ما يشبع به نهمته فيما يتعلق بالتفسير بالمأثور، والتفسير بالرأى فما وجد فى كل كتاب من صواب فمن الله وحده لا شريك له، فله الحمد كله فى الأولى وفى الآخرة.

وما وجد فيه من غير ذلك فمرده إلىّ، وحسبى أنى اجتهدت فأرجو أن تكون نيتى خالصة لوجه الله عز وجل، حتى لا أحرم أحد الأجرين، أجر الاجتهاد، وأجر الإصابة، فمن اجتهد فأخطأ فله أجر، ومن اجتهد وأصاب فله أجران.

والله العظيم، رب العرش العظيم أسأل أن يتقبل منى هذا العمل وأن يجعله فى ميزان حسناتى وحسنات والدى الكريمين وجميع

أساتذتى، وأن ينفعنى به ومن بلغ، إنه سميع قريب مجيب الدعوات.

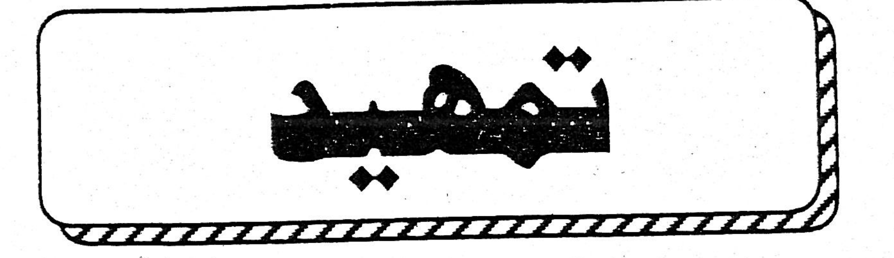
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،،

وصلى الله وسلم وبارك على سيد نا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين،،

أبو محمد

د/ جمال مصطفي عبد الحميد عبد الوهاب النجار

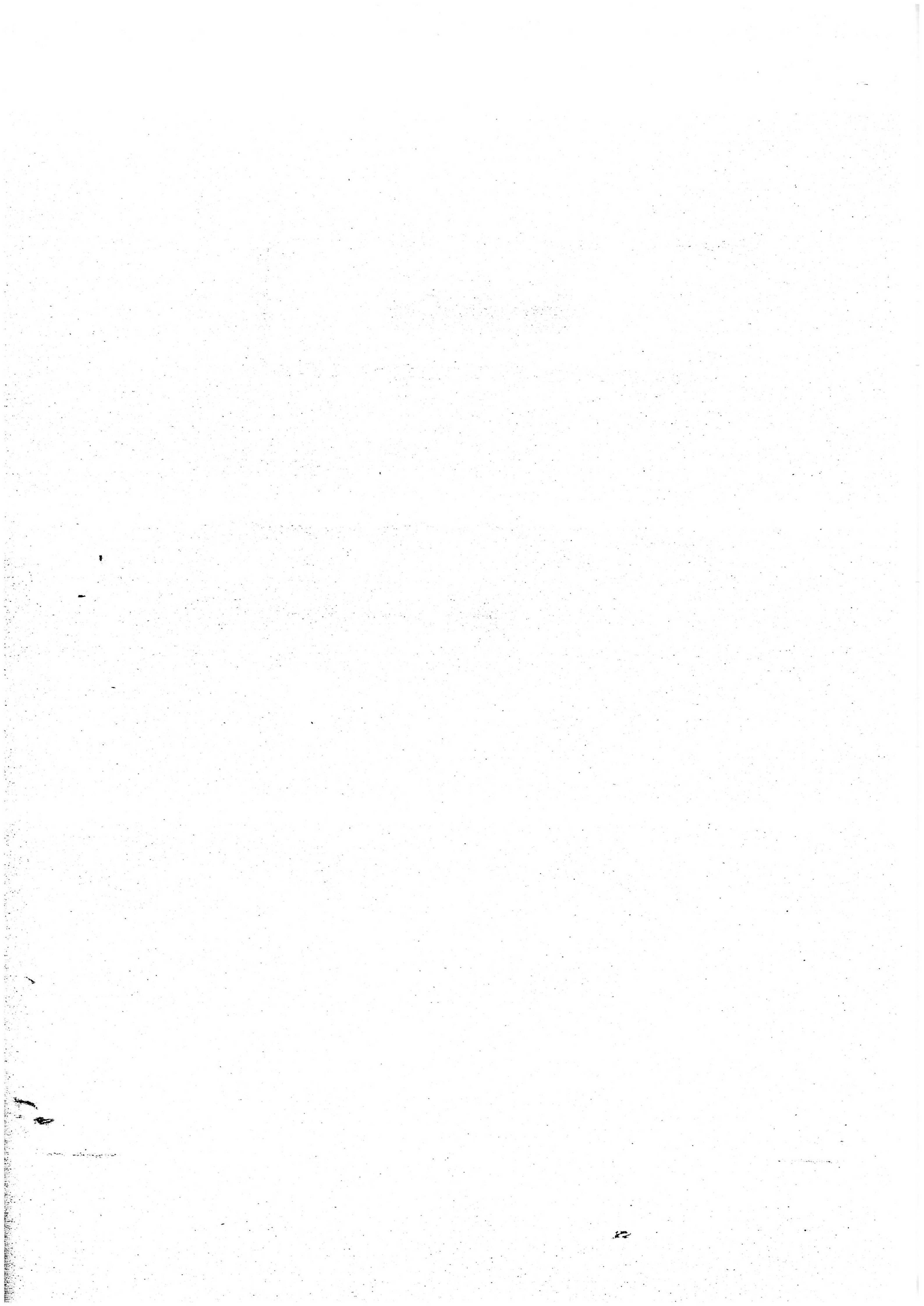
مدينة فايد.. محافظة الإسماعيلية



(أ) تعريف التفسير.

(ب) التأويل والفرق بينه وبين التفسير.

(ج) المراد بالتفسير المأثور.



لإظهار المعنى المعقول، ومنه قيل لما ينبئ عنه البول تفسرة وتسمى بها قارورة الماء

وجعل السَّفْر

أ - تعريف التفسير

أما التفسير فى اللغة فهو مأخوذ من:

(أ) الفَسْر، وهو البيان والكشف.

قال ابن منظور: «الفَسْر: البيان، فَسَرَ الشئَ يَفْسِرُه - بالكسر - ويَفْسُرُه - بالضم، فَسْرًا، وفَسَّرَه: أبانه، والتفسير مثله».

إلى أن قال: «الفَسْر: كشف المُغَطَّى، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل»[1].

(ب) وقيل هو مأخوذ من التفسرة، وهى البول الذى يستدل به على المرض، وينظر فيه الأطباء، يستدلون بلونه على علة العليل، وكل شئ يعرف به تفسير الشئ ومعناه فهو تفسرته.

قال الدرديرى[2]: «فكما أن الطبيب بالنظر فى الماء يكشف عن حال العلة، فكذا المفسر، بالنظر فى الدليل يكشف عن مراد الآية». أهـ.

(جـ) وقيل هو مأخوذ من «السَّفْر»، لأن الفَسْر والسفر قريبان لفظًا ومعنى.

قال الراغب الأصفهانى فى مقدمة تفسيره المسمى «جامع التفاسير»: «الفَسْر والسَّفْر يتقارب معناهما كتقارب لفظيهما، لكن جعل الفَسْر لإبراز الأعيان للأبصار، فقيل: سفرت المرأة عن وجهها، وأسفر الصبح، وسَفَرت البيت، إذا كنسته»[3].

وعلى هذا يكون التفسير - كما يقول عمر النسفى[4] - كشف

(١) لسان العرب (فسر).

(٢) كما فى التيسير فى علم التفسير لعمر النسفى ١/٥٣ تحقيق صاحب هذا القلم.

(٣) مقدمة جامع التفاسير ٤٧، تحقيق د/ أحمد فرحات - ط. دار الدعوة.

(٤) التيسير فى علم التفسير ١/٥٣.

المستور من المراد بالظاهر المذكور، كما أن السَّفر يكشف عن أخلاق الناس، وكما أن السُّفْرة تكشف ليتناول ما فيها.

وكما أن التفسير فى اللغة يطلق على البيان والكشف يطلق فيها أيضًا على التعرية للانطلاق.

قال أبو حيان فى تفسيره - البحر المحيط -: «ويطلق التفسير أيضًا على التعرية للانطلاق، قال ثعلب: «تقول فسرت الفرس، عريته لينطلق فى حصره» وهو راجع لمعنى الكشف، فكأنه كشف ظهره، لهذا الذى يريده منه من الجرى»[1].

وعلى هذا يكون الفَسْر استعمل فى إبراز الأعيان للأبصار، أى فى الكشف الحسى، بخلاف ما ذهب إليه الراغب الأصفهانى من أن الفَسْر لإظهار المعنى المعقول، والسَّفر لإبراز الأعيان للأبصار.

وعلى هذا أيضًا يتضح لنا أن التفسير فى اللغة يستعمل فى كشف المحسوسات، وكشف المعقولات.

ومنه قوله تعالى: ﴿**ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرًا**﴾[2].

* * *

(١) البحر المحيط: ١/ ١٣.

(٢) الفرقان: ٣٣.

التفسير اصطلاحًا

يقول الدكتور محمد الذهبى عليه رحمة الله :

«يرى بعض العلماء أن التفسير ليس من العلوم التى يتكلف لها حد، لأنه ليس قواعد أو ملكات ناشئة من مزاولة القواعد كغيره من العلوم التى أمكن لها أن تشبه العلوم العقلية، ويكتفى فى إيضاح التفسير بأنه بيان كلام الله، أو أنه المبين لألفاظ القرآن ومفهوماتها.

ويرى بعض آخر منهم أن التفسير من قبيل المسائل الجزئية أو القواعد الكلية، أو الملكات الناشئة من مزاولة القواعد فيتكلف له التعريف، فيذكر فى ذلك علومًا أخرى يحتاج إليها فى فهم القرآن، كاللغة والصرف، والنحو والقراءات، وغير ذلك[١].

وإذا كان العلماء قد انقسموا فى ذلك - أى فى كون التفسير من قبيل العلوم التى لها حد معلوم، ومسائل منضبطة فى الموضوع والغاية ونحو ذلك، أو أنه ليس من قبيل هذه العلوم - فإن الظاهر - والله أعلم - أنه من قبيل هذه العلوم التى يطلب له الحد، إذ فيه قواعد كلية بلغت من الكثرة ما بلغت، تنطوى تحتها العديد من المسائل الجزئية، التى بتعلمها تكسب صاحبها ملكة فهم كتاب الله، واستنباط الكثير من حكمه وأحكامه.

فإذا أضفنا إلى ذلك هذا الكم الهائل من كتب التفسير التى تمتلئ بها المكتبات الإسلامية فى العالم كله، استطعنا أن نقول إن التفسير علم مستقل بذاته، يطلب له وضع حد بل إنه أعظم العلوم كافة، وأشرفها دون نزاع، إذ كل كمال دينى أو دنيوى متوقف على القرآن، والقرآن

---

(١) التفسير والمفسّرون: ١/ ١٤.

متوقف على التفسير.

يقول أستاذنا فضيلة الدكتور إبراهيم خليفة:

«أنا مع هذا الرأى الأخير، الذى يجعل فن تفسير القرآن المجيد، من قبيل العلوم، ذات الموضوع والمسائل المنضبطة بوحدة موضوعاتها، وغايتها وغير ذلك.

فإن له كتبه المدونة المختصة به. كما لسائر العلوم، كما أن فيه كثيراً من القواعد الكلية، التى يندرج تحت كل واحدة منها من المسائل الجزئية ما لا يخفى على من طالع كتبه، والتى تحصل لمن تمرس بها، وأحسن رعايتها ملكة تعينه على خوض لجة هذا العلم، والسباحة فى بحره آمنًا مطمئنًا إن شاء الله، وتمنع بالتالى من لم يمارسها، ويتقن فقهها، والتلقى لها عن أهلها الثقات، من الكلام فى هذا الفن.

وكونه مفتقراً إلى الاستعانة بكثير من العلوم لا يمنع أصلاً من كونه علمًا متكاملاً، وقد استوى على سوقه، كما تستوى أدق العلوم، وأدخلها فى استحقاق العلم.

فإن من الأمور التى قد أصبحت شبيهة بالبدهيات إن لم تكن منها بالفعل أنه لا يمنع من كون العلم علمًا قائمًا برأسه أن يستعين على مسائله بكثير من المسلمات فى علوم أخرى، وأن الواقع الذى لا تصلح المماراة فيه أن بعض العلوم يأخذ من بعض، كما أن كونه بيانًا لألفاظ القرآن ومعانيه لا يمنع بحال من عده علمًا قائمًا بذاته، كما أن علم اللغة، وفقهها لا يخرج عن كونه بيانًا لمعانى ألفاظها واشتقاقاتها وما إلى هذا، لم يمنع أصلاً من عده علمًا.

فالحق الذى ترتاح إليه النفس، ويطمئن القلب إذًا أن التفسير علم بأكمل وأدق، وأجل ما تنطوى عليه مثل هذه الكلمة الشريفة من

معنى، وأنه كذلك من أشرف العلوم وأعظمها على الإطلاق»[١].

أقوال العلماء فى معنى التفسير اصطلاحًا

فإذا ما جئنا إلى هؤلاء العلماء الذين وضعوا للتفسير حدًا معينًا، فإننا سنجد لهم فى ذلك عبارات متعددة.

ويرى أبو حيان (٦٥٤ - ٧٤٥ هـ) أنه لم يقف لأحد من المفسرين على وضع تعريف له، حيث يقول:

«لم أقف لأحد من علماء التفسير على وضع رسم له»[٢].

بينما قد سبقه فى الواقع من وضع رسماله.

ومن هؤلاء أبو حفص عمر النسفى (ت ٥٣٧ هـ)، والذى ألف كتابين فى التفسير، سمى أحدهما: التيسير فى علم التفسير، وسمى الآخر الأكمل الأطول، حيث عرف التفسير بقوله:

«التفسير علم نزول الآية، وشأنها، وقصتها، والأسباب التى نزلت فيها، والأقوام الذين أريدوا بها»[٣].

أما تعريف أبى حيان فقد قال فيه:

«التفسير: علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التى تحمل عليها حالة التركيب، وتتمات لذلك».

ثم شرح أبو حيان تعريفه فقال:

«فقولنا «علم» هو جنس يشمل سائر العلوم، وقولنا: «يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن» هذا هو علم القراءات وقولنا:

---

(١) مناهج المفسرين لأستاذنا د/ إبراهيم خليفة: ٢٦، ٢٧ - ط. دار الوفاء.

(٢) البحر المحيط: ١/ ١٣.

(٣) التيسير فى علم التفسير: ١/ ٥٣.

«ومدلولاتها» أى مدلولات تلك الألفاظ، وهذا هو علم اللغة، الذى يحتاج إليه فى هذا العلم، وقولنا: «وأحكامها الإفرادية والتركيبية» هذا يشمل علم التصريف وعلم الإعراب، وعلم البيان، وعلم البديع.

وقولنا: «ومعانيها التى تحمل عليها حالة التركيب» يشمل ما دلالته بالحقيقة، وما دلالته بالمجاز، فإن التركيب قد يقتضى بظاهره شيئًا، ويصد عن الحمل عليه صادٌ، فيحمل على غيره، وهو المجاز، وقولنا: «وتتمات لذلك» هو معرفة النسخ، وسبب النزول، وقصة توضح ما انبهم فى القرآن، ونحو ذلك»[1].

وعرفه الزركشى بقوله: «علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه»[2].

وفى موضع آخر عرفه بقوله: «هو علم نزول الآية، وشئونها، وأقاصيصها والإشارات النازلة فيها، ثم ترتيب مكيها ومدنيها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسرها»[3].

إلى غير ذلك من التعريفات، التى أورد السيوطى فى إتقانه كثيراً منها، واعتبر - فى كتابه «التحبير فى علم التفسير - أن تعريف أبى حيان أحسن تعريف.

حيث يقول فى هذا الكتاب: «وأما فى الإصلاح فلهم فيه عبارات أحسنها قول أبى حيان»[4]، ثم ذكر تعريفه.

وواضح من هذه التعريفات أنها وإن تعددت ألفاظها إلا أنها فى

---

(١) البحر المحيط: ١/ ١٣، ١٤.

(٢) البرهان: ١/ ١٠٤، ١٠٥.

(٣) البرهان: ٢/ ٢٨٤.

(٤) التحبير فى علم التفسير: ٣٦.

النهاية تتفق على معنى واحد، ألا وهو أن التفسير علم يعرف به مراد الله تعالى من كتابه بقدر الطاقة البشرية.

ب - التأويل والفرق بينه وبين التفسير

هذا عن التفسير لغة واصطلاحًا، فإذا ما جئنا إلى التأويل لنعرفه لغة واصطلاحًا، فإننا نقول:

التأويل لغة:

أ - قيل هو مأخوذ من الأَوْل، وهو الرجوع، يقال آل الشئَ إلى كذا، أى رجع إليه، وأُلْت عن الشئ أى رجعت عنه.

قال ابن منظور:

«الأَوْل: الرجوع، آل الشئ يؤول أَوْلاً، ومآلاً، رجع.

وأَوَّل إليه الشئَ رجعه، وأُلْتُ عن الشئ ارتددت عنه.

يقال طبخت النبيذ، حتى آل إلى الثلث أو الربع أى رجع، وقال ابن منظور أيضًا: وأَوَّلَ الكلام وتأوّله: دبَّره وقدّره، وأوله وتأوله: فسره، وقال أبو عبيد: التأويل: المرجع والمصير.

مأخوذ من آل يؤول إلى كذا، أى صار إليه، وأولته صيرته إليه»(١).

(ب) وإذا كان بعضهم يقول إن التأويل مأخوذ من الأول وهو الرجوع فإن بعضًا آخر يقول إنه مأخوذ من الإيالة، وهى السياسة.

قال النضر بن شميل(٢): «وأصله من الإيالة وهى السياسة يقال إلنا، وأُيِل علينا، أى سسنا، وساسنا غيرنا» أ.هـ.

وقال الزبيدى فى تاج العروس: آل الملك رعيته يؤول إيالاً،

---

(١) لسان العرب (أول).

(٢) التيسير فى علم التفسير ١/ ٥٤.

ساسهم، وأحسن رعايتهم، وآل المالَ: أصلحه وساسه»[١].

وعلى ذلك: فإن قلنا إن التأويل مأخوذ من الأول وهو الرجوع فلأن فيه إرجاع الآية إلى ما تحتمله من المعانى.

وإن قلنا إنه مأخوذ من الإيالة، وهى السياسة فلأن المؤول يسوس الكلام ويضعه فى معناه اللائق به.

قال أبو حفص عمر النسفى: «فكأن المؤول سايسُ الكلام والقادر عليه، وواضعه مواضعه»[٢].

التأويل اصطلاحًا

أما التأويل فى الاصطلاح:

فقد ذهب بعض العلماء إلى أنه هو والتفسير شئ واحد، وعلى ذلك: فهما مترادفان.

وهذا هو المعروف لدى السلف رضوان الله عليهم.

وعليه صنيع ابن جرير الطبرى فى تفسيره، حينما يقول: القول فى تأويل قوله تعالى كذا.

وحينما يقول: وبنحو الذى قلنا قال أهل التأويل.

وحينما يقول: اختلف أهل التأويل فى معنى هذه الآية، ونحو ذلك.

وذهب بعض آخر إلى التفريق بينهما، إلا أنهم اختلفوا فى بيان الفرق بينهما، وإلى نوع العلاقة بينهما، فبينما يذهب بعض منهم إلى أن العلاقة بينهما هى العموم والخصوص، يذهب بعض آخر إلى أن العلاقة بينهما هى التباين.

---

(١) تاج العروس للزبيدى: (أول).

(٢) التيسير فى علم التفسير: ١/ ٥٤.

ومن عباراتهم التى تدل على أن العلاقة بينهما هى التباين:

١ - التفسير كشف ظاهر الكلام، والتأويل كشف باطنه.

٢ - وقريب منه قول أبى طالب الثعلبى: «التفسير بيان وضع اللفظ إما حقيقة وإما مجازا، والتأويل تفسير باطن اللفظ، مأخوذ من الأول وهو الرجوع لعاقبة الأمر.

فالتأويل إخبار عن حقيقة المراد، والتفسير إخبار عن دليل المراد، لأن اللفظ يكشف عن المراد، والكاشف دليل[1].

مثاله قوله تعالى: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾[2]، تفسيره أنه من الرصد، يقال رصدته، رقبته، والمرصاد مفعال منه.

وتأويله: التحذير من التهاون بأمر الله، والغفلة عن الأهبة، والاستعداد للعرض عليه»[3].

٣ - يقول ابن الكمال: «التأويل: صرف الآية عن معناها الظاهر إلى معنى الكتاب والسنة»[4].

٤ - ومثل قول ابن الكمال قول كل من أبى القاسم النيسابورى والبغوى والكواشى وآخرين، حيث يقولون:

«التأويل صرف الآية إلى معنى موافق لما قبلها وما بعدها تحتمله الآية، غير مخالف للكتاب والسنة، من طريق الاستنباط.

والتفسير هو الكلام فى أسباب نزول الآية وشأنها وقصتها»[5].

٥ - قول أبى منصور الماتريدى:

---

(١) التفسير فى علم التفسير لعمر النسفى: ١/ ٥٤.

(٢) الفجر: ١٤.

(٣) الاتقان: ٢/ ١٧٣.

(٤) تاج العروس للزبيدى: ٧/ ٢١٥.

(٥) تفسير البغوى ١/ ١٨، والبرهان: ٢/ ٢٨٦، والاتقان: ٢/ ١٧٣.

«التفسير هو الاخبار عن شأن من نزل فيه، وعن سبب نزوله، وذلك علم من شهد ذلك، فهو يقول فيه بالعلم وغيره بالرأى.

والتأويل: هو تبيين ما يحتمله اللفظ من المعانى»[١]. وقريب منه أو مثله قول كل من البجلى، وأبى نصر القشيرى:

حيث يقول البجلى: «التفسير يتعلق بالرواية، والتأويل يتعلق بالدراية»[٢].

ويقول أبو نصر القشيرى: «ويعتبر فى التفسير الاتباع والسماع، وإنما الاستنباط يتعلق بالتأويل»[٣].

٦ - وقيل التفسير للمحكمات، والتأويل للمتشابهات، وقيل علم التفسير للخلق، وعلم التأويل للحق، قال تعالى ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾[٤]. وهو فيما يرجع إلى الغيب الذى أبهمه الله.

وقيل التفسير ما لا يختلف فيه، والتأويل ما اختلف فيه.

وقيل التفسير بيان أول الكلام، والتأويل بيان آخره[٥].

فهذه بعض عباراتهم التى يتضح منها الفرق بين التفسير والتأويل وأن العلاقة بينهما هى التباين.

ومن عباراتهم التى تدل على أن العلاقة بينهما هى العموم والخصوص قول الراغب الأصفهانى: .

«التفسير أعم من التأويل، وأكثر ما يستعمل التفسير فى الألفاظ، والتأويل فى المعانى، كتأويل الرؤيا.

---

(١) التيسير فى علم التفسير: ١/ ٥٨.

(٢) البرهان: ٢/ ٢٨٦.

(٣) البرهان: ٢/ ٢٨٦، والاتقان: ٢/ ١٧٣.

(٤) آل عمران: ٧.

(٥) انظر التيسير فى علم التفسير: ٥٤١.

والتأويل يستعمل أكثره فى الكتب الإلهية، والتفسير يستعمل فيها وفى غيرها.

والتفسير أكثره يستعمل فى مفردات الألفاظ، والتأويل يستعمل أكثره فى الجمل.

فالتفسير إما أن يستعمل فى غريب الألفاظ، نحو البحيرة والسائبة والوصيلة، أو فى وجيز يبين ويشرح، كقوله ﴿**وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة**﴾(١)، وإما فى كلام مضمن بقصة لا يمكن تصوره إلا بمعرفتها، نحو قوله تعالى ﴿**إنما النسئ زيادة فى الكفر**﴾(٢)، وقوله ﴿**وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها**﴾(٣).

وأما التأويل فإنه يستعمل مرة عامًا ومرة خاصًا، نحو «الكفر» المستعمل تارة فى الجحود المطلق، وتارة فى جحود البارى خاصة، و«الإيمان» المستعمل فى التصديق المطلق تارة، وفى تصديق دين الحق تارة.

وإما فى لفظ مشترك بين معان مختلفة، نحو لفظة «وجد» المستعملة فى الجدة، والوَجْد، والوجود»(٤).

محاولة مشكورة للترجيح فى الفرق بين التفسير والتأويل

ولأستاذنا الفاضل الدكتور إبراهيم خليفة، محاولة مشكورة للترجيح فى التفرقة بين التفسير والتأويل، أراه غير مسبوق بها، وقد نص على عدم سبقه بذلك صراحة قبل الحديث عنها، وأرى أن أذكر طرفًا منها.

---

(١) البقرة: ٤٨، ٨٣، وفى سور أخرى.

(٢) التوبة: ٣٧.

(٣) البقرة: ١٨٩.

(٤) مقدمة جامع التفاسير للراغب الأصفهانى: ٤٧، ٤٨ - تحقيق د/ أحمد فرحات.

يقول أعزه الله: «يقصر التأويل على ما يكون استنباطه من اللفظ مفتقرًا إلى مزيد من إعمال الفكرة وإنعام النظرة، أو يكون مما يستعصى دركه، وإنما يأتي صاحبه من طريق الفيض، وإلهام منزل القرآن، لا ما يكون إدراكه على طرف الثمام غير محتاج إلى بذل شئ من التأمل أصلاً.

ولا أحسب إلا أن هذا هو المراد منه - أعنى التأويل - فى مثل ما دعا به ﷺ لابن عباس رضى الله عنهما، إذ يقول فى الصحيح: «اللهم فقهه فى الدين، وعلمه التأويل».

ولعل هذا - أعنى حاجة التأويل إلى ما قلناه من إطالة التأمل، وإمعان النظر هو ما دفع من أطلق من علماء السلف من أمثال أبى عبيد القاسم بن سلام، وابن جرير الطبرى وغيرهما، نقول لعل هذا هو الدافع لهؤلاء أن يطلقوا على تفسير القرآن بوجه عام تأويلاً.

فإنهم لما رأوا القرآن من الجلال والكمال بالمنزل الذى ما بلغه قول فى الأولين ولا فى الآخرين، وأن فيه من الإعجاز البيانى والعلمى، والتشريعى، وغير ذلك، ما صح معه وصف من أنزل عليه ﷺ، إذ وصفه فيما وصفه فقال: «**ولا تنقضى عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد**»(١). أقول: لما رأوا ذلك كأنهم قد أجلوا كل كلمة منه عن أن يكون بيانها تفسيرًا مع ما يمكن أن يحتمله لفظ التفسير من جواز التنبيه على المعنى الواضح، لأول وهلة، ببيان مجرد معنى اللفظ فى اللغة مثلاً، وعدم تعين إطلاقه على ما تكون الحاجة فيه إلى مزيد من التأمل، وإمعان النظر، ورأوا أن فى كل كلمة من كلمات هذا الكتاب

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب فضائل القرآن، باب (١٤) والدارقطنى فى فضائل القرآن، باب (١)، وقال عنه الترمذى إسناده مجهول، وفى الحارث الأعور مقال.

المعجز من الدقائق التى تجل عن الحصر ما يستحق معه بيانها، بل مجرد الحوم من حول حماها أن يسمى تأويلاً، ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات.

على أن جمهرة العلماء قديمًا وحديثًا، قد استقر عرفهم مع هذا، على أن يطلقوا التفسير على ما يعم ذلك كله، أعنى بيان ما يدرك لأول وهلة، من مجرد فهم اللغة وغير ذلك، وما هو مفتقر إلى إطالة الفكرة وإنعام النظرة، كما يرى ذلك كل من له ولو أدنى اطلاع على كتب القوم المؤلفة فى فن تفسير القرآن الكريم، وكيف أن الكثرة الكاثرة منهم قد أطلقوا على كتبهم، وفى ثناياها كلمة التفسير، وكيف أن ذلك قد شاع فى العرف العام والخاص، وأن التأويل حتى بالمعنى الذى قلناه ووجهناه قد أصبح داخلاً تحت مدلول كلمة التفسير، من جهة أن ذلك كله لا يخرج عن كونه بيانًا لمعنى التنزيل المجيد، وكشفًا عن المراد منه، وأن لهذا حظه من الحق والرشد، الذى لا يخفى على منصف.

والنسبة إذًا بين التفسير بهذا المعنى الواسع، الذى استقر عليه العرف العام والخاص كما قلنا، وبين التأويل بالمعنى الذى قلناه ووجهناه هى العموم والخصوص بإطلاق، فكل تأويل تفسير، ولا عكس.

يجتمعان فى بيان ما يحتاج بيانه إلى التأويل وإمعان النظر، وينفرد التفسير فى بيان ما لا يحتاج بيانه إلى ذلك».

وهذا كما لا يخفى عليك حين نتحدث عن التأويل الخاص بما فى القرآن الكريم طبعًا، فأما إذ نتحدث عن التأويل أى بالمعنى الذى قلناه أيضًا ولكن باعتبار كونه عنوانًا عامًا شاملاً للقرآن وغيره، فلا يخفى عليك أن النسبة بينه وبين التفسير الذى قد صار علمًا بالغلبة لا ينصرف عند الإطلاق إلا إلى بيان القرآن خاصة، نقول: النسبة بين التأويل بهذا

الوصف، وبين التفسير الذى قد صار هذا شأنه هى العموم والخصوص من وجه.

فكل منهما قد يكون أعم من الآخر من جهة، وأخص منه من جهة أخرى.

وبيان ذلك: أن التفسير بهذا المعنى شامل للفظ القرآن ومعناه، قطعًا أو ترجيحًا، رواية أو دراية، على ما قلناه، وسيأتى له مزيد بيان عن قريب جدًا.

على حين أن التأويل لا يكون بالرواية، ولا بالقطع، وإنما يكون بالظن، وبنوع مخصوص من الدراية، على ما وضحناه لك.

ففى هذا ترى عموم التفسير وخصوص التأويل.

كما ترى عكس ذلك، أعنى عموم التأويل وخصوص التفسير، فى أن التأويل بهذا الاعتبار لا يختص بالقرآن الكريم أصلاً، بل يعدوه إلى غيره، كتأويل أحاديث من السنة، وتأويل الرؤيا، وغير ذلك.

على حين أن التفسير بهذا الوصف لا يخرج موضوعه ولا أى من مسائله عن القرآن خاصة، فتنبه لهذه الدقائق، فإنى لم أر من تعرض لها، ولله الفضل والمنة»[1].

⁂ ⁂ ⁂

---

(١) دراسات في مناهج المفسرين: ٢٢ - ٢٤ - ط. دار الوفاء.

(جـ) المراد بالتفسير المأثور

إذا كنا قد علمنا معنى التفسير لغة واصطلاحًا، فلابد لنا من معرفة معنى «المأثور»، وبالتالى معرفة معنى «التفسير بالمأثور».

فأما المأثور: فهو اسم مفعول، مأخوذ من الأثر.

قال ابن سيدَه: «وعندى أن المأثور مفعول لا فعل له، كما ذهب إليه أبو على فى المفؤود، الذى هو الجبان»[١].

والأثر فى اللغة يطلق على: بقية الشئ، وعلى الخبر المنقول عن شخص آخر.

قال ابن منظور: «الأثر بقية الشئ، والجمع آثار، وأُثُور، والأثر الخبر، والجمع آثار، وقوله عز وجل ﴿ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾[٢] أى نكتب ما أسلفوا من أعمالهم، ونكتب آثارهم».

ثم يقول: «والأثر مصدر قولك أَثَرْتُ الحديث آثُرهُ، إذا ذكرته عن غيرك، وفى حديث عمر رضى الله عنه: أنه حلف بأبيه فنهاه النبى ﷺ عن ذلك، قال عمر: فما حلفت بها ذاكرًا ولا آثرًا»[٣] قال أبو عبيد: أى لا حالفًا به ولا مخبرًا عن غيرى أنه حلف به»[٤].

وعلى ذلك: فالمأثور فى اللغة يطلق على: الكلام المخبر به عن آخر.

وهو بهذا المعنى اللغوى مراد عند المفسرين، حينما يطلقون مصطلح التفسير بالمأثور، إلا أن دائرته عندهم محدودة، وليست مطلقة.

---

(١) لسان العرب: (أثر).

(٢) يس: ١٢.

(٣) صحيح البخاري: كتاب الإيمان، باب (٤) وصحيح مسلم كتاب الإيمان باب(١).

(٤) لسان العرب، مادة (أثر).

فهم يريدون بالتـفسير المأثور: ما جاء فى القرآن الكـريم نفسه من آيات تبين آيات أخرى، وما ورد عن رسول الله ﷺ وصحابته الكرام والتابعـين على اختلاف بيـن العلماء، فيمـا جاء عن التابعيـن على ما سوف نوضحه فى موضعه إن شاء الله تعالى.

وعلى ذلك:

فمصادر التفسير بالمأثور أربعة:

١ - القرآن الكريم.

٢ - السنة النبوية المطهرة.

٣ - أقوال الصحابة.

٤ - أقوال التابعين.

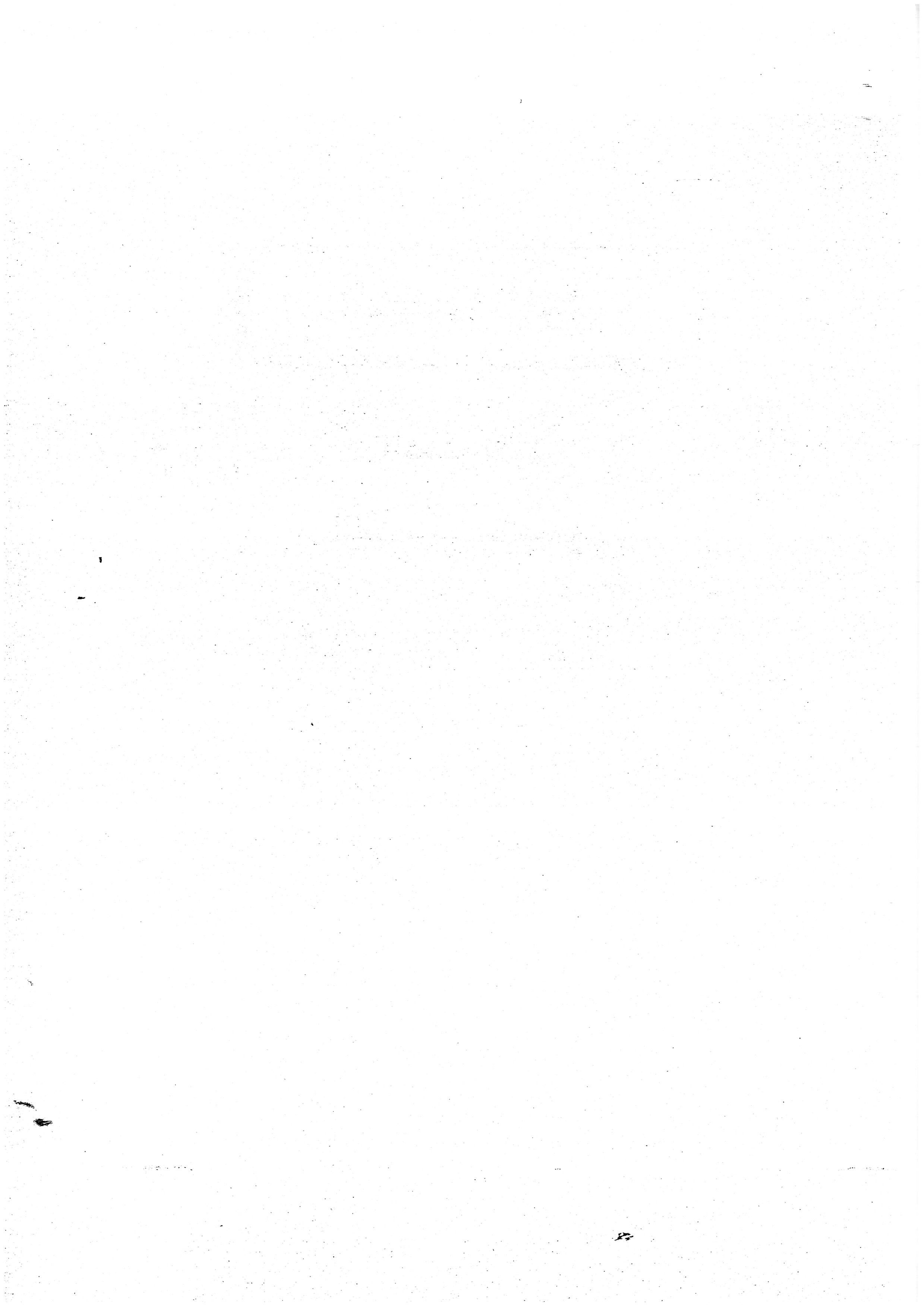
فإلى الحديث عن كل مصدر من هذه المصادر بالتفصيل، مستعينين بحول الله وقوته.

* * *

الفصل الأول

المصدر الأول

للتفسير بالمأثور



الفصل الأول

تفسير القرآن بالقرآن

تمهيد:

إذا ما جئنا إلى المصدر الأول من مصادر التفسير بالمأثور، وجدناه القرآن الكريم نفسه.

فلا يجوز للإنسان أن يتعدى هذا المصدر إلى غيره، مادام التفسير به فى إمكاننا، وترجع أهمية ذلك إلى عدة أسباب، يأتى على رأسها ما يلى:

١ - أن صاحب أى كلام أدرى بمقصوده من غيره، فما بالنا إذا كان هذا المبين هو الله عز وجل؟

٢ - ولأن الشرع أمر باتباع ما جاء عن الله تعالى ونهى عن التقديم بين يديه عز وجل.

ورد ذلك فى مواضع متعددة، نختار منها ما يلى:

- قوله تعالى: ﴿**وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه إلى الله**﴾[١].
- وقوله تعالى: ﴿**فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً**﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله**﴾[٣].

وعلى ذلك فإنه يجب على من يتصدى لتفسير القرآن الكريم أن يبدأ بتلك الطريقة، فينظر فى القرآن فقد يجد تفصيلاً لما أوجز، أو

---

(١) الشورى: ١٠.

(٢) النساء: ٥٩.

(٣) الحجرات: ١.

تقييدًا لما أطلـق، أو تخصيصًا لما جاء عامًا، أو تبييـنا لما جاء مجملاً أو ناسخًا لمنسوخ، وغير ذلك.

إنه إن فعل ذلك يكون قد ولج الدار مـن بابه، وحاز الأفضلية فى الوصول إلى هدفه.

قال ابن تيمية رحمه الله:

«فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟..

فالجواب: إن أصح الطـرق فى ذلك أن يفسر القرآن بـالقرآن، فما أجمل فى مكان، فـإنه قد فُسِّر فى موضع آخر، وما اخـتصر فى مكان فقد بسط فى موضع آخر»[1].

وعلى ذلك: فإن لتفسير القرآن بالقرآن عدة وسائل، نوضح أبرزها فى المباحث التالية.

* * *

---

(١) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية: ٩٣ - ط. مؤسسة الرسالة.

المبحث الأول

شرح الموجز بالمطنب

فقارئ القرآن يرى فيه نصوصًا موجزة فى بعض المواضع، ويرى فى الوقت نفسه نصوصًا مطنبة فى الموضوع ذاته، فى مواضع أخرى، كما ورد فى قصص الأنبياء، مثل قصة آدم، ونوح، وإبراهيم، وهود، وصالح، وموسى وعيسى، وغيرهم.

فقصة آدم مثلاً وردت موجزة فى آية واحدة من سورة الكهف فى قوله تعالى: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾[١]، بينما ورد لها تفصيل كبير فى أماكن أخرى من سورة البقرة، والأعراف وطه، وص، وغيرها.

وغير ذلك من القصص الأخرى. والموضوعات المتفرقة فى القرآن الكريم، كموضوعات الربا، والخمر، ومشاهد يوم القيامة وغيرها.

فعلى المفسر أن يجمع أجزاء الموضوع الواحد من كل مكان ليكتمل الموضوع كله أمامه، ثم يشرع فى تفسيره فى ضوء جميع هذه الأجزاء.

إنه إن فعل ذلك فسيتضح له ما كان موجزًا، ولا يلتبس عليه شئ من جزئيات الموضوع.

ونكتفى بهذا القدر من الحديث عن هذه الوسيلة، لوضوحها أيما وضوح.

※ ※ ※

---

(١) الكهف: ٥٠.

المبحث الثاني

تفسير المجمل بالمبين

ومن تفسير القرآن بالقرآن: الاستعانة بالمبيَّن على فهم المجمل.

فالناظر فى القرآن يجده ينقسم - من حيث وضوح الدلالة على المراد، وعدم هذا الوضوح - إلى قسمين:

١ - قسم بَيِّنٌ واضح، غير مفتقر إلى ما يبينه، سواء من القرآن نفسه، أم من غيره، وهو كثير جدًا فى القرآن.

مثل قوله تعالى ﴿قد أفلح المؤمنون﴾[١]، وقوله ﴿قل هو الله أحد﴾[٢]، وقوله ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين﴾[٣].

٢ - وقسم يحتاج إلى بيان، لأنه غير واضح الدلالة على المراد، كقوله تعالى ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات﴾[٤].

والقسم الأول يعرف عند العلماء بالمبيَّن، والثانى بالمجمل.

تعريف المجمل والمبين

وعلى ذلك: فالمجمل - كما عرفه الغزالى - هو:

«اللفظ الصالح لأحد معنيين، الذى لا يتعين معناه لا بوضع اللغة، ولا بعرف الاستعمال، وينكشف ذلك بمسائل»[٥].

وقريب منه تعريف الآمدى، حيث قال:

«هو ماله دلالة على أحد أمرين، لا مزية لأحدهما على الآخر

---

(١) المؤمنون: ١. (٢) الإخلاص: ١.

(٣) البقرة: ١٥٣. (٤) البقرة: ٣٧.

(٥) المستصفي: ١/ ٣٤٥.

بالنسبة إليه».

ثم شرح الآمدى تعريفه بقوله:

«فقولنا «ماله دلالة» ليعم الأقوال والأفعال، وغير ذلك من الأدلة المجملة، وقولنا، «على أحد أمرين» احتراز عما لا دلالة له إلا على معنى واحد، وقولنا «لا مزية لأحدهما على الآخر بالنسبة إليه» احتراز عن اللفظ الذى هو ظاهر فى معنى، وبعيد فى غيره، كاللفظ الذى هو حقيقة فى شئ، ومجاز فى شئ»[(١)].

أما المبَيَّن: فهو فى اللغة: المُظْهَر، يقال بَيَّنَ فلانٌ كذا، إذا أظهره، وأوضح معناه»[(٢)].

أما فى الإصلاح: فقد عرفه الآمدى بقوله:

«ما كان من الخطاب المبتدأ، المستغنى بنفسه عن بيان»[(٣)].

حمل المجمل على المبين

وعلى ذلك: فإنه يجب على المفسر أن يحمل مايراه مجملاً فى القرآن على ما جاء مبينًا له، ومن أمثلة ذلك ما يأتى:

١ - قوله تعالى ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾[(٤)] فقد بينه قوله تعالى ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا﴾[(٥)].

٢ - وقوله تعالى ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾[(٦)] فقد بينه قوله تعالى ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام للآمدي: ٢/١٦٦.

(٢) انظر لسان العرب (بان)، وإرشاد الفحول: ١٦٧ - ط. مصطفي الحلبي.

(٣) الإحكام: ٢/١٧٨.

(٤) الفاتحة: ٧.

(٥) النساء: ٦٩.

(٦) البقرة: ٣٧.

تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾[١].

٣ - وقوله تعالى ﴿أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم﴾ فقد جاء المستثنى المحرم هنا مجملاً، بينما جاء مبيِّنًا فى الآية التى بعد تاليتها مباشرة، بقوله تعالى: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم...﴾ [الآية ٣ من سورة المائدة]

أسباب الإجمال

ويمكن إرجاع هذا الإجمال إلى عدة أسباب، منها:

١ - غرابة اللفظ: كقوله تعالى: ﴿وسيداً وحصوراً﴾[٢]. وقوله ﴿وفاكهة وأبا﴾[٣]، وقوله ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾[٤]، وقوله ﴿فلا تعضلوهن﴾[٥].

٢ - الاشتراك اللفظى، حيث وضعت بعض الألفاظ لأكثر من معنى.. كألفاظ: الأُمَّة، والذرية، والقُرْء، والصَّريم، وعسعس.

فلفظ (أُمَّة) يطلق على الرجل الجامع للخير، الذى يجب على الناس اتخاذه أسوة لهم، كقوله تعالى ﴿إن إبراهيم كان أمة﴾[٦] ويطلق على الجماعة، كقوله تعالى ﴿وجد عليه أمة من الناس يسقون﴾[٧]، ويطلق على الزمان، كقوله تعالى ﴿وادكر بعد أمة﴾[٨]، ويطلق على الدين، كقوله تعالى ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾[٩].

ولفظ الذرية يطلق على الفرع، كقوله تعالى ﴿ومن ذريته داود وسليمان﴾[١٠]، ويطلق على الأصل، كما فى قوله ﴿وآية لهم أنا

---

(١) الأعراف: ٢٣. (٢) آل عمران: ٣٩ (٣) عبس: ٣١.
(٤) الحج: ١١. (٥) البقرة: ٢٣٢. (٦) النحل: ١٢٠.
(٧) القصص: ٢٣. (٨) يوسف: ٤٥. (٩) الزخرف: ٢٢، ٢٣.
(١٠) الأنعام: ٨٤.

حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون﴾[١].

ولفظ القرء يطلق على الطهر وعلى الحيض، ولفظ الصريم يطلق على النهار، وعلى الليل.

ولفظ (عسعس) يطلق بمعنى أقبل، وبمعنى أدبر.

٣ - ومن أسباب الإجمال أيضًا: عدم تعيين الضمير، كما فى قوله تعالى **﴿أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح﴾**[٢]، فالضمير فى (بيده) يحتمل أن يعود على الزوج، ويحتمل أن يعود على الولى.

٤ - احتمال الوقف والابتداء، كقوله تعالى **﴿وما يعلم تأويله إلا الله . والراسخون فى العلم يقولون آمنا به﴾**[٣]، فقوله تعالى **﴿الراسخون﴾** يحتمل أن يكون معطوفًا على لفظ الجلالة، ويحتمل أن يكون استئناف كلام، بعد أن تم الوقف على لفظ الجلالة، وهذا هو الراجح.

٥ - الحذف فى الكلام، كما فى قوله تعالى **﴿وترغبون أن تنكحوهن﴾**[٤]، العبارة تحتمل وجهين، إما بتقدير (عن)، وإما بتقدير (فى)، فالعبارة المعنى على الأول: وترغبون عن نكاحهن لقلة ما لهن.

وعلى الثانى: وترغبون فى نكاحهن لما لهن، لأنه يقال: رغبت عن الشئ، إذا زهدت فيه، ورغبت فى الشئ، إذا حرصت عليه.

فلما لم يذكر حرف الجر (عن) أو (فى) احتملت العبارة المعنيين.

٦ - عدم كثرة الاستعمال، كما فى قوله تعالى **﴿ألا إنهم يثنون صدورهم﴾**[٥]، أى يخفون ما فى ضمائرهم، وقوله **﴿فأصبح**

---

(١) يس: ٤١. (٢) البقرة: ٢٣٧. (٣) آل عمران: ٧.

(٤) النساء: ١٢٧. (٥) هود: ٥.

يقلب كفيه على ما أنفق فيها﴾[١]، أى نادمًا، وقوله ﴿**ثانى عطفه**﴾[٢]، أى متكبرًا، ونظيره ﴿**ولا تصعر خدك للناس**﴾[٣]، وكما فى قوله تعالى ﴿**يلقون السمع**﴾[٤]، أى يسمعون، ونظيره قوله ﴿**أو ألقى السمع**﴾[٥]، أى يسمع.

٧ - ومنها قلب المنقول، مثل ﴿**سلام على إلياسين**﴾[٦]، وقوله ﴿**وطور سينين**﴾[٧].

قال أبو السعود فى ﴿**إلياسين**﴾: «هو لغة فى إلياس، كسيناء فى سينين[٨].

٨ - التكرير القاطع لوصل الكلام فى الظاهر، كقوله تعالى ﴿**قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحًا مرسل من ربه**﴾[٩].

فإن تقدير الكلام: لمن آمن من الذين استضعفوا. وكقوله تعالى: ﴿**وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن**﴾[١٠].

٩ - التقديم والتأخير، كقوله تعالى فى شأن السؤال عن الساعة ﴿**يسألونك كأنك حفى عنها**﴾، على تقدير إن (عَنْ) متعلقة بيسألونك، وقوله ﴿**كأنك حفى**﴾ معترض، وصلة (حفى) محذوفة.

وتقدير الكلام: يسألونك عنها كأنك حفى بها. أما على تقدير عدم التقديم والتأخير، فيكون المعنى على الاستئناف، أى يسألونك كأنك حفى عنها، أى مبالغ فى السؤال عنها، حتى علمت بها.

---

(١) الكهف: ٤٢. (٢) الحج: ٩. (٣) لقمان: ١٨.
(٤) الشعراء: ٢٢٣. (٥) ق: ٣٧. (٦) الصافات: ١٣٠.
(٧) التين: ٢. (٨) إرشاد العقل السليم: ٧/ ٢٠٤.
(٩) الأعراف: ٧٥. (١٠) يونس: ٦٦.

صور التبيين القرآنى لبعض ما أجمل

وهذا المجمل قد يأتى تبيينه بواسطة القرآن، أو بواسطة السنة، أما ما جاء بواسطة السنة فسنرجئ الحديث عنه إلى موضعه، بعد هذا الفصل إن شاء الله تعالى... وأما ما جاء بواسطة القرآن، فله ثلاث صور كالآتى:

١ - إما أن يكون متصلاً باللفظ المجمل.

٢ - وإما أن يكون منفصلاً عنه، ولكن فى نفس السورة.

٣ - وإما أن يكون منفصلاً عنه، فى سورة أخرى.

فمثال ما جاء متصلاً بالمجمل عقبه مباشرة.

أ - قوله تعالى: ﴿**وبشر الصابرين**﴾ بينهم بقوله: ﴿**الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون**﴾[١].

ب - وقوله تعالى ﴿**وبشر المخبتين**﴾ بينهم بقوله ﴿**الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون**﴾[٢].

جـ - وقوله تعالى ﴿**فيه آيات بينات**﴾ بينها بقوله ﴿**مقام إبراهيم**﴾[٣].

د - وقوله ﴿**إن الإنسان خلق هلوعًا**﴾ بينه بقوله ﴿**إذا مسه الشر جزوعًا، وإذا مسه الخير منوعًا**﴾[٤].

هـ - وقوله تعالى ﴿**وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود**﴾ فقد فسره قوله ﴿**من الفجر**﴾[٥].

أخرج البخارى ومسلم عن سهل بن سعد قال: نزلت ﴿وكلوا

---

(١) البقرة: ١٥٥، ١٥٦. (٢) الحج: ٣٤، ٣٥.
(٣) آل عمران: ٩٧. (٤) المعارج: ١٩ - ٢١.
(٥) البقرة: ١٨٧. ﷻ

واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾ ولم ينزل ﴿من الفجر﴾، وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود، ولا يزال يأكل ويشرب حتى يتبين رؤيتهما، فأنزل الله بعد ﴿من الفجر﴾ فعلموا أنه إنما يعنى بذلك بياض النهار[١].

و - ومن ذلك أيضًا قوله تعالى ﴿لا يستوى القاعدون من المؤمنين﴾ فقد بينها قوله ﴿غير أولى الضرر﴾، فقد نزلت الآية أولاً بدون ﴿غير أولى الضرر﴾ فلما شكا ابن أم مكتوم ضرارته نزل قوله تعالى ﴿غير أولى الضرر﴾.

فقد أخرج البخارى عن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ أملى عليه ﴿لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله﴾ فجاءه ابن مكتوم وهو يملُّها علىّ، قال يارسول الله، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت - وكان أعمى - فأنزل الله على رسوله ﷺ، وفخذه على فخذى، فثقلت علىّ، حتى خفت أن تُرَضَّ فخذى، ثم سُرِّى عنه، فأنزل الله ﴿غير أولى الضرر﴾[٢].

أما المجمل الذى انفصل عنه ما يبينه، ولكن فى السورة نفسها، فمثاله:

أ - قوله تعالى ﴿الطلاق مرتان﴾[٣]، فالطلاق هنا مجمل، هل هو الطلاق الرجعى، أم الذى لا تحل به، فجاءت الأخرى بعد ذلك، وهى قوله ﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد﴾[٤]، لتبين أن

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة البقرة، ومسلم في كتاب الصيام - باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة النساء.

(٣) البقرة: ٢٢٩. (٤) البقرة: ٢٣٠.

المراد بالطلاق فى الآية الأولى هو الطلاق الرجعى، وإلا لا نحصر الطلاق فى طلقتين فقط.

(ب) وقوله تعالى ﴿أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم﴾.
فالمستثنى المحرم مجمل، فسرته الآية الثالثة من السورة نفسها، وهى قوله تعالى ﴿حرمت عليكم الميتة والدم﴾ الآية[١].

(جـ) وقوله تعالى ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾ فإنه مجمل، لم يبين من يرث ومن لا يرث، فجاء قوله ﴿يوصيكم الله فى أولادكم...﴾ الآيات[٢]. ليبين الورثة ونصيب كل.

(د) وقوله تعالى ﴿ليبلونكم الله بشئ من الصيد﴾[٣]، فوقت الابتلاء فى الآية غير مبين، فأتى قوله تعالى ﴿لا تقتلوا الصيد وأنت حرم﴾[٤] ليبين هذا الوقت.

أما ما جاء مبينًا، ولكنه منفصل عن المجمل فى سورة أخرى فكثير، منه ما يلى:

أ - قوله تعالى ﴿مالك يوم الدين﴾[٥] بين بقوله ﴿وما أدراك ما يوم الدين، ثم ما أدراك ما يوم الدين، يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا والأمر يومئذ لله﴾[٦].

ب - وقوله تعالى ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾[٧] بين بقوله تعالى ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾[٨].

جـ - وقوله تعالى ﴿وهدوا إلى الطيب من القول﴾[٩] بين بقوله

---

(١) المائدة: ١، ٣.
(٢) النساء: الآيات: ٧، ١١، ١٢.
(٣) المائدة: ٩٤.
(٤) المائدة: ٩٥.
(٥) الفاتحة: ٤.
(٦) الانفطار: ١٧-١٩.
(٧) المائدة: ٥٤.
(٨) الفتح: ٢٩.
(٩) الحج: ٢٤.

﴿وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله﴾[١].

د - وقوله ﴿إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار﴾[٢] بين بقوله ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون﴾[٣]، فليس المراد كل الكفار، لأن بعضهم أسلم ومات على الإسلام.

هـ - وقوله ﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن﴾[٤] بين بقوله ﴿الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان﴾[٥].

و - وقوله ﴿لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾[٦]، بين بقوله تعالى ﴿تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون﴾[٧].

ز - وقوله ﴿يوم يبعثهم الله جميعًا فيحلفون له﴾[٨] بين بقوله ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾[٩].

إلى غير ذلك من الآيات التى أجملت فى سورة وبينت فى أخرى، وقد ذكرنا بعضها فى صدر هذا الحديث.

القراءات وبيان المجمل

ومن قبيل تفسير القرآن بالقرآن من زاوية بيان المجمل أن بعض القراءات المتواترة يبين بعضها بعضًا، ونقول المتواترة تحرزًا عن الشاذة التى يستدل بعض العلماء بها فى مجال التفسير فما ينبغى لنا أن نستعين بشئ لم تثبت قرآنيته فى هذا المجال الخطير، لأن تفسير القرآن بالقرآن يعنى تفسير كلام ثابت عن الله بكلام آخر ثابت عنه عز وجل،

---

(١) الأعراف: ٤٣. (٢) الزمر: ٣. (٣) يونس: ٩٦.
(٤) الفرقان: ٦٠. (٥) الرحمن: ١-٤. (٦) يونس: ٦٤.
(٧) فصلت: ٣٠. (٨) المجادلة: ١٨. (٩) الأنعام: ٢٣.

والقراءات الشاذة غير ثابتة عن الله سبحانه وتعالى.

ومن أمثلة التفسير بالقراءات المتواترة ما يأتى[١]:

١ - قوله تعالى: ﴿مالك يوم الدين﴾، قرأ الجمهور بحذف الألف من مالـك، وقرأ عاصـم والكسـائى ويـعقوب بـإثباتها، وكـل من القراءتين المتواترين متمم لمعنى الأخرى، مضيف إليـه ما يصلح معه أن تكون كل واحدة منهما بيانًا للأخرى من وجه.

إذ المالك هو المتصرف فى الأعيان المملوكة، كيف يشـاء، من المِلْك، بكسر الميم.

والمَلِك: هو المتصـرف بالأمر والنهى، فى المأمورين، مـن المُلْك، بضم الميم، فبينـهما عموم وخصوص من وجه على مـا حققه الآلوسى رحمه الله.

٢ - ومن ذلك أيضًا قراءة ابن كثير قولـه تعالى فى الموضع الأخير من سورة براءة ﴿وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار﴾ بزيادة مِنْ، مع قراءة الجمهور بحذفها فى هذا الموضع.

فإن فى قراءة الإثبات من البيان لقراءة الحـذف ما يمكن نظمه فى سلك بيان المجمل.

وذلك أن قراءة الحذف لا نص فـيها على مبتدأ جريـان الأنهار، بل كل ما فيها أن الأنـهار تجرى تحت الجنة، وهو أعم مـن أن يكون تحت الجنة هو مـنبع تلك الأنهـار، ومبتدأ جريانـها، وأن يكون منبـعها ومبتدؤها موضعًا آخر، يعلـم الله به، غاية الأمر أن جريانها تحت الجنة، فـأتت قراءة الإثبـات مبينـة لها، ونصـا فى أن منبـع تلك

---

(١) انظر دراسات فى مناهج المفسرين لأستاذنا الفاضل الدكتور إبراهيم خليفة: ٦١ وما بعدها.

الأنهار، ومبتدأ جريانها هو كذلك تحت الجنة.

٣ - ومن ذلك أيضًا قراءة حمزة والكسائى ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتثبتوا﴾[1]، مع قراءة الجمهور ﴿فتبينوا﴾، فإن فى قراءة الجمهور من البيان الزائد على قراءتهما ما لا يخفى على المتأمل.

وذلك أن التثبت هو كما يقول أهل اللغة والتفسير التوقف وطلب الثبات، والتأنى إلى أن يتضح الحال، أعم من أن يكون منشأ ذلك الاتضاح من الاستطلاع، وبذل الجهد فى التعرف.

على حين أن التبين هو - كما يقول أهل اللغة والتفسير كذلك - طلب البيان والتصفح.

فالقراءة به إذًا تقتضى عدم الاكتفاء بمجرد التوقف والتأنى إلى أن ينجلى الأمر، ولو بنفسه، بل أن نبذل نحن من الجهد فى طلب التجلى ما يحصله، ويعجل به». أ.هـ.

❊ ❊ ❊

(١) الحجرات: ٦.

المحتمل

ومما له صلة وثيقة للغاية بالمجمل «المحتمل»، بل لقد جعله بعضهم بإزاء هذاء المجمل.

قال ابن الحصار[١]:

«ومن الناس من جعل المجمل والمحتمل بإزاء شئ واحد، والصواب: أن المجمل: اللفظ المبهم، الذى لا يفهم المراد منه، والمحتمل: اللفظ الواقع بالوضع الأول على معنيين مفهومين فصاعداً، سواء كان حقيقة فى كلها أم بعضها.

قال: والفرق بينهما: أن المحتمل يدل على أمور معروفة، واللفظ مشترك متردد بينهما، والمبهم لا يدل على أمر معروف، مع القطع بأن الشارع لم يفوض لأحد بيان المجمل، بخلاف المحتمل». أ.هـ.

ومن أمثلة المحتمل

١ - قوله تعالى ﴿**ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة**﴾[٢]، فيحتمل الوقف على ﴿**قلوبهم**﴾ ثم الاستئناف بما بعده، ويحتمل الوقف على ﴿**سمعهم**﴾ على أنها معطوفة على ختم القلوب، والثانى أولى، ويرجح هذه الأولوية ما جاء فى سورة الجاثية، وهو قوله ﴿**وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة**﴾[٣].

٢ - ومنه قوله تعالى ﴿**إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك**

---

(١) كما فى الإتقان: ٢/ ٢٠.

(٢) البقرة: ٧. (٣) الجاثية: ٢٣.

من الغاوين﴾[١]، فالاستثناء يحتمل أن يكون متصلاً، ويحتمل أن يكون منفصلاً. فقوله ﴿عبادى﴾ يشمل المؤمنين والكافرين، وبناء عليه فالاستثناء يحتمل أن يكون متصلاً، لكن هناك آيات أخرى ترفع هذا الاحتمال، وتبين أنه منقطع، قال تعالى ﴿**إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً**﴾[٢]، فلم يستثن الغاوين، وكذلك قوله تعالى ﴿**إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون**﴾[٣]، يوضح من هم الذين للشيطان عليهم سبيل وسلطان.

أمور تعين على فهم المعنى عند الاحتمال

وعند احتمال الكلمة لأكثر من معنى فإن هناك أمام المفسر عدة أمور، يجب أن يستعين بها ليصل إلى المعنى المراد، ومن هذه الأمور ما يلى:

١ - **دلالة السياق:** وهذا من أعظم القرائن التى يستعان بها فى تعيين مراد المتكلم. ومن ذلك:

أ - قوله تعالى: ﴿**ذق إنك أنت العزيز الكريم**﴾[٤]، فالسياق يدل على أن الأمر هنا للتهكم، والمراد بالعزيز الكريم الذليل الحقير.

ب - وقوله تعالى: ﴿**اعملوا ما شئتم**﴾[٥] فليس المراد هنا الأمر بعمل أى شئ يحبه الإنسان ويستطيبه، ولكن الأمر هنا للتهديد والوعيد، يعين على ذلك سياق الكلام، حيث جاء هذا الأمر

---

(١) الحجر: ٤٢. (٢) الإسراء: ٦٥. (٣) النحل: ٩٩، ١٠٠.
(٤) الدخان: ٤٩. (٥) فصلت: ٤٠.

فى قوله تعالى ﴿إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى فى النار خير أمن يأتى آمنًا يوم القيامة اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير﴾.

٢ - رد الكلمة لضدها: مثاله قوله تعالى ﴿ولا تطع منهم آثمًا أو كفورًا﴾(١)، فالمعنى ﴿ولا كفورًا﴾.

وكيفية الوصول إلى المعنى المذكور أن نرد النهى الوارد فى هذه الآية إلى ضده، أى إلى الأمر، فيقال أطع الآثم منهم أو الكفور، أى أطع أحدهما، فإذا أريد استعمال هذا المعنى ولكن فى النهى، يكون المراد: ولا تطع أحدًا منهما.

قال أبو السعود فى تفسير هذه الآية: «و «أو» للدلالة على أنهما سيان، فى استحقاق العصيان والاستقلال به»(٢).

٣ - معرفة سبب النزول: وهو من أهم الأمور فى تعيين المراد، مثاله قوله تعالى ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرًا فإن الله شاكر عليم﴾(٣).

فهذه الآية قد يفهم منها أن السعى بين الصفا والمروة ليس بركن من أركان الحج والعمرة، وقد فهم عروة بن الزبير ذلك بالفعل، ودارت بينه وبين السيدة عائشة رضى الله عنهما مناقشة فى ذلك.

أخرج البخارى فى صحيحه عن عروة أنه قال: سألتُ عائشة رضى الله عنها فقلت لها أرأيت قول الله تعالى ﴿إن الصفا والمروة من شعائر

---

(١) الإنسان: ٢٤.

(٢) تفسير أبى السعود: ٩/ ٧٥.

(٣) البقرة: ١٥٨.

الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾ فوالله ما على أحد جناح أن لا يطوف بالصفا والمروة.

قالت: بئس ما قلت يا ابن أختى، إن هذه لو كانت كما أولتها عليه كانت لا جناح عليه أن لا يتطوف بهما، ولكنها أنزلت لمناة الطاغية التى كانوا يعبدونها عند المُشَلَّل، فكان من أَهَلَّ يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة، فلما أسلموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، قالوا يارسول الله إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة، فأنزل الله تعالى ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ الآية، قالت عائشة رضى الله عنها: وقد سَنَّ رسول الله ﷺ الطواف بينهما، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما»[١].

٤ - ما يتصل بالكلمة من شرط أو خبر: ونحو ذلك. مثاله قوله تعالى - ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعًا﴾[٢].

فقوله ﴿من كان يريد العزة﴾ يحتمل معنيين:

أ - من أراد أن تكون له العزة.

ب - من أراد أن يعلم لمن تكون العزة.

فيأتى ما بعده وهو قوله ﴿فلله العزة جميعًا﴾ ليبين أن المعنى الثانى هو المراد.

إلى غير ذلك من الأمور التى يمكن معرفتها من خلال المصنفات فى هذا الموضوع من علوم القرآن[٣].

* * *

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الحج، باب وجوب الصفا والمروة.

(٢) فاطر: ١٠.

(٣) انظر على سبيل المثال: البرهان للزركشى ٢/ ٣٣٤ - ٣٤٠.

المبحث الثالث

حمل العام على الخاص

ومن تفسير القرآن بالقرآن: حمل العام على الخاص. ولكن ما المراد بكل من العام والخاص؟

أما العام: فقد عرفه أبو حامد الغزالى فى المستصفى بقوله:

«العام: عبارة عن اللفظ الواحد، الدال من جهة واحدة على شيئين فصاعداً، مثل الرجال، والمشركين، ومن دخل الدار فأعطه درهماً»(١).

وعرفه الآمدى فى الإحكام بقوله:

«هو اللفظ الواحد، الدال على مسميين فصاعداً، مطلقاً معاً»(٢).

وعرفه السرخسى بقوله:

«كل لفظ ينتظم جمعاً من الأسماء، لفظاً أو معنى، فلفظاً مثل زيدون، ومعنى مثل مَنْ وما، وما أشبههما»(٣).

وعرفه السيوطى بقوله: «اللفظ الذى يستغرق الصالح له من غير حصر»(٤).

أما الخاص: فيطلق - كما قال الآمدى - على اللفظ الواحد، الذى لا يصلح مدلوله لاشتراك كثيرين فيه، كأسماء الأعلام، مثل زيد وعمرو، ونحوه(٥).

وعرفه السَّرْخَسِيُّ بقوله: «كل لفظ موضوع لمعنى معلوم على

---

(١) المستصفى: ٢/ ٣٢.　　(٢) الإحكام: ٢/ ٥٤.

(٣) أصول السرخسى: ١/ ١٢٥ - ط. دار الكتاب العربى بالقاهرة.

(٤) الإتقان: ٢/ ١٤.　　(٥) الإحكام: ٢/ ٥٥.

الانفراد، وكل اسم لمسمى معلوم»[١].

أما التخصيص فهو: «صرف اللفظ عن جهة العموم إلى جهة الخصوص»[٢].

صيغ العام

ولهذا العام صيغ متعددة، أبرزها ما يلى:

١ - الألفاظ المؤكدة، مثل: كل وجميع، سواء أكانت فى بداية الكلام مثل: ﴿إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدًا﴾[٣]، أم كانت تابعة لما قبلها، مثل ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾[٤].

٢ - ألفاظ الجموع، المعرفة مثل: الرجال والمشركين، والمنكرة مثل رجال ومشركين.

٣ - النكرة الموصوفة بوصف عام، مثل قوله تعالى ﴿ولعبد مؤمن خير من مشرك﴾[٥].

٤ - المفرد الذى دخل عليه (أل)، لا للتعريف، مثل ﴿الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾[٦]، و ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾[٧] و ﴿إن الإنسان لفى خسر﴾[٨] بدليل الاستثناء بعده.

٥ - النكرة فى سياق النفى والشرط والنهى. مثل: ﴿وإن من أمة إلا

---

(١) أصول السرخسى: ١/ ١٢٤، ١٢٥.

(٢) الإحكام للآمدى: ٢/ ١١٦ - ط. محمد صبيح.

(٣) مريم: ٩٣. (٤) الحجر: ٣. (٥) البقرة: ٢٢١.

(٦) النور: ٢. (٧) المائدة: ٣٨. (٨) العصر: ٢.

خلا فيها نذير﴾[١] و ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله﴾[٢]، ومثل ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبدًا﴾[٣].

٦ - اسم الجمع المضاف، مثل ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾[٤] أى لكل العباد.

٧ - اسم الجنس المضاف، مثل ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره﴾[٥] فالمعنى: كل أمره.

٨ - الأسماء الموصولة (الذى، والتى) ومثناهما وجمعهما، مثل: ﴿والذى جاء بالصدق وصدق به﴾[٦]، فإن المراد به كل من اتصف بذلك، بدليل أن خبره جاء جمعًا ﴿أولئك هم المتقون﴾. ومثل ﴿واللذان يأتيانها منكم فآذوهما﴾[٧]، ومثل ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾[٨]، ومثل ﴿واللائى يئسن من المحيض﴾[٩]، و ﴿واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم﴾[١٠].

٩ - أى، وما، ومن، سواء أكانت استفهامية أم شرطية أم موصولة، مثل: ﴿أيًا ما تدعو فلها الأسماء الحسنى﴾[١١] و ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾[١٢] و ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون﴾[١٣].

---

(١) فاطر: ٢٤. (٢) التوبة: ٦. (٣) التوبة: ٨٤.
(٤) الزمر: ٧. (٥) النور: ٦٣. (٦) الزمر: ٣٣.
(٧) النساء: ١٦. (٨) البقرة: ٨٢. (٩) الطلاق: ٤.
(١٠) النساء: ١٥. (١١) - الإسراء: ١١٠. (١٢) النساء: ٣.
(١٣) الأنعام: ١٦٠.

أقسام العام

ينقسم العام إلى ثلاثة أقسام:

١ - العام الذى يراد به العموم، وهو ما قامت القرائن على نفى احتمال تخصيصه، وهو نوعان، عام فى الأحكام الفرعية وعام فى غيرها، والأول عزيز وجوده، إذ ما من عام فى الأحكام إلا وربما خصص.

فمثلاً قوله تعالى ﴿حرمت عليكم الميتة﴾[١] خص منه المضطر كما خص منه السمك والجراد.

أما الثانى فوجوده كثير، مثل: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾[٢]، ومثل ﴿إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً﴾[٣] ومثل ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً﴾[٤].

وبهذا التقسيم الذى قسمناه للعام الذى يراد به العموم نستطيع أن نجمع بين قولى الزركشى، وجلال الدين البلقينى، حين حديثهما عن هذا القسم، حيث قال الزركشى: «إنه كثير فى القرآن»[٥] بينما قال البلقينى عنه «إنه عزيز»[٦]، فتحمل عبارة الزركشى على غير ما فى الأحكام الفرعية وتحمل عبارة البلقينى على الأحكام الفرعية.

٢ - القسم الثانى: العام المراد به الخصوص، ومن أمثلته:

أ - قوله تعالى ﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء﴾[٧] فالمراد من الناس والسفهاء هنا شخص

---

(١) المائدة: ٣. (٢) يونس: ٢٦. (٣) مريم: ٩٣.
(٤) الكهف: ٣٠. (٥) البرهان: ٢/٣٤٨. (٦) كما فى الإتقان: ٢/١٦.
(٧) البقرة: ١٣.

واحد، وهو عبد الله بن سلام.

ب - قوله تعالى ﴿**الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم**﴾[١] فالمراد من الناس فى الموضع الأول فرد واحد، وهو نعيم بن مسعود الأشجعى، حيث أراد تثبيط المؤمنين عن ملاقاة أبى سفيان.

جـ - وقوله تعالى ﴿**أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله**﴾[٢]، فالمراد من الناس هنا فرد واحد وهو رسول الله ﷺ، حيث حسدوه على النبوة.

٣ - **القسم الثالث**: العام المخصوص بمخصص آخر. وهذا المخصص إما أن يكون متصلاً بهذا العام الذى خصصه، وإما أن يكون منفصلاً فى مكان آخر.

وهذا القسم الثالث لنا وقفة معه ولكن بعد أن نفرق بينه وبين الذى قبله، حتى لا يلتبس الأمر على البعض.

* * *

(١) آل عمران: ١٧٣.

(٢) النساء: ٥٤.

الفرق بين العام الذى أريد به خاص والعام المخصوص

قد يظن البعض أن القسمين الثانى والثالث شئ واحد، بينما هما فى الحقيقان شيئان، وبينهما عدة فروق.

وأهم الفروق بينهما ما يلى[١]:

١ - أن الأول لم يرد شموله لجميع الأفراد، لا من جهة تناول اللفظ ولا من جهة الحكم، بل هو ذو أفراد، استعمل فى فرد منها.

والثانى أريد عمومه وشموله لجميع الأفراد، من جهة تناول اللفظ لهما، لا من جهة الحكم.

٢ - أن الأول مجاز قطعًا، لنقل اللفظ عن موضوعه الأصلى، بخلاف الثانى، فإن فيه مذاهب، أصحها أنه حقيقة.

٣ - أن قرينة الأول عقلية، والثانى لفظية.

٤ - قرينة الأول لا تنفك عنه، وقرينة الثانى قد تنفك عنه.

٥ - أن الأول يصح أن يراد به واحد اتفاقًا، والثانى فيه خلاف.

تخصيص العام

قلنا إن العام قد يخصص بمتصل، أو بمنفصل، ولنفرد لكل كلامًا.

المخصص المتصل

وهو خمسة أقسام..

الأول: الاستثناء

وفى تعريفه اختلاف بين العلماء، ولعل الراجح من أقوالهم ما وقع عليه اختيار الآمدى، حيث يقول:

---

(١) انظر الاتقان: ٢/١٦، ١٧.

«والمختار فى ذلك أن يقال: الاستثناء عبارة عن لفظ متصل بجملة، لا يستقل بنفسه، دال بحرف «إلا» أو أخواتها، على أن مدلوله غير مراد مما اتصل به، ليس بشرط، ولا صفة، ولا غاية»(١).

وصيغه كثيرة، أشهرها: إلا، وغير، وسوى، وخلا، وماخلا، وعدا، وما عدا، وحاشا.

ويجوز الاستثناء من الاستثناء، كقو القائل لى عنده عشرة دنانير إلا ثلاثة، إلا اثنين، ويدل على صحة ذلك قوله تعالى **﴿إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾** إلى قوله تعالى **﴿إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين، إلا امرأته﴾**(٢)، وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء، كما قال الآمدى(٣).

شروط صحة الاستثناء

ولصحة الاستثناء شروط، نوجز القول فيها كالآتى(٤):

١ - أن يكن متصلاً بالمستثني منه حقيقة، من غير تخلل فاصل بينهما.

أو أن يكون فى حكم المتصل، وهو ما لا يعد المتكلم به آتيا به بعد فراغه من كلامه الأول عرفًا، وإن تخلل بينهما فاصل، بانقطاع النفس، أو سعال مانع من الاتصال حقيقة.

ونقل عن ابن عباس أنه كان يقول بصحة الاستثناء المنفصل، وإن طال الزمان شهرًا، أو سنة، أو إلى العمر كله(٥).

---

(١) الإحكام: ٢/ ١٢١.

(٢) الحجر: ٥٨ - ٦٠.

(٣) انظر قوله هذا فى الإحكام: ٢/ ١٢٢.

(٤) انظر: الإحكام للآمدى: ٢/ ١٢٢، وإرشاد الفحول ١٤٩.

(٥) ذهب بعض العلماء إلى استبعاد هذا القول عن ابن عباس. انظر فواتح الرحموت ١/ ٣٢١.

وذهب بعض أصحاب مالك إلى جواز تأخير الاستثناء لفظًا، لكن مع إضمار الاستثناء متصلاً بالمستثنى منه، ويكون المتكلم به مدينًا فيما بينه وبين الله تعالى.

وحجة القائلين بضرورة الاتصال، من ثلاثة أوجه:

الأول: ما روى عن النبى ﷺ أنه قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها فليأتها وليكفر عن يمينه»(١).

ولو كان الاستثناء المنفصل صحيحًا لأرشد النبى ﷺ إليه، لكونه طريقًا مخلصًا للحالف، لأن الاستثناء أيسر وأسهل من التكفير.

الثانى: أن أهل اللغة لا يعدون ذلك كلامًا منتظمًا، ولا معدودًا من كلام العرب.

الثالث: لو قيل بصحة الاستثناء المنفصل لما علم صدق صادق، ولا كذب كاذب، ولا حصل وثوق بيمين، ولا وعد ولا وعيد، ولا حصل الجزم بصحة عقد نكاح، وبيع وإجارة، ولا لزوم معاملة أصلا، لإمكان الاستثناء المنفصل، ولو بعد حين، ولا يخفى ما فى ذلك من التلاعب وإبطال التصرفات الشرعية، وهو محال.

الشرط الثانى لصحة الاستثناء: أن يكون غير مستغرق، فإن كان مستغرقًا فهو باطل بالإجماع، كما حكاه جماعة من المحققين منهم الرازى فى المحصول.

الشرط الثالث: أن يلى الكلام بلا عاطف، فأما إذا وليه بحرف العطف نحو عندى له عشرة دراهم وإلا درهمًا، أو فإلا درهمًا كان لغوًا.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب (١١-١٣).

الاستثناء من الإثبات ومن النفى

اتفق العلماء على أن الاستثناء من الإثبات نفى، أما الاستثناء من النفى فذهب الجمهور إلى أنه إثبات، مثل ﴿إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾[١]. وذهب الحنفية إلى القول بالواسطة، بمعنى أن لا يكون إثباتًا ولا نفيًا، وهذا قول عجيب، بل باطل، لما يترتب عليه من قلب الحقائق، والخروج عن قواعد اللغة، والمألوف عما يقصده المتكلمون.

قال الشوكانى: «والحق ما ذهب إليه الجمهور، ودعوى الواسطة مردودة، على أنها لو كان لها وجه لكان مثل ذلك لازمًا فى الاستثناء من الإثبات، واللازم باطل بالإجماع، فالملزوم مثله.

وأيضًا نقل الأئمة عن اللغة يخالف ما قالوه، ويرد عليه، ولو كان ما ذهبوا إليه صحيحًا لم تكن كلمة التوحيد توحيدًا فإن قولنا لا إله إلا الله هو استثناء من نفى»[٢].

الاستثناء بعد جمل متعاطفة

اختلف العلماء فى الاستثناء الوارد بعد جمل متعاطفة، كقوله تعالى ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدًا وأولئك هم الفاسقون، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾[٣].

فذهب الشافعى وأصحابه إلى أن الاستثناء يعود إلى جميعها ما لم يخصه دليل، ونسب هذا القول إلى مالك وأصحابه ولأحمد أيضًا،

---

(١) الحجر: ٤٢.

(٢) إرشاد الفحول: ١٤٩.

(٣) النور: ٤، ٥.

وذهب أبو حنيفة وجمهور أصحابه إلى عوده إلى الجملة الأخيرة، إلا أن يقوم دليل على التعميم.

ففى هذه الآية مثلاً يتفق الجميع على أن الاستثناء لا يسقط حد القذف، أما عدم قبول الشهادة والوصف بالفسق فيرى الشافعية والمالكية والحنابلة أن الاستثناء وهو التوبة يجعل القاذف مقبول الشهادة، ويرفع عنه وصف الفسق، أما الحنفية فيقولون: إن التوبة لا ترفع إلا الجملة الأخيرة فقط، وهى الوصف بالفسق[١].

قال الآمدى: «والمختار أنه مهما ظهر كون الواو للابتداء فالاستثناء يكون مختصًا بالجملة الأخيرة، وحيث أمكن أن تكون الواو للعطف أو الابتداء فالواجب إنما هو الوقف»[٢].

التخصيص بالشرط

والمراد بالشرط أنه ما يتوقف عليه الوجود، ولا دخل له فى التأثير والإفضاء.

وهذا اختيار من تعريفات متعددة للعلماء، اعتبره الشوكانى أحسن ما قيل فى حده[٣].

مثاله قوله تعالى ﴿فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً﴾[٤] فلا يجب على السيد مكاتبة عبده إلا بالشرط المذكور[٥].

ضرورة اتصال الشرط بالمشروط

وكما اشترط فى صحة الاستثناء ضرورة الاتصال، فكذلك هنا لابد من اتصال الشرط بالمشروط.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير لسورة النور، وإرشاد الفحول: ١٥٠.

(٢) الإحكام: ١٣٣. (٣) إرشاد الفحول: ١٥٣.

(٤) النور: ٣٣.

(٥) فتح القدير للشوكانى: ٤/ ٣٤.

قال الآمدى: «لابد من اتصاله بالمشروط لما تقدم فى الاستثناء، وأنه يجوز تقديمه على المشروط وتأخيره، وإن كان الوضع الطبيعى له إنما هو صدر الكلام، والتقدم على المشروط لفظًا، لكونه متقدمًا عليه فى الوجود طبعًا»(١).

الشرط مع الجمل المتعددة

اختلف العلماء فى الشرط الداخل على الجمل المتعددة، هل يرجع إليها كلها، أو إلى ماذا؟

فذهب الإمامان أبو حنيفة والشافعى إلى رجوعه إلى الكل، وذهب بعض النحاة إلى أنه يختص بالجملة التى تليه، حتى إذا كان متأخرًا اختص بالجملة الأخيرة، وإن كان متقدمًا اختص بالجملة الأولى، واختار بعضهم التوقف، كما فى مسألة الاستثناء(٢).

التخصيص بالصفة

ومن مخصصات العام المتصلة، التخصيص بالصفة ولكن قد تأتى الصفة عقيب شئ واحد، مثل طالب ذكى، وقد تأتى عقيب شيئين، فإن أتت عقيب شئ واحد فلا ريب فى عودها إليه، وإن أتت عقيب شيئين فهل تعود إليهما معًا، أم إلى المتأخر فقط؟ عن هذا يقول الرازى فى المحصول:

«إن أتت عقيب شيئين إما أن يكون أحدهما متعلقًا بالآخر، كقولك أكرم العرب والعجم المؤمنين، فههنا تكون عائدة إليهما، وإما أن لا يكون كذلك، كقولك أكرم العلماء وجالس الفقهاء الزهاد، فههنا

---

(١) الإحكام: ٢/١٤١.

(٢) المرجع السابق وإرشاد الفحول ١٥٣.

الصفة عائدة إلى الجملة الأخيرة»[١].

ونص الآمدى على أن الكلام فى التخصيص بالصفة الواردة بعد أكثر من شئ كالكلام فى الاستثناء، أى أن البعض قد ذهب إلى عودها إلى جميع الأشياء، بينما ذهب البعض إلى اقتصارها على الملاصق لها[٢].

التخصيص بالغاية

ومن مخصصات العام المتصلة الغاية، وهى:

«نهاية الشئ المقتضية لثبوت الحكم قبلها وانتفائه بعدها»[٣].

ألفاظها

ولها لفظان: (حتى) و (إلى)، مثل قوله تعالى: ﴿**ولا تقربوهن حتى يطهرن**﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿**فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق**﴾[٥].

الغاية الواقعة بعد جملة أو جمل

الغاية إما أن تكون مذكورة عقب جملة واحدة، أو جمل متعددة، وفى الأول: إما أن تكون الغاية واحدة، وإما أن تكون متعددة.

فإن كانت واحدة، مثل: أكرم عليًا إلى أن يتخرج فى الجامعة، فإن الإكرام يختص بما قبل التخرج، لا بما بعده، ولولا هذه الغاية لعم الإكرام ما قبل التخرج وما بعده.

وإن كانت متعددة: فلا يخلو، إما أن تكون على الجمع، وإما أن تكون على البدل.

فالأول: كقولنا أكرم عليًا إلى أن يتخرج فى الجامعة ويتسلم

---

(١) المحصول للرازى نقلاً عن إرشاد الفحول: ١٥٣.

(٢) انظر الإحكام ٢/ ١٤٢. (٣) انظر إرشاد الفحول: ١٥٤.

(٤) البقرة: ٢٢٢. (٥) المائدة: ٦.

وظيـفة، فمـقتضـى ذلك استمـرار إكرامه إلـى تمام الغـايتيـن دون ما بعدهما.

والثانى: مثل قولنا أكرم عليًا إلى أن يتخرج فى الجامعة أو يتكسب من عمل، فـمقتضى ذلك استمـرار الإكرام إلى انتهاء إحدى الغـايتين أيهما كانت دون الأخرى.

أما إذا كانـت الغاية مـذكورة عقب جـمل متعـددة، فما قيـل فى الاستثناء، من حيـث الاختصاص بما قبله، أو العود إلـى جميع الجمل يقال هنا، سواء أكـانت الغاية واحدة أم متعددة، علـى الجمع، أم على البدل.

هل تدخل الغاية فى المغَيَّا أم لا تدخل

اختلف العلماء فى ذلك على مذاهب[1]:

الأول: وهو قول الجمهور: أنه لا تدخل.

الثانى: أنها تدخل.

الثالث: إن كانت من جنسه دخلت، وإلا فلا.

الرابع: إن تميزت عما قبلها بالحس نحو ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾[2] لم تدخل، وإن لـم تتميز بالحـس مثل ﴿وأيديكم إلى المرافق﴾[3] دخلت الغاية، وهى المرافق، ورجح هذا الفخر الرازى.

الخامس: إن اقترنت بما لم يدخل نحو: بعتك من هذه الشجرة إلى هذه الشجرة لم تدخل، وإن لم تقـترن جاز أن تكون تحديدًا، وجاز أن تكون بمعنى مع.

السادس: الوقف.

---

(١) انظر إرشاد الفحول ١٥٤.

(٢) البقرة: ١٨٧. (٣) المائدة: ٦.

وهذه المذاهب فى غاية الانتهاء، أما غاية الابتداء، ففيها مذهبان الدخول وعدمه.

التخصيص ببدل البعض من الكل

ومن مخصصات العام أيضًا المتصلة بدل البعض من الكل، مثل قوله تعالى ﴿ثم عموا وصموا كثير منهم﴾[1].

وقوله تعالى ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾[2].

ومن مخصصات العام المتصلة أيضًا

أ - التخصص بالحال، مثل: أكرم من جاءك مؤدبًا.

ب - التخصيص بالظرف والجار والمجرور، مثل أكرم من قابلته يوم الجمعة، وأكرم من أتاك فى دارك.

جـ - التخصيص بالتمييز، مثل: لزيد عندى خمسون درهمًا، فقد خصص العدد بالدراهم.

المخصص المنفصل

أما المخصص القرآنى المنفصل فمن أمثلته:

أ - قوله تعالى ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾[3]، حيث خصص قوله تعالى ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجًا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾[4]، لأن الأزواج هنا عام فى الحوامل وغيرهن.

ب - قوله تعالى ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾[5]،

---

(١) المائدة: ٧١. (٢) آل عمران: ٩٧. (٣) الطلاق: ٤.

(٤) البقرة: ٢٣٤. (٥) المائدة: ٥.

حيث خصص قوله تعالى ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾[١]، فالمشركات عام يشمل المشركات من أهل الكتاب ومن غيرهن.

جـ - وقوله تعالى ﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾ الآية[٢]، حيث خصص قوله تعالى ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾[٣]. وغيره كثير فى القرآن.

وإنما حمل العام على الخاص المنفصل، لأنه إذا اجتمع نصان فى القرآن، أحدهما عام والآخر خاص، وتعذر الجمع بينهما، فإما أن يعمل بالعام ويترك الخاص، وإما أن يعمل بالخاص مطلقًا.

وإن أعملنا الخاص لا يلزم منه إبطال العام مطلقًا، لإمكان العمل فيما خرج عنه، وعلى ذلك فالعمل بالخاص أولى من العمل بالعام.

* * *

(١) البقرة: ٢٢١. (٢) النساء: ٢٣. (٣) النساء: ٣.

المبحث الرابع

حمل المطلق على المقيد

ومن تفسير القرآن بالقرآن: حمل مطلقه على مقيده.

والمطلق عبارة عن: النكرة في سياق الإثبات، أو هو اللفظ الدال على مدلول شائع في جنسه، مثل رقبة، وعبد ونحوهما.

والمقيد يطلق باعتبارين:

الأول: ما كان من الألفاظ الدالة على مدلول معين، كزيد وعمرو، وهذا الرجل، ونحوه.

والثاني: ما كان من الألفاظ دالاً على وصف مدلوله المطلق، بصفة زائدة عليه، كقولك دينار مصري، ودرهم مكي.

وهذا النوع مطلق من وجه، ومقيد من وجه[1].

والفرق بين العام والمطلق أن المطلق يدل على فرد شائع، أو أفراد شائعة في جنسه لا على جميع الأفراد، بينما العام يدل على شمول اللفظ لجميع أفراده، من غير حصر.

حكم المطلق والمقيد

الكلام إما أن يكون مطلقًا، وإما أن يكون مقيدًا، والمطلق إما أن يكون باقيًا على إطلاقه، وإما أن يكون هناك ما يقيده، والمقيد - كما هو ظاهر - باق على تقييده.

قال الزركشي: «إن وجد دليل على تقييد المطلق صير إليه، وإلا فلا، والمطلق على إطلاقه، والمقيد على تقييده»[2].

---

(١) انظر الإحكام للآمدي: ٢/ ١٦٢، وإرشاد الفحول: ١٦٤.

(٢) البرهان: ٢/ ١٤٢.

المطلق الباقي على إطلاقه

مثاله ما جاء في صيام كفارة اليمين، وقضاء رمضان في قوله تعالى: ﴿فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضًا أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾[2].

فهذا الإطلاق يظل على إطلاقه، فلا يقيد بتتابع، أو بتفريق فيجوز هذا ويجوز ذاك.

المقيد الباقي على تقييده

مثاله ما جاء في تقييد صوم كفارة القتل والظهار بالتتابع، وما جاء في تقييد كفارة التمتع بالتفريق، ففي كفارة القتل الخطأ والظهار يقول تعالى ﴿فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين﴾[3] وفي كفارة التمتع يقول: ﴿فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم﴾[4].

المطلق المقيد

إذا صدر الخطاب مطلقًا في موضع، ومقيدًا في موضع آخر فذلك على أربعة أقسام[5]:

الأول: أن يختلفا في السبب والحكم، فلا يحمل أحدهما على الآخر بالاتفاق.

الثاني: أن يتفقا في السبب والحكم، فيحمل أحدهما على الآخر، كما لو قال: إن ظاهرت فأعتق رقبة، وقال في موضع آخر: إن ظاهرت فاعتق رقبة مؤمنة.

---

(١) المائدة: .　　(٢) البقرة: ١٨٥.　　(٣) النساء: ٩٢، والمجادلة ٤.

(٤) البقرة: ١٩٦.

(٥) نقلاً عن إرشاد الفحول: ١٦٥.

الثالث: أن يختلفا فى السبب دون الحكم، كإطلاق الرقبة فى كفارة الظهار، وتقييدها بالإيمان فى كفارة القتل الخطأ فالحكم واحد، وهو وجوب الإعتاق فى الظهار والقتل، مع كون الظهار والقتل سببين مختلفين، فهذا القسم هو موضع الخلاف.

فذهب كافة الحنفية، وأكثر المالكية إلى عدم جواز التقييد، وذهب جمهور الشافعية إلى التقييد.

والذى نستطيع أن نرجحه هو القول بالحمل لما يستلزمه اتحادهما فى الحكم.

يقول الشوكانى: «ولا يخفاك أن اتحاد الحكم بين المطلق والمقيد يقتضى حصول التناسب بينهما بجهة الحمل، فالحق ما ذهب إليه القائلون بالحمل.

ومنه إطلاق الشهادة فى بعض المواضع، دون اشتراط عدالة الشهود، بينما جاء الاشتراط فى موضع آخر. فيحمل المطلق على المقيد، لأن العدالة شرط فى شهادة أى شهود، وإلا استوت شهادة الفاسق مع شهادة العدل، ولم يقل أحد بذلك.

الرابع: أن يختلفا فى الحكم نحو: اكس يتيمًا، وأطعم يتيمًا عالمًا، فلا خلاف فى أنه لا يحمل أحدهما على الآخر، بوجه من الوجوه، سواء أكانا مثبتين، أم منفيين، أم مختلفين، اتحد سببها أو اختلف».

شروط حمل المطلق على المقيد

لكى يحمل المطلق على المقيد لابد من تحقق الشروط الآتية[(١)]:

الشرط الأول: أن يكون المقيد من باب الصفات مع ثبوت الذوات فى الموضعين.

---

(١) نقلاً عن إرشاد الفحول: ١٦٦، ١٦٧.

فأما فى إثبات أصل الحكم من زيادة، أو عدد، فلا يحمل أحدهما على الآخر، وهذا كإيجاب غسل الأعضاء الأربعة فى الوضوء، مع الاقتصار على عضوين فى التيمم، فإن الإجماع منعقد على أنه لا يحمل إطلاق التيمم على تقييد الوضوء، حتى يلزم التيمم فى الأعضاء الأربعة، لما فيه من إثبات حكم لم يذكر.

الشرط الثانى: ألا يكون للمطلق إلا أصل واحد.

مثاله: إطلاق الشهادة فى البيوع وغيرها، واشتراط العدالة فيها فى الرجعة والوصية، فيحمل المطلق على المقيد، فتكون العدالة شرطًا فى كل شهادة. وكذا إطلاق الميراث فيما أطلق فيه، وتقييد ميراث الزوجين بقوله من بعد وصية يوصى بها أو دين، فيحمل المطلق على المقيد، ولا يوزع الميراث فى أى حالة إلا بعد تنفيذ الوصية وسداد الدين.

وفى ذلك يقول الزركشى رحمه الله:

«والضابط: أن الله تعالى إذا حكم فى شئ بصفة أو شرط، ثم ورد حكم آخر مطلقًا نظر:

فإن لم يكن له أصل يرد إليه إلا ذلك الحكم المقيد وجب تقييده به، وإن كان له أصل غيره لم يكن رده إلى أحدهما بأولى من الآخر»[(١)].

ومثال ما له أصل ثان: صوم كفارة اليمين، وقضاء رمضان، حيث جاء مطلقًا، دون تقييد بالتتابع، أو بالتفريق، بينما جاء صوم كفارة التمتع فى الحج مقيدًا بالتفريق، ثلاثة أيام فى الحج وسبعة بعد الرجوع، وجاء صوم كفارة القتل والظهار مقيدًا بالتتابع، فهذان أصلان، تقييد بالتفريق، وتقييد بالتابع فماذا نفعل فى إطلاق صوم

---

(١) البرهان: ٢/ ١٤.

كفارة اليمين وقضاء رمضان؟ إلى أى أصل من الأصلين يرد هذا الإطلاق؟ إلى التقييد بالتفريق أم إلى التقييد بالتتابع؟

هنا نقول يبقى هذا المطلق الذى له أصلان على إطلاقه، ولا يقيد بأحد القيدين، لأن أحدهما ليس بأولى من الآخر.

وعلى ذلك فيجوز فى هذا الصيام التتابع، ويجوز فيه التفريق.

الشرط الثالث من شروط حمل المطلق على المقيد:

أن يكون فى باب الأوامر والإثبات، أما فى جانب النفى والنهى فلا، فإنه يلزم منه الإخلال باللفظ المطلق، مع تناول النفى والنهى، وهو غير سائغ.

الشرط الرابع: أن لا يكون فى جانب الإباحة، لأنه لا تعارض حينئذ بين المطلق والمقيد، بل فى المطلق زيادة، لا يجوز إهمالها.

الشرط الخامس: أن لا يمكن الجمع بينهما إلا بالحمل، فإن أمكن الجمع بينهما بدون الحمل فإنه أولى من تعطيل ما دل عليه أحدهما.

الشرط السادس: ألا يكون المقيد ذكر معه قدر زائد يمكن أن يكون القيد لأجل ذلك القدر الزائد، فلا يحمل المطلق على المقيد ههنا.

الشرط السابع: أن لا يقوم دليل يمنع من التقييد، فإن قام دليل على ذلك فلا تقييد.

* * *

المبحث الخامس

الجمع بين ما يوهم ظاهره الاختلاف والتناقض

ومن تفسير القرآن بالقرآن الجمع بين ما يوهم التعارض من آياته.

فقد يجد المفسر آيتين أو أكثر يوجد بينهما تناقض واختلاف، وهذا التناقض والاختلاف إنما هو فى الظاهر فقط، لأن الاختلاف نوعان:

الأول: اختلاف حقيقى، وهو ما لا يمكن الجمع فيه بين الشيئين، بأى وجه من الوجوه، وذلك:

أ - لاختلاف القضيتين، فى الكم والكيف، والجهة.

ب - ولاتحادهما فى النسبة، من حيث الموضوع والمحمول؛ والزمان والمكان، والشرط، والإضافة، والجزء والكل، وفى القوة، وفى الفعل، والمفعول، والآله، والحال.

والمقصود من وحدة النسبة: أى نسبة المحمول للموضوع، حتى يرد النفى والإثبات على شئ واحد، فيقال عنهما إنهما متناقضان تناقضًا حقيقيًا، لا يمكن الجمع بينهما.

وهذا النوع الأول من الاختلاف، أى الاختلاف الحقيقى غير موجود فى القرآن على الإطلاق، لأن المتكلم بالقرآن هو الله، الذى أحاط علمًا بكل المخلوقات،، أفعالاً وأحوالاً وأقوالاً، ولا يغيب عنه مثقال ذرة فى الكون، فلا يمكن أن يتناقض مع نفسه بحال من الأحوال، وعلى ذلك فلا يتصور أن يتطرق التناقض إلى كلامه عز وجل، قال تعالى عن كتابه: ﴿**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد**﴾[1].

---

(١) فصلت: ٤٢

وقال عنه أيضـًا : ﴿ولو كان من عـند غير الله لوجدوا فيـه اختلافًا كثيرًا﴾[١].

النوع الثانى: اختلاف غـير حقيـقى، وهو الذى يـبدو للنـاظر فى بعض الآيات من أول نظرة سطحية لها، دون التدبر فيها وفيما جاء من آيات أخرى فى الموضوع نفسه.

فإذا دقق وبـحث فى زوايا المـوضوع لأمكنـه الجمع بيـن الآيات، والحكم بأنه لا تعارض إطلاقًا بين النصوص.

وهذا النوع موجود فى القرآن، ولا ينقص من قدره، بل يعتبر ميزة له، توضـع فى الميزان، حـيث اقتضـى النظم الـقرآنى وسيـاق الكلام التعبير بلفظ دون لفظ آخر.

قاعدة فى الاختلاف والتناقض

ولما قدمناه من نوعى الاختلاف والتناقض يضع العلماء قاعدة لذلك ليبينوا متى يكون تناقض، ومتى لا يكون.

يقول الكرمانى: «الاختلاف على وجهين، اختلاف تناقض وهو ما يدعو فيه أحد الشيئين إلى خلاف الآخر، وهذا هو الممتنع على القرآن، واختلاف تـلازم، وهو ما يوافـق الجانبيـن، كاختلاف وجـوه القراءة، واختـلاف مقاديـر السـور والآيات، واختـلاف الأحكام مـن النـاسخ والمنسوخ، والأمر والنهى، والوعد والوعيد»[٢] أ.هـ.

ويقول أبو بـكر الصيرفى: «جـماع الاختلاف والتنـاقض: أن كل كلام صح أن يـضاف بعض ما وقع الاسـم عليه إلى وجه مـن الوجوه فليس فيه تناقض.

---

(١) النسـاء: ٨٢.

(٢) الإتقان للسيوطى: ٢/ ٣١.

وإنما التناقض فى اللفظ ما ضاده من كل جهة، على حسب ما تقتضيه الأسماء، ولن يوجد فى الكتاب ولا فى السنة شئ من ذلك أبدًا، وإنما يوجد فيه النسخ فى وقتين، بأن يوجب حكمًا ثم يحله أو يحرمه، وهذا لا تناقض فيه.

وتناقض الكلام لا يكون إلا فى إثبات ما نفى، أو نفى ما أثبت، بحيث يشترك المثبت والمنفى فى الاسم، والحدث، والزمان، والأفعال، والحقيقة.

فلو كان الاسم حقيقة فى أحدهما، وفى الآخر مستعارًا، ونفى أحدهما وأثبت الآخر، لم يعد تناقضًا.

هذا كله فى الأسماء، وأما المعانى وهو باب القياس، فكل من أوجد علة وحررها، وأوجب بها حكمًا من الأحكام، ثم ادعى تلك العلة بعينها فيما يأباه الحكم فقد تناقض»[1].

الأسباب الموهمة للاختلاف والتناقض

ولكن ما الذى يسبب للقارئ السطحى هذا الاختلاف بين آى القرآن؟

هناك عدة أسباب، نذكر أبرزها فيما يلى[2]:

السبب الأول: وقوع المخبر به على أحوال مختلفة وتطويرات شتى، كقوله تعالى فى خلق آدم إنه ﴿من تراب﴾[3]، ومرة أخرى من ﴿حمإٍ مسنون﴾[4]، ومرة أخرى من ﴿طين لازب﴾[5]، ومرة من ﴿صلصال كالفخار﴾[6]، وهذه الألفاظ مختلفة، ومعانيها فى أحوال

---

(١) البرهان للزركشى: ٢/ ١٨٢، ١٨٣.

(٢) انظر فى ذلك: البرهان: ٢/ ١٨٣ - ١٩٢، والاتقان: ٢/ ٢٩، ٣٠.

(٣) آل عمران: ٥٩.	(٤) الحجر: ٢٦، ٢٨، ٣٣.

(٥) الصافات: ١١.	(٦) الرحمن: ١٤.

مختلفة، لأن الصلصال غير الحمإ، والحمأ غير التراب، إلا أن مرجعها كلها إلى جوهر واحد وهو التراب، ومن التراب تدرجت هذه الأحوال.

ومنه قوله تعالى عن عصا موسى: ﴿**فإذا هى ثعبان مبين**﴾[١]، وفى موضع ﴿**تهتز كأنها جان**﴾[٢]، والجان الصغير من الحيات، والثعبان الكبير منها، وذلك لأن خلقها خلق الثعبان العظيم، واهتزازها وحركاتها وخفتها كاهتزاز الجان وخفته.

السبب الثانى: اختلاف الموضوع، كإثبات السؤال ونفيه فى قوله تعالى ﴿**فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين**﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿**فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان**﴾[٤].

فقد حمل على اختلاف الأماكن، لأن فى القيامة مواقف كثيرة، ففى موضع يسأل ويناقش، وموضع آخر يرحم ويُلْطَف به، وموضع آخر يعنِّف ويوبِّخ وهم الكفار، وموضع آخر لا يعنف وهم المؤمنون.

ومن هذا القبيل قوله تعالى ﴿**ولا يكلمهم الله يوم القيامة**﴾[٥]، مع قوله ﴿**فوربك لنسألنهم أجمعين، عما كانوا يعملون**﴾[٦].

قيل: المنفى كلام التلطف والإكرام، والمثبت سؤال التوبيخ والإهانة فلا تنافى.

السبب الثالث: لاختلافهما فى جهتى الفعل، كقوله تعالى ﴿**فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى**﴾[٧].

أضيف القتل إليهم على جهة الكسب والمباشرة، ونفاه عنهم باعتبار

---

(١) الشعراء: ٣٢. (٢) القصص: ٣١. (٣) الأعراف: ٦.
(٤) الرحمن: ٣٩. (٥) البقرة: ١٤. (٦) الحجر: ٩٢، ٩٣.
(٧) الأنفال: ١٧.

التأثير، وكذلك إضافة الرمى إليه ﷺ ونفيه عنه.

ولأجل هذا ذهب أهل السنة والجماعة إلى أن الأفعال مخلوقة لله تعالى مكتسبة للآدميين.

السبب الرابع: لاختلافهما فى الحقيقة والمجاز، وهو ما يسمى عند المناطقة الاختلاف بالإضافة، كقوله تعالى ﴿**وترى الناس سكارى وما هم بسكارى**﴾(١). أى وترى الناس سكارى بالإضافة إلى أهوال القيامة مجازًا، وما هم بسكارى بالإضافة إلى الخمر حقيقة.

السبب الخامس: الاختلاف بوجهين واعتبارين، وهو الجامع للمفترقات.

كقوله تعالى ﴿**الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله**﴾(١)، مع قوله تعالى ﴿**إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم**﴾(٢) فقد يظن أنهما متناقضتان، بينما الأمر على خلاف ذلك تمامًا.

لأن الطمأنينة تكون بانشراح الصدر بمعرفة التوحيد والأنس به عز وجل، والوجل يكون من مهابته عز وجل، والخوف من الزيغ والذهاب عن الهدى، وقد جمع الله بينهما فى آية واحدة، حيث قال ﴿**الله الذى نزل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله**﴾(٣).

وهذا -ولله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم- كمثل من يدخل على ملك يحبه، فإنه يشعر بالأمان فى حضرته، كما يشعر أيضًا بالرهبة من مكانة هذا الملك، وبالخوف من صدور شئ منه يثير غضبه عليه، فلا تناقض بين الشعورين فى وقت واحد.

---

(١) الحج: ٢. (٢) الرعد: ٢٨.
(٣) الأنفال: ٢. (٤) الزمر: ٢٣.

المبحث السادس

معرفة الناسخ والمنسوخ

ومن تفسير القرآن بالقرآن، معرفة ناسخه ومنسوخه.

فقد ضم القرآن بين دفتيه ناسخًا ومنسوخًا، فأما المنسوخ فقد توقف العمل به، وأما الناسخ فيجب العمل به، ومن لم يعرف الناسخ من المنسوخ فإن الأحكام فى القضية الواحدة ستختلط عليه.

حيث يرى فيها إثباتًا ونفيًا، وتعارضًا وتناقضًا، فيذهب إلى القول بتعارض القرآن فيضل ويضل.

قال الزركشى: قال الأئمة: «.. ولا يجوز لأحد أن يفسر كلام الله إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ، وقد قال علىّ بن أبى طالب لقاص: أتعرف الناسخ والمنسوخ؟ قال: الله أعلم، قال: هلكت وأهلكت»[1].

ونحن فى هذا المقام - مقام تفسير القرآن بالقرآن، عن طريق معرفة ناسخه ومنسوخه - لا نود أن نقف على كل ما يتعلق بالنسخ، ولكن على بعض أمور خاصة، ليتضح لنا مدى أهمية هذا الأمر فى تفسير القرآن بالقرآن.

وهذه الأمور هى:

١ - تعريف النسخ لغة واصطلاحًا.

٢ - بيان ما يدخله النسخ وما لا يدخله.

٣ - شروط النسخ.

٤ - أنواعه.

---

(١) البرهان: ٢/١٥٨.

فإلى الحديث عن هذه الأمور.

تعريف النسخ

للنسخ معنى فى اللغة، ومعنى فى الاصطلاح[١].

أما فى اللغة فيطلق على:

أ - الإزالة، كقوله تعالى ﴿**فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته**﴾[٢]، وقول القائل نسخت الشمس الظل، ونسخت الريح أثر المشى، ونسخ الشيب الشباب.

ب - ويطلق على نقل الشئ، وتحويله من حالة إلى حالة، مع بقائه فى نفسه، ومنه قوله تعالى: ﴿**إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون**﴾[٣]. والمراد: نقل الأعمال إلى الصحف، أو من الصحف إلى غيرها، ومنه نسخ الكتاب، أى نقل ما فيه من مكان إلى مكان آخر، ومنه تناسخ المواريث، أى انتقالها من أناس إلى آخرين[٤].

أما فى الإصطلاح

فللعلماء فيه تعريفات متعددة، لم يخل تعريف منها - تقريبًا - من اعتراض عليه، ولعل أسلمها من الاعتراضات ما ذكره ابن الحاجب فى مختصر المنتهى[٥]، حيث قال:

---

(١) أى فى اصطلاح المتأخرين من الأصوليين، لا عند الصحابة والتابعين، لأنهم كانوا يطلقون النسخ على تقييد المطلق، وتخصيص العام، وعلى رفع الحكم الشرعى بدليل شرعى متأخر، انظر الموافقات للشاطبى: ٣/١٠٨، ١٩٠.

(٢) الحج: ٥٢. (٣) الجاثية: ٢٩.

(٤) انظر فى ذلك: لسان العرب (نسخ)، والأحكام للآمدى: ٢/٩٥.

(٥) كما فى إرشاد الفحول: ١٨٤.

«هو رفع الحكم الشرعى بدليل شرعى متأخر».

ما يدخله النسخ وما لا يدخله

يختلط الأمر على كثير من الناس، حينما لا يعرفون فى أى شئ يكون النسخ وفى أى شئ لا يكون؟ وبذلك يحكمون على آيات كثيرة بالنسخ، فى حين أنها غير منسوخة ومن خلال تعريفنا السابق للنسخ، يتبين أن النسخ لا يدخل إلا فى الأحكام التى جاءت عن طريق الأوامر والنواهى، والجمل الخبرية لفظًا، الإنشائية معنى.

فقوله تعالى: **﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفًا من الذين كفروا﴾**[1] خبر لفظًا، إنشاء معنى، لأن المعنى: ليقف الواحد أمام العشرة.

مع ملاحظة أن هذه الأحكام التى يتناولها النسخ هى ما كان من قبيل فروع العبادات والمعاملات، أما ما كان من قبيل العقائد وأصول العبادات والمعاملات، وأمهات الأخلاق، ومدلولات الأخبار المحضة فلا يدخلها النسخ.

أما العقائد: فلأنها حقائق لا تتغير، وثوابت لا تزول. أما أصول العبادات والمعاملات: فلأنها تنظم علاقة الناس بخالقهم، وعلاقة بعضهم ببعض، فلا يمكن الاستغناء عنها بحال من الأحوال.

أما أمهات الأخلاق: فلأن النفوس تزكو بها، وبدونها يرتع الناس فى مستنقعات الرذائل، ودركات القبائح فلا يتصور نسخها بحال.

أما مدلولات الأخبار المحضة، فلا يدخلها النسخ بحال أيضًا لما يترتب عليه من كذب الشارع فى أحد الخبرين وكذب الشارع محال،

---

(١) الأنفال: ٦٥.

فما يؤدى إليه محال، قال تعالى: ﴿ومن أصدق من الله قيلاً﴾[١].

شروط النسخ

اختلف العلماء فى الشروط التى لابد من مراعاتها حتى نقول بالنسخ، ولكنهم رغم هذا الاختلاف فإنهم اتفقوا على قدر مشترك من هذه الشروط.

قال الآمدى:

«أما المتفق عليه، فأن يكون الحكم المنسوخ شرعيًا، وأن يكون الدليل الدال على ارتفاع الحكم شرعيًا، متراخيًا عن الخطاب المنسوخ حكمه، وألا يكون الخطاب المرفوع حكمه مقيدًا بوقت معين»[٢].

وعلى ذلك فإنه لابد فى النسخ من الشروط الآتية:

١ - أن يكون المنسوخ حكمًا شرعيًا، ومعنى هذا ألا يكون حكمًا عقليًا، كالبراءة الأصلية، فلا يعتبر رفعها نسخًا، بل بإيجاب العبادات التى حلت محل البراءة منها، قال تعالى: ﴿**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً**﴾[٣].

٢ - أن يكون الدليل الدال على ارتفاع الحكم شرعيًا، ومعنى هذا أن لا يكون عن طريق الموت ونحوه، لأن الموت ليس بناسخ وإنما مزيل للتكليف.

٣ - أن يكون الناسخ متراخيًا عن المنسوخ، فلا يصح أن يكون مقترنًا به.

فإن المقترن كالصفة والشرط والاستثناء والغاية يعد تخصيصًا لا نسخًا،

---

(١) النساء: ١٢٢.

(٢) الإحكام: ٢/١٠٥.

(٣) الإسراء: ١٥.

فقوله تعالى ﴿إلى الليل﴾ من قوله ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾[(١)] لا يعد نسخًا للصيام، وإنما هو تخصيص للصيام بالنهار، وتحديد لمدته.

٤ - أن لا يكون المنسوخ مؤقتًا بوقت، فلو كان الحكم مؤقتًا بوقت لا يكون انقضاء وقته الذى وقت به نسخًا له.

٥ - أن يكون هناك تعارض حقيقى بين النصين، فإن أمكن الجمع بينهما بوجه من الوجوه، فلا داعى لإبطال نص من النصين.

٦ - أن يكون المنسوخ مما يجوز نسخه، فلا يجوز القول بنسخ شئ من العقائد، أو من الأمور التى تحدثنا عنها سابقًا، التى لا يدخلها النسخ.

أنواع النسخ

للنسخ أنواع من حيث: ١ - التلاوة والحكم.

٢ - ومن حيث كونه ببدل، أو بدون.

فأما النسخ من حيث التلاوة والحكم، فإنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١ - نسخ التلاوة والحكم. ٢ - نسخ التلاوة مع بقاء الحكم.

٣ - نسخ الحكم مع بقاء التلاوة.

فمثال نسخ الحكم والتلاوة معًا: ما ورد فى حديث عائشة رضى الله عنها قالت: «كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نسخن بخمس معلومات»[(٢)].

أما نسخ الحكم دون التلاوة، فهو كثير فى القرآن، وهو أكثر الأنواع الثلاثة، والذى كثر فيه قيل وقال.

---

(١) البقرة: ١٨٧.

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الرضاع باب (٦).

ومن أمثلته:

١ - قوله تعالى ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجًا وصية لأزواجهم متاعًا إلى الحول غير إخراج﴾[١] نسخ بقوله: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجًا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرًا﴾[٢].

٢ - قوله تعالى ﴿يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفًا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون﴾. نسخ بقوله ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفًا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين﴾[٣].

أما نسخ التلاوة مع بقاء الحكم: فمثاله ما روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال «كان فيما أنزل من القرآن الشيخ والشيخه إذا زنيا فارجموهما البته»[٤].

فحكم الرجم باق إلى يوم الدين، دلت عليه السنة القولية والعملية وسار على هديها الخلفاء الراشدون، ولفتوا الأنظار إلى أن النسخ إنما فى القراءة لا فى الحكم، وحذروا من التهاون فى شأن الرجم، والأحاديث فى ذلك مشهورة.

ومن أمثلة هذا القسم أيضًا حديث الرضاعة المذكور فى القسم الأول والذى يدل على أن العشر رضعات نسخت بخمس معلومات، فهذه الخمس أيضًا نسخت تلاوتها من القرآن، وبقى حكمها، ويدل

---

(١) البقرة: ٢٤٠. (٢) البقرة: ٢٣٤. (٣) الأنفال: ٦٥، ٦٦.

(٤) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الحدود، باب (٩)، وغير ابن ماجه.

على ذلك ثبوت هذا الحكم بالسنة.

أما النسخ من حيث كونه ببدل أو بدونه، فإنه ينقسم إلى هذين القسمين:

١ - **نسخ بغير بدل:** كما فى قوله تعالى ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة**﴾. فقد نسخ بقوله تعالى ﴿**أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله**﴾[١].

٢ - **نسخ ببدل:** والناسخ هنا إما أن يكون أخف على المكلف من المنسوخ، رحمة من الله وشفقة.

مثاله: نسخ تحريم الأكل والشرب والجماع بعد النوم فى ليل رمضان بإباحة ذلك، حيث قال تعالى ﴿**أحل لكم ليلة الصيام الرفث**﴾ الآية[٢]. وكنسخ وجوب ثبات الواحد أمام عشرة، بوجوب ثبات الواحد أمام الاثنين.

وإما أن يكون النسخ إلى أثقل، والحكمة منه التدرج فى التشريع والأخذ بيد الأمة رويدًا رويدًا، وعدم التعامل معها بأسلوب الطفرة - الذى لو حدث - ما نجح معها فى استئصال الأمراض المستعصية التى أشربتها قلوبهم.

ومثال هذا القسم:

١ - نسخ إباحة الخمر بتحريمها.

٢ - نسخ حد الزنا، الذى كان لا يعدو مجرد الحبس فى البيوت

---

(١) المجادلة: ١٢، ١٣. (٢) البقرة: ١٨٧.

والتعنيف، فقد نسخ ذلك بجلد غير المحصن مائة جلدة، ورجم المحصن.

٣ - نسخ صيام عاشوراء، بصيام رمضان كله، مع تخيير الصحيح المقيم بين الصيام والفدية مع الإفطار، ثم نسخ هذا التخيير بتعيين الصوم.

وإما أن يكون النسخ إلى مساو، كنسخ وجوب استقبال المسجد الأقصى، بوجوب استقبال المسجد الحرام.

والحكمة من هذا الابتلاء والاختيار، قال تعالى ﴿**وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله**﴾(١).

⁂ ⁂ ⁂

وهكذا نجد كثيراً من الآيات القرآنية تفسر كثيراً من أخواتها، إما عن طريق شرح موجزها، وإما بتبيين مجملها، وإما بتقييد مطلقها، وإما بتخصيص عامها، وإما ببيان نسخها، وإما بغير ذلك.

وهو عمل ليس بالهين، وإنما يحتاج لرجال توافرت فيهم شروط الاجتهاد، وأدوات التفسير.

ورحم الله شيخ مشايخنا فضيلة الأستاذ الدكتور محمد الذهبى حيث قال عن تفسير القرآن بالقرآن:

«وليس هذا عملاً آليًا لا يقوم على شئ من النظر، وإنما هو عمل يقوم على كثير من التدبر والتعقل، إذ ليس حمل المجمل على المبين، أو المطلق على المقيد أو العام على الخاص، أو إحدى القراءتين على

---

(١) البقرة: ١٤٣.

الأخرى بالأمر الهـين، الذى يدخل تحت مقدور كـل إنسان، وإنما هو أمر يعرفه أهل العلم والنظر خاصة»[1].

* * *

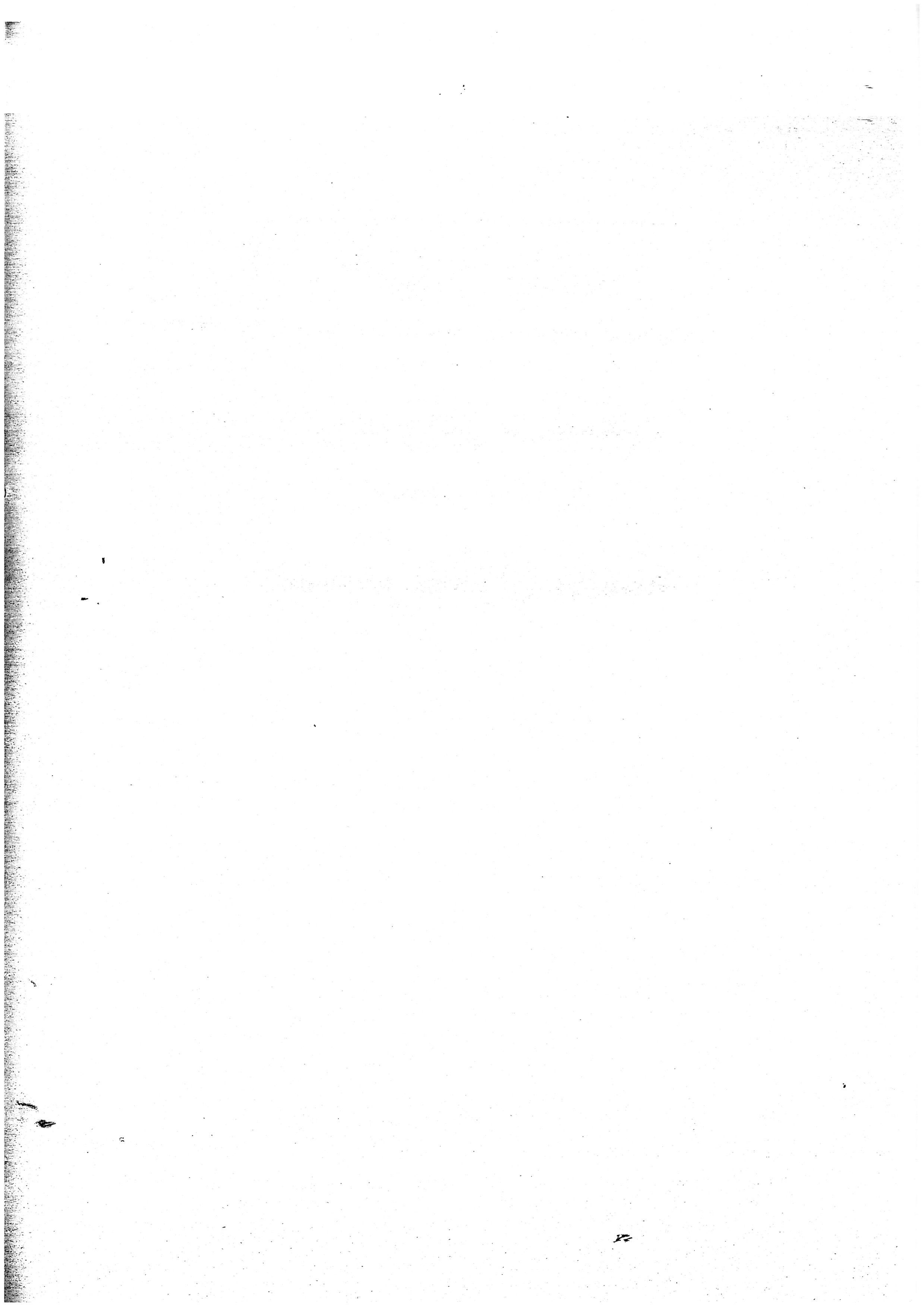
المبحث الأول

(١) التفسير والمفسرون: ٤٣، ٤٤ - ط. الفنية المتحدة، الطبعة الخامسة ١٩٩٢، الناشر مكتبة وهبة.

الفصل الثاني

المصدر الثاني من مصادر
التفسير بالمأثور

تفسير القرآن بالسنة



تعريف السنة

وإذا كان القرآن الكريم يمثل المصدر الأول للتفسير بالمأثور، فإن السنة تأتى فى المرتبة الثانية بعده مباشرة.

وللسنة تعريف فى اللغة، وتعريف فى الاصطلاح.

السنة فى اللغة

أما فى اللغة: فتطلق على الطريقة، حسنة كانت أو قبيحة.

ومنه قول رسول الله ﷺ: «من سَنَّ فى الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده، كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شئ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة، فعمل بها بعده، كتب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شئ»[(١)].

وإذا كان بعضهم كالأزهرى والخطابى قال عن السنة لغة: إنها إذا أطلقت فإنها تنصرف إلى المحمودة، وإذا استعملت فى غير الطريقة المحمودة استعملت مقيدة، فإن فى كلامهم نظراً، فقول الناس فلان من أهل السنة استعمال عرفى لأهل الشرع، لا لغوى، لأن المراد بالسنة حينئذ ما قابل البدعة.

وقد جاء استعمالها فى الطريقة المحمودة مقيدة، وفى الطريقة السيئة مطلقة.

أما استعمالها مقيدة فى المحمودة، فكما فى الحديث السابق، وأما استعمالها مطلقة دون تقييد فى السيئة، فكما جاء فى قول خالد بن عتبة الهذلى[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب العلم، باب (١٥).

(٢) انظر لسان العرب، والقاموس (سن)، وإرشاد الفحول: ٣٣.

فلا تجزعن من سيرة أنت سرتها[١]

فـأول راضٍ سنــةً مَــنْ يَسِرُها

ومن استعمال القـرآن للسنة بمعنى الطريقـة قوله تعالى: ﴿سنة الله التى قـد خلت من قـبل ولن تجد لـسنة الله تبـديلاً﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾[٣].

فالمراد من السنة هنا: طريقته فى الانتقام من المكذبين.

السنة فى الاصطلاح

ولا نعنى بـالاصطلاح هنا اصطـلاح الفقهاء من المـذاهب الأربعة الشهيرة وغيرها، فإنها تدور عنـدهم حول المندوب والمستحب والتطوع والنافلة والمرغـب فيه، أو ما يحمد فاعله ولا يـذم تاركه، أو ما واظب النبى ﷺ على فعله مع ترك ما، بلا عذر، ونحو ذلك.

وإنما نـعنى الاصطـلاح الذى جرى عـليه المحـدثون، وهى تعـنى عندهم:

«ما أضيف إلى الـنبى ﷺ من قول أو فعل، أو تقـرير أو صفة خلقية أو خلقية».

فمن أمثلة السنة القولية: قوله ﷺ:

«بنى الإسلام على خمس. . .» الحديث[٤].

ومن أمثـلة السـنـة الفعلـية: الأحاديث الـواردة فى صفة صـلاته، وصفة حجة، وقد قال عنها ﷺ:

---

(١) أى أنت جعلتها سائرة فى الناس، هكذا فى شرح القاموس (سير).

(٢) الفتح: ٢٣. (٣) فاطر: ٤٣.

(٤) أخرجه: البخارى، كتاب الإيمان باب (١ ;٢) ومسلم كتاب الإيمان باب (١٩-٢٢).

«صلوا كما رأيتمونى أصلى»[١] و «لتأخذوا عنى مناسككم»[٢].

ومن أمثلة إقراره:

١ - قول جابر بن عبد الله رضى الله عنه «كنا نعزل على عهد رسول الله ﷺ والقرآن ينزل، فبلغ ذلك النبى ﷺ فلم ينهنا»[٣].

٢ - قول ابن عمر: «كنا نقول ورسول الله ﷺ حى: أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر وعثمان، والرسول ﷺ يسمعنا فلا ينكر علينا»[٤].

٣ - ومن السنة التقريرية أيضًا: ما ثبت من أن الضب أكل على مائدته ﷺ، وأقرهم على ذلك، ولم ينكر ذلك عليهم[٥].

ومثال صفاته الخَلْقية: قول أنس رضى الله عنه: «كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير، ولا بالأبيض الأمهق، ولا بالآدم، ولا بالجعد القَطِط، ولا بالسَّبْط»[٦].

ومثال صفاته الخُلُقية: قول عائشة رضى الله عنها:

«لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا، ولا صخابًا فى

---

(١) أخرجه البخارى، كتاب أخبار الآحاد، باب (١).

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الحج باب (٣١٠).

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب النكاح باب (٩٦) ومسلم فى الطلاق باب (٢٦-٢٨).

(٤) أخرجه بألفاظ متقاربة كل من البخارى فى فضائل الصحابة، باب فضل أبى بكر، وأبى داود فى كتاب السنة، باب فى التفضيل، وزيادة الجملة الأخيرة، فى رواية الطبرانى فى الكبير، انظر فتح البارى ٧/ ٢٠.

(٥) أخرجه البخارى فى كتاب الذبائح، باب الضب.

(٦) أخرجه البخارى فى كتاب المناقب (٢٣) واللباس (٦٨) ومسلم فى الفضائل (١١٣). =

الأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح»[١].

* * *

= والمراد بقوله ليس بالأبيض الأمهق أى ليس بالكريه البياض كلون الجص يريد أنه نير البياض، والآدم: السمرة الشديدة، والجعد القطط شديد الالتواء والأجاعيد، والسبط الشعر المسترسل أى كان شعره وسطًا.

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب البر والصلة، باب (٦٩) والفاحش من كان القبح طبعًا له، والمتفحش المتكلف ذلك.

المبحث الثاني

قيمة التفسير بالسنة

يتضح لنا قيمة التفسير بالسنة من خلال معرفتنا لحجية هذه السنة ويتضح هذا بجلاء مما يأتى:

حجية السنة

السنة حجة على الأمة كلها، ومعنى كونها حجة أنها توجب على الناس العمل بمقتضاها.

والأدلة على وجوب اتباع السنة، والعمل بمقتضاها كثيرة ومتنوعة وقد ثبتت هذه الأدلة من خلال:

١ - القرآن الكريم. ٢ - السنة النبوية نفسها. ٣ - الإجماع.

ونستطيع تفصيل القول فى ذلك بما يأتى:

أولاً: الأدلة القرآنية

امتلأ القرآن الكريم بالآيات الدالة دلالة قاطعة على حجية السنة، ونستطيع أن نصنف تلك الآيات أصنافًا متعددة، وقد تكون الآية الواحدة صالحة لأن توضع تحت أكثر من صنف، ونكتفى هنا بثلاثة أصناف.

الصنف الأول

آيات تدل على وجوب الإيمان بالرسول ﷺ، وبكل ما جاء به، وأن عدم اتباعه والرضا بحكمه يتنافى مع الإيمان.

ومن هذه الآيات ما يلى:

١ - قال تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا﴾[1].

---

(١) النساء: ٦٥

قال ابن القيم: «أقسم سبحانه بنفسه على نفى الإيمان عن العباد حتى يحكموا رسوله فى كل ما شجر بينهم من الدقيق والجليل، ولم يكتف فى إيمانهم بهذا التحكيم بمجرده، حتى ينتفى عن صدورهم الحرج والضيق من قضائه وحكمه، ولم يكتف منهم أيضًا بذلك حتى يسلموا تسليمًا، وينقادوا انقيادًا»[1].

٢ - قال تعالى ﴿**قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعًا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون**﴾[2].

قال القاضى عياض: «فالإيمان بالنبى محمد ﷺ واجب متعين، لا يتم إيمان إلا به، ولا يصح إسلام إلا معه، قال الله تعالى: ﴿**ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرًا**[3]﴾[4].

٣ - وقال تعالى: ﴿**ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين**﴾.. إلى قوله تعالى ﴿**قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين**﴾[5].

قال الإمام الشافعى فى الرسالة: «فأعلم الله الناس فى هذه الآية أن دعاءهم إلى رسول الله ليحكم بينهم دعاء إلى حكم الله، لأن الحاكم بينهم رسول الله، فإذا سلموا لحكم رسول الله ﷺ فإنما

---

(١) أعلام الموقعين: ١/٥١ - ط. دار الجيل ببيروت.

(٢) الأعراف: ١٥٨. (٣) الفتح: ١٣.

(٤) الشفاء: ٢/١. (٥) النور: ٤٧-٥٤.

سلموا لحكمه بفرض الله»[١].

٤ - وقال تعالى: ﴿**إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه**﴾.. الآية[٢].

قال الشافعى رحمه الله: «فجعل كمال ابتداء الإيمان - الذى ما سواه تبع له - الإيمان بالله ثم برسوله، فلو آمن عبد به، ولم يؤمن برسوله لم يقع عليه اسم كمال الإيمان أبدًا، حتى يؤمن برسوله معه». أ. هـ[٣].

الصنف الثانى

آيات تدل على وجوب طاعة الرسول طاعة مطلقة، وتحذر من مخالفته. وهى كثيرة، منها ما يلى:

١ - قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم**﴾[٤].

قال ابن القيم: «فأمر تعالى بطاعته وطاعة رسوله، وأعاد الفعل إعلامًا بأن طاعة الرسول تجب استقلالاً، من غير عرض ما أمر به على الكتاب، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقًا، سواء كان ما أمر به فى الكتاب أم لم يكن فيه، فإنه أوتى الكتاب ومثله معه، ولم يأمر بطاعة أولى الأمر استقلالاً، بل حذف الفعل، وجعل طاعتهم فى ضمن طاعة الرسول، إيذانًا بأنهم إنما يطاعون تبعًا لطاعة الرسول، فمن أمر منهم بطاعة الرسول وجبت طاعته، وما جاء بخلاف ما جاء به الرسول فلا سمع ولا طاعة، كما صح عنه ﷺ أنه قال: «لا طاعة لمخلوق فى

---

(١) الرسالة: ٨٤ تحقيق أحمد شاكر.

(٢) النور: ٦٢.

(٣) الرسالة: ٧٥.

(٤) النساء: ٥٩.

معصية الخالق»[١]، وقال: «إنما الطاعة فى المعروف»[٢][٣].

٢ - وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون﴾[٤].

٣ - وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم..﴾[٥].

الصنف الثالث

آيات تدل على أن النبى ﷺ مبين للكتاب قال تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾[٦]، وقال أيضًا: ﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾[٧].

وإذا كان القرآن حجة على كل الأمة، فالمبين له وهو السنة حجة أيضًا، وهذا بين للغاية.

ثانيًا: الأدلة من السنة نفسها

جاء فى السنة أحاديث عديدة تدل على حجيتها، ووجوب اتباعها، ويمكن أن تصنف أيضًا إلى عدة أصناف، ويأتى على رأس هذه الأصناف ثلاثة رئيسية.

الصنف الأول

أحاديث تحذر من الاقتصار على القرآن، وترك السنة، وتبين أن

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده: ٥/ ٦٦.

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب المغازى، باب (٥٩).

(٣) أعلام الموقعين: ١/ ٤٨.

(٤) الأنفال: ٢٠.

(٥) محمد: ٣٣. (٦) النحل: ٤٤. (٧) النحل: ٦٤.

السنة وحى من الله، - مثل القرآن - يجب اتباعها، مثل. :

١ - عن المقدام بن معد يكرب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله»(١).

٢ - عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى**»، قالوا: يارسول الله: ومن يأبى؟ قال: «**من أطاعنى دخل الجنة، ومن عصانى فقد أبى**»(٢).

٣ - عن أبى رافع رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا ألفين أحدكم متكئًا على أريكته، يأتيه الأمر من أمرى مما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول: لا أدرى ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه**»(٣).

الصنف الثانى

أحاديث تأمر بتبليغ ما سمع منه ﷺ، وتحذر من الكذب عليه.. وماذاك إلا لأن السنة حجة يجب اتباعها، ويحرم مخالفتها. ومن هذه الأحاديث ما يلى:

١ - روى البخارى عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «بلغوا عنى ولو آية، وحدثوا عنى ولا تكذبوا، فمن كذب علىّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار»(٤).

---

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب السنة باب (٥)، والترمذى فى كتاب العلم باب (١٠).

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الاعتصام بالسنة باب (٢).

(٣) أخرجه الترمذى فى العلم باب (١٠)، وأبو داود فى السنة باب (٥).

(٤) أخرجه البخارى فى كتاب الأنبياء باب (٥٠).

٢ - قال رسول الله ﷺ: «نضر الله امرؤا سمع مقالتى، فحفظها ووعاها وأداها، فرب مبلغ أوعى من سامع»(١).

قال الشافعى رحمه الله: «فلما ندب رسول الله ﷺ إلى استماع مقالته، وحفظها وأدائها امرأً يؤديها - والامرؤ واحد - دل على أنه لا يأمر أن يؤدى عنه إلا ما تقوم به الحجة على من أُدِّى إليه، لأنه إنما يؤدى عنه: حلال يؤتى، وحرام يجتنب، وحد يقام، ومال يؤخذ ويعطى، ونصيحة فى دين ودنيا»(٢). أ. هـ.

٣ - فى حجة الوداع قال ﷺ: «فليبلغ الشاهد الغائب، فربَّ مبلَّغ أوعى من سامع»(٣).

قال العلماء:

لولا ثبوت الحجة بالسنة لما قال ﷺ فى خطبته بعد تعليم من شهده أمر دينهم: «ألا فليبلغ...».

الصنف الثالث من الأدلة

الإجماع

إضافة إلى الأدلة القرآنية والنبوية على حجية السنة، فإن إجماع الأمة سلفًا وخلفًا قد انعقد على ذلك، ولم نجد إمامًا من الأئمة إلا وعمل بمقتضاها، وحث على العمل بها، والآثار فى ذلك أكثر من أن تحصى، وأشهر من أن تنسى، ونقتطف منها ما يلى:

١ - أخرج الترمذى فى سننه عن قبيصة بن ذؤيب أنه قال: «جاءت الجدة إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه لتسأله ميراثها، فقال لها

---

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب العلم باب (١٠) والترمذى كتاب العلم باب (٧).

(٢) الرسالة: ٢,٤، ٤٠٣.

(٣) أخرجه البخاري فى كتاب الحج باب (١٣٢).

أبو بكر: مالك فى كتاب الله شئ، ومـا أعلم لك فى سنة نبى الله شيئًـا، فارجعى حتى أسأل النـاس، فقال له المغيرة بن شعبة: حضرت رسول الله ﷺ أعطاها السدس، فقال أبو بكر: هل معك غيرك؟ فقام محمد بن مسلمة الأنصارى، فقال مثل ما قال، فأنفذه لها أبو بكر»(١).

٢ - أخرج الستة إلا ابن ماجة عن عابس بن ربيعة أنه قال: رأيت عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يقبل الحجر الأسود ويقول: إنك حجر لا تنفع ولا تضر، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك»(٢).

٣ - عن ابن عباس قال: خطب عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فحمد الله وأثنى عليه، فذكر الرجم، فقال: لا تخدعن عنه، فإنه حد من حدود الله تعالى، ألا إن رسول الله قد رجم ورجمنا بعده، ولولا أن يقول قائلون زاد عمر فى كتاب الله عز وجل ما ليس منه لكتبته فى ناحية من المصحف»(٣).

٣ - ***قال الشافعى رحمه الله:***

أ - «أجمع الناس على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس»(٤).

ب - لم أسمع أحدًا نسبه الناس، أو نسب نفسه إلى علم يخالف

---

(١) سنن الترمذى: كتاب الفرائض، باب (١١) كما رواه غير الترمذى.

(٢) صحيح البخارى، كتاب الحج، باب (٥٠)، وصحيح مسلم كتاب الحج باب ٢٤٨.

(٣) مسند أحمد: ١/٢٣.

(٤) إعلام الموقعين: ٢/٣٦١، نقلاً عن حجية السنة للدكتور عبد الغنى عبد الخالق: ٣٤٢ - طبعة المعهد العالى للفكر الإسلامى.

فـى أنْ فرض الله عـز وجل اتـبـاع أمر رسـول الله ﷺ ، والتسليم لحكمه»[١].

جـ - «وأمـا أن نخالـف حديثًـا عن رسول الله ﷺ ثـابتًا عـنه فأرجو ألا يؤخذ ذلك علينـا إن شاء الله، وليس ذلك لأحد، ولكن قد يجهل الرجل السنة، فيكون له قول يخالفها، لا أنه عمد إلى خلافها، وقد يغفل المرء ويخطئ فى التأويل»[٢].

وقال ابن تيمية رحمه الله:

«ليعـلم أنه ليس أحد مـن الأئمة المقبولـين عند الأمة قبـولاً عامًا يتعمـد مخالفة رسول الله ﷺ فى شـئ من سنته دقيـق ولا جليل، فإنهم متفقون اتفاقًا يقينًا على وجوب اتباع الرسول، وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ »[٣].

إلى غير ذلك من أقوال الصحابة والتـابعين وغيرهم من أئمة الأمة وأعلامها.

وعلى ذلك، وبناء على أن السنة حجة على الناس أجمعين بالأدلة الثابتة من القرآن والسنة والإجماع، فـلا يجوز لأحد فى مجال التفسير أن يذهب إلى مصدر آخـر بعد القرآن إلا إلى السنة النـبوية، وهذا من الأمور البدهية التى لا يمارى فيها مسلم.

يقول أستاذنا الفاضل، الدكتور إبراهيم خليفة:

«فالسبيل المثالية التى لا ينبغى لعاقل معدل عنها أن يطلب التفسير، ثانى ما يطلبه، أى بعد القرآن مبـاشرة، من السنة، على هذا أطبق أهل

---

(١) جماع العلم للشافعى: ١١ - ط. دا رالمعارف - تحقيق أحمد شاكر.

(٢) الرسالة: ٢١٩.

(٣) رفع الملام عن الأئمة الأعلام: ٢٢، ٢٣.

السنة والجماعة، انطلاقًا منهم رحمهم الله، من مسلمات أربع:

أولاها: أن خير من يمكن أن يفسر القرآن، ومن ينبغي أن يطلب منه تفسيره بعد الله تعالى، فى محكم كتابه هو رسول الله ﷺ، الذى حدثنا ربه فيما حدث من وصفه ﷺ أنه ﴿**ما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحى يوحى**﴾(١).

فهو إذًا ﷺ، وبمقتضى كونه رسولاً أولاً، ثم بمقتضى شهادة هذا النص وأشباهه ثانيًا، لا يمكن أن يقر على خطأ أبدًا، دع عنك أن يكون الخطأ فى مثل هذا الأمر الجلل، أعنى تفسير القرآن الذى هو أعظم معجزاته، وأكبر آيات فضله، وسمو منزلته، فإن جاز عليه الخطأ بمقتضى بشريته فى يسير من الأمر، فليس يجوز عليه فى أهم المهمات بالنسبة له، ولشريعته وأمته أصلاً، بل إن جاز عليه الخطأ ولو فى يسير من الأمر، بمقتضى تلك البشرية، فليس يجوز فى عقل عاقل أن يقر عليه، بمقتضى ماله من الرسالة، بل لا محالة يهديه ربه إلى صواب القول والعمل.

الثانية: أن خير من يمكن أن يفسر الشئ من تكون أهم وظائفه تبيان ذلك الشئ، قال تعالى ﴿**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون**﴾(١).

لا جرم بعد هذا أن كان من يطلب تفسير التنزيل من غير سنته ﷺ، قبل أن يعوزه البيان فيها مخالفًا لمنطق هذه الضرورية، وموجبها.

الثالثة: أن من المعلوم من دين الإسلام بالضرورة أن السنة هى الأصل الثانى لهذا الدين، والمصدر التالى للقرآن مباشرة، فى جميع

---

(١) النجم: ٣، ٤ـ (٢) النحل: ٤٤ـ

كليات هذا الدين، وجزئياته، فالمجاوز له إذاً مع وجدان طلبته فيه راكب لعظيم، مخالف لمقتضى ضروريات هذا الدين.

الرابعة: أن هذا - أى طلب البيان من السنة - من جملة مقتضى الأوامر الإلهية الموجبة لطاعته ﷺ، والامتناع عن مخالفته فى كل ما نأتى ونذر، من أمثال قوله عز قائلاً ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾[١]، إلى غير ذلك من الآيات المتكاثرة، والمتضافرة كلها، على وجوب طاعته ﷺ، ورد الأمر إليه، والتسليم له، وترقب شدة العقاب من مخالفته، فالمخالف عن السنة إلى ما دونها مع ذلك قبل أن يعجزه الأمر منها مخالف بالضرورة لموجب هذه الأوامر كلها، مستحق لشديد العقاب على مخالفته.

وهكذا كان الأمر - أعنى تقديم السنة على ما سواها بعد القرآن - متقرراً فى قلوب وعقول أصحاب النبى ﷺ»[٢].

❊ ❊ ❊

---

(١) الحشر: ٧.

(٢) دراسات فى مناهج المفسرين: ٢١٣ - ٢١٥ بنوع من الاختصار.

المبحث الثالث

السنة المبينة للقرآن

بين الله عز وجل وظيفة رسوله ﷺ، وحدد له هدف سنته، حيث قال: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾[1].

وقال أيضًا: ﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾[2].

وقد ذكرنا قريبًا فى مبحث حجية السنة بعضًا من الأحاديث التى تبين شدة العلاقة بين القرآن والسنة، وأنها علاقة المبيِّن بالمبيَّن، وأنه لا مجال على الإطلاق لفصلها عنه، ويستحيل أن يسير الإنسان على هدى لو اقتصر على القرآن دون السنة، التى تبينه وتوضحه.

ولهذا وجدنا فى كتب السنة مكانًا خاصًا للتفسير بالمأثور عن رسول الله ﷺ . .

وسيأتى بعد قليل إن شاء الله نماذج كثيرة، لهذا المأثور عن رسول الله ﷺ .

والسؤال الذى يطرح نفسه بإلحاح فى هذا المقام هو:

هل بين الرسول ﷺ كل آيات القرآن، وتناولها آية آية؟ أم أن هذا التبيين اقتصر على بعض القرآن دون بعض؟

وقبل أن نجيب عن هذا السؤال نود أن نشير إلى أنه قد شاع بين معظم من كتب فى مناهج المفسرين أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قد ذهب إلى القول بأن الرسول ﷺ قد فسر القرآن كله من أوله إلى آخره، لفظة لفظة.

---

(١) النحل: ٤٤. (٢) النحل: ٦٤.

وكان منشأ هذا الفهم - عند هؤلاء عن ابن تيمية - يرجع إلى ثلاثة مصادر:

١ - كلام لابن تيمية نفسه.

٢ - كلام للسيوطى فى الإتقان.

٣ - كلام للدكتور محمد الذهبى فى كتابه القيم «التفسير والمفسرون».

أما كلام ابن تيمية فقد قال ما نصه بالحرف الواحد:

«يجب أن يعلم أن النبى ﷺ بين لأصحابه معانى القرآن، كما بين لهم ألفاظه، فقوله تعالى ﴿**لتبين للناس ما نزل إليهم**﴾[١] يتناول هذا وهذا.

وقال أبو عبد الرحمن السلمى: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن - كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود وغيرهما - أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا»[٢].

ولهذا كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة.

وقال أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جَلَّ فى أعيننا[٣].

وأقام ابن عمر على حفظ البقرة عدة سنين - قيل ثمان سنين - ذكره مالك[٤].

وذلك أن الله تعالى قال: ﴿**كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته**﴾[٥] وقال: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن**﴾[٦] وقال: ﴿**أفلم يدبروا**

---

(١) النحل: ٤٤. (٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره: ١/٣٦.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده: ٢/٢٧٦.

(٤) موطأ مالك: ١/٢٠٥ تحقيق محمد عبد الباقي.

(٥) سورة ص: ٢٩. (٦) النساء: ٨٢ ومحمد: ٢٤.

القول﴾[١].

وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن.

وكذلك قال تعالى ﴿إنا أنزلناه قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون﴾[٢]، وعقل الكلام متضمن لفهمه. ومن المعلوم أن كل كلام يقصد منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، فالقرآن بذلك أولى».

وأيضًا فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابًا فى فن من العلم، كالطب والحساب، ولا يستشرحوه فكيف بكلام الله تعالى، الذى هو عصمتهم وبه نجاتهم وسعادتهم، وقيام دينهم ودنياهم؟»[٣].

هذا كلام ابن تيمية رحمه الله بنصه، والذى فهم منه السيوطى وغيره أنه يدل دلالة واضحة من ابن تيمية على أن الرسول ﷺ بين جميع معانى القرآن، وفسرها لصحبه الكرام.

يقول السيوطى فى الاتقان: «وقد صرح ابن تيمية فيما تقدم وغيره بأن النبى ﷺ بين لأصحابه تفسير جميع القرآن أو غالبه، ويؤيد هذا ما أخرجه أحمد وابن ماجه عن عمر أنه قال:

«من آخر ما نزل آية الربا، وإن رسول الله ﷺ قبض قبل أن يفسرها»[٤].

ثم قال السيوطى: «دل فحوى الكلام على أنه كان يفسر لهم كل ما نزل، وإنما لم يفسر هذه الآية لسرعة موته بعد نزولها، وإلا لم يكن للتخصيص بها وجه»[٥].

وقد فهم الدكتور محمد الذهبى - كما فهم السيوطى - من كلام

---

(١) المؤمنون: ٦٨. (٢) يوسف: ٢.

(٣) مقدمة في أصول التفسير: ٣٦، ٣٧.

(٤) انظر سنن ابن ماجه، كتاب التجارات، باب (٥٨).

(٥) الاتقان: ٢/ ٢٠٥ج

ابن تيمية أنه - أى ابن تيمية - قال إن الرسول ﷺ فسر كل معانى القرآن، كما بلغ كل ألفاظه.

حيث يقول فى كتابه التفسير والمفسرون:

«اختلف العلماء فى المقدار الذى بينه النبى ﷺ من القرآن لأصحابه، فمنهم من ذهب إلى القول بأن رسول الله ﷺ بين لأصحابه كل معانى القرآن كما بين لهم ألفاظه، وعلى رأس هؤلاء ابن تيمية»[1].

وقد تأثر بكلام السيوطى والذهبى كل من قرأت لهم فى مناهج المفسرين حيث وجدتهم ينسبون إلى ابن تيمية هذا القول، أى أن الرسول ﷺ قد بين كل معانى القرآن الكريم.

ووجدت أكثرهم احتياطًا يقول إن مقصود ابن تيمية أن رسول الله ﷺ قد فسر غالب القرآن الكريم لا كله.

وبادئ ذى بدء أقول: إن هؤلاء حمّلوا ابن تيمية رحمه الله ما لم يقصده، وأخذوا من كلامه شيئًا وتركوا أشياء، ولو أخذوا كل كلامه فى هذه المسألة لتبين لهم مقصوده، إنه لم يقصد بقوله هذا أن الرسول ﷺ قد فسر كل ألفاظ القرآن لفظة لفظة من أوله إلى آخره، كما لم يقصد أنه فسر غالبه لفظة لفظة، ولكن مقصوده رحمه الله أنه ﷺ قد فسر كل المعانى التى استشكلت على الصحابة وطلبوا إليه بيانها.

فمن البدهى أن القرآن عربى، نزل على العرب بلسانهم ليفقهوه كما قال تعالى ﴿إنا أنزلناه قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون﴾[2].

---

(١) التفسير والمفسرون: ١/٥١ الطبعة الخامسة، المطبعة الفنية.

(٢) يوسف: ٢.

فمن العبث إذًا أن يجلس رسول الله ﷺ أمام صحابته ليقول لهم إن الحمد فى لسان العرب معناه كذا، والله معناه كذا، والرب معناه كذا، والعالمين معناه كذا، والرحمن كذا، والرحيم كذا، ومالك كذا، ويوم الدين كذا، وإياك كذا، ونعبد كذا، ونستعين كذا، واهدنا كذا. وهكذا..

وأشد عبثًا من هذا أن نحمل ابن تيمية هذا الفهم، فابن تيمية هو من هو، وإن كان غير معصوم من الخطأ، ولكن هذه المسألة من الوضوح بما لا يخفى على صغار طلاب العلم فضلاً عن العلماء، ناهيك عن مثل ابن تيمية رحمه الله.

ونستطيع التأكيد بأن هذا ليس مقصود ابن تيمية من خلال أمرين:

١ - الأمر الأول: بيان مقصوده من كلامه الذى استشهدوا به.

٢ - الأمر الثانى: بضم الكلام الآخر لابن تيمية نفسه، فى القضية ذاتها، حتى لا يكون الكلام مبتورًا.

فإذا ما جئنا إلى الأمر الأول، وهو بيان مقصوده مما استشهدوا به قلنا:

إن الآية التى ذكرها ابن تيمية وهى قوله تعالى: **﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾**.

وقوله فيها: «فقوله **﴿لتبين لهم﴾** يتناول هذا وهذا، أى تبليغ اللفظ، وبيان المعنى.

لم يقصد منه ابن تيمية أن الرسول ﷺ كما يجب عليه تبليغ كل لفظ يجب عليه التعرض لمعنى كل لفظ، وإنما يجب عليه التعرض لما استشكل عليهم منه.

فالآية هذه ليست على عمومها، بدليل قوله تعالى فى نفس السورة

﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه﴾(١)، فالآية الثانية مقيدة للإطلاق الوارد فى الآية الأولى.

ومعلوم عند علماء الأصول أنه يجب حمل المطلق على المقيد، ومعلوم أيضًا عند علماء البلاغة أن التشبيه لا يقتضى مساواة المشبه بالمشبه به فى كل شئ، أى أنه إذا وجب على النبى تبليغ كل لفظ فإنه لا يجب عليه مثل ذلك فى المعانى، فالواجب عليه فى المعانى هو الخافى عليهم، أو الذى اختلفوا فيه.

أما الآثار التى ذكرها ابن تيمية من أن الصحابة ما كانوا يجاوزون مجموعة من الآيات إلا بعد حفظها وفهمها، فإن ابن تيمية لم يقصد منها - كما لم يقصد الصحابة أيضًا - أنهم أخذوا تفسير كل لفظة عن رسول الله ﷺ، وإنما قصد - كما قصد الصحابة أيضًا - أن همهم لم يكن مقصوراً على الحفظ، وإنما شمل معه الفهم والعمل أيضًا.

وذلك لا يستلزم بالضرورة أن فهمهم لكل لفظة من القرآن مأخوذ من رسول الله ﷺ فقط.

فهم عرب خلص، ويعرفون أسباب النزول، وفيمن نزلت الآية وأين نزلت، كما أن لهم عقولاً بها يفكرون ويجتهدون، وبينهم نبغاء معهم يتحاورون ويناقشون، والواقع يشهد بذلك فى حياة الرسول ﷺ، وبعد مماته.

وعلى ذلك: فقد اجتمع لهم من مصادر فهم القرآن الكريم، الكثير والكثير، ويأتى على رأس هذه المصادر:

١ - القرآن الكريم نفسه، فقد جاء فيه آيات تفسر آيات أخرى.

٢ - ما سمعوه من رسول الله ﷺ.

---

(١) النحل: ٦٤.

٣ - اجتهادهم الخاص، الذى يعتمد ضمن ما يعتمد على معرفة العربية، وأسباب النزول، وعادات العرب، وغير ذلك.

٤ - فهم صحابة آخرين من إخوانهم، الذين يفوقونهم، فقد كانوا فى ذلك متفاوتين.

وعلى ذلك: ففهمهم لمعانى القرآن، لفظة لفظة لم يكن موقوفًا على الأخذ من رسول الله ﷺ فقط.

وبمثل هذا الرد نرد على فهمهم لكلام ابن تيمية رحمه الله من قوله: إن العادة تمنع أن يكون للناس كتاب مثل هذا القرآن، ولا يستشرحوه.

أما ما ذكره اليسوطى مؤيدًا به ما ظن أنه مذهب ابن تيمية، وهو الخاص بآية الربا وأن رسول الله ﷺ مات قبل أن يفسرها، فإن هذا الأثر لا يدل على صحة ذلك، ولا يقوى ما ظن أنه مذهب ابن تيمية بل يدل على العكس، وهو أن رسول الله ﷺ لم يفسر كل القرآن، أما لماذا لم يفسرها الرسول ﷺ فإن أحدًا لم يسأل رسول الله ﷺ عنها، ولو أنهم اختلفوا فى المراد منها أثناء حياته لسارع إلى بيانها، وإزالة الاختلاف الذى حدث بينهم، كما أمره الله عز وجل.

أما الكلام الآخر لابن تيمية فى القضية نفسها، والذى تركه من نسب إلى ابن تيمية هذا الفهم، وبتر أجزاء الموضوع، فنذكر منه ما يلى:

١ - «إذا لم نجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة، رجعنا فى ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوه من القرائن والأحوال التى اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة، الخلفاء

الراشدين، والأئمة المهديين»[١].

فهذا كلام صريح واضح فى منتهى الصراحة والوضوح من ابن تيمية لا يحتمل تأويلاً، ينص على أن الرسول ﷺ لم يفسر كل القرآن الكريم، وإلا لما تركنا بيانه، وذهبنا إلى أقوال الصحابة».

٢ - وقال أيضًا أثناء حديثه عن تفسير التابعين: «إذا اجتمعوا على الشئ فلا يرتاب فى كونه حجة. فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويرجع فى ذلك إلى لغة القرآن أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة فى ذلك»[٢].

فقد دل فحو الكلام من ابن تيمية دلالة واضحة على أن مذهبه فى ذلك أن الرسول ﷺ لم يتعرض لتفسير القرآن كله، لفظة لفظة.

٣ - وقال أيضًا[٣]: «ومعلوم أن المنقول فى التفسير أكثره كالمنقول فى المغازى والملاحم، ولهذا قال الإمام أحمد: «ثلاثة أمور ليس لها إسناد، التفسير والملاحم والمغازى»، ويروى: ليس لها أصل، أى إسناد، لأن الغالب عليها المراسيل»[٤].

فهذا القول من ابن تيمية رحمه الله يعنى أكثر مما نقول، إنه يعنى أن ما نقل من تفسير نبوى صحيح للقرآن فى غاية القلة، فكيف

---

(١) مقدمة فى أصول التفسير: ٩٥.

(٢) المصدر السابق: ١٠٥.

(٣) مقدمة فى أصول التفسير.

(٤) قال الزركشى ملقًا على قول الإمام أحمد: «قال المحققون من أصحابه: ومراده أن الغالب أنه ليس لها أسانيد صحاح متصلة، وإلا فقد صح من ذلك كثير». انظر البرهان: ٢ جـ ١٥٦.

نقول أن ابن تيمية يقول إن رسول الله ﷺ قد فسر القرآن كله لفظة لفظة.

وعلى هذا: يتبين لنا من خلال ضم كلام ابن تيمية، فى الموضوع نفسه، بعضه إلى بعض، وعدم انفصال أجزائه عن بعضها يتبين لنا أن مذهبه هو: أن رسول الله ﷺ لم يفسر كل القرآن الكريم، من أوله إلى آخره لفظة لفظة بل لم يفسر غالبه.

وليس كما فهم كل من السيوطى والذهبى، وقلدهما من بعدهما المقلدون، رحم الله جميع علمائنا السابقين والمعاصرين واللاحقين، فكل مأجور بنيته وجهده.

* * *

الأدلة على أن الرسول ﷺ لم يفسر كل القرآن الكريم

مما سبق يتضح لنا أن ابن تيمية رحمه الله لم يقل بأن الرسول ﷺ لم يفسر كل القرآن الكريم لفظة لفظة.

والذى نريد زيادته هنا هو ذكر بعض الأدلة التى تؤيد من يقول إن رسول الله ﷺ لم يتعرض لتفسير القرآن كله من أوله إلى آخره. وهى أدلة كثيرة ومتنوعة.

فمنها ما هو قرآنى، ومنها ما هو نبوى، ومنها ما هو عقلى.

فمن الأدلة القرآنية: تلك الآيات التى تدل على أن فى القرآن ما يستنبطه أولو العلم باجتهادهم.

مثل قوله تعالى ﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾[1].

قال أبو حامد الغزالى:

«فأثبت لأهل العلم استنباطًا، ومعلوم أنه وراء السماع»[2].

فلو كان الرسول ﷺ قد بين كل معانى القرآن، فماذا بقى لأولى العلم؟.

ومن الاستدلال بالسنة دعاء النبى ﷺ لابن عباس بقوله: «اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل».

فلو كان الرسول ﷺ قد فسر القرآن كله فما وجه تخصيص ابن عباس بالدعاء؟

قال أبو حامد الغزالى معلقًا على هذا الحديث: «فإن كان التأويل

---

(١) النساء: .

(٢) إحياء علوم الدين: ١/ ٢٩٠.

مسموعًا كالتنزيل، ومحفوظًا مثله، فما معنى تخصيصه بذلك»[١].

وقال القرطبى: «وهذا بيِّنٌ لا إشكال فيه»[٢].

ومن الاستدلال بالآثار أنه قد ورد كثير عن الصحابة فى تفسير القرآن الكريم وما كان لهم أن يفسروا شيئًا ثبت فيه شئ عن رسول الله ﷺ، فهم أدرى الناس بالتحذير الشديد من تقديم شئ بين يدى الله ورسوله.

ومن الأدلة العقلية التى تدل على عدم تفسير النبى ﷺ القرآن كله، اختلاف الصحابة فى التفسير، فقد تعددت أقوالهم فى تفسير الآية الواحدة، تعدداً قد يصل فى بعض الأحيان إلى اختلاف تضاد وليس اختلاف عبارة أو تنوع.

فلو كان الرسول ﷺ قد فسر القرآن كله لما وجدنا ذلك الاختلاف، بل لما وجدنا لهم تفسيراً من أصله.

قال أبو حامد الغزالى: «إن الصحابة والمفسرين اختلفوا فى تفسير بعض الآيات، فقالوا فيها أقاويل مختلفة، لا يمكن الجمع بينها، وسماع جميعها من رسول الله ﷺ محال، ولو كان الواحد مسموعًا رد الباقى، فتبين على القطع أن كل مفسر قال فى المعنى بما ظهر له باستنباطه»[٣].

ومن هذه الأدلة العقلية أيضًا: أنه لو كان لرسول الله ﷺ تفسير كامل للقرآن الكريم لنقل إلينا، كما نقل عنه كل شئ يتعلق بالدين والدنيا معًا.

لقد نقل إلينا أشياء فى منتهى الدقة، فى نواح كثيرة، بل وفى

---

(١) إحياء علوم الدين: ١/ ٢٩٠.

(٢) تفسير القرطبى: ١/ ٣٣.

(٣) إحياء علوم الدين: ١/ ٢٩٠.

صغائـر الأمور، مثل مـا يتعلـق بقضاء الحـاجة، والاستـنجاء، وآداب النوم، وغير ذلك.

أيعقـل عند عاقـل منصف أن يتـناقل الصحـابة ومن بعـدهم هذه الأشياء، ولا يتناقـلون تفسيراً كاملاً عنه ﷺ لـلقرآن، إن كان هناك تفسير له؟

وليس من حق أحد أن يدعى أن الرسول ﷺ قد فسر القرآن كله لفظة لفظة، ثـم فقد كله، إلا النادر القليل، أو أن صحابـته لم يبلغوا هذا التفسير الكامل.

فأما دعوى الـفقد فظاهرة البـطلان، فإن هذا الأمر - أى التـفسير النبوى الـكامل للقرآن - مما تـتوافر الدواعى على نقـله، وتمام الحرص على المحافظة عليه، فقد حافـظ الصحابة على ما دون هذا الأمر الجلل بكثيـر، بل بلا مقارنة بـه، كحياته الخاصـة، وشئونه الزوجيـة، ونحو ذلك.

وأما دعوى عدم البلاغ، فهذا لا يـتصور بالمرة، لأن هذا قادح فى عدالة الصحابة، التى ثبتت بالكـتاب والسنة وإجماع الأمة، ويتنافى مع كفاحهم وجهادهم، من أجل نشر كتاب الله، وتبيينه للناس.

القدر الذى بينته السنة

من خلال الواقـع، الذى تناقل شفـهيًا وكتابة، عـن طريق الرواة، وكتب السنة والتفسير، يتضح لنا بجلاء أن الرسول ﷺ لم يفسر من القرآن إلا قدراً يـسيراً، لو قيس بمـا لم يفسره، وإن كان فـى حد ذاته كثيراً.

وفى الحقيقة أنه لم يكن فى عصر النبوة من داع لتفسير نبوى كامل

للقرآن خاصة إذا علمنا أن هناك من القرآن الكريم ما قد استأثر الله تعالى بعلمه، كأوائل السور التى بدئت بالحروف المقطعة، وهناك من القرآن ما يعلم معناه من له أدنى دراية بلغة العرب.

ويؤيد هذا ما أخرجه ابن جرير الطبرى عن ابن عباس رضى الله عنهما، حيث يقول: «التفسير على أربعة أوجه، وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله»(١).

يقول الخويبى عليه رحمة الله:

«علم التفسير عسير يسير، أما عسره فظاهر من وجوه، أظهرها أنه كلام متكلم لم تصل الناس إلى مراده بالسماع منه، ولا إمكان للوصول إليه.

بخلاف الأمثال والأشعار ونحوها، فإن الإنسان يمكن علمه منه، إذا تكلم، بأن يسمع منه أو ممن سمع منه، وأما القرآن فتفسيره على وجه القطع لا يعلم إلا بأن يسمع من الرسول ﷺ، وذلك متعذر إلا فى آيات قلائل»(٢).

ويقول السيوطى - رحمه الله - معلقًا على من قال إنه قد صح عن رسول الله ﷺ فى التفسير أحاديث كثيرة:

«قلت: الذى صح من ذلك قليل جدًا، بل أصل المرفوع منه فى غاية القلة»(٣).

ومعلوم أن القلة والكثرة أمر نسبى، فغالب الظن أن السيوطى

---

(١) تفسير ابن جرير الطبرى: ١/ ٣٤.

(٢) الاتقان: ٢/ ١٧٤.

(٣) الاتقان: ٢/ ١٧٩.

وغيره ممن يعتبرون قلة المرفوع إلى رسول الله ﷺ فإنما هو بالنسبة لبقية آيات القرآن الكريم كله، وإن كان ما صح وورد فى حد ذاته كثيراً. كما تشهد كتب السنة والتفسير.

* * *

المبحث الرابع

أوجه بيان السنة للقرآن

ذكرنا سابقًا آيتى سورة النحل اللتين تفيدان وظيفة السنة النبوية، ألا وهى تبيين القرآن.

وكذلك ورد فى السنة ما يؤكد على نوع هذه الوظيفة، وقد ذكرنا بعضًا من هذه الأحاديث أثناء الحديث عن حجية السنة، بما أغنى عن الإعادة هنا.

ومعلوم أن السنة التى تفسر القرآن إنما هى وحى من الله عز وجل ولذلك قال حسان بن عطية فيما يرويه عنه الأوزاعى[١].

«كان الوحى ينزل على رسول الله ﷺ ويحضره جبريل بالسنة التى تفسر ذلك».

وإذا كانت السنة مبينة للقرآن، فما نوع هذا البيان؟ هنا نقول إن لهذا البيان أنواعًا عدة، نذكر أشهرها فيما يلى:

أولاً: تفصيل المجمل

فقد ورد فى القرآن مجمل كثير لا يستطيع الإنسان أن يفهمه، أو يطبقه تطبيقًا صحيحًا إلا من خلال السنة.

كآيات الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، فلم يرد فى القرآن عدد فروض الصلاة موضحة، ولا عدد ركعاتها، ولا بيان أوقاتها، ولا كيفيتها، ولا مبطلاتها، وغير ذلك.

والزكاة أيضًا، من ناحية الأنواع والنصاب والمقادير، وسائر تفصيلاتها.

---

(١) كما جاء فى تفسير القرطبى: ١/ ٣٩.

وكذلك الحج: لم يرد فى القرآن كيفيته أو مبطلاته، وغير ذلك من سائر أحكامه.

فمعلوم أن هذه العبادات تمثل أركان الإسلام التى بنى عليها، ومع ذلك لم يجىء تفصيلها فى القرآن، وإنما جاءت السنة لتبينها.

وقد أمر الله ورسوله بالأخذ عنه ﷺ، قال تعالى ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾[١].

وجاء فى الحديث: «صلوا كما رأيتمونى أصلى»[٢]، و «لتأخذوا عنى مناسككم»[٣].

وجاءت الآثار عن سلف الأمة وأئمتها لتدل على ذلك، ومن هذه الآثار ما يلى:

أ - أخرج البيهقى فى المدخل من طريق شبيب بن أبى فضالة المكى عن عمران بن حصين أنه رضى الله عنه ذكر الشفاعة[٤]، فقال رجل من القوم: يا أبا نجيد، إنكم تحدثونا بأحاديث لم نجد لها أصلاً فى القرآن، فغضب عمران وقال للرجل: قرأت القرآن؟ قال: نعم، قال: فهل وجدت فيه صلاة العشاء أربعًا، ووجدت المغرب ثلاثًا، والغداة ركعتين، والظهر أربعًا، والعصر أربعًا؟ قال: لا. قال: فعمّن أخذتم ذلك؟ ألستم عنا أخذتموه، وأخذناه عن رسول الله ﷺ؟

أوجدتم فيه: فى كل أربعين شاة شاة، وفى كل كذا بعيرًا كذا، وفى كل كذا درهمًا كذا؟ قال: لا.

---

(١) الحشر: ٧.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أى الشفاعة للمؤمنين يوم القيامة.

قال: فعمن أخـذتم ذلك؟ ألستم عنا أخذتموه، وأخذنـاه عن النبى ﷺ؟.

وقال فـى القـرآن: ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾[١]، أوجدتم فـيه فطوفوا سبعًا، واركعوا ركعتين خلف المقام؟

أوجدتم فى القرآن «لا جَلَب ولا جَنَبَ ولا شِغار فى الإسلام»[٢].

أما سمعتم الله قال فى كتابه ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾[٣]، قال عمران: «فقد أخذنا عن رسول الله ﷺ أشياء ليس لكم بها علم»[٤].

ب - وأخرج مالك عن ابن شهاب عن رجل من آل خالد بن أسيد أنه

---

(١) الحج: ٢٩.

(٢) أخرجه الترمذى فى كتاب النكاح، بـاب (٣٠)، والنسائى فى كتاب الخيل، باب (١٥)، وغيرهما قال ابن منظور: «وفى الحديث: «لا جَلَب ولا جَنَب»، فالجلب أن يتخلف الفرس فى السباق فيحـرك وراءه الشئ يستحث فيسبق،، والجنب: أن يجنب مـع الفرس الذى يسابق به فـرس آخر، فيرسل، حتى إذا دنـا تحول راكبه على الفرس المجنوب.

وقال أبو عبيد: الجلـب فى شيئين، يكون فى سباق الخيـل، وهو أن يتبع الرجل فرسه فيزجره، ويجلـب عليه، أو يصيح حثًا له، ففى ذلك معـونة للفرس على الجرى، فنهى عن ذلك، والوجه الآخر فى الـصدقة، أن يقدم المصدق على أهل الزكاة، فينزل موضعًـا ثم يرسل إليهم من يجلب إليه الأموال مـن أماكنها ليأخذ صدقاتها، فنهى عن ذلك، وأمر أن يأخذ صدقاتهم من أماكنهم، وعلى مياههم، وبأفنيتهم.

أما الشغار فهو نكاح كان فى الجاهليـة، كان الرجل يزوج الرجل حريمته على أن يزوجه الآخر حريمة له أخـرى، بغير مهر، ويكون مهر كل واحدة مـنهما بضع الأخرى، كأنهما رفعا المهر، وأخليا البضع عنه. انظر لسان العرب: مادة جلب، ومادة شغر.

(٣) الحشر: ٧.

(٤) أخرجه البيهقى فى المدخل وأصله فى سنن أبى داود كتاب الزكاة.

سأل عبد الله بن عمر، فقال: يا أبا عبد الرحمن، إنا نجد صلاة الخوف، وصلاة الحضر فى القرآن، ولا نجد صلاة السفر؟ فقال ابن عمر: يا ابن أخى: إن الله بعث محمداً ﷺ، ولا نعلم شيئًا، وإنما نفعل كما رأيناه يفعل»(١).

جـ - أخرج ابن عبد البر عن أيوب السختيانى أن رجلاً قال لمطرف بن عبد الله بن الشخير: لا تحدثونا إلا بما فى القرآن، فقال له مطرف: إنا والله ما نريد بالقرآن بدلاً، ولكن نريد من هو أعلم بالقرآن منا»(٢).

د - وقال ابن حزم: «جاء النص ثم لم يختلف فيه مسلمان فى أن ما صح عن رسول الله ﷺ أنه قاله، ففرض اتباعه، وأنه تفسير لمراد الله تعالى فى القرآن، وبيان لمجمله»(٣).

ثانيًا: إزالة اللبس

ومن بيان السنة للقرآن أيضًا: إزالة ما حدث من لبس لدى بعضهم، فى مفهوم آية من آياته، ومن أمثلة ذلك ما يأتى:

أ - ما حدث من فهم خاطئ لقوله تعالى **﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾**(٤). فقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عدى بن حاتم: أنه جعل تحت وسادة خيطين أبيض وأسود، وجعل ينظر إليهما، فلا يتبين له الأبيض من الأسود فغدا على رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: إن

---

(١) موطأ مالك، كتاب الصلاة، باب قصر الصلاة فى السفر.

(٢) جامع بيان العلم وفضله: ٢/ ١٩١ الطبعة المنيرية.

(٣) الأحكام لابن حزم: ٢/٩٩، ١٠٠ - ط. دار الجيل ببيروت.

(٤) البقرة: ١٨٧.

وسادك إذًا لعريض، إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل»[١].

ب - أخرج مسلم وغيره عن المغيرة بن شعبة، قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران، فقالوا أرأيت ما تقرءون ﴿**يا أخت هارون**﴾[٢]، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم».

جـ - أخرج أحمد والشيخان وغيرهم عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من نوقش الحساب عذب، قلت أليس يقول الله ﴿**فسوف يحاسب حسابًا يسيرًا**﴾ قال: «ليس ذلك بالحساب، ولكن ذاك العرض»[٣].

د - أخرج أحمد عن البراء قال: جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال: علمنى عملاً يدخلنى الجنة، قال: اعتق النسمة وفك الرقبة، قال: أو ليستا بواحدة؟ قال: إن عتق النسمة - أن تنفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين فى عتقها»[٤].

ثالثًا: تخصيص العام

مثاله:

أ - قوله تعالى ﴿**الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**﴾[٥].

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب اتفسير، تفسير سورة البقرة، ومسلم فى كتاب الصيام باب (٣٣).

(٢) مريم: ٢٨، والحديث أخرجه مسلم فى كتاب الآداب، باب (٩).

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده ٦/ ٤٧، والبخارى فى اعلم (٣٥)، ومسلم فى الجنة (٧٩، ٨٠).

(٤) مسند أحمد: ٤/ ٢٩٩.

(٥) الأنعام: ٨٢.

فقد فهم بعض الصحابة رضوان الله عليهم أن الظلم فى هذه الآية يراد منه العموم، وقال أينا لم يظلم نفسه، فوضح له الرسول ﷺ أن العموم هنا غير مراد، وأنه محمول على الخاص، الوارد فى قوله تعالى ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾(١).

فالمخصص وإن كان قرآنًا، إلا أن الرسول ﷺ بين هذا التخصيص لمن جهله(٢).

ب - ورد فى القرآن تحريم الميتة والدم على العموم، ولكن السنة خصصت هذا العموم، حيث قال رسول الله ﷺ: «أحلت لنا ميتتان السمك والجراد، وأحل لنا دمان، الكبد والطحال»(٣).

رابعًا: تقييد المطلق

ومثاله:

أ - قوله تعالى فى سورة النساء ﴿من بعد وصية يوصى بها أو دين﴾ فقد وردت الوصية مطلقة، بدون تحديد، فقيدها الرسول ﷺ بالثلث فى حديث سعد بن أبى وقاص، حيث جاء فيه: «قلت يارسول الله: أوصى بمالى كله؟ قال: لا، قلت: فالشطر؟ قال: لا، قلت: فالثلث؟ قال: فالثلث، والثلث كثير»(٤).

قال ابن حجر عن هذا الحديث: «فيه تقييد مطلق القرآن بالسنة»(٥).

---

(١) لقمان: ١٣.

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير، فى تفسير سورة الأنعام، وغير البخارى.

(٣) أخرجه أبو داود فى سننه، كتاب الأطعمة، باب (٣٤)، وابن ماجه فى سننه، كتاب الأطعمة، باب (٣١).

(٤) أخرجه البخارى، فى كتاب الوصايا، باب (٢).

(٥) فتح البارى: ٥/ ٤٣٤.

ب - ومن أمثلة ذلك أيضًا: قوله تعالى ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ دون تحديد لأى يد يبدأ بقطعها، ومن أين يكون القطع، فجاءت السنة وحددت أن القطع يبدأ باليمنى، ويكون من المفصل.

خامسًا: بيانه ﷺ

أن المنطوق لا مفهوم له

ويظهر هذا إذا كان فى الآية قيد لم يقصد به الاحتراز، وإنما خرج مخرج الغالب، ومن أمثلة ذلك:

أ - قيد السفر فى الرهان المقبوضة، فى قوله تعالى: ﴿وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبًا فرهان مقبوضة﴾[1].

فقد بين ﷺ بفعله أن اشتراط السفر لا مفهوم له، فقد رهن درعًا له عند يهودى فى الحضر.

قال الشوكانى: قوله ﴿وإن كنتم على سفر﴾ لما ذكر سبحانه مشروعية الكتابة والإشهاد لحفظ الأموال ودفع الريب، عقب ذلك بذكر حالة العذر عن وجود الكاتب، ونص على حالة السفر فإنها من جملة أحوال العذر، ويلحق بذلك كل عذر يقوم مقام السفر، وجعل الرهان المقبوضة قائمة مقام الكتابة، أى فإن كنتم مسافرين ﴿ولم تجدوا كاتبًا﴾ فى سفركم ﴿فرهان مقبوضة﴾.

قال أهل العلم: الرهن فى السفر ثابت بنص التنزيل، وفى الحضر بفعل رسول الله ﷺ، كما فى الصحيحين «أنه ﷺ رهن درعًا له من يهودى»[2].

---

(١) البقرة: ٢٨٣.

(٢) فتح القدير: ١/ ٣٣٥.

ب - ومن أمثلة ذلك أيضًا: قيد الخوف من الكفار في قصر الصلاة، الوارد في قوله تعالى ﴿**وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا**﴾[١].

فقد بين ﷺ أن منطوق هذا الشرط لا مفهوم له، وإنما خرج مخرج الغالب.

أخرج أحمد ومسلم وأهل السنن عن يعلى بن أمية قال: سألت عمر بن الخطاب، قلت: ﴿**ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا**﴾ وقد أمن الناس، فقال لي عمر: عجبت مما عجبت منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته»[٢].

قال الشوكاني: «ظاهر هذا الشرط أن القصر لا يجوز في السفر إلا مع خوف الفتنة من الكافرين، لا مع الأمن، ولكنه قد تقرر بالسنة أن النبي ﷺ قصر مع الأمن كما عرفت، فالقصر مع الخوف ثابت بالكتاب، والقصر مع الأمن ثابت بالسنة، ومفهوم الشرط لا يقوى على معارضة ما تواتر عنه ﷺ من القصر مع الأمن.

وقد قيل: إن هذا الشرط خرج مخرج الغالب، لأن الغالب على المسلمين إذ ذاك القصر للخوف في الأسفار، ولهذا قال يعلى بن أمية لعمر ما قال»[٣].

* * *

---

(١) النساء: ١٠١.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب المسافرين، باب (٤)، وأحمد في مسنده ١/ ٢٥، وأهل السنن الأربع.

(٣) فتح القدير: ١/ ٥٠٧.

سادسًا: توضيح المبهم

ومن بيان السنة للقرآن توضيح ما كان مبهمًا على الصحابة، وذلك يتناول أشياء كثيرة، منها:

١ - تعيين أشخاص.
٢ - تعيين جماعات وأقوام.
٣ - تعيين أماكن.
٤ - تعيين أوقات.
٥ - تعيين أعمال.
٦ - تعيين أشجار.
٧ - تعيين أقوال.
٨ - تعيين مواقف.
٩ - تعيين كيفية من الكيفيات.
١٠ - تعيين مسافة من المسافات.
١١ - تعيين معيشة من المعيشات.
١٣٢ - تعيين صلاة من الصلوات.
١٣ - تعليل تسمية من الأسماء.
١٤ - بيان المراد من لفظ، أو مما يتعلق به.

وبيان ذلك كما يلى:

١ - تعيين أشخاص

ومن أمثلة ذلك:

أ - أخرج أحمد والترمذى وصححه وغيرهما عن ابن عباس قال: «أقبلت اليهود إلى النبى ﷺ، فقالوا أخبرنا عن الرعد ما هو؟ قال: ملك من ملائكة الله، موكل بالسحاب، بيده مخراق من نار، يزجر به السحاب، يسوقه حيث أمره الله، قالوا: فما هذا الصوت الذى نسمع؟ قال: صوته»[1].

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده ١/ ٢٧٤، والترمذى فى سننه كتاب التفسير تفسير سورة الرعد.

ب - قال تعالى: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر﴾[(١)].

أخرج الترمذى عن معاوية سمعت رسول الله ﷺ يقول: «طلحة ممن قضى نحبه»[(٢)].

جـ - أخرج الترمذى وغيره أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبأ، أرجل هو أم امرأة، أم أرض؟ فقال: بل هو رجل، ولد له عشرة، فسكن اليمن، منهم ستة، وبالشام منهم أربعة»[(٣)].

د - أخرج الترمذى وغيره عن سمرة عن النبى ﷺ فى قوله ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾، قال: «حام وسام ويافث». وأخرج من وجه آخر: قال «سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم»[(٤)].

٢ - تعيين جماعات وأقوام

أ - أخرج أحمد والترمذى وحسنه وغيرهما عن عدى بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المغضوب عليهم هم اليهود، وإن الضالين هم النصارى»[(٥)].

ب - أخرج أحمد وغيره عن أبى أمامة عن النبى ﷺ فى قوله تعالى ﴿فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه﴾ قال: «هم الخوارج».

وفى قوله تعالى: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ قال: «هم

---

(١) الأحزاب: ٢٣.

(٢) الترمذى: كتاب التفسير، تفسير سورة الأحزاب.

(٣) الترمذى كتاب التفسير، سورة سبأ.

(٤) المصدر السابق، سورة الصافات.

(٥) أحمد فى مسنده ٤/٣٧٨، والترمذى فى تفسير سورة الفاتحة.

الخوارج»[١].

جـ - أخرج الحاكم وصححه عن عياض الأشعرى، قال: «لما نزلت: ﴿فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾ قال رسول الله ﷺ لأبى موسى: «هم قومك يا أبا موسى»[٢].

د - أخرج الطبرانى وغيره بسند جيد[٣]، عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال لعائشة: «إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا هم أصحاب البدع، وأصحاب الأهواء».

هـ - أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ قرأ ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة﴾ وأشار بيده، وقال: «أهل الدنيا فى غفلة»[٤].

تعيين أماكن

أ - أخرج أحمد وغيره عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ ذكر العبد الكافر إذا فيضت روحه، وقال: «فيقول الله: اكتبوا كتابه فى سجين، فى الأرض السفلى»[٥].

ب - أخرج أحمد عن سهيل بن سعد الساعدى قال: اختلف رجلان فى المسجد الذى أسس على التقوى، فقال أحدهما: هو مسجد رسول الله ﷺ، وقال الآخر: هو مسجد قباء، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن ذلك، فقال: هو مسجدى هذا»[٦].

---

(١) أحمد فى مسنده ٥/ ٢٦٢، والآية ١٠٦ آل عمران.

(٢) أخرجه الحاكم فى مستدركه فى تفسير سورة المائدة ٢/ ٢١٣. الآية ٥٤.

(٣) كما قال السيوطى فى الإتقان: ٢/ ٢٠٦.

(٤) البخارى تفسير سورة مريم، ومسلم فى الجنة، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء.

(٥) مسند أحمد: ٤/ ٢٨٨.

(٦) مسند أحمد: ٥/ ١١٦.

جـ - أخرج البخارى وغيره عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة»(١).

د - أخرج البخارى عن أبى ذر رضى الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى ﴿والشمس تجرى لمستقر لها﴾(٢) قال: «مستقرها تحت العرش».

وأخرج عنه أيضًا أنه قال: كنت مع النبى ﷺ فى المسجد عند غروب الشمس، فقال: يا أبا ذر، أتدرى أين تغرب الشمس؟ قلت الله ورسوله أعلم، قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فذلك قوله تعالى ﴿والشمس تجرى لمستقر لها﴾(٣).

هـ - أخرج أحمد ومسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «الكوثر نهر أعطانيه ربى عز وجل فى الجنة»(٤).

تعيين الأوقات

أ - أخرج البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها، ثم قرأ هذه الآية ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك﴾(٥).

ب - أخرج الترمذى عن على قال: «سألت رسول الله ﷺ عن يوم

---

(١) البخارى، كتاب التوحيد، باب (٢٢).

(٢) سورة يس: ٣٨.

(٣) البخارى، كتاب التفسير، تفسير سورة يس.

(٤) أخرجه أحمد فى مسنده: ٣/١٠٢، ومسلم فى كتاب الصلاة باب ٥٣، ٥٤.

(٥) البخارى، كتاب التفسير، تفسير سورة الأنعام آية ١٥٨.

الحج الأكبر فقال: «يوم النحر»[١].

تعيين الأعمال

أ - أخرج الترمذى وغيره عن أنس عن النبى ﷺ فى قوله تعالى: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ قال: «عن قول: لا إله إلا الله»[٢].

ب - أخرج الترمذى وحسنه وغيره، عن أم هانئ عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿وتأتون فى ناديكم المنكر﴾ قال: «كانوا يخذفون أهل الطريق، ويسخرون منهم»[٣].

تعيين أشجار

أ - أخرج أحمد فى مسنده ٣/ ٧١ عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «طوبى شجرة فى الجنة مسيرة مائة عام».

ب - أخرج الترمذى وغيره عن أنس رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ فى قوله ﴿ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة﴾ قال: «هى النخلة»، ﴿ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة﴾ قال: «هى الحنظل»[٤].

تعيين أقوال

أ - أخرج البخارى وغيره عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: قال الله لبنى إسرائيل ﴿وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم﴾ فبدلوا ودخلوا يزحفون على أستاهم، وقالوا حبة فى

---

(١) الترمذى، كتاب التفسير، تفسير سورة التوبة.

(٢) أخرجه الترمذى فى كتاب التفسير، تفسير سورة الحجر آية ٩٢، ٩٣.

(٣) المصدر السابق، تفسير سورة العنكبوت: آية: ٢٩.

(٤) المصدر السابق، فى تفسير سورة إبراهيم، الآيات: ٢٤ - ٢٦.

شعيرة».

وهذا بيان لبقوله تعالى ﴿فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذى قيل لهم﴾[١].

ب - أخرج الأئمة الستة عن البراء بن عازب أن النبى ﷺ قال: المسلم إذا سئل فى القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾[٢].

جـ - أخرج الترمذى عن أبى بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ألزمهم كلمة التقوى» قال: «لا إله إلا الله»[٣].

تعيين مواقف

أخرج أحمد وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى قوله ﴿عسى أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا﴾[٤]. قال: «هو المقام الذى أشفع لأمتى فيه»[٥].

تعيين كيفية من الكيفيات

أ - أخرج الشيخان وغيرهما عن أنس أن رجلاً قال يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: أليس الذى أمشاه على

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير، باب ﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية﴾ الآيتان: ٥٧، ٥٨، من سورة البقرة.

(٢) انظر على سبيل المثال: البخارى، كتاب التفسير باب تفسير سورة إبراهيم آية ٢٧، والترمذى فى الكتاب نفسه، والباب كذلك.

(٣) أخرجه الترمذى فى كتاب التفسير، باب تفسير سورة الفتح، الآية: ٢٦.

(٤) الإسراء: ٧٩.

(٥) أخرجه أحمد فى مسنده ٢/ ٤٤١، ٥٢٨.

رجليه فى الدنيا قادرًا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟»[(١)].

ب - أخرج أحمد والترمذى عن أبى سعيد عن النبى ﷺ قال: ﴿وهم فيها كالحون﴾ قال: «تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخى شفته السفلى، حتى تضرب سرته»[(٢)].

جـ - أخرج البخارى عن أبى هريرة مرفوعًا قال: «إذا قضى الله الأمر فى السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها، خضعانًا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير»[(٣)].

تعيين المعيشة

أخرج البزار وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿فإن له معيشة ضنكًا﴾ قال: «عذاب القبر».

قال ابن كثير بعد أن أورده فى تفسير سورة طه: «إسناده جيد»[(٤)].

تعيين مسافة

أ - أخرج البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها، إقرءوا إن شئتم

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير، تفسير سورة الفرقان، ومسلم فى كتاب صفات المنافقين، باب (٥٤).

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده: ٣/٨٨، والترمذى فى كتاب التفسير باب تفسير سورة المؤمنين، الآية: ١٠٤.

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير، باب تفسير سورة «سبأ»، الآية ٢٣.

(٤) انظر تفسير ابن كثير ٥/٣١٧ - ط. الشعب، الآية ١٢٤ من سورة طه.

﴿وظل ممدود﴾[١][٢].

ب - أخرج الترمذى وغيره عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ فى قوله ﴿وفرش مرفوعة﴾ قال: ارتفاعها كما بين السماء والأرض، ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام»[٣].

جـ - أخرج أحمد والترمذى عن أبى سعيد عن رسول الله ﷺ قال: «الصَّعُود: جبل من نار جهنم، يتصعد فيه سبعين خريفًا، يهوى به كذلك»[٤].

تعيين الصلاة

أخرج أحمد والترمذى وغيرهما أن رسول الله ﷺ قال: «**الصلاة الوسطى صلاة العصر**»[٥].

تعليل تسمية

أخرج الترمذى وحسنه، عن ابن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما سمى البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار**»[٦].

سابعًا: بيان المراد من لفظ، أو ما يتعلق به

أ - أخرج الترمذى والحاكم وصححاه، وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى

---

(١) الواقعة: ٣٠.

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير، باب تفسير سورة الواقعة، ومسلم فى كتاب الجنة باب (٦-٨).

(٣) أخرجه الترمذى فى كتاب التفسير، باب تفسير سورة الواقعة - آية ٣٤.

(٤) أخرجه أحمد فى مسنده: ٣/ ٧٥، والترمذى فى كتاب التفسير باب تفسير سورة المدثر الآية: ١٧.

(٥) أخرجه أحمد فى المسند: ٥/ ١٢، ١٣، ٢٢، والترمذى فى كتاب التفسير، باب تفسير سورة البقرة الآية ٢٣٨.

(٦) أخرجه الترمذى فى كتاب التفسير، باب تفسير سورة الحج آية ٢٩.

عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطًا﴾ قال: «عدلاً»(١).

ب - أخرج البخارى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته، مثل له شجاعًا أقرع، له زبيبتان، يطوقه يوم القيامة، فيأخذ بلهزمتيه - يعنى شدقيه - يقول: أنا مالك، أنا كنزك ثم تلا هذه الآية: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله﴾ الآية(٢).

جـ - أخرج مسلم وغيره عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾، ألا وإن القوة هى الرمى»(٣).

د - أخرج ابن جرير الطبرى وغيره أن النبى ﷺ قال فى قوله تعالى ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾: «الحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى ربهم»(٤).

هـ - أخرج أحمد والترمذى وغيرهما عن أبى الدرداء، أنه سئل عن هذه الآية ﴿لهم البشرى فى الحياة الدنيا﴾ قال: ما سألنى عنها أحد منذ سألت النبى ﷺ، فقال: ما سألنى عنها أحد غيرك منذ أنزلت، هى الرؤيا الصالحة، يراها المسلم أو ترى له، فهى بشراه فى الحياة الدنيا، وبشراه فى الآخرة الجنة»(٥).

---

(١) أخرجه كل من الترمذى والحاكم فى كتاب التفسير، باب تفسير سورة البقرة.

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير، باب تفسير سورة آل عمران، آية ١٨٠.

(٣) أخرجه مسلم فى كتاب الإمارة، باب (١٦٧)، آية ٦٠ من سورة الأنفال.

(٤) أخرجه ابن جرير الطبرى فى تفسيره: ١٥/٦٩ رقم ١٧٦٣٣.

(٥) أخرجه أحمد فى مسنده: ٦/٤٤٥، والترمذى فى تفسير سورة يونس وابن جرير الطبرى: ١٥/١٢٨.

و - أخرج أحمد عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال: «**الباقيات الصالحات: التكبير والتهليل، والتسبيح، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله**»[١].

ز - أخرج مسلم والترمذى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «إذا أحب الله عبدًا نادى جبريل، إنى قد أحببت فلانًا فأحبه، فينادى فى السماء، ثم تنزل له المحبة فى الأرض، فذلك قوله ﴿**سيجعل لهم الرحمن ودًا**﴾[٢].

حـ - أخرج الترمذى وغيره، عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**»[٣]. وقرأ ﴿وقال ربكم ادعونى استجب لكم . إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين﴾[٤].

ط - أخرج مسلم وغيره عن أبى هريرة قال: قيل يارسول الله: ما الغيبة؟ قال: «ذكرك أخاك بما يكره»، قيل: أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»[٥].

ثامنًا: التأكيد لما جاء فى القرآن

ومن أوجه بيان السنة للقرآن أيضًا، تأكيد ما جاء فيه، أى أن فى القرآن أشياء جاء ذكرها فى السنة أيضًا، زيادة فى التوضيح، وتقوية لها

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده: ٣/ ٧٥.

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب البر، باب إذا أحب الله عبداً حببه لعباده، والترمذى فى تفسير سورة مريم.

(٣) أخرجه الترمذى فى كتاب التفسير، تفسير سورة البقرة.

(٤) غافر: ٦٠.

(٥) أخرجه مسلم فى كتاب البر، باب (٧٠).

وتأكيداً.

مثال ذلك:

أ - قوله ﷺ في قصة موسى والخضر «كانت الأولى من موسى نسياناً والوسطى شرطاً والثالثة عمداً»[1]. فهذا تأكيد لما جاء في القرآن من أفعال موسى عليه السلام في هذه القصة.

ب - وقوله تعالى: ﴿**وعاشروهن بالمعروف**﴾[2]. جاء تأكيده بقوله ﷺ: «**اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله**»[3].

تاسعاً: بيان أحكام زائدة

لم يرد ذكرها في القرآن

ومن أوجه بيان السنة للقرآن كذلك، مجيئها بأحكام زائدة لم يرد لها ذكر في القرآن ومن أمثلة ذلك ما يأتي:

أ - تحريم الجمع بين المرأة وعمتها، أو خالتها.

ب - ميراث الجدة.

جـ - الحكم بشاهد ويمين.

د - صدقة الفطر.

هـ - أحكام الشفعة.

و - تحريم كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطيور، والحمر الأهلية.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الكهف.

(٢) النساء: ١٩.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب (١٤٧).

ز - حرمان الكافر من ميراث قريبه المسلم، وكذلك حرمان القاتل، والرقيق.

إلى غير ذلك من الأحكام الكثيرة، والتى أفاض فى ذكرها العلماء، كابن القيم فى كتابه القيم «أعلام الموقعين»، فى الجزء الثانى.

عاشراً: البيان بطريق النسخ

وفى هذا الوجه خلاف بين العلماء، وإنى أميل إلى الرأى القائل بأن السنة لم يرد فيها نسخ للقرآن الكريم، بدليل أنهم لم يأتوا لنا بأمثلة تؤيد رأيهم، سوى أربع آيات فقط[١]، نرد عليهم فى شأنها بما يلى:

الآية الأولى: قالوا إن آية الجلد، وهى قوله تعالى **﴿الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾**[٢]. تشمل المحصنين وغير المحصنين من الزناة، ثم جاءت السنة فنسخت عمومها بالنسبة إلى المحصنين، وحكمت بأن جزاءهم الرجم.

ويجاب عن هذا:

١ - بأن هذا تخصيص وليس نسخًا، وبينهما فرق كبير، فتخصيص القرآن بالسنة، وارد شرعًا، فوق كونه جائزًا عقلاً.

٢ - إن المخصص لآية الجلد، ليس السنة وإنما آية الرجم المنسوخة تلاوة لا حكمًا، وهى «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البته»، وإن كانت السنة جاءت موافقة ومؤكدة لذلك.

الآية الثانية: قالوا إن قوله تعالى **﴿واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن فى**

---

(١) انظر مناهل العرفان للزرقانى: ١٣٨/٢، ١٣٩.

(٢) النور: ٢.

البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً﴾[١]، منسوخ بقوله ﷺ : «خذوا عنى، خذوا عنى، قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر، جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم».

ويجاب على هذا الاستدلال بأن الناسخ هو آية الجلد وآية الشيخ والشيخة، وإن كان الحديث جاء موافقًا ومؤكدًا، بدليل أن الرسول ﷺ قال قد جعل الله لهن سبيلاً.

الآية الثالثة: قالوا إن قوله تعالى ﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقًا على المتقين﴾[٢] منسوخ بقوله ﷺ : «لا وصية لوارث».

ويجاب عن ذلك بأن هذا الحديث الذى استشهدوا به يرد عليهم، إذ أنه يبين أن الناسخ فى الحقيقة هو آيات المواريث.

فنص الحديث كما يلى: «إن الله أعطى كل ذى حق حقه، فلا وصية لوارث»[٣].

ويؤيد ذلك بوضوح ما رواه أبو داود فى سننه عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى ﴿إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين﴾، «وكانت الوصية كذلك حتى نسختها آية المواريث»[٤].

الآية الرابعة: قالوا إن قوله تعالى ﴿قل لا أجد فيما أوحى إلىّ محرمًا على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دمًا مسفوحًا أو لحم خنزير، فإنه رجز أو فسقًا أهل لغير الله به﴾[٥]، منسوخ بنهيه ﷺ عن

---

(١) النساء: ١٥.

(٢) البقرة: ١٨٠.

(٣) أخرجه أبو داود فى سننه فى كتاب الوصايا، باب الوصية للوارث.

(٤) سنن أبى داود، كتاب الوصايا، باب نسخ الوصية للوالدين والأقربين.

(٥) الأنعام: ١٤٥.

كل ذى ناب من السباع، وكل ذى مخلب من الطيور[١].

ويجاب عن ذلك بأن الآية الكريمة لم تتعرض لإباحة ما عدا الذى ذكر فيها، وأن الحصر فيها غير مقصود بدليل أنها نزلت بسبب أولئك المشركين الذين حادوا الله ورسوله فحرموا ما أحل الله، وأحلوا ما حرم الله فنزلت الآية ترد عليهم بحصر صورى، كأنها تقول لهم لا حلال إلا ما حرمتموه، ولا حرام إلا ما أحللتموه، ولم ترد الحصر الحقيقى.

نقل السبكى عن الشافعى أنه قال[٢]:

«إن الكفار لما حرموا ما أحل الله، وأحلوا ما حرم الله، وكانوا على المضادة والمحادة، جاءت الآية مناقضة لغرضهم، فكأنه قال: لا حلال إلا ما حرمتموه ولا حرام إلا ما أحللتموه، نازلاً منزلة من يقول لك لا تأكل اليوم حلاوة، فتقول لا آكل اليوم إلا حلاوة، ولغرض المضادة لا النفى والإثبات على الحقيقة، فكأنه تعالى قال: «لا حرام إلا ما أحللتموه من الميتة والدم ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، ولم يقصد حل ما وراءه، إذ القصد إثبات التحريم، لا إثبات الحل». أ.هـ.

ويؤيد هذا أن الآية الثالثة من سورة المائدة ورد فيها عدة محرمات زائدة على ما فى آية الأنعام، التى يدعون نسخها بالسنة، ونرد أيضًا بأن نقول كيف نسخت آية الأنعام مع أن المحرمات فيها مازالت محرمة وستظل إلى يوم الدين.

وبناء على ما سبق فإننا نستطيع أن نقول إن السنة لم يرد فيها نسخ لأى آية من القرآن.

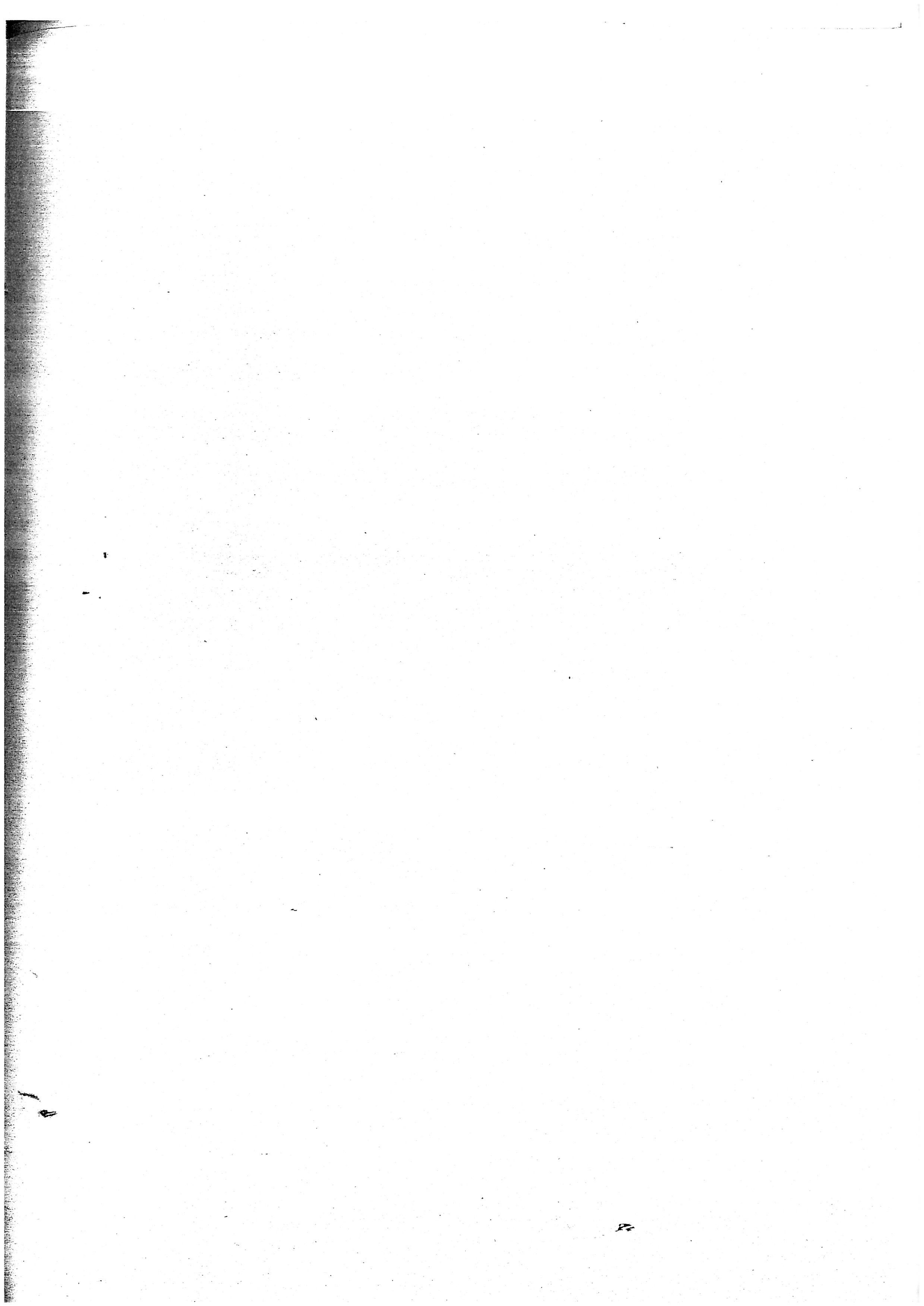
---

(١) صحيح مسلم، كتاب الصيد، باب (١٥، ١٦) وأخرجه غيره أيضًا.

(٢) نقلاً عن مناهل العرفان للزرقانى: ١/ ١٠٥.

الفصل الثالث

المصدر الثالث
من مصادر التفسير بالمأثور
أقوال الصحابة رضى الله عنهم



المبحث الأول

من هو الصحابى؟

إن لم يجد المفسر تفسيراً للآيـة فى القرآن، أو فى السنة، فعليه أن يتجـه بعد ذلك مباشرة إلى أقوال الصحابة، فإنـهم يعتبرون المصدر الثالث لتفسير القرآن، وعلمهم مقدم على كل علم.

قال عنهم الإمام الشافعى -رحمه الله-:

«وهم فوقنا فى كل علم، واجتهاد وورع وعقل، وأمر استدرك به علم، واستنبط بـه، وآراؤهم لنا أحـمد، وأولى بنـا من آرائنا عـندنا لأنفسنا»(١).

وحينـما يقدم المفسرون آراء الصحابة عـلى كل البشـر، فإن ذلك يرجع إلـى شهودهم الوحى والتنزيل، وحضـورهم إجابة السائـلين، ومشاهـدتهم أسباب النزول، وشدة حـرصهم علـى ملازمة مجلس الرسول ﷺ . .

أخرج البخارى فى صحيحه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال:

«كنت أنا وجار لى من الأنصار، فـى بنى أمية بن زيد - وهى من عوالى المدينـة - وكنا نتناوب النزول على رسـول الله ﷺ ينزل يومًا وأنزل يومًا، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم، من الوحى وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك»(١).

كما أن ذلك يرجع إلى تزكية الله ورسوله إياهم.

---

(١) التقييد والإيضاح، شرح مقدمة ابن الصلاح، للحافظ العراقى: ٣٠٥.

(٢) البخارى، كتاب العلم، باب التناوب فى العلم.

قال تعالى: ﴿وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها﴾[١].

وقال رسول الله ﷺ: «خير الناس قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[٢].

وحذر الرسول ﷺ من إيذائهم، بل اعتبر حبهم دليلاً على حبه وحب الله عز وجل، وبغضهم دليلاً على بغضه وبغضه عز وجل، وأن بغضهم سبب فى استجلاب عذاب الله تعالى.

حيث قال رسول الله ﷺ: «الله الله فى أصحابى، لا تتخذوهم غرضًا، فمن أحبهم فبحبى أحبهم، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذانى، ومن آذانى فقد آذى الله، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه»[٣].

إن الصحابة هم الذين نقلوا إلينا الإسلام، وكانوا الواسطة بيننا وبين الرسول ﷺ.. فهم أشرف خلقه فى تلك السلسلة النورانية التى حملت نور الإسلام. ولذا قال ﷺ: «خير أمتى قرنى»[٤].

ولكن على من يطلق لفظ الصحابة؟

تعريف الصحابى

للصحابى تعريف فى اللغة، وتعريف فى الاصطلاح..

أما فى اللغة.. فهو مشتق من الصحبة، وهى فى الأصل بمعنى المعاشرة والملازمة[٥]، وتطلق على القليلة والكثيرة.

قال الفراء: «الصاحب فى اللغة من صحب غيره قليلاً أو كثيرًا،

---

(١) الفتح: ٢٦.

(٢) البخارى: كتاب فضائل الصحابة، باب (١).

(٣) الترمذى، فى كتاب المناقب، باب (٥٨).

(٤) أخرجه البخارى فى فضائل الصحابة، باب (١).

(٥) لسان العرب (صحب).

ألا ترى أنه يقال صحبت فلانًا، وصحبته ساعة؟

ولأن ذلك الاسم مشتق من الصحبة، وذلك يقع على القليل والكثير، كالضارب مشتق من الضرب، والمتكلم مشتق من الكلام، وذلك يقع على القليل والكثير، كذلك ههنا»[١].

أما فى الاصطلاح

فقد ذهب جمهور الأمة سلفًا وخلفًا على أن الصحابى هو:

«من لقى النبى ﷺ مسلمًا، ثم مات على ذلك».

وعلى ذلك: فيدخل فى قولنا: «من لقى النبى ﷺ مسلمًا» من طال لقاؤه به أو قصر، صحبه كثيرًا، أو قليلاً، غزا معه أو لم يغز، روى عنه أو لم يرو.

وخرج بذلك: من أسلم فى عصره، ولم يلقه كالنجاشى، أو من لقيه كافرًا.

وخرج بقولنا: «ثم مات على الإسلام» من لقيه مسلمًا ثم ارتد ومات كافرًا، كعبيد الله بن جحش الذى كان زوجًا لأم حبيبة، حيث أسلما وهاجرا إلى الحبشة، وعبد الله بن خطل، الذى قتل وهو متعلق بأستار الكعبة، حيث كانا مسلمين ثم ارتدا، وماتا على كفرهما.

وعلى هذا فما ذهب إليه البعض كسعيد بن المسيب رحمه الله من أن الصحبة لا تتحقق إلا من خلال الملازمة الطويلة لرسول الله ﷺ، أو الغزو معه أو الرواية عنه، ليس بلازم، لأن الصحبة فى اللغة لا يشترط فيها ذلك، ولأنه ليس كل من صحب الرسول ﷺ حدث عنه.

---

(١) العدة فى أصول الفقه، لأبى يعلى الفراء: ٣/٩٨٨، ٩٨٩ - ط: الرسالة.

قال الفراء:

«ليس يحتاج فى إطلاق هذا الاسم إلى من قد روى الحديث عنه ﷺ، وأخذ العلم عنه، لأن جماعة من الصحابة قد امتنعوا من رواية الحديث، ولم يكن ذلك مانعًا من إجراء هذا الاسم عليه، يبين صحة هذا أن دواعيهم كانت مختلفة، وكان بعضهم لا يرى الرواية، وكانوا يؤثرون الاشتغال بالجهاد على الرواية.

قال السائب بن يزيد: «صحبت سعد بن أبى وقاص زمانًا، فما سمعت منه حديثًا إلا أنى سمعته ذات يوم يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا يفرق بين مجتمع، ولا يجمع بين متفرق، والخليطان ما اجتمعا فى الحوض والفحل والراعى»[١].

وكذلك أخذ العلم منه لا يكون شرطًا فى استحقاق هذه التسمية، لأن من اختص بغيره فإنه يطلق عليه أنه صاحب فلان، وإن لم يأخذ منه العلم»[٢].

ويعقب ابن الصلاح فى مقدمته على ما اشترطه سعيد بن المسيب من ضرورة طول الملازمة للرسول ﷺ أو الغزو معه بقوله:

«وكأن المراد بهذا - إن صح عنه - راجع إلى المحكى عن الأصوليين، ولكن فى عبارته ضيق، يوجب أن لا يعد من الصحابة جرير بن عبد الله البجلى، ومن شاركه، فى فقد ظاهر ما اشترطه فيهم، ممن لا نعرف خلافًا فى عده من الصحابة»[٣].

وفى الباعث الحثيث يذكر ابن كثير قول الجمهور، الذى لا يشترط إلا الرؤية حال الإسلام، والموت عليه، وقول غيرهم من اشتراط الرواية

---

(١) أصل الحديث فى البخارى فى كتاب الزكاة (٣٤) وفى غيره.

(٢) العدة فى أصول الفقه: ٣/ ٩٨٨، ٩٨٩.

(٣) مقدمة ابن الصلاح: ١٤٥، ١٤٦.

أو الغزو معه ﷺ ، ثم يرجح رأى الجمهور، الذى لا يشترط إلا الرؤية، نظرًا لجلالة قدر الرسول ﷺ ، وقدر من رآه مسلمًا ومات على ذلك.

يقول رحمه الله:

«والصحابى من رأى رسول الله ﷺ ، فى حال إسلام الرائى، وإن لم تطل صحبته له، وإن لم يرو عنه شيئًا».

ثم يقول: «هذا قول جمهور العلماء خلفًا وسلفًا، وقد نص على أن مجرد الرؤية كاف فى إطلاق الصحبة: البخارى وأبو زرعة، وغير واحد ممن صنف فى أسماء الصحابة، كابن عبد البر، وابن منده، وأبى موسى المدينى، وابن الأثير، فى كتابه «أسد الغابة».

وقال آخرون: لابد فى إطلاق الصحبة مع الرؤية، أن يروى حديثًا أو حديثين، وعن سعيد بن المسيب: لابد من أن يصحبه سنة أو سنتين، أو يغزو معه غزوة أو غزوتين.

وروى شعبة عن موسى السبلانى - وأثنى عليه خيرًا - قال: قلت لأنس بن مالك: هل بقى من أصحاب رسول الله ﷺ أحد غيرك؟ قال: أناس من الأعراب، رأوه، فأما من صحبه فلا، رواه مسلم بحضرة أبى زرعة.

قال ابن كثير: «وهذا إنما نفى فيه الصحبة الخاصة، ولا ينفى ما اصطلح عليه الجمهور، من أن مجرد الصحبة الرؤية كاف فى إطلاق الصحبة، لشرف رسول الله ﷺ ، وجلالة قدره، وقدر من رآه من المسلمين.

ولهذا جاء فى بعض ألفاظ الحديث: «تغزون فيقال هل فيكم من رأى رسول الله ﷺ ؟ فيقولون: نعم، فيفتح لكم، حتى ذكر «من

رأى من رأى رسول الله ﷺ»[١].

بم تعرف الصحبة؟

لمعرفة صحبة أحد من صحابة رسول الله ﷺ ، عدة طرق، أبرزها ما يلى[٢]:

١ - التواتر، بأن يتواتر عن شخص أنه صحابى، كالخلفاء الأربعة، وبقية العشرة المبشرين بالجنة.

٢ - الشهرة والاستفاضة، التى لم ترق إلى حد التواتر، كضمام بن ثعلبة، وعكاشة بن محصن.

٣ - قول صحابى آخر: إن فلانًا صحابى، كحممة بن أبى حممة الدوسى، الذى مات بأصبهان مبطونًا، فشهد له أبو موسى الأشعرى أنه سمع النبى ﷺ حكم له بالشهادة.

قال السيوطى: «ذكر ذلك أبو نعيم فى تاريخ أصبهان، وروينا قصته فى مسند الطيالسى، ومعجم الطبرانى وزاد شيخ الإسلام ابن حجر **بعد هذا:** أن يخبر أحد التابعين بأنه صحابى، بناء على قبول التزكية من واحد، وهو الأرجح»[٣].

٤ - إخبار الشخص عن نفسه بأنه صحابى، إن كان عدلاً، إذا أمكن ذلك.

فإن ادعاها بعد مائة سنة من وفاته ﷺ فإنه لا يقبل، وإن ثبتت عدالته قبل ذلك. لقوله ﷺ فى الحديث: «أرأيتكم ليلتكم هذه، فإنه على رأس مائة سنة لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد»[٤].

---

(١) الباعث الحثيث: ٩٤ - ط. دار الفكر.

(٢) انظر فى ذلك على سبيل المثال: المصدر السابق، وتدريب الراوى ص: ٢٠٤ - ط. المطبعة الخيرية.

(٣) تدريب الراوى ٢٠٤.

(٤) أخرجه البخارى فى كتاب العلم، باب السمر فى العلم.

عدالة الصحابة

عدالة الصحابة من الأمور الثابتة لهم، والتى لا يسأل عنها، وهى خاصة بهم دون من عداهم من أى قرن سابق أو لاحق على مر الزمان. .

وقد ثبتت لهم بما هو شائع فى القرآن والسنة، وإجماع الأمة.

وقد ذكرنا فى مقدمة هذا المبحث بعض النصوص القرآنية والنبوية، وقولاً للإمام الشافعى رحمه الله.

وعن الصحابة وعدالتهم وثبوتها لهم بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، يقول ابن الصلاح:

«للصحابة بأسرهم خصيصة، وهى أنه لا يسأل عن عدالة أحدٍ منهم، بل ذلك أمر مفروغ منه، لكونهم على الإطلاق معدلين، بنصوص الكتاب والسنة، وإجماع من يعتد به فى الإجماع من الأمة.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس**﴾[1] الآية، قيل اتفق المفسرون على أنه وارد فى أصحاب رسول الله ﷺ.

وقال تعالى: ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس**﴾[2].

وهذا خطاب مع الموجودين حينئذ.

وفى نصوص السنة الشاهدة بذلك كثرة، منها:

حديث أبى سعيد المتفق على صحته أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسبوا أصحابى، فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه»[3].

---

(١) آل عمران: ١١٠. (٢) البقرة: ١٤٣.

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب فضائل أصحاب النبى ﷺ (٥) ومسلم فى فضائل الصحابة ح(٢٢١).

ثم إن الأمة مجمعة على تعديل جميع الصحابة، ومن لابس الفتن منهم فكذلك، بإجماع الذين يعتد بهم فى الإجماع، إحسانًا للظن بهم، ونظرًا إلى ما تمهد لهم من المآثر.

وكأن الله سبحانه وتعالى أتاح الإجماع على ذلك، لكونهم نقلة الشريعة والله أعلم»[١].

وقال أبو زرعة الرازى: «إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ، فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول ﷺ عندنا حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة»[٢].

* * *

---

(١) مقدمة ابن الصلاح: ١٤٦، ١٤٧.

(٢) التقييد والإيضاح، شرح مقدمة ابن الصلاح للحافظ العراقى: ٣٠٥.

المبحث الثاني

اجتهاد الصحابة فى التفسير

فى العهد النبوى كان الصحابة إذا خفى عليهم شئ مما يتعلق بالقرآن، ذهبوا إليه ﷺ فيكشف لهم هذا الخفاء..

وبعد هذا العهد المبارك كان أحدهم إذا اشتبه عليه معنى من المعانى نظر فى القرآن فإن وجد بغيته فيه فبها ونعمت، وإلا انتقل إلى السنة، فإن وجدها فيها، فبها ونعمت أيضًا..

فإن لم يجدوا ما يبحثون عنه فى القرآن أو فى السنة نظروا إليه من حيث تعلقه بمعرفة اللغة، أو عدم تعلقه.

فإن كان متعلقًا بها: فسروه على حسب ما تقتضيه تلك اللغة، وعلى وفق ما تستلزمه القواعد الشرعية.

فهم أهل اللغة، وفرسان ميدانها، وصناع تراكيبها، حتى أصبحت صدورهم دووانيها، وسجلات شعرها ونثرها.

وإن كان المبحوث عنه لا يتعلق باللغة، ويحتاج إلى إجهاد العقول وكد الأفكار، أجهدوا عقولهم، وكدوا أفكارهم، ابتغاء الوصول إليه.

ولم يكن اجتهادهم هذا قائمًا على فراغ، وإنما كانت له مقوماته القوية وأركانه الركينة.

ومن أهم تلك المقومات، ما يأتى:

مقومات اجتهادهم

١ - قوة حافظتهم، ودقة فهمهم.

فقد كانوا يتمتعون بحافظة قوية، وفهم دقيق، وذلك محض فضل يخص به الله من يشاء من عباده.

أخرج البخارى فى صحيحه عن أبى جحيفة رضى الله عنه أنه قال: قلت لعلى رضى الله عنه: هل عندكم شئ من الوحى إلا ما فى كتاب الله؟ قال: لا، والذى فلق الحبة، وبرأ النسمة، ما أعلمه إلا فهمًا يعطيه الله رجلاً فى القرآن، وما فى هذه الصحيفة.

قلت: وما فى هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافر»[1].

وبرز فى قوة الحافظة ودقة الفهم كثيرون، فاقوا غيرهم، كالخلفاء الأربعة، وأبى هريرة، وزيد بن ثابت وابن عباس رضى الله عنهم أجمعين.

أخرج البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قلت يارسول الله إنى سمعت منك حديثًا كثيرًا فأنساه، قال: ابسط رداءك، فبسطته، فغرف بيديه فيه، ثم قال: ضمه، فضممته، فما نسيت حديثًا بعد»[2].

وأخرج أبو داود والترمذى عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال: «أمرنى رسول الله ﷺ، فتعلمت له كتاب يهود - وفى رواية للترمذى - أن أتعلم السريانية - وقال: إنى والله ما آمن يهود على كتابى»، فتعلمته، فلم يمر بى إلا نصف الشهر، حتى حذقته، فكنت أكتب له إذا كتب، وأقرأ له إذا كتب إليه»[1].

والأمثلة والأدلة على ذلك كثيرة، يضيق المقام عن ذكرها.

٢ - وقوفهم على مفردات اللغة وتراكيبها، ومعرفتهم أساليبها

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الجهاد باب (فكاك الأسير).

(٢) أخرجه البخارى، كتاب المناقب، باب علامات النبوة.

(٣) الترمذى: كتاب الاستئذان، باب ما جاء فى تعليم السريانية، وأبو داود: كتاب العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب.

ومراميها. . وبلوغهم قمة الفصاحة، وسنام البلاغة. فقد كان عهدهم العهد الذهبى للفصاحة والبلاغة العربية. .

ويصور لنا القاضى عياض فى كتابه الشفاء مدى ما وصل إليه العرب من البلاغة فى عهد نزول القرآن، فيقول:

«خُصُّوا من البلاغة والحكم بما لم يخص به غيرهم من الأمم، وأوتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت إنسان، ومن فصل الخطاب ما يقيد الألباب، وجعل الله لهم ذلك طبعًا وخلقة، وفيهم غريزة وقوة، يأتون منه على البديهة بالعجب، ويدلون به إلى كل سبب، فيخطبون بديها فى المقامات وشديد الخطب، ويرتجزون به بين الطعن والضرب، ويمدحون ويقدحون، ويتوسلون ويتوصلون، ويرفعون ويضعون، فيأتون من ذلك بالسحر الحلال، ويطوقون من أوصافهم أجمل من سمط اللآل، فيخدعون الألباب، ويذللون الصعاب، ويذهبون الإحن، ويهيجون الدمن، ويجرئون الجبان، منهم البدوى ذو اللفظ الجزل، والقول الفصل، والكلام الفخم، والطبع الجوهرى، والمنزع القوى، ومنهم الحضرى، ذو البلاغة البارعة، والألفاظ الناصعة، والكلمات الجامعة، والطبع السهل، والتصرف فى القول، القليل الكلفة، الكثير الرونق، الرقيق الحاشية»(١).

٣ - ومن مقومات اجتهادهم، ووسائل تفسيرهم للقرآن أيضًا: معرفتهم لعادات العرب وطبائعها. .

فهناك بعض الآيات لا يمكن فهمها إلا بعد الوقوف على معرفة هذه العادات والطبائع.

ومن ذلك:

---

(١) الشفاء: ١/١٦٦، ١٦٧، - ط. مصطفى الحلبى.

أ - قوله تعالى: ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾[١] فهذه الآية الكريمة لا يمكن فهمها بحال إلا من خلال معرفة عادات العرب، فقد كانت الأنصار وسائر العرب غير قريش إذا أهلوا بحج أو عمرة، وأرادوا دخول البيت بعد الإحرام لحاجة من حوائجهم لا يدخلون من أبواب البيوت، وإنما من ظهورها، حتى لا يحول بينهم وبين السماء حائل، فكان أحدهم يتسنم ظهر بيته على الجدران، ثم يقوم فى حجرته، فيأمر بحاجته، فتخرج إليه من بيته، ويرون هذا من البر[٢]، فنفى الله تعالى أن يكون هذا برًا.

أخرج البخارى وغيره عن البراء، قال: كانوا إذا أحرموا فى الجاهلية أتوا البيوت من ظهورها فنزلت ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾.. الآية[٣].

ب - وقوله تعالى ﴿إنما النسئ زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عامًا ويحرمونه عامًا ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله﴾[٤].

فهذه الآية لا تفهم إلا من خلال معرفة عادات العرب.

فقد كانت العرب تحرم القتال فى الأشهر الحرم، فإذا احتاجوا إلى القتال فيها قاتلوا فيها وحرموا غيرها، فإذا قاتلوا فى المحرم حرموا بدله شهر صفر، وهكذا فى غيره.

وكان الذى يحملهم على هذا أن كثيرًا منهم إنما كانوا يعيشون

---

(١) البقرة: ١٨٩.

(٢) انظر تفسير القرطبى: ١/ ٣٤٤، ٣٤٥.

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير، فى تفسير سورة البقرة.

(٤) التوبة: ٣٧.

بالغارة على بعضهم، ونهب ما يمكنهم نهبه من أموال من يغيرون عليه، ويقع بينهم بسبب ذلك القتال.

وكانت الأشهر الحرم الثلاثة المتتالية، ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم يَضُرُّبهم تواليها، وتشتد حاجتهم، وتعظمم فاقتهم، فيحللون بعضها ويحرمون مكانه بقدره من غير الأشهر الحرم، فهذا هو معنى النسئ الذى كانوا يفعلونه[١].

إلى أن أتى الرسول لله ﷺ فحرم الله هذا النسئ، وأعاد الأمور إلى نصابها.

أخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى بكر أن النبى ﷺ خطب فى حجته فقال:

«إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر، الذى بين جمادى وشعبان»[٢].

وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: «كانت العرب يحلون عامًا شهراً وعامًا شهرين ولا يصيبون الحج إلا فى كل سنة وعشرين سنة مرة، وهى النسئ، الذى ذكره الله فى كتابه.

فلما كان عامَ حجَّ أبو بكر بالناس وافق ذلك العام، فسماه الله الحج الأكبر، ثم حج رسول الله ﷺ من العام المقبل، واستقبل الناس الأهلة، فقال رسول الله ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»[٣].

---

(١) انظر تفسير الشوكانى وغيره لهذه الآية.

(٢) أخرجه البخارى فى تفسير سورة التوبة ومسلم فى القسامة باب (٢٩).

(٣) فتح القدير للشوكانى: ٤١١/٢.

٤ - ومن مقومات اجتهاد الصحابة أيضًا فى تفسير القرآن:

معرفتهم بملابسات القرآن، وأسباب نزوله، فقد شاهدوا ما لم يشاهده غيرهم، وعايشوا ما لم يعايشه سواهم، وبالتالى فقد استأثروا بمعرفة معنى الآيات التى يتوقف معناها على مشاهدة ما شاهدوه، ومعاصرة ما عاصروه.

يقول ابن تيمية رحمه الله:

«معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب»(١).

وقد أخرج البخارى ومسلم عن عروة رضى الله عنه قال:

«سألت عائشة رضى الله عنها، فقلت لها: أرأيت قول الله تعالى **﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾**(٢)، فوالله ما على أحد جناح أن لا يطوف بالصفا والمروة، قالت بئس ما قلت يابن أختى، إن هذه لو كانت كما أوَّلْتَها عليه كانت لا جناح عليه أن لا يتطوف بهما، ولكنها أنزلت فى الأنصار، كانوا قبل أن يسلموا يُهِلُّون لمناة الطاغية، التى كانوا يعبدونها عند المشلل، فكان من أهلَّ يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة، فلما أسلموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، قالوا يا رسول الله: إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة، فأنزل الله تعالى **﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾** الآية.

قالت عائشة رضى الله عنها: «وقد سن رسول الله ﷺ الطواف بينهما فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما، ثم أخبرت أبا بكر بن عبد

---

(١) مقدمة فى أصول التفسير: ٤٧.

(٢) البقرة: ١٥٨.

الرحمن فقال: إن هذا لعلم ما كنت سمعته»(١).

تفاوت الصحابة فى فهم معانى القرآن وأسباب ذلك

وإذا كان الصحابة قد بلغوا مرتبة الاجتهاد، وامتلكوا مقوماته، فإنهم رضوان الله عليهم لم يكونوا فى هذا الاجتهاد على مرتبة واحدة، وإنما كانوا متفاوتين.

فقد كان بعضهم يفهم من الآية ما لا يفهمه الآخرون، ويستنبط أحدهم منها ما لا يخطر ببال غيره، وقد يبدو لأحدهم ما هو غاية فى الإشكال، بينما يبدو عند غيره ما هو غاية فى الوضوح.

ويرجع هذا التفاوت إلى أسباب متعددة، نقتصر على أبرزها، كما يلى:

أسباب التفاوت

١ - الملابسات التى اكتنفت النص القرآنى:

فقد يكون لدى البعض دراية بها، نتيجة شدة ملازمته لرسول الله ﷺ، بينما يكون الآخر جاهلاً بها. إذ لم يكونوا على درجة واحدة من هذه الملازمة.

حتى الذين عرفوا بشدة ملازمتهم قد يفوتهم أمر لم يشهدوه، ومن أمثلة ذلك. ما أخرجه مسلم فى صحيحه أن أبا سلمة بن عبد الرحمن وابن عباس اجتمعا عند أبى هريرة رضى الله عنهم، وهما يذكران المرأة تنفس بعد وفاة زوجها بليال، فقال ابن عباس عدتها آخر

---

(١) البخارى فى كتاب التفسير، تفسير سورة البقرة، وفى الحج باب (٧٩) ومسلم فى الحج باب (٢٦٢).

الأجلين[١]، وقال أبو سلمة: قد حلت، فجعلا يتنازعان ذلك، قال: فقال أبو هريرة: أنا مع ابن أخى (يعنى أبا سلمة) فبعثوا كريبًا - مولى ابن عباس - إلى أم سلمة، يسألها عن ذلك فجاءهم فأخبرهم أن أم سلمة قالت: إن سبيعة الأسلمية نفست بعد وفاة زوجها بليال، وأنها ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأمرها أن تتزوج»[٢].

٢ - ومن أسباب تفاوتهم فى اجتهادهم أيضًا:

تفاوتهم فى قوة الذكاء التى منحها الله إياهم. وهذا شئ طبيعى بين جميع البشر، لأنهم إذا لم يكونوا على درجة واحدة من الذكاء فمن البدهى أنهم لن يكونوا على درجة واحدة فى الفهم.

وكان لابن عباس رضى الله عنهما النصيب الأكبر فى هذه الناحية، حيث دعا له رسول الله ﷺ بقوله: «اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل»[٣].

٣ - تفاوتهم فى الصفاء الروحى:

فهم وإن اجتمعوا فى أفضليتهم على من عداهم، فإنهم ليسوا على درجة واحدة من الصفاء الروحى ولذلك وجدنا عمر يقول:

«وافقت الله فى ثلاث، أو وافقنى ربى فى ثلاث: قلت يارسول الله لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى، فأنزل الله ﴿**واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى**﴾[٤].

وقلت يارسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات

---

(١) أى بالوضع، أو بأربعة أشهر وعشرة أيام.

(٢) أخرجه البخارى فى الطلاق (٣٩) ومسلم فى الطلاق (٥٧).

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده: ١/٢٦٦، ٣١٤.

(٤) البقرة: ١٢٥.

(٥) الأحزاب: ٥٣، ﴿وإذا سألتموهن متاعًا فاسألوهن من وراء حجاب﴾.

المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب، قال: وبلغنى معاتبة النبي ﷺ بعض نسائه، فدخلت عليهن، قلت: إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله خيرًا منكن، حتى أتت إحدى نسائه، قالت: يا عمر: أما فى رسول الله ﷺ ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت؟ فأنزل الله ﴿**عسى ربه إن طلقكن إن يبدله أزواجًا خيرًا منكن مسلمات**﴾[1] الآية[2].

ويقول عنه ابنه عبد الله: «ما سمعت عمر لشئ قط يقول: إنى لأظنه كذا إلا كان كما يظن»[3].

٤ - ومما يتصل بالعاملين السابقين:

تفاوتهم فى قوة الاستنباط بالإشارة أخرج البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: «كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد فى نفسه، فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من حيث علمتم، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم، فما رأيت أنه دعانى يومئذ إلا ليريهم، قال: ما تقولون فى قول الله تعالى ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح**﴾؟ فقال بعضهم أمرنا أن نحمد الله ونستغفره، إذا نصرنا، وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا، فقال لى: أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: إذا جاء نصر الله والفتح - وذلك علامة أجلك - فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا، فقال عمر: «ما أعلم منها إلا ما تقول»[4].

٥ - تفاوتهم فى معرفة أساليب العربية:

من حقيقة ومجاز، وغير ذلك.. فهم وإن كانوا عربًا، إلا أن

---

(١) التحريم: ٥.

(٢) البخارى: تفسير سورة البقرة.

(٣) البخارى: مناقب الأنصار، باب إسلام عمر.

(٤) البخارى، كتاب التفسير، سورة النصر.

التفاوت فى الإلمام بمفرداتها وجميع تراكيبها، واستخدام أساليبها موجود، فالإنسان يعتريه الجهل والنسيان والذهول.

ومما يدل على التفاوت فى هذه الناحية، ما فهمه خطأ عدى بن حاتم من أن المراد بالخيط الأبيض والخيط الأسود حقيقتهما فعمد إلى عقالين أبيض وأسود، وجعل ينظر إليهما ليلاً، حتى إذا تبين أحدهما من الآخر امتنع عن المفطرات.

فقال له رسول الله ﷺ: **«إنك إذاً لعريض القفا»**[1]، وهى كناية عن عدم فطنة الرجل لما يقال له.

٦ - تفاوتهم فى معرفة معانى المفردات ذاتها:

فلم يقف الأمر عند التفاوت فى الأساليب، وإنما وصل إلى مدلول المفردات فى الأصل. . ، والأمثلة على ذلك كثيرة، نقتطف منها أقل ما يمكن اقتطافه.

أ - فهذا حبر الأمة، وترجمان القرآن، عبد الله بن عباس كان لا يدرى أشياء فى القرآن، فضلاً عن غير القرآن، مما وسعته لغة العرب.

ب - أخرج أبو عبيدة من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: كنت لا أدرى ما فاطر السموات، حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، يقول: أنا ابتدأتها[2].

وأخرج الفريانى بسنده عن عكرمة عن ابن عباس قال: كل ما فى القرآن أعلمه إلا أربعًا: «غسلين، وحنانًا، وأواه، والرقيم»[3].

وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال: قال ابن عباس: ما أدرى ما

---

(١) البخارى. كتاب التفسير، سور البقرة.

(٢، ٣) الإتقان: ١/ ١٤٣.

قوله ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾[١]، حتى سمعت قول بنت ذى يزن تقول: تعال أفاتحك، تريد أخاصمك»[٢].

وأخرج أبو عبيدة فى الفضائل عن إبراهيم التيمى أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله تعالى ﴿وفاكهة وأبًا﴾[٣]، فقال: أى سماء تظلنى، وأى أرض تقلنى، إن أنا قلت فى كتاب الله ما لا أعلم»[٤].

وها هو عمر أيضًا يقرأ هذه الآية على المنبر، ويقول: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف ياعمر»[٥].

ويصعد المنبر ذات يوم فيقرأ قوله تعالى ﴿أو يأخذهم على تخوف﴾[٦] ويقف عندها متسائلاً عن معناها، حتى قال له رجل من هذيل: التخوف عندنا التنقص، ثم أنشده بيتًا فى ذلك.

تخوف الرحل منها تامكًا قِرِدًا كما تخوّفَ عُودَ النبعةِ السَّفِنُ[٧]

وعن جهله للمراد بالكلالة يقول عمر رضى الله عنه:

«ما سألت النبى ﷺ عن شئ أكثر مما سألته فى الكلالة، حتى طعن بأصبعه فى صدرى وقال: أما تكفيك أية الصيف التى فى آخر سورة النساء»[٨].

فإذا كان هؤلاء الكبار من الصحب الكرام يجهلون بعض المفردات

---

(١) الأعراف: ٨٩. (٢) الإتقان: ١/ ١١٣.

(٣) سورة عبس: ٣١. (٤، ٥) الإتقان: ١/ ١١٣.

(٦) النحل: ٤٧.

(٧) الموافقات للشاطبى ١/ ٢٤، والتامك: السنام، القَرِد الذى تجعد شعره، فكان كأنه وقاية للسنام، والنبع شجر للقسى والسهام، والسفن كل ما ينحت به غيره. تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - ط. محمد صبيح.

(٨) أخرجه مسلم فى صحيحه فى كتاب الفرائض، باب (٩).

القرآنية فغيرهم أولى بذلك الجهل منهم.

يقول ابن قتيبة:

«إن العرب لا تستوى فى المعرفة بجميع ما فى القرآن، من الغريب والمتشابه، بل إن بعضها يفضل فى ذلك على بعض»(١).

ويقول السيوطى:

«فهذه الصحابة وهم العرب العرباء، وأصحاب اللغة الفصحى، ومن نزل القرآن عليهم، وبلغتهم توقفوا فى ألفاظ لم يعرفوا معناها، فلم يقولوا فيها شيئًا»(٢).

من أجل هذا: تفاوت الصحابة فى فهم معانى القرآن.

ومن أجل هذا: فاق بعضهم بعضًا.

ومن أجل هذا: أفاد البعض غيره أكثر من البعض الآخر.

قال مسروق(٣): «جالست أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالإخاذ(٤)، فالإخاذ يروى الرجل، والإخاذ يروى الرجلين، والإخاذ يروى العشرة، والإخاذ يرووى المائة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم».

❊ ❊ ❊

---

(١) المسائل والأجوبة لابن قتيبة: ٨، نقلاً عن الدكتور محمد الذهبى فى التفسير والمفسرون.

(٢) الإتقان: ١/ ١١٣.

(٣) كما فى تفسير القرطبى: ١/ ٣٥.

(٤) الإخاذ: المكان الذى يجتمع فيه الماء كالغدير ونحوه.

قلة الاختلاف بين الصحابة
فى التفسير

ورغم كثرة عدد الصحابة، واجتهادهم فى تفسير القرآن، وتفاوتهم فى هذا الاجتهاد، فإننا وجدنا الاختلاف بينهم فى التفسير قليلاً، ويرجع ذلك إلى عدة أمور:

١ - تعلمهم على يدى رسول الله ﷺ.

وهذا التعلم له ميزة خاصة، لا توجد فى غيره، فأستاذهم هو الذى نزل على قلبه القرآن الكريم، ورأوا فى شخصه التفسير العملى له، قبل التفسير النظرى.

سئلت عائشة رضى الله عنها عن خلقه ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن»[١].

وإذا خفى عليهم شئ منه، أو التبست عليه آية، سألوه فبين لهم ما يريدون.

٢ - مشاهدتهم للقرائن والأحوال، ومعايشتهم للملابسات والظروف التى أحاطت بالقرآن، وأسباب نزوله.

٣ - نزول القرآن بلسانهم، حيث كانوا أساتذة للعربية، وأرباب فصاحتها وبلاغتها، وصناع تراكيبها وأساليبها..

وتلك منة امتن الله بها عليهم فى أكثر من موضع فى كتابه العزيز، مثل قوله تعالى: ﴿إنا أنزلناه قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون﴾[٢]، ومثل ﴿إنا جعلناه قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون﴾[٣].

---

(١) أخرجه ابن المنذر وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل، كذا فى فتح القدير للشوكانى: ٥/ ٣١١.

(٢) يوسف: ٢ (٣) الزخرف: ٣.

٤ - نهى الرسول ﷺ لهم، عن كل ما يؤدى إلى الاختلاف فى القرآن.

أخرج الإمام أحمد فى مسنده عن عمرو بن شعيب عن جده:

«أن نفرًا كانوا جلوسًا بباب النبى ﷺ، فقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا؟ وقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا؟ فسمع ذلك رسول الله ﷺ، فخرج فكأنما فقئ فى وجهه حب الرمان، فقال: «أبهذا أمرتم؟ أو بهذا بعثتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض؟ إنما ضلت الأمم قبلكم فى مثل هذا، إنكم لستم مما هنا فى شئ، انظروا إلى الذى أمرتم به فاعملوا به، والذى نهيتم عنه فانتهوا عنه»[١].

٥ - شرف العصر الذى عاشوه، وإيحاؤه النفسى..

فكما أن للمكان تأثيرًا فى نفوس القاطنين فيه، فكذلك الزمان.

وقد كان زمانهم خير زمان، وعليه أثنى الرسول ﷺ، فى مثل قوله: «خير القرون قرنى»[٢].

فأثر ذلك فى نفوسهم، واجتماع كلمتهم.

يقول ابن تيمية رحمه الله:

«كان النزاع بين الصحابة فى تفسير القرآن قليلاً جدًا، وهو وإن كان فى التابعين أكثر منه فى الصحابة فهو قليل بالنسبة إلى ما بعدهم، وكل ما كان العصر أشرف كان الاجتماع والائتلاف والعلم والبيان فيه أكثر»[٣].

ولذلك وجدنا الاختلاف فى تفسير القرآن، بل فى كل شئ تزداد رقعته، كلما ابتعد الزمان عن العهد النبوى الشريف.

---

(١) مسند أحمد: ٢/١٧٨.   (٢) سبق تخريجه قريبًا.

(٣) مقدمة فى أصول التفسير: ٣٧ - ط. دار القرآن الكريم بالكويت.

المبحث الثالث

سمات تفسير الصحابة

رضى الله عنهم أجمعين

اتسم تفسير الصحابة للقرآن بعدة سمات، من أهمها ما يلى:

١ - كانوا يكتفون فى الغالب الأعم بمدلول الآية العام، أو المراد منها باختصار، دون التطرق إلى تفاصيل ليسوا فى حاجة إليها، أو التقعر فى أمور بعيدة الصلة عن الآية.

ولعل مما يشهد لذلك. ما حدث من عمر الفاروق فى التوقف فى معنى الأب، واعتبره من التكلف، ورأى أنه يكفى فى مثلها أن يعرف الإنسان أنها تعداد لنعم الله على خلقه.

واعتبروا البحث عنها من أسباب مضيعة الوقت، والانشغال عن الأهم.

٢ - كما كانوا حريصين ما استطاعوا على البعد عن الإسرائيليات، حتى يظل للإسلام نبعه الصافى، لا تكدره مثل هذه الثقافة، ولا تشوبه افتراءات وأباطيل.

وإلى هذا يشير غضب رسول الله ﷺ حينما رأى فى يد عمر رضى الله عنه صحيفة من التوراة وقال له:

«أمتهوكون فيها يابن الخطاب والذى نفسى بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شئ فيخبروكم بحق فتكذبوه به، أو بباطل فتصدقوا به، والذى نفسى بيده لو أن موسى ﷺ كان حيًا ما وسعه إلا أن يتبعنى»[1].

---

(١) مسند أحمد ٣/ ٣٨٧.

٣ - قلة الاختلاف بينهم فى التفسير. . وقد ذكرنا سابقًا أسباب ذلك.

٤ - عدم تطويع الآيات لمذهب دينى معين، لأن تشتت الأمة وتمذهبها بمذاهب دينية وسياسية متعددة، لم يحدث إلا بعد عصرهم رضوان الله عليهم.

٥ - كان التفسير فى عهد الصحابة جزءًا من أجزاء الحديث، ولم يكن علمًا مستقلاً بذاته، وكانت روايات التفسير لا تفترق عن روايات الحديث.

٦ - كان التفسير فى عهد الصحابة تفسيرًا شفهيًا، لم يدون منه شئ، لأن التدوين بدأ فى القرن الثانى.

اللهم إلا تدوينات فردية لبعض الصحابة، على هوامش مصاحفهم أو صحيفة خاصة بصاحبها، كما جاء عن علىّ وعبد الله بن عمرو ابن العاص.

روى البخارى فى صحيحه عن أبى جحيفة أنه قال: قلت لعلىّ رضى الله عنه: هل عندكم شئ من الوحى إلا ما فى كتاب الله؟ قال: لا، والذى فلق الحبة، وبرأ النسمة، ما أعلمه إلا فهما يعطيه رجلاً فى القرآن، وما فى هذه الصحيفة، قلت: وما فى هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافر»[1].

وقد دون عبد الله بن عمرو بن العاص صحيفة، كان يقول عنها: «هذه الصادقة، فيها ما سمعته من رسول الله ﷺ، ليس بينى وبينه فيها أحد»[2].

---

(١) صحيح البخارى: كتاب الجهاد، باب فكاك الأسير.

(٢) تقييد العلم للخطيب البغدادى: ٨٤.

٧ - عدم الاهتمام بذكر السند، وذلك لأن الصحابة عدول، وما وقع من تشدد فى بعض الوقائع، فلم يكن شكا منهم فى أحدهم، بل لزيادة التثبت، وللفت أنظار الراوى إلى خطورة الحديث عنه ﷺ.

أخرج أبو داود وغيره عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: «كنت جالسًا فى مجلس من مجالس الأنصار، فجاء أبو موسى فزعًا، فقلنا له: ما أفزعك؟ قال: أمرنى عمر أن آتيه فأتيته، فاستأذنت ثلاثًا فلم يؤذن لى، فقال: ما منعك أن تأتينى؟ فقلت: قد جئت فاستأذنت ثلاثًا فلم يؤذن لى، وقد قال رسول الله ﷺ: «إذا استأذن أحدكم ثلاثًا فلم يؤذن له فليرجع، قال: لتأتينى على هذا بالبينة، فقالوا لا يقوم إلا أصغر القوم، فقام أبو سعيد معه ليشهد له، فقال عمر لأبى موسى:

«إنى لم أتهمك، ولكن الحديث عن رسول الله ﷺ شديد»[١].

وأخرج مسلم فى مقدمة صحيحه عن ابن سيرين قال: «لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا سموا لنا رجالكم.

٨ - لم يرو عن الصحابة تفسير كامل للقرآن، لعدم اقتضاء ما يوجب ذلك.

فقد عاصروا الوحى والتنزيل، وشاهدوا الأسباب والمناسبات، وكانوا يمثلون العصر الذهبى للغة العرب، التى نزل بها القرآن.

ومعظم آيات القرآن تتوقف على هذه الأشياء التى توافرت لهم، ونبغوا فيها.

فلم يكن من داع يقتضى - فى هذا العصر - وضع تفسير كامل

---

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب، باب كم مرة يسلم الرجل فى الاستئذان.

للقرآن، لذلك لم يتعرضوا إلا لما كان غامضًا، أو مشكلاً.

من أجل هذا وجدنا الناس بعد هذا العصر، وحينما بعدوا من عصر النبوة والصحابة والتابعين اشتدت حاجتهم إلى تفسير كامل للقرآن.

٩ - كان تفسير الصحابة للقرآن، وآراؤهم الفقهية فى كثير من الأحيان تخرج من دائرة الرأى الشخصى إلى دائرة الإجماع حيث كان معظم علماء الصحابة يسكنون المدينة، فى عصر أبى بكر وعمر وكانت الشورى ديدنهم،، وسمة عصرهم.

أخرج البيهقى فى سننه عن ميمون بن مهران أنه قال:

«كان أبو بكر الصديق إذا ورد عليه حكم نظر فى كتاب الله تعالى، فإن وجد فيه ما يقضى به قضى به، وإن لم يجد فى كتاب الله تعالى نظر فى سنة رسول الله ﷺ، فإن وجد فيها ما يقضى به قضى به، فإن أعياه سأل الناس، هل علمتم أن رسول ﷺ قضى فيه بقضاء؟ فربما قام إليه القوم، فيقولن: قضى فيه بكذا وكذا، فإن لم يجد سنة سنها النبى ﷺ جمع رؤساء الناس فاستشارهم، فإذا اجتمع رأيهم على شئ قضى به.

وكان عمر يفعل ذلك، إذا أعياه أن يجد ذلك فى الكتاب والسنة، سأل هل كان أبو بكر قضى فيه بقضاء، فإن كان لأبى بكر قضاء قضى به، وإلا جمع علماء الناس ،واستشارهم، فإذا اجتمع رأيهم على شئ قضى به»[1].

١٠ - لم يكن الصحابة يتخيلون مسائل لم تقع بعد، أو يفرضون فروضًا وهمية، ليفسروا القرآن من خلالها، أو ليضعوا أحكامًا

---

(١) السنن الكبرى للبيهقى: ١٠/ ١١٤ كتاب القضاء، باب ما يقضى به القاضى.

مسبقة لهـا، وإنما كان كلامهم في القرآن والأحكـام نابعًا من أمور وقعت بالفعل.

روى ابن عبد البـر بإسناده عن خارجة بن زيد بن ثـابت عن أبيه، أنه كان لا يقول برأيه في شئ يـسأل عنه حتى يقول: أنزل أم لا؟ فإن لم يكن نزل لم يقل فيه، وإن يكن وقع تكلم فيه»[١].

١١ - ومن سمات تفسير الصحابة رضوان الله عليهم، وآرائهم أن أحدًا منهم لم يفرض تفسيره أو رأيه على غيره، وإنما كانوا يحترمون آراء الآخريـن، بل وربمـا اتبعوهـا إن اقتنعـوا بهـا، وأوصوا غيرهم باتباعها.

أخرج ابن عبد الـبر أن عمر بن الخطاب رضى الله عـنه لقى رجلاً فقال لـه: مـا صنعـت؟ فقال الرجـل: قضى عـلىٌ وزيد بيـننا بكـذا، في خصومة هي كذا، فقـال عمر لو كنت أنا الذى يقضى فيهـا لقضيت فيـها بكذا خلاف هذا الـقضاء الذى قضى بـه على وزيد.

فقال الرجل: فـما يمنعك والأمر إليك؟ قـال: لو كنت أردك إلى كتاب الله، أو إلـى سنة رسول الله ﷺ لـفعلت، ولـكنى أردك إلى رأيى، والرأى مشترك، فلم ينقض ما قال على وزيد»[١].

وقال محمد بن إسـحاق: حدثنى يحيى بن عبـاد عن عبد الله بن الزبير قال: أنا والله مع عثمان بن عفان بالجحفة، إذ قال عثمان - وذكر له التمتع بالعمرة إلـى الحج - أتموا الحج وأخلصوه في أشهر الحج، فلو أخرتم هذه العمرة، حتى تزوروا هذا البيت زورتين كان أفضل، فإن الله قد أوسع في الخير.

---

(١) جامع بيان العلم: ٢/ ١٧٤، وأعلام الموقعين: ١/ ١٦٥ دار الجيل.

فقال له على: عمدت إلى سنة رسول الله ﷺ، ورخصة رخص الله للعباد بها فى كتابه، تضيق عليهم فيها وتنهى عنها، وكانت لذى الحاجة ولنائى الدار.

ثم أهل علىٌّ بعمرة وحج معًا، فأقبل عثمان بن عفان رضى الله عنه على الناس، فقال: أنهيتُ عنها؟ إنى لم أَنْهَ عنها، إنما كان رأيًا، أشرتُ به، فمن شاء أخذه، ومن شاء تركه»(١).

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال لأهل مكة: «تجتمعون إلىَّ يا أهل مكة وعندكم عطاء؟»(٢).

١٢ - ومن سماتهم رضى الله عنهم فى تفسير القرآن الكريم:

أنهم كانوا يتهيبون القول فى القرآن، وإذا أقدموا عليه أقدموا بما يعلمون، وكانوا فى غاية الأدب مع الله عز وجل، ويبرؤنه من أخطائهم إن كانت هناك أخطاء.

- عن ابن سيرين قال: لم يكن أحد أهيب بما لا يعلم من أبى بكر رضى الله عنه، ولم يكن أحد بعد أبى بكر أهيب بما لا يعلم من عمر رضى الله عنه.

وإن أبا بكر نزلت به قضية، فلم يجد فى كتاب الله منها أصلاً، ولا فى السنة أثرًا، فاجتهد برأيه ثم قال: هذا رأيى، فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكن خطأ فمنى، واستغفر الله(٣).

- وعن مسروق قال: كتب كاتب لعمر بن الخطاب:

«هذا ما رأى الله، ورأى عمر»، فقال: بئس ما قلت قل: هذا ما

---

(١) أعلام الموقعين: ١/ ٥٨ - ط. دار الجيل - بيروت.

(٢) تهذيب التهذيب: ٧/ ٢٠٠، ٢٠١.

(٣) أعلام الموقعين: ١/ ٥٤.

رأى عمر، فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكن خطأ فمن عمر[١].

- وصح عن ابن مسعود رضى الله عنه فى المفوضة[٢] أنه قال:

«أقول فيها برأيى، فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان، والله ورسوله برئ منه»[٣].

❊ ❊ ❊

---

(١) أعلام الموقعين: ١/ ٥٤.

(٢) التفويض فى النكاح: التزويج بلا صداق.

(٣) أعلام الموقعين: ١/ ٥٧.

المبحث الرابع

حكم الأخذ بتفسير الصحابى

اتفق العلماء على أن تفسير الصحابى يأخذ حكم الحديث المرفوع إذا:

١ - شهد الصحابى الوحى والتنزيل.

٢ - وكان كلامه فيما لا مجال للرأى والاجتهاد فيه، كالحديث عن أسباب النزول، أو عن مشاهد القيامة، والجنة والنار، والملأ الأعلى، أو عن أمر غيبى، ونحو ذلك.

٣ - وكان غير معروف بالأخذ عن ثقافة أهل الكتاب[1].

٤ - وصح السند إلى هذا الصحابى.

مثال ذلك:

أ - أخرج النسائى عن ابن عباس فى قوله: ﴿**سأل سائل بعذاب واقع**﴾[1]، قال: النضر بن الحارث بن كلدة[1].

---

(١) لأستاذنا الفاضل الأستاذ الدكتور إبراهيم خليفة أكرمه الله تعليق طيب على هذا الشرط، أوافقه فيه، حيث يرى أنه لم يقف فى كتب علوم الحديث على استثناء ما لا يمكن دخوله تحت نطاق الإسرائيليات أصلاً، ويرى أنه فى هذه الحال يعتبر هذا الخارج عن نطاق الإسرائيليات حكم المرفوع، وإن كان قائله ممن اشتهر عنه الأخذ عن بنى إسرائيل.

حيث يقول أكرمه الله: «بيد أن مما لا يخفى أمره على الفطين أن النظرة المنصفة تقتضى لا محالة مثل هذا الاستثناء بأن نقول: إن المروى الذى لا مجال للرأى فيه إذا لم يكن له بما عند بنى إسرائيل صلة البته، كأن يقول الراوى: وقع كذا فأنزل الله كذا مثلاً، وجب قبوله، إذا استوفى شرط القبول طبعًا، وإعطاءه حكم المرفوع، حتى وإن عرف راويه من الصحابة أو التابعين بالأخذ عنهم، بل حتى وإن كان راويه من هؤلاء هو فى الأصل من بنى إسرائيل أنفسهم، كما هو ظاهر، لا شبهة فيه لمشبه إن شاء الله» أ.هـ.

(٢) المعارج: ١. (٣) تفسير النسائى ٢/ ٤٦٣ - ط. مكتبة السنة.

ب - أخرج البخارى فى صحيحه عن ابن عباس فى قوله تعالى ﴿وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعًا ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾. قال: «أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم، أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون أنصابًا، وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك وتَنَسَّخ العلمُ عبدت»[١].

جـ - أخرج البخارى وغيره عن جابر بن عبد الله أنه قال: «كانت اليهود تقول: من أتى امرأة من دبرها فى قبلها جاء الولد أحول، فأنزل الله عز وجل ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾[٢].

أما ما عدا ذلك فلا يأخذ حكم الرفع، وإنما هو موقوف عليهم.

وعلى ذلك:

فحينما يحكم العلماء على تفسير الصحابى بأنه مرفوع أو مسند، فإنما يعنون ما كان فى أسباب النزول، ونحوه مما لا مجال للرأى والاجتهاد فيه.

قال النووى: «وأما قول من قال: تفسير الصحابى مرفوع فذلك فى تفسير يتعلق بسبب نزول آية أو نحوه، وغيره موقوف»[٣].

وقال ابن الصلاح فى علوم الحديث:

«ما قيل من أن تفسير الصحابى حديث مسند، فإنما ذلك فى تفسير يتعلق بسبب نزول آية يخبر به الصحابى أو نحو ذلك».

---

(١) صحيح البخارى كتاب التفسير، تفسير سورة نوح، الآية رقم: ٢٣.

(٢) البخارى: كتاب التفسير، تفسير سورة البقرة، الآية: ٢٢٣، ومسلم فى كتاب النكاح باب (١١٧ - ١١٨).

(٣) تدريب الراوى شرح تقريب النواوى: ١٩٣.

وضرب مثالاً بحديث جابر السابق، ثم قال:

«فأما سائر تفاسير الصحابة التى لا تشتمل على إضافة شئ إلى رسول الله ﷺ فمعدود فى الموقوفات»(١).

وكان الحاكم قد أطلق فى مستدركه الأخذ بتفسير الصحابى، ولكنه قيد ذلك - فى كتابه معرفة علوم الحديث - بما لا مجال للرأى والاجتهاد فيه، حيث قال بعد حديثه عن الموقوف:

«فأما ما نقول فى تفسير الصحابى مسند فإنما نقول فى غير هذا النوع، فإنه حديث مسند»(٢).

ويعلق السيوطى على صنيع الحاكم بقوله:

«فالحاكم أطلق فى المستدرك، وخصص فى علوم الحديث، فاعتمد الناس تخصيصه، وأظن أن ما حمله فى المستدرك على التعميم الحرص على جمع الصحيح، حتى أورد ما ليس من شرط المرفوع، وإلا ففيه من الضرب الأول الجم الغفير»(٣).

٭ ٭ ٭

---

(١) علوم الحديث لابن الصلاح: ٥٠.

(٢) معرفة علوم الحديث للحاكم أبى عبد الله النيسابورى: ٢٠ - ط. دار الكتب المصرية.

(٣) تدريب الراوى: ١٩٣ - ط. دار إحياء السنة النبوية.

حكم الموقوف على الصحابة

أما الموقوف على الصحابة، فقد اختلف العلماء فى حكم الأخذ به.

١ - فمنهم من قال: لا يجب الأخذ به، لأنهم فى اجتهادهم كسائر المجتهدين، الذين يصيبون ويخطئون، وقد يخطئون فكيف يجب تقليدهم؟

قال أبو الخطاب من الحنابلة، عن تفسير الصحابة، فيما ينقل الزركشى:

«يحتمل ألا يرجع إليه إذا قلنا إن قوله ليس بحجة»[١].

٢ - ومن العلماء من رأى ضرورة الأخذ بتفسيرهم، لأنهم عاشوا عصر تنزيل القرآن، وشاهدوا التفسير العملى للقرآن، من خلال حياة الرسول ﷺ، ولبلوغهم قمة البيان والبلاغة.

قال الفراء:

«وأما تفسير الصحابة فيجب الرجوع إليه».

ثم علل ذلك بقوله: «والوجه فيه: أنهم شاهدوا التنزيل، وحضروا التأويل، فعرفوا ذلك، ولهذا جعلنا قولهم حجة»[٢].

وقال ابن تيمية:

«إذا لم تجد التفسير فى القرآن، ولا فى السنة، رجعت فى ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوه من القرائن والأحوال، التى اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم

---

(١) البرهان: ٢/٢٩٣.

(٢) العدة فى أول الفقه، للقاضى أبى يعلى الفراء (ت: ٤٥٨). ج: ٣/٧٢١، ٧٢٤ - ط. مؤسسة الرسالة.

الصحيح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة، الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين وعبد الله بن مسعود»[١].

وعن تفسير الصحابة أيضًا يقول الزركشى:

«ينظر فى تفسير الصحابى، فإن فسره من حيث اللغة فهم أهل اللسان، فلا شك فى اعتمادهم، وإن فسره بما شاهده من الأسباب والقرائن فلا شك فيه»[٢].

رأينا فى المسألة

ما ورد فى التفسير عن الصحابة لا يخلو من أحوال ثلاث:

١ - إما إجماع منهم. ٢ - وإما اختلاف بينهم.

٣ - وإما قول لا يعرف له مخالف أو موافق.

١ - فإن أجمعوا على شئ، كان إجماعهم حجة، يجب الأخذ به، لأن إجماع الأمة فى أى وقت على أمر ما يجب الانصياع له، فكيف بإجماع أشرف قرن على الإطلاق، بخبر رسول الله ﷺ.

٢ - أما إذا اختلفوا، بحيث تعددت أقوالهم، حاولنا أن نجمع بينها، لأن أغلب اختلافهم اختلاف تنوع وعبارة، وليس اختلاف تضاد، فإن لم يمكن الجمع اخترنا الراجح، وفقًا لضوابط الترجيح التى يرجح بها أثناء الاختلاف، ولا نخرج عن أقوالهم.

٣ - فإن كان فى الآية قول لصحابى، لم يعرف له مخالف ولا موافق، فالأحوط والأولى أن نأخذ به، لأن الصحابة خصوا عن غيرهم بخصائص طيبة، على رأسها رؤية الرسول ﷺ، والوقوف على أفعاله، وسماع أقواله، ومشاهدة الوحى والتنزيل، إضافة لكونهم

---

(١) مقدمة فى أصول التفسير: ٩٥.

(٢) البرهان: ٢/٣١٢.

عربًا خلصًا ونظرا إلى تزكية الله ورسوله إياهم، مما جعلهم سادة الأزمان فى تفسير القرآن.

وفى ختام هذا الفصل عن تفسير الصحابة واجتهادهم فى القرآن وأحكامه أرى أن خير ما يختم به قول الشافعى رحمه الله عنهم.

يقول طيب الله ثراه:

«وقد أثنى الله تبارك وتعالى على أصحاب رسول الله ﷺ فى القرآن والتوراة والإنجيل، وسبق لهم على لسان رسو الله ﷺ من الفضل ما ليس لأحد بعدهم.

فرحمهم الله، وهنأهم بما آتاهم من ذلك، ببلوغ أعلى منازل الصديقين والشهداء والصالحين.

أدوا إلينا سنن رسول الله ﷺ، وشاهدوه والوحى ينزل عليه، فعلموا ما أراد رسول الله ﷺ، عامًا وخاصًا، وعزمًا وإرشادًا، وعرفوا من سنته ما عرفنا وجهلنا.

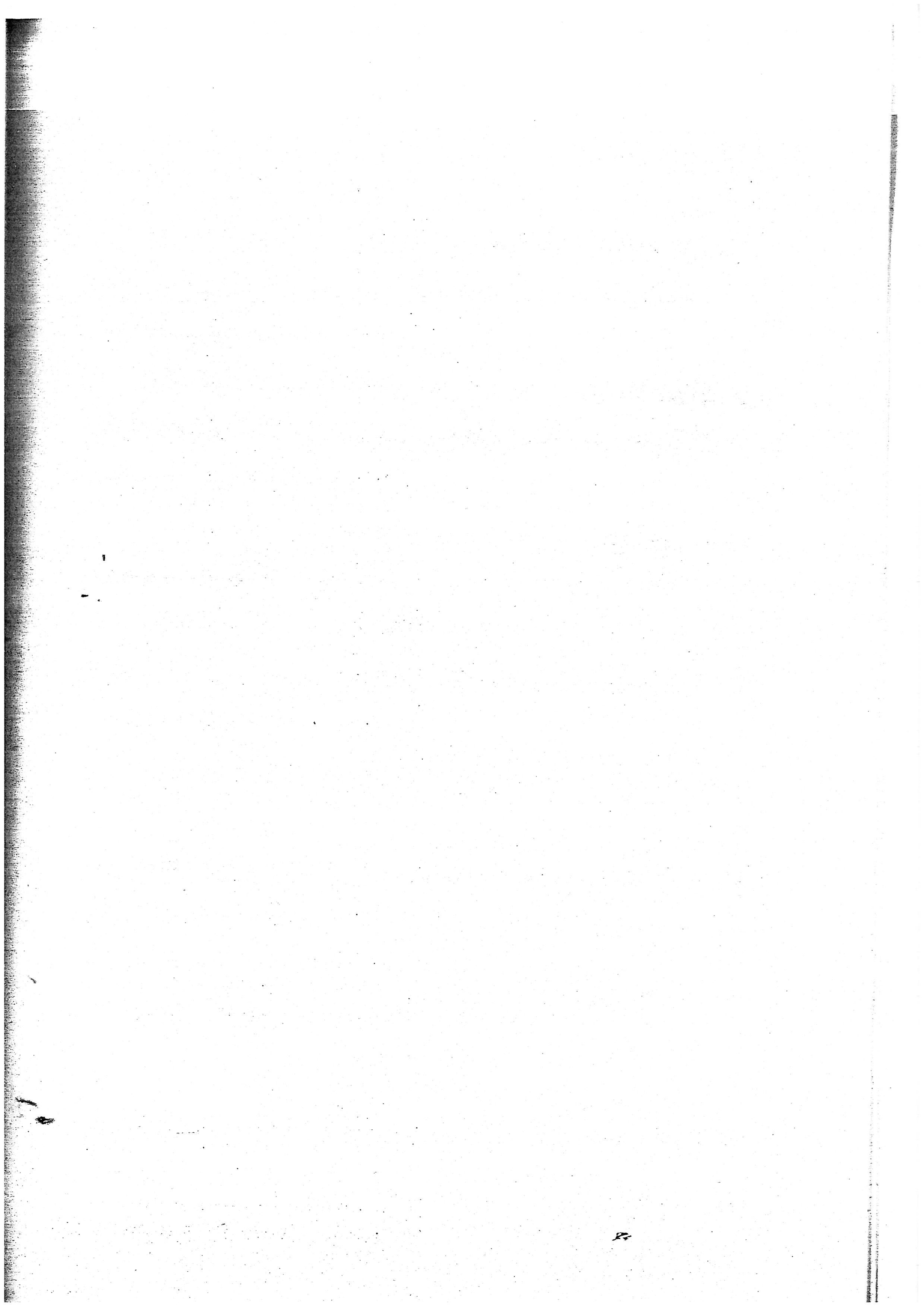
وهم فوقنا فى كل علم واجتهاد، وورع وعقل، وأمر استدرك به علم، واستنبط به، وآراؤهم لنا أحمد وأولى بنا من رأينا عند أنفسنا، ومن أدركنا ممن يرضى، أو حكى لنا عنه ببلدنا، صاروا -فيما لم يعلموا لرسول الله ﷺ فيه سنة- إلى قولهم، إن اجتمعوا، أو قول بعضهم إن تفرقوا، وهكذا نقول، ولم نخرج عن أقاويلهم.

وإن قال أحدهم ولم يخالفه غيره أخذنا بقوله»[١].

❊ ❊ ❊

---

(١) أعلام الموقعين: جـ١/ ٨٠ - دار الجيل.

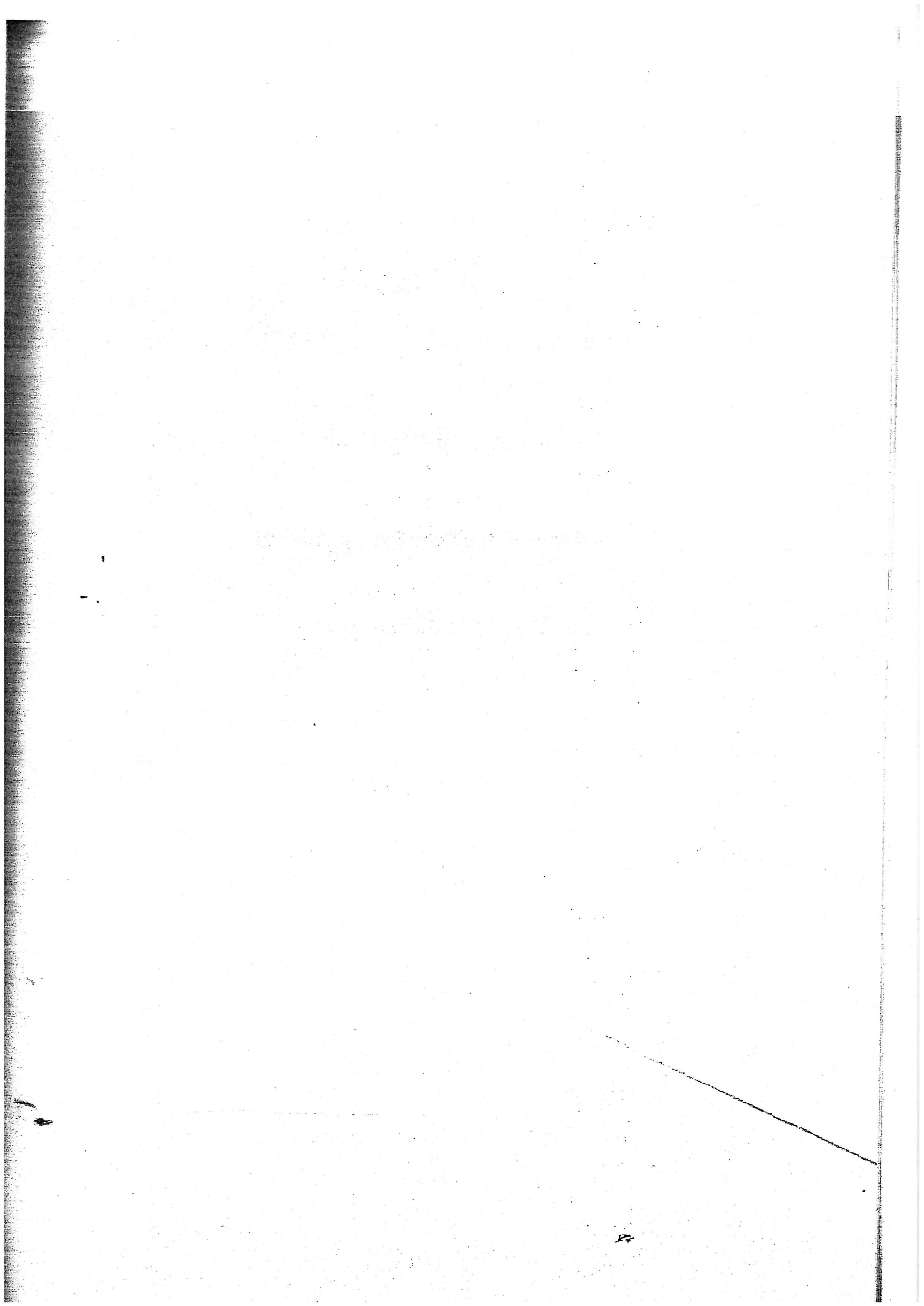


الفصل الرابع

أشهر المفسرين

من الصحابة

رضوان الله عليهم



أشهر المفسرين من الصحابة

رغم الكثرة الكاثرة، والألوف المؤلفة من أصحاب رسول الله ﷺ، الذين عاصروا الوحى وشاهدوا التنزيل وأحاطوا بملابسات القرآن، وأسباب نزوله، واستمعوا إلى تفسير ما فسره الرسول ﷺ، رغم ذلك كله فإننا لم نر منهم من اشتهر فى التفسير إلا عدداً قليلاً عدهم السيوطى فى إتقانه بأنهم عشرة.

حيث يقول: «اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة، الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وأبى بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعرى، وعبد الله بن الزبير، أما الخلفاء فأكثر من روى عنه منهم على بن أبى طالب، والرواية عن الثلاثة نزرة جداً، وكان السبب فى ذلك تقدم وفاتهم، كما أن ذلك هو السبب فى قلة رواية أبى بكر رضى الله عنه للحديث، ولا أحفظ عن أبى بكر رضى الله عنه فى التفسير إلا آثاراً قليلة جداً، لا تكاد تجاوز العشرة»[1].

وإذا كان هؤلاء العشرة هم الذين اشتهروا بالتفسير، فإن هناك من الصحابة من تكلم فى التفسير، ولكن ليس بدرجة هؤلاء العشرة، وعلى رأس هؤلاء أبو هريرة وعائشة، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وجابر بن عبد الله.

بل إن هؤلاء العشرة لم يكونوا على درجة واحدة من التكلم فى التفسير، بل كانوا متفاوتين فيما بينهم، كما صرحت بذلك عبارة السيوطى رحمه الله.

فإذا نظرنا إلى الخلفاء الأربعة: وجدنا الرواية عن أبى بكر وعمر

---

(١) الاتقان: ٢/ ١٨٧.

وعثمان فى التفسير قليلة، ويرجع ذلك إلى عدة أسباب، أبرزها:

١ - اشتغالهم بأمور الحكم ومصالح العباد فى الداخل، وإرسال الجيوش فى الخارج جهاداً فى سبيل الله تعالى.

٢ - لم يكن لمعاصريهم حاجة شديدة إلى التفسير، فقد كان المعاصرون لهم عرباً، يتمتعون بالسليقة العربية، التى تمكنهم من فهم الكتاب الكريم بالإضافة على وقوفهم على أسباب النزول، بما جعل حاجتهم إليهم تدور فى نطاق محدود.

٣ - تقدم وفاتهم، فلم يعمروا كثيراً كما عمر غيرهم.

أما الخليفة الرابع على بن أبى طالب، فكان أكثر الأربعة رواية فى التفسير، حيث توافر له من الأسباب المؤدية لذلك ما لم يتوافر للخلفاء الثلاثة السابقين، حيث:

١ - لم يشتغل بأمور الخلافة، طيلة العهود الثلاثة السابقة.

٢ - اشتدت حاجة معاصريه لما عنده من التفسير، وكان سبب ذلك اتساع الفتوحات الإسلامية، واعتناق كثير من الأعاجم دين الإسلام.

٣ - تأخر وفاته رضى الله عنه.

إذاً يتبقى لنا من العشرة بعد ذلك ستة، منهم ثلاثة مكثرون وثلاثة دونهم فى الكثرة.

أما المكثرون منهم: فعبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وأبى بن كعب.

وأما الثلاثة الآخرون الأقل منهم تفسيراً، فهم: زيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعرى، وعبد الله بن الزبير.

وبناء على ما سبق فإن هناك أربعة من العشرة فاقوا إخوانهم فى

الكثرة، لأسباب خاصة.

هؤلاء الأربعة هم: على بن أبى طالب، وعبد الله بن مسعود، وأبى بن كعب، وعبد الله بن عباس.

وإذا أردنا ترتيبهم من ناحية الكثرة فى الرواية، بدأنا بعبد الله بن عباس، ثم بعبد الله بن مسعود، ثم بعلى بن أبى طالب، ثم بأبى بن كعب.

ولذلك نرى أن نقتصر فى حديثنا عن المفسرين من الصحابة على من اشتهر منهم، مراعين هذا الترتيب، المبنى على كثرة الرواية من وجهة نظرنا فنقول وبالله التوفيق.

* * *

المبحث الأول

أولاً: عبد الله بن عباس(١)

هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشى الهاشمى ابن عم رسول الله ﷺ .

كنيته: أبو العباس، كنى بابنه العباس، أكبر أولاده.

أمه: لبابة الكبرى، بنت الحارث بن حَزْن الهلالية، أخت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث زوج رسول الله ﷺ ، وعلى ذلك فالنبى ﷺ زوج خالته.

وخالته لبابة الصغرى الملقبة بالعصماء أم خالد بن الوليد.

وعلى ذلك: فهو ابن خالة خالد بن الوليد رضى الله عنه. وكانت أمه لبابة الكبرى مسلمة يوم ولادته.

أما أبوه: فهو العباس بن عبد المطلب، عم رسول الله ﷺ تأخر إسلامه، وأسر يوم بدر، وأعلن إسلامه قبيل فتح مكة، حيث هاجر ومعه ابنه عبد الله، وزوجه أم الفضل لبابة الكبرى بنت الحارث، أثناء ذهاب الرسول ﷺ لفتح مكة.

مولده: ولد أثناء الحصار الذى فرضته قريش على بنى هاشم فأتى به إلى النبى ﷺ فحنكه بريقه، قال ابن حجر فى الإصابة: «ولد وبنو هاشم بالشِّعب قبل الهجرة بثلاث، وقيل بخمس، والأول أثبت، وهو يقارب ما فى الصحيحين عنه «أقبلت وأنا راكب على حمار أتان، وأنا يومئذ قد ناهزت سن الاحتلام، والنبى ﷺ يصلى بمنى إلى غير

---

(١) انظر ترجمته فى: طبقات ابن سعد ٢/ ٣٦٥ وما بعدها وحلية الأولياء ١/ ٣١٤ وما بعدها، والبداية والنهاية ٨/ ٢٩٩، أسد الغابة ٢/ ١٨٧ وما بعدها، والإصابة ٢/ ٣٢٢ وما بعدها، وتهذيب التهذيب ٥/ ٢٧٩.

جدار . . . »[١] الحديث .

وكان سنه يوم مات النبى ﷺ على الصحيح ثلاث عشرة سنة .

وكان جميلاً أبيض طويلاً ، جسيمًا ، وسيمًا ، صبيح الوجه ، فصيحًا .

استعمله علىٌ على البصرة ، فبقى عليها أميرًا ، ثم فارقها قبل أن يقتل علىّ ، وعاد إلى الحجاز ، وشهد مع علىّ صفين وكان أحد الأمراء فيها .

عَمِىَ فى آخر عمره ، فقال فى ذلك :

إنْ يأَخذ الله من عينى نورهما
ففى لسانى وقلبى منهما نور

قلبى ذكى ، وعقلى غير ذى دَخَلٍ
وفى فمى صارم كالسيف مأثور

كان يلقب بحبر العرب ، ويقال إن أول من أطلق عليه ذلك جرجير ملك العرب ، وكان قد غزا مع عبد الله بن أبى سرح أفريقية فتكلم مع جرجير ، فقال له : ما ينبغى إلا أن تكون حبر العرب[٢] .

توفى سنة ثمان وستين بالطائف عن سبعين سنة ، وصلى عليه محمد بن الحنفية ، ووضعه فى قبره ، وقال ساعتها : «مات والله حبر الأمة» وفى رواية : «مات ربانى هذه الأمة» .

وجاء فى أسد الغابة : أنه لما صلى عليه محمد بن الحنفية أقبل طائر أبيض ، فدخل فى أكفانه ، فما خرج منها حتى دفن معه»[٣] .

وجاء فى الإصابة : «أنه لما وضع فى قبره سمع الناس تاليًا يتلو ﴿يا

---

(١) الإصابة : ٢/ ٢٢٣ .   (٢) الموضع السابق .

(٣) أسد الغابة : ٢/ ١٩٠ .

أيتهـا النفس المـطمئنـة، ارجعى إلى ربـك راضية مرضـية، فادخلـى فى عبادى وادخلى جنتى﴾[١].

أسباب نبوغ ابن عباس

توافر لابـن عباس رضى الله عنـهما من الأسبـاب مجتمعـة ما لم يتوافر لغيره، بحيث كونت منه تلك الأسباب عالمًا جليلاً، كان حريًا أن يلقب ببحر الأمة وحبرها، وأن يتبوأ مكان الصدارة فى الفتوى والتفسير.

ولعل أبرز هذه الأسباب ما يأتى:

أولاً: قرابته القوية من بيت النبوة، ونشأته فيها:

فهو كـما ذكرنا قـريبًا ابن عـم رسول الله ﷺ من جهـة، وابن أخت زوجه أم المؤمـنين ميمونة بـنت الحارث رضى الله عنهـا من جهة أخرى.

والإنسان إذا كان قريبًا للزوج، وذا محرم لزوجه استطاع أن يخالط البيت، ويطـلع على ما لا يستطيع غـيره أن يطلع عليه، كما يـستطيع الدخول فى أوقات لا يستطيع غيره الدخول فيها.

وهذا ما تيسر لابن عباس رضى الله عنه، حيث سنحت له الفرصة لمخالطـة الرسول ﷺ نهارًا، والمبيت عنده لـيلاً، فى حجرة خـالته ميمونة، والاطلاع على العبادة الخـاصة للرسول ﷺ، بل ومشاركته فى قيام الليل.

ولنستمع إلى النبى ﷺ وهو يعلمه، حيث يقول له:

«يا غلام، إنى معلمك كلمات، احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فلتسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك،

---

(١) الإصابة: ٢/٣٢٤، والآيات الثلاث من آخر سورة الفجر.

ولو اجتمعوا على أن يضروك بشئ لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»(١).

بل إن هذه المخالطة امتدت لتشمل مخالطة جبريل فى بيت النبوة الذى أوصى رسول الله ﷺ به خيرًا.

فقد أخرج أبو نعيم بإسناده عن عبد الله بن بريدة عن ابن عباس قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وعنده جبريل، فقال له جبريل: إنه كائن حبر هذه الأمة، فاستوص به خيرًا»(٢).

«ومما يدل على أثر نشأته فى بيت النبوة فى تكوين شخصيته العلمية ما أخرجه ابن سعد فى طبقاته عن مروان بن أبى سعيد عن ابن عباس قال:

دخلت على عمر بن الخطاب يومًا فسألنى عن مسألة كتب إليه بها يعلى بن أمية من اليمن، وأجبته فيها، فقال عمر: أشهد أنك تنطق عن بيت نبوة»(٣).

ثانيًا: دعاء الرسول ﷺ له:

ومن الأسباب القوية لنبوغ ابن عباس دعاء الرسول ﷺ له، أكثر من مرة.

أخرج ابن سعد فى طبقاته عن أبى جضهم عن ابن عباس قال: رأيت جبريل صلوات الله عليه مرتين، ودعا لى رسول الله ﷺ مرتين(٤).

كما أخرج الترمذى عن ابن عباس أنه قال: ضمنى رسول الله

---

(١) مسند أحمد: ١/٢٩٣.

(٢) حلية الأولياء: ١/٣١٦.

(٣) طبقات ابن سعد: ٢/٣٦٩.

(٤) طبقات ابن سعد: ٢/٣٩٠.

ﷺ وقال: «اللهم علمه الحكمة»[١].

كما روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ فى بيت ميمونة، فوضعت له وضوءًا من الليل، فقالت له ميمونة وضع لك هذا عبد الله بن عباس، فقال:

«اللهم فقهه فى الدين، وعلمه التأويل»[٢].

وروى الإمام أحمد أيضًا عن ابن عباس قال: أتيت رسول الله ﷺ من آخر الليل، فصليت خلفه، فأخذ بيدى فجرنى، فجعلنى حذاءه، فلما أقبل على صلاته خنست، فصلى رسول الله ﷺ، فلما انصرف قال لى: ما شأنك؟ أجعلك حذائى فتخنس! فقلت يارسول الله، أو ينبغى لأحد أن يصلى حذاءك وأنت رسول الله الذى أعطاك الله؟.

قال: فأعجبته، فدعا الله لى أن يزيدنى علمًا وفهمًا»[٣].

كما جاء فى طبقات ابن سعد أن ابن عباس قال: «دعانى رسول الله ﷺ، فمسح على ناصيتى، وقال: «اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب»[٤].

إن أثر هذا الدعاء ليبدو بوضوح، فى تلك المكانة السامية التى تبوأها ابن عباس فى التفسير، بحيث صار ترجمان الأمة وحبرها وبحرها، كما يتجلى بوضوح أيضًا من خلال هذا الكم الهائل للمرويات عنه فى مصادر التفسير بالمأثور.

---

(١) الترمذى، كتاب المناقب، باب (٤٣) وقال عنه حسن صحيح.

(٢) مسند أحمد: ١/ ٣٣٥ وغيرها.

(٣) مسند أحمد ١/ ٣٣٠.

(٤) طبقات ابن سعد: ٢/ ٣٦٥.

ثالثًا: المواهب الخاصة التى منحه الله إياها:

فلقد أنعم الله عليه بمواهب خاصة، كانت سبب ثراء علمى عظيم له. حيث منحه الله عقلاً ذكيًا، وقلبًا واعيًا، ولسانًا فصيحًا بليغًا.

حدث بذلك عن نفسه، حينما فقد بصره فى آخر عمره، حيث قال:

إِنْ يأخذ الله من عينى نورهما
ففى لسانى وقلبى منهما نور
قلبى ذكى، وعقلى غير ذى دَخَلٍ
وفى فمى صارم كالسيف مأثور

وعن عامر بن سعد بن أبى وقاص قال: سمعت أبى يقول:

«ما رأيت أحدًا أحضر فهمًا، ولا أَلَبَّ لُبًّا، ولا أكثر علمًا ولا أوسع حلمًا من ابن عباس.

ولقد رأيت عمر بن الخطاب يدعوه للمعضلات، ثم يقول عندك قد جاءتك معضلة، ثم لا نجاوز قوله، وإن حوله لأهل بدر من المهاجرين والأنصار»(١).

وعن محمد بن أبىّ بن كعب قال: سمعت أبى أبى بن كعب يقول:

- وكان عنده ابن عباس فقام - فقال: هذا يكون حبر الأمة، أولى عقلاً وفهمًا، وقد دعا له رسول الله ﷺ أن يفقهه فى الدين»(٢).

ومما يدل على سعة عقله، وقوة استنباطه الفطرية ما جاء فى تفسير سورة إذا جاءأ نصر الله والفتح، حيث عرضها عمر على كبار

---

(١) طبقات ابن سعد: ٢/ ٣٦٩.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ٣٧٠.

الصحابة، ثم عرضها عليه ففهم منها ما لم يفهموه، حيث أخبرهم بأن ذلك أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله به، فأقره عمر على ذلك.

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان عمر بن الخطاب يأذن لأهل بدر ويأذن لى معهم، قال: فذكر أنه سألهم وسأله، فأجابه، فقال لهم: كيف تلومونني عليه بعد ما ترون(١).

ومما يدل على سعة أفقه ودقة نظره منذ نعومة أظفاره، ما أخرجه أبو نعيم فى الحلية عن محمد بن كعب القرظى عن ابن عباس أن عمر ابن الخطاب جلس فى رهط من المهاجرين من الصحابة، فذكروا ليلة القدر، فتكلم كل بما عنده، فقال عمر: مالك يا ابن عباس صامت لا تتكلم، تكلم ولا تمنعك الحداثة.

قال ابن عباس: فقلت يا أمير المؤمنين:

إن الله وتر يحب الوتر، فجعل أيام الدنيا تدور على سبع، وخلق أرزاقنا من سبع، وخلق الإنسان من سبع، وخلق فوقنا سموات سبعًا، وخلق تحتنا أرضين سبعًا، وأعطى من المثانى سبعًا، ونهى فى كتابه عن نكاح الأقربين عن سبع، وقسم الميراث فى كتابه على سبع، ونقع فى السجود من أجسادنا على سبع، وطاف رسول الله ﷺ بالكعبة سبعًا، وبين الصفا والمروة سبعًا، ورمى الجمار بسبع، فأراها فى السبع الأواخر من شهر رمضان.

فتعجب عمر فقال: ما وافقنى فيها أحد إلا هذا الغلام الذى لم تستو شئون رأسه، ثم قال: يا هؤلاء: من يؤديني في هذا كأداء ابن عباس(٢)؟

---

(١) طبقات ابن سعد: ٢/ ٣٦٥.

(٢) الإتقان: ٢/ ١٨٨.

وأخرج ابن سعد فى طبقاته عن مسروق قال: قال عبد الله - أى ابن مسعود -: «لو أن ابن عباس أدرك أسناننا ما عاشره منا رجل»[١].

وقال عبد الرزاق: «أنبأنا معمر عن الزهرى قال: قال المهاجرون لعمر: ألا تدعو أبناءنا كما تدعو ابن عباس؟ قال: ذاكم فتى الكهول، له لسان سؤول وقلب عقول»[٢].

رابعًا: قوة عزيمته فى طلب العلم:

أدرك ابن عباس أنه بموت رسول الله ﷺ فاته الكثير من العلم النبوى، فهو لا يزال حديث السن أثناء لحوق النبى ﷺ بالرفيق الأعلى.

ولكن هذا لا يعنى أن العلم النبوى قد انقطع، فقد ورث النبى ﷺ أمته علمًا لا يزول.

ومن هنا تشتد عزيمة هذا الفتى لأخذ ما عند الصحابة من علم نبوى.

أخرج ابن سعد فى طبقاته، وابن حجر فى الإصابة عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما قبض رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار: هلم فلنسأل أصحاب رسول الله ﷺ فإنهم اليوم كثير، قال: فقال: واعجبًا لك يا ابن عباس، أترى الناس يفتقرون إليك وفى الناس من أصحاب رسول الله ﷺ مَنْ فيهم؟

قال: فتركت ذلك الرجل، وأقبلت أسأل أصحاب رسول الله ﷺ عن الحديث.

---

(١) طبقات ابن سعد: ٢/٣٦٦.

(٢) الإصابة: ٢/٣٢٣.

فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل، فآتي بابه، وهو قائل، فأتوسد بردائي على بابه، تَسْفِي الريح عَلَيّ التراب، فيخرج فيراني، فيقول لي:

يا ابن عم رسول الله ما جاء بك؟ ألا أرسلت إليّ فآتيك؟ فأقول: لا، أنا أحق أن آتيك، فأسأله عن الحديث.

فعاش ذلك الرجل الأنصاري حتى رآني، وقد اجتمع الناس حولي ليسألوني، فيقول: هذا الفتى كان أعقل مني»(١).

كما أخرج ابن سعد بإسناده عن أبي سلمة عن ابن عباس قال: وجدت عامة حديث رسول الله ﷺ عند الأنصار، فإن كنت لآتي الرجل فأجده نائمًا لو شئت أن يوقظ لي لأوقظ، فأجلس على بابه تسفي على وجهي الريح، حتى يستيقظ متى ما استيقظ، وأسأله عما أريد ثم أنصرف(٢).

وعن أبي سلمة الحضرمي قال: سمعت ابن عباس يقول:

«كنت ألزم الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار، فأسألهم عن مغازي رسول الله ﷺ، وما نزل من القرآن في ذلك، وكنت لا آتي أحدًا منهم إلا سُرَّ بإتياني لقربي من رسول الله ﷺ»(٣).

وكان رضي الله عنه قدوة في احترام العلماء، وتقديرهم والأثران السابقان يشهدان بذلك.

كما يشهد بذلك أيضًا: ما أخرجه ابن سعد عن أبي معبد قال:

---

(١) طبقات ابن سعد: ٢/ ٣٦٧، ٣٦٨، والإصابة: ٢/ ٣٢٣.

(٢) طبقات ابن سعد: ٢/ ٣٦٨.

(٣) طبقات ابن سعد: ٢/ ٣٧١.

سمعت ابن عباس يقول:

«ما حدثنى أحد قط حديثًا فاستفهمته، فلقد كنت آتى باب أبى بن كعب وهو نائم، فأقيل على بابه، ولو علم بمكانى لأحب أن يوقظ لى، لمكانى من رسول الله ﷺ، ولكنى أكره أن أُمِلَّهُ»[1].

كما أخرج البغوى[2] من طريق عمرو بن علقمة عن أبى سلمة قال: وجدت علم رسول الله ﷺ عند هذا الحى من الأنصار، إن كنت لأقيل بباب أحدهم، ولو شئت أن يؤذن لى عليه لأذن، لكن أبتغى بذلك طيب نفسه.

وعن الشعبى قال: ركب زيد بن ثابت فأخذ ابن عباس بركابه فقال: لا تفعل يا ابن عم رسول الله ﷺ، فقال هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا.

فقبل زيد بن ثابت يده وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا[1].

ولقد كان للعباس والد عبد الله نصيب كبير فى تأديبه على هذا النحو العظيم.

فعن مجاهد عن الشعبى عن ابن عباس قال:

قال لى أبى: إن عمر يدنيك ويجلسك مع أكابر الصحابة، فاحفظ عنى ثلاثًا:

لا تفشين له سرًا، ولا تغتابن عنده أحدًا، ولا يجربن عليك كذبًا.

قال الشعبى: قلت لابن عباس: كل واحدة خير من ألف، فقال

---

(١) الموضع السابق.

(٢) كما ذكر ابن حجر في الإصابة ٢/ ٣٢٣.

(٣) الإصابة: ٢/ ٣٢٤.

ابن عباس: بل كل واحدة خير من عشرة آلاف[١].

وزيادة منه رضى الله عنه فى توثيق العلم، كان لا يكتفى بما سمعته أذناه، ويعيه قلبه، بل كان يدون العلم تدوينًا.

فعن عبيد الله بن على بن أبى رافع قال: كان ابن عباس يأتى أبا رافع فيقول: ما صنع النبى ﷺ يوم كذا؟ ومع ابن عباس من يكتب ما يقول[٢].

خامسًا: إحاطته بلغة العرب:

فقد كان رضى الله عنه عليمًا بلغة العرب، محيطًا بخصائصها، وتراكيبها، وأساليبها.

ولذلك كان إذا ما سئل عن معنى آية استشهد لها ببيت أو أكثر من شعر العرب، الذى هو ديوان لغتهم؛ قال سعيد بن جبير ويوسف بن مهران: إن ابن عباس كان يسأل عن القرآن كثيرًا فيقول هو كذا وكذا، أما سمعتم الشاعر يقول كذا وكذا[٣]؟

ومن يتأمل المأثور عنه فى تفسير القرآن يدرك طريقته تلك، التى تدل على إحاطته بلغة القرآن، ووقوفه على أسرارها، وخصائصها.

❊ ❊ ❊

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير: ٨/ ٢٩٩.

(٢) الإصابة: ٢/ ٣٢٣.

(٣) طبقات ابن سعد: ٢/ ٣٦٧.

مكانة ابن عباس العلمية

كانت هذه الأسباب وغيرها عوامل قوية لتكوين شخصية فذة، جديرة بأن تلقب ببحر الأمة وحبرها.

إذ لم يبرز ابن عباس فى ناحية من العلم دون ناحية، بل كان موسوعة جامعة، لكل أنواع العلم الشرعى والعربى، يفد إليها الناس من كل حدب ينسلون.

أخرج ابن سعد فى طبقاته بإسناده عن عُبيْد الله بن عبد الله بن عتبة قال:

كان ابن عباس قد فات الناس بخصال، بعلم ما سبقه، وفقهٍ فيما احتيج إليه من رأيه، وحلم وسَيْب[1] ونائل.

وما رأيت أحدًا كان أعلم بما سبقه من حديث رسول الله ﷺ منه، ولا أعلم بقضاء أبى بكر وعمر وعثمان منه، ولا أفقه فى رأى منه، ولا أعلم بشعر ولا عربية، ولا بتفسير القرآن ولا بحساب، ولا بفريضة منه، ولا أعلم بما مضى، ولا أثقف رأيًا فيما احتيج إليه منه.

ولقد كان يجلس يومًا ما يذكر فيه إلا الفقه، ويومًا التأويل ويومًا المغازى، ويومًا الشعر، ويومًا أيام العرب.

وما رأيت عالمًا قط جلس إليه إلا خضع له، وما رأيت سائلاً قط سأله إلا وجد عنده علمًا»[2].

وقال عطاء: «كان ناس يأتون ابن عباس للشعر، وناس للأنساب، وناس لأيام العرب ووقائعها، فما منهم من صنف إلا يقبل عليه بما

---

(١) السيب العطاء، والمراد من النائل الكرم. والمقصود من الصفتين المبالغة في جود ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) طبقات ابن سعد جـ٢/٣٦٨، وأسد الغابة: ٢/١٨٧، ١٨٨.

شاء[١].

وقال عطاء أيضًا: «ما رأيت قط أكرم من مجلس ابن عباس أكثر فقهًا، وأعظم خشية، إن أصحاب الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشعر عنده، يصدرهم كلهم من واد واسع»[٢].

وعن عكرمة قال: «سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: ابن عباس أعلمنا بما مضى، وأفقهنا فيما نزل، مما لم يأت فيه شئ»[٣].

ويروى لنا أبو نعيم فى حلية الأولياء أثرًا عن أبى صالح هو مفخرة لقريش والعرب جميعًا، حيث يشهد هذا الخبر بسعة علم ابن عباس وشموله كل أنواع العلوم الشرعية والعربية، وتزاحم الناس عليه لينهلوا من هذا العلم الغزير، حسب اهتمام كل طالب.

يروى أبو نعيم فى الحلية بإسناده عن أبى حمزة الشمالى عن أبى صالح قال:

لقد رأيت من ابن عباس مجلسًا لو أن جميع قريش فخرت به لكان لها فخرًا.

لقد رأيت الناس اجتمعوا حتى ضاق بهم الطريق، فما كان أحد يقدر على أن يجئ ولا أن يذهب.

قال: فدخلت عليه، فأخبرته بمكانه على بابه.

فقال لى: ضع لى وضوءًا، قال: فتوضأ وجلس، وقال: اخرج وقل لهم: من كان يريد أن يسأل عن القرآن وحروفه وما أراد منه فليدخل.

---

(١) طبقات ابن سعد: ٢/ ٣٦٧.
(٢) الإصابة: ٢/ ٣٢٤.
(٣) طبقات ابن سعد: ٢/ ٣٧١.

قال: فخرجت فآذنتهم، فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجرة، فما سألوه عن شئ إلا أخبرهم به، وزادهم مثل ما سألوا عنه أو أكثر.

ثم قال: إخوانكم، فخرجوا.

ثم قال: اخرج فقل من أراد أن يسأل عن تفسير القرآن وتأويله فليدخل.

قال: فخرجت فآذنتهم، فدخلوا، حتى ملأوا البيت والحجرة، فما سألوه عن شئ إلا أخبرهم به وزادهم مثل ما سألوه عنه أو أكثر، ثم قال: إخوانكم فخرجوا.

ثم قال: اخرج فقل من أراد أن يسأل عن الحلال والحرام والفقه فليدخل.

فخرجت فقلت لهم، قال: فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجرة، فما سألوه عن شئ إلا أخبرهم به، وزادهم مثله، ثم قال: إخوانكم فخرجوا.

ثم قال: اخرج فقل من أراد أن يسأل عن الفرائض وما أشبهها فليدخل.

قال: فخرجت فآذنتهم فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجرة، فما سألوه عن شئ إلا أخبرهم، به، وزادهم مثله، ثم قال: إخوانكم فخرجوا.

ثم قال: اخرج، فقل من أراد أن يسأل عن العربية والشعر والغريب من الكلام فليدخل.

قال: فدخلوا، حتى ملأوا البيت والحجرة، فما سألوه عن شئ إلا أخبرهم به، وزادهم مثله.

قال أبو صالح: فلو أن قريشًا كلها فخرت بذلك لكان فخرًا، فما

رأيت مثل هذا لأحد من الناس»[١].

شهادات الأئمة له

إن هذه النصوص السابقة وغيرها تدل على تلك المكانة السامية لابن عباس، وأنه بلغ منزلة لم يبلغها نظير له..

لذا وجدنا أقوال الصحابة والتابعين تترا شاهدة له بتلك المكانة الفريدة.

فعن نبهان قال: قلت لأم سلمة زوج النبى ﷺ أرى الناس على ابن عباس منتصفين، فقالت أم سلمة: هو أعلم من بقى[٢].

وعن أبى معبد قال: سمعت ابن عمر يقول: أعلمنا ابن عباس[٣].

وعن عكرمة قال: سمعت معاوية بن أبى سفيان يقول:

«مولاك والله أفقه من مات وعاش»[٤].

وعن عكرمة أيضًا قال: قال كعب الأحبار: «مولاك ربانى هذه الأمة هو أعلم من مات ومن عاش»[٥].

وقال مسروق: كنت إذا رأيت ابن عباس قلت أجمل الناس، فإذا نطق قلت أفصح الناس، فإذا تحدث قلت أعلم الناس»[٦].

وقال طاوس: «كان ابن عباس من الراسخين فى العلم»[٧].

وقال أيضًا: «كان ابن عباس قد بَسَقَ على الناس فى العلم، كما

---

(١) حلية الأولياء: ١/ ٣٢٠، ٣٢١.

(٢) طبقات ابن سعد: ٢/ ٣٦٩.

(٣) الموضع السابق.

(٤) طبقات ابن سعد: ٢/ ٣٦٩. ٣٧٠.

(٥) الموضع السابق.

(٦) الإصابة: ٢/ ٣٢٥.

(٧) هذا القول وما بعده من أقوال طبقات ابن سعد: ٢/ ٣٦٩، وما بعدها.

تبسق النخل السحوق على الوادى الصغار».

وقال أيضًا: «ما رأيت أحـدًا قط خالف ابن عـباس، ففارقـه حتى يقرره».

وقال طلحة بن عبيد الله: «ما كنت أرى عمر بن الخطاب يقدم عليه أحدًا».

ودخل عمر بـن الخطاب على ابن عـباس يعوده وهو يُحَـمّ، فقال عمر: «أَخَلّ بنا مرضك، فالله المستعان».

وقال مجاهد: «كان عطاء يقول: قال البحر، وفعل البحر».

وقال جابر بن عبد الله حين بلغه موت ابن عباس، وصَفَقَ بإحدى يديه على الأخرى: «مات أعلم الناس، وأحلم الناس، ولقد أصيبت به هذه الأمة مصيبة لا ترتق».

ولما مات قال رافع بن خديج: «مات اليوم مَنْ كان يـحتاج إليه مَنْ بين المشرق والمغرب فى العلم».

ولما دفنه ابن الحنفية قال: «اليوم مات ربانى هذه الأمة».

رجوع الصحابة والتابعين له

ولم تكـن هذه الشهادات خارجـة من الأفواه فقط، بل هـناك من الشهادات العملية، والوقائع الثابتـة ما يشهد لإمامة ابن عباس العلمية، وتقدمه على مَنْ عداه.

حتى إن الصـحابة أنفسهم كانـوا إذا اختلفوا فى شئ تحـاكموا إلى علمه.

أخرج ابن سعد بإسناده عن ليث بن أبى سليم قال: قلت لطاوس: لزمت هـذا الغلام - يعـنى ابن عباس - وتـركت الأكابر مـن أصحاب

رسول الله ﷺ لله فقال: إنـى رأيت سبعين مـن أصحاب رسول الله ﷺ إذا تدارءوا فى شئ صاروا إلى قول ابن عباس[١].

وقال طاوس: «أدركتت خمسين أو سبعين من الصحابة، إذا سئلوا عن شئ فخالفوا ابن عباس، لا يقومـون حتى يقولوا هو كما قلت، أو صدقت»[٢].

وعن عطاء بن يسار أن عمر وعثمان كـانا يدعوان ابن عباس فيشير مع أهل بدر، وكان يفتى فى عهد عمر وعثمان إلى يوم مات[٣].

وعن عبيـد الله بن عبد الله بن عتـبة: أن عمر إذا جاءته الأقـضية المعضلة قال لابـن عباس: «إنها قد طرت علينا أقضـية وعضل، فأنت لها ولأمثالها، ثم يأخذ بقوله، وما كان يدعو لذلك أحدًا سواه.

قال عـبيـد الله: «وعمـر عمـر»، يعـنى فـى حذقـه واجتـهاده لله وللمسلمين[٤].

وقد سبـق ما ذكرناه فـى أسباب نبوغـه عن سعد بـن أبى وقاص حيث قال: «ولقد رأيت عمر بن الخطـاب يدعوه للمعضلات ثم يقول: عندك قد جاءتـك معضلة، ثم لا نجاوز قوله وإن حـوله لأهل بدر من المهاجرين والأنصار.

كما سبق أن ذكرنا ما أخرجه ابن سعد عن ابن عباس قال: دخلت على عمر بـن الخطاب يومًا فسألنى عـن مسألة كتب إليه بهـا يعلى بن أمية من اليـمن، وأجبته فيها، فـقال عمر: أشهد أنك تنـطق عن بيت نبوة.

---

(١) طبقات ابن سعد: ٢/٣٦٦، ٣٦٧.

(٢) الإصابة: ٢/٣٢٤، ٣٢٥.

(٣) طبقات ابن سعد: ٢/٣٦٦.

(٤) أسد الغابة: ٢/١٨٧، ١٨٨.

بل إننا وجدنا ابن عباس قد صار كعبة للعلم يحج إليها طلاب العلم من كل مكان.

ويشهد لذلك ما ذكرناه سابقًا عن أبى حمزة الثمالى عن أبى صالح مما جعله مفخرة لقريش والعرب بأسرها.

كما يشهد لذلك أيضًا ما روى من أنه كان له موكب يضاهى موكب الأمير فى موسم الحج.

قال يزيد بن الأصم: «خرج معاوية حاجًا، وخرج ابن عباس حاجًا، فكان لمعاوية موكب، ولابن عباس ممن يطلب العلم موكب»(١).

مكانة ابن عباس التفسيرية

ما ذكرناه سابقًا يتناول مكانة ابن عباس العلمية على وجه العموم، ومن بينها مكانته التفسيرية على وجه الخصوص.

وإذا أردنا أن نخصه بكلمة تجاه مكانته التفسيرية، فلابد أن نشير بادئ ذى بدء إلى تلك الأحاديث التى دعا له فيها رسول الله ﷺ بأن يفقهه فى الدين ويعلمه التأويل، وقد مضى ذكرها فى الترجمة له قريبًا.

هذه الدعوات المباركة من فم رسول الله ﷺ وجدت طريقها المفتوح إلى السماء، فاستجاب الله دعاء نبيه، وجعل من هذا الفتى حبر الأمة وبحرها وربانيها، وصار بحق ترجمان القرآن.

قال ابن مسعود: «نعم ترجمان القرآن ابن عباس»(٢).

وتصل تلك المنزلة التفسيرية لابن عباس، أنه كان يفوق كبار

---

(١) تهذيب التهذيب: ٥/ ٢٧٩.

(٢) الإصابة: ٢/ ٣٢٤.

المهاجرين والأنصار بما فيهم أهل بدر.

والأثر الوارد عنه وعن عمر فى تفسير سورة إذا جاء نصر الله والفتح مشهور، وقد ذكرناه سابقًا.

بل إن عمر بن الخطاب وقف ذات يوم على آية ليعرف معناها، فسأل عنها الصحابة، فلم يجد عندهم ما يشفى صدره، ويقنع عقله، إلى أن انتهى به المطاف، ووجد بغيته عند ابن عباس.

أخرج البخارى وابن جرير وغيرهما، واللفظ لابن جرير:

«أن عمر سأل الناس عن هذه الآية - يعنى ﴿**أيو أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب**﴾[1] فما وجد أحدًا يشفيه حتى قال ابن عباس وهو خلفه: يا أمير المؤمين، إنى أجد فى نفسى منها شيئًا.

فتلفت إليه فقال: تحول ههنا، لم تحقر نفسك؟

قال: هذا مثل ضربه الله عز وجل، فقال: أيود أحدكم أن يعمل عمره بعمل أهل الخير وأهل السعادة، حتى إذا كان أحوج ما يكون إلى أن يختمه بخير، حين فنى عمره، واقترب أجله ختم ذلك بعمل من عمل أهل الشقاء، فأفسده كله، فحرقه أحوج ما كان إليه»[2].

وهذا هو ابن عمر كان فى بادئ أمره لا تعجبه جرأة ابن عباس على التفسير حتى سلم له بالفضل والإمامة.

فقد أخرج أبو نعيم فى الحلية عن طريق عبد الله بن دينار عن ابن عمر أن رجلاً أتاه يسأله عن ﴿**..السموات والأرض كانتا رتقًا ففتقناهما**﴾[3]، فقال: اذهب إلى ابن عباس فاسأله، ثم تعال أخبرنى،

---

(١) البقرة: ٢٦٦.

(٢) تفسير ابن جرير: ٣/ ٥١ - ط. دار المعرفة.

(٣) الأنبياء: ٣٠.

فذهب فسأله فقال: كانت السموات رتقًا لا تمطر، وكانت الأرض رتقًا لا تنبت، ففتق هذه بالمطر، وهذه بالنبات.

فرجع إلى ابن عمر، فأخبره، فقال: «قد كنت أقول ما يعجبنى جراءة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمت أنه أوتى علمًا»[١].

وتزداد ثقة ابن عمر فى تفسير ابن عباس، فيرشد من يسأله عن تفسير شئ من القرآن، بأن يتوجه إلى ابن عباس أعلم الناس بكتاب الله عز وجل.

جاء فى الإصابة أن ابن عمر قال لمن سأله: «سل ابن عباس فإنه أعلم من بقى بما أنزل على محمد»[٢].

بل إن أحبار اليهود شهدوا له بعلو كعبه فى التفسير، وبأن تفسيره يتفق تمامًا وما جاء فى الكتب الإلهية.

أخرج الطبرى فى تفسيره عن سعيد بن جبير قال: قال يهودى بالكوفة وأنا أتجهز للحج - إنى أراك تتبع العلم، فأخبرنى أى الأجلين قضى موسى؟

قلت: لا أعلم، وأنا الآن قادم على حبر العرب - يعنى ابن عباس - فسائله عن ذلك.

فلما قدمت مكة سألت ابن عباس عن ذلك، وأخبرته بقول اليهودى فقال ابن عباس: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن النبى إذا وعد لم يخلف.

وقال سعيد: فقدمت العراق، فلقيت اليهودى، فأخبرته، فقال:

---

(١) حلية الأولياء: ١/ ٣٢٠.

(٢) الإصابة: ٢/ ٣٢٤.

صدق وما أنزل على موسى، هذا والله العالم»[١].

وكان رضى الله عنه - ببركة دعائه ﷺ - مفتوحًا عليه.

روى الأعمش عن أبى وائل قال: قرأ ابن عباس سورة النور - وهو على موسى الحج - فجعل يقرأ ويفسر فجعلت أقول: «لو سمعته فارس والروم لأسلمت»[٢].

ولذلك قال عنه على بن أبى طالب:

«كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق»[٣].

ولا أدل على إمامة ابن عباس المطلقة فى التفسير أن قوله مقدم على كل قول عند العلماء.

قال الزركشى: «إن تعارضت أقوال جماعة من الصحابة فإن أمكن الجمع فذاك، وإن تعذر قدم ابن عباس لأن النبى ﷺ بشره بذلك، حيث قال: اللهم علمه التأويل»[٤].

ولا أدل على مكانته أيضًا من أن العلماء يعتبرون من تتلمذ على يديه أفضل ممن تتلمذ على يدى غيره.

يقول ابن تيمية رحمه الله:

«وأما التفسير فإن أعلم الناس به أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس»[٥].

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري: ٢٠/ ٤٣.

(٢) الإصابة: ٢/ ٣٣٣ - ط. دار الفكر.

(٣) الإصابة: ٢/ ٣٣٢ - دار الفكر.

(٤) البرهان: ٢/ ٣١٣، والحديث سبق تخريجه.

(٥) مقدمة في أصول التفسير، والإتقان: ٢/ ١٨٩.

منهج ابن عباس فى التفسير

لم يخرج ابن عباس رضى الله عنه فى منهجه فى التفسير عن الإطار الصحيح لدى الصحابة أجمعين.

حيث كانوا ينظرون فى القرآن أولاً، فما أجمل فى مكان فقد يفصل فى مكان آخر، وما كان مطلقًا فى مكان فقد يقيد فى مكان آخر وما وجد موجزاً فى مكان فقد يشرح فى مكان آخر، وهكذا.

فإن لم يجدوا فى القرآن بغيتهم انتقلوا إلى السنة، فهى المبينة للقرآن بنص الله عز وجل: **﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾**.

فإن لم يجدوا فى السنة رجعوا إلى كبار الصحابة، فإن لم يجدوا فى أقوالهم ما يبين الآية رجعوا إلى اجتهادهم، مستعينين فى ذلك بمعرفتهم للغتهم، ووقوفهم على عاداتهم.

أقول لم يكن ابن عباس لينفرد عن منهج الصحابة هذا فى التفسير.

ولذلك يروى ابن سعد فى طبقاته عن عبيد الله بن أبى يزيد أنه قال:

«كان ابن عباس إذا سئل عن الأمر فإن كان فى القرآن أخبر به، وإن لم يكن فى القرآن وكان عن رسول الله ﷺ. أخبر به، فإن لم يكن فى القرآن ولا عن رسول الله ﷺ وكان عن أبى بكر وعمر أخبر به، فإن لم يكن فى شئ من ذلك اجتهد رأيه»[١].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٢/ ٣٦٦.

أمثلة تطبيقية على منهج ابن عباس فى التفسير

وإذا أردنا ضرب أمثلة تطبيقية على منهج ابن عباس فى تفسير القرآن الكريم، فإننا نستطيع أن نشير إلى ذلك بما يلى:

أولاً: من أمثلة تفسيره القرآن بالقرآن:

١ - فى تفسير قوله تعالى **﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره﴾**[(١)].

أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال: الروح أمر من أمر الله، وخلق من خلق الله، وصورهم على صورة بنى آدم، وما ينزل من السماء ملك إلا ومعه واحد من الروح، ثم تلا: **﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفًا﴾**[(٢)(٣)].

٢ - فى تفسير قوله تعالى **﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾**[(٤)].

أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: يحملون مع ذنوبهم ذنوب الذين يضلونهم بغير علم، وذلك مثل قوله سبحانه **﴿وأثقالاً مع أثقالهم﴾**[(٥)(٦)].

٣ - أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: **﴿والشجرة الملعونة فى القرآن﴾**[(٧)].

قال: «ملعونة لأنه قال: **﴿طلعها كأنه رؤوس الشياطين﴾**[(٨)] والشياطين ملعونون»[(٩)].

٤ - فى تفسير قوله تعالى **﴿ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا**

---

(١) النحل: ٢. (٢) النبأ: ٣٨. (٣) فتح القدير: ٣/ ١٧٠.
(٤) النحل: ٢٥. (٥) العنكبوت: ١٣. (٦) فتح القدير: ٣/ ١٧٩.
(٧) الإسراء: ٦٠. (٨) الصافات: ٦٥. (٩) فتح القدير: ٣/ ٢٧٢.

تسعًا﴾[١].

أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال: «إن الرجل ليفسر الآية يرى أنها كذلك فيهوى أبعد ما بين السماء والأرض ثم تلا ﴿**ولبثوا فى كهفهم**﴾ الآية، ثم قال:

كم لبث القوم؟ قالوا: ثلاثمائة وتسع سنين، قال: لو كانوا لبثوا كذلك لم يقل الله ﴿**قل الله أعلم بما لبثوا**﴾ ولكنه حكى مقالة القوم فقال: ﴿**سيقولون ثلاثة**﴾ إلى قوله ﴿**رجمًا بالغيب**﴾ فأخبر أنهم لا يعلمون، ثم قال: سيقولون ﴿**ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا**﴾[٢].

٤ - أخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس فى قوله ﴿**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**﴾[٣] يقول: من شاء الله له الإيمان آمن، ومن شاء له الكفر كفر، وهو قوله ﴿**وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين**﴾[٤].

ومن أمثلة تفسيره القرآن بالسنة

١ - فى تفسير قوله تعالى ﴿**فانقلبوا بنعمة من الله وفضل**﴾[٥]. أخرج البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: «النعمة أنهم سلموا، والفضل أن عيرًا مرت، وكان فى أيام الموسم، فاشتراها رسول الله ﷺ فربح مالاً، فقسمه بين أصحابه»[٦].

٢ - فى تفسير قوله تعالى ﴿**من بعد وصية يوصى بها أو دين**﴾. يقول ابن عباس فيما أخرجه البخارى ومسلم : «لو أن الناس غضوا من

---

(١) الكهف: ٢٥.
(٢) فتح القدير: ٣/٣١٦.
(٣) الكهف: ٢٩.
(٤) فتح القدير: ٣/ ٣٢٠ والآية من سورة التكوير.
(٥) آل عمران: ١٧٤.
(٦) فتح القدير: ١/٤٤٨.

الثلث إلى الربع، فإن رسول الله ﷺ قال: الثلث، والثلث كثير»[١].

٣ - فى تفسير قوله تعالى ﴿والباقيات الصالحات﴾[٢]. أخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن ابن عباس قال: الباقيات الصالحات سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر».

وهذا الذى ذكره ابن عباس مأخوذ عما ثبت عن رسول الله ﷺ فيها فى أحاديث كثيرة[٣].

ومن أمثلة تفسيره القرآن بأسباب النزول

١ - فى تفسير قوله تعالى ﴿كيف يهدى الله قومًا كفروا بعد إيمانهم﴾[٤]. أخرج النسائى وابن جرير والحاكم وصححه وغيرهم عن ابن عباس قال: كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد، ولحق بالمشركين، ثم ندم فأرسل إلى قومه، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ هل لى من توبة فنزلت ﴿كيف يهدى الله قومًا كفروا بعد إيمانهم﴾ إلى قوله ﴿.. غفور رحيم﴾ فأرسل إليه قومه فأسلم[٥].

٢ - أخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يارسول الله إنك لأحب إلىّ من نفسيى، وإنك لأحب إلىّ من ولدى، وإنى لأكون فى البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتى فأنظر إليك وإذا ذكرت موتى وموتك عرفت أنك إذا

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الوصايا باب (٣)، ومسلم فى كتاب الوصية باب (١٠).

(٢) مريم : ٧٦.

(٣) انظر طرفًا منها فى فتح القدير: ٣/ ٣٢٧.

(٤) آل عمران: ٨٦.

(٥) فتح القدير: ١/ ٤٠٠.

دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وأنى إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك، فلم يرد عليه النبى ﷺ حتى نزل جبريل بهذه الآية ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾. الآية[١].

ومن أمثلة تفسيره القرآن بالرأى

١ - ما أخرجه البخارى وغيره عن ابن عباس فى قوله ﴿ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء﴾[٢].

قال: «التعريض أن تقول إنى أريد التزويج، لأحب المرأة من أمرها وأمرها، وإن من شأنى النساء، ولوددت أنه يسر لى امرأة صالحة»[٣].

٢ - فى تفسير قوله تعالى ﴿هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾[٤]. أخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس قال:

«المحكمات ناسخه وحلاله وحرامه، وحدوده وفرائضه وما نؤمن به ونعمل به، والمتشابهات منسوخه ومقدمه ومؤخره، وأمثاله وأقسامه، وما نؤمن به ولا نعمل به»[٥].

٣ - فى تفسير قوله تعالى: ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب﴾ الآية[٦].

---

(١) فتح القدير: ٥٤٦/١، والآية من سورة النساء رقم ٦٩.

(٢) البقرة: ٢٣٥.

(٣) البخارى، كتاب النكاح، باب (٣٤).

(٤) آل عمران: ٧.

(٥) تفسير ابن جرير: ١١٥/٣.

(٦) البقرة: ٢٦٦. ❊

أخرج البخارى أن عمر سأل أصحاب رسول الله ﷺ فيم ترون هذه الآية نزلت قالوا: الله أعلم، قال: قولوا نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: فى نفسى منها شئ يا أمير المؤمنين، فقال عمر: يا ابن أخى قل ولا تحقر نفسك قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل، قال عمر: أى عمل؟ قال ابن عباس: لرجل غنى يعمل لطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعمل فى المعاصى حتى أغرق عمله»(١).

تفسيره القرآن بلغة العرب والكلمات المستعربة

المطلع على الروايات المأثورة عن ابن عباس رضى الله عنهما فى التفسير يدرك مدى اتساع ثقافته، وشمولها للغة العرب ولهجاتها، ووقوفه على الكلمات المستعربة منها، إضافة إلى الاستشهاد بديوان العرب ألا وهو شعرها ومن يفتح كتب التفسير بالمأثور وغيرها يقف على شئ عظيم من ذلك.

ويكفى أن السيوطى فى كتابه الاتقان فى النوع السادس والثلاثين وهو معرفة غريب القرآن قد أرشد إلى أن أولى ما يرجع إليه فى ذلك ماروى عن ابن عباس، حيث قال:

«وأولى ما يرجع إليه فى ذلك ما ثبت عن ابن عباس وأصحابه الآخذين عنه، فإنه ورد عنهم ما يستوعب تفسير غريب القرآن بالأسانيد الثابتة الصحيحة».

ثم أردف قائلاً: «وها أنا أسوق هنا ما ورد من ذلك عن ابن عباس من طريق ابن أبى طلحة خاصة، فإنها من أصح الطرق عنه، وعليها اعتمد البخارى فى صحيحه مرتبًا على السور»(٢).

---

(١) البخارى: كتاب التفسير، تفسير البقرة.

(٢) الإتقان: ١/ ١٤٤.

أمثلة من ذلك:

ثم ساق السيوطى رحمه الله أمثلة على ذلك من أول القرآن إلى آخره، نقتطف منها ما يأتى:

قال ابن عباس رضى الله عنهما:

يعمهون: يتمادون، وفومها: الحنطة، قلوبنا غلف: فى غطاء، مثابة: يثوبون، أهل به لغير الله: ذبح للطواغيت، فتيلاً: الذى فى الشق الذى فى بطن النواه، نقيراً: النقطة التى فى ظهر النواة، الأزلام: القداح، تبسل: تفضح، مسفوحًا: مهراقًا، إملاق: الفقر.

مذءومًا: ملومًا، افتح: اقض، فانبجست: انفجرت، نتقنا الجبل: رفعناه، كأنك حفى عنها: لطيف بها، يضاهؤن: يشبهون، يعزب: يغيب»(١).

ومن أمثلة تفسيره بلغة غير لغة قريش

ثم ذكر السيوطى النوع السابع والثلاثين فيما وقع فى القرآن بغير لغة الحجاز، وفيما يخص ابن عباس رضى الله عنهما نقتطف من كلامه هذه النماذج قال ابن عباس رضى الله عنهما:

وأنتم سامدون: الغناء، وهى يمانية، أتدعون بعلاً: قال: ربًا بلغة أهل اليمن، يفتنكم: يضلكم بلغة هوازن، بورا: هلكى، بلغة عمان، فنقبوا: هربوا، بلغة اليمن، لا يلتكم: لا ينقصكم، بلغة بنى عبس، مراغمًا: منفسحًا، بلغة هذيل، مسطوراً: مكتوبًا، بلغة حمير، يسمون الكتاب سطوراً»(٢).

ثم ذكر اليسوطى النوع الثامن والثلاثين فما وقع فيه بغير لغة

---

(١) الإتقان: ١/ ١١٤، ١١٥.

(٢) الإتقان: ١/ ١٣٣، ١٣٤.

العرب، وفيما يخص تفسير ابن عباس بها نقتطف ما يلى:

قال رضى الله عنهما:

الأواه: الموقن، بلسان الحبشة، الجبت: اسم الشيطان بالحبشة، حصب جهنم: قال: حطب جهنم بالزنجية، حوبًا: إثمًا بالحبشية، راعنا: سب بلسان اليهود، بأيدى سفرة: القراء بالنبطية، فصرهن: فشققهن، بالنبطية، طوبى: اسم الجنة بالحبشة، قسورة: الأسد بالحبشية، السماء منفطر به: ممتلئة به بالحبشية، هيت لك: هلم لك بالقبطية»[1].

ومن وسائله رضى الله عنهما لتفسير القرآن

استشهاده بالشعر العربى

أنكر جماعة لا علم لهم - على حد قول السيوطى - الاحتجاج على غريب القرآن ومشكله بالشعر، وقالوا: إذا فعلتم ذلك جعلتم الشعر أصلاً للقرآن قالوا: وكيف يجوز أن يحتج بالشعر على القرآن وهو مذموم فى القرآن والحديث.

ولكن هذا الإنكار منهم محل إنكار عند كافة المحققين وأهل العلم، فقد جاء الاحتجاج بالشعر عن الصحابة والتابعين، وليس الأمر كما زعموا من أن الشعر سيصير أصلاً للقرآن، بل المراد تبيين الكلمة الغريبة من القرآن بالشعر لأن الله تعالى جعله بلسان عربى.

ومن رؤوس المفسرين الذين كانوا يحتجون للقرآن بالشعر اللعربى حبر الأمة وبحرها ابن عباس، فقد قال ابن عباس: «الشعر ديوان العرب، فإذا خفى علينا الحرف من القرآن الذى أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه»[2].

---

(١) الإتقان: ١/ ١٣٧ - ١٤٠.

(٢) الإتقان: ١/ ١١٩.

وقال أيضًا: «إذا سألتمونى عن غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر، فإن الشعر ديوان العرب»[١].

وعن عبد الله بن عبد الرحمن بن عتبة عن ابن عباس أنه كان يسأل عن القرآن فينشد فيه الشعر».

قال أبو عبيد: «يعنى كان يستشهد به على التفسير»[٢].

قال السيوطى: «قد روينا عن ابن عباس كثيرًا من ذلك وأوعب ما رويناه عن مسائل نافع بن الأزرق»[٣].

ثم قال السيوطى: «وقد رأيت أن أسوقها هنا بتمامها لتستفاد ثم ذكرها رحمه الله، وهى طويلة جدًا تبلغ حوالى أربع عشرة صفحة بالحجم الكبير من صفحة ١٢٠ إلى صفحة ١٣٣ من الإتقان رغم أنه اختصرها، ولم يذكرها كلها، كما صرح بذلك فى نهايتها.

نختار منها على سبيل المثال ما يأتى:

«بينا عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن فقال نافع بن الأزرق لنجدة بن عويمر قم بنا إلى هذا الذى يجترئ على تفسير القرآن بما لا علم له به، فقاما إليه فقالا:

إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا وتأتينا بمصادقه من كلام العرب، فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربى مبين.

فقال ابن عباس: سلانى عما بدا لكما..

فقال نافع أخبرنى عن قول الله تعالى ﴿**عن اليمين وعن الشمال عزين**﴾، قال: العزون: حلق الرفاق، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

---

(١) الموضع السابق. (٢) الإتقان: ١/ ١٢٠.

(٣) الموضع السابق.

قال: نعم، أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول:

فجاءوا يهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزينا

قال: أخبرني عن قوله ﴿وابتغوا إليه الوسيلة﴾، قال: الوسيلة الحاجة، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت عنترة وهو يقول:

إن الرجال لهم إليك وسيلة إن يأخذوك تكحلى وتخضبى

قال: أخبرني عن قوله ﴿شرعة ومنهاجًا﴾، قال: الشرعة الدين، والمنهاج الطريق، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وهو يقول:

لقد نطق المأمون بالصدق والهدى

وبين للإسلام دينا ومنهجًا

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿إذا أثمر وينعه﴾ قال نضجه وبلاغه، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول الشاعر:

إذا ما مشت وسط النساء تأودت

كما اهتز غصن ناعم النبت يانع

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿وريشًا﴾ قال: الريش المال، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم، أما سمعت الشاعر يقول:

فرشنى بخير طال ما قد بريتنى

وخير الموالى من يريش ولا يبرى

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿لقد خلقنا الإنسان فى كبد﴾ قال: فى اعتدال واستقامة، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت لبيد بن ربيعة وهو يقول:

ياعين هلا بكيت إربد إذ قمنا وقام الخصوم فى كبد

قال: أخبرنى عن قوله تعالى ﴿يكاد سنابرقعه﴾ قال: السنا الضوء، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت أبا سفيان بن الحارث يقول:

يدعو إلى الحق لا يبغى به بدلاً يجلو بضوء سناه داجى الظلم

قال: أخبرنى عن قوله تعالى ﴿وحفدة﴾ قال: ولد الولد، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت الشاعر يقول:

حفد الولائد حولهن وأسلمت بأكفهن أزمة الأحمال

قال: أخبرنى عن قوله تعالى ﴿وحنانًا من لدنا﴾ قال: رحمة من عندنا، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت طرفة بن العبد يقول:

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا

حنانيك بعض الشر أهون من بعض

قال: أخبرنى عن قوله تعالى ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا﴾ قال: أفلم يعلم، بلغة بنى مالك، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت مالك بن عوف يقول:

لقد يأس الأقوام أنى أنا ابنه

وإن كنت عن أرض العشيرة نائيًا

ونكتفى بهذا القدر من مسائل نافع بن الأزرق واستشهاد ابن عباس للقرآن من الشعر، ومن أراد المزيد منها فعليه بكتاب الاتقان للسيوطى جـ١: ص: ١٢٠ وما بعدها.

❊ ❊ ❊

هل كان ابن عباس مكثراً من الإسرائيليات فى تفسيره؟

للحاقدين على الإسلام ورموزه سموم يبثونها فى الأوساط العلمية، ليشككوا المسلمين فى أعلام الأمة وأئمتها تشكيكًا يقصد منه فى النهاية التشكيك فى الإسلام نفسه.

ومما ورد عنهم فيما يخص إمامنا حبر الأمة وبحرها عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، أنهم اتهموه بأنه يفسر القرآن من خلال الإكثار من الأخذ عن أهل الكتاب، وأنه كان يصدقهم فيما يقولون. مخالفًا بذلك التعاليم الواردة عن رسول الله ﷺ.

ومن أبرز من اتهموه بذلك المستشرق الشهير اليهودى جولدزيهر، وأحمد أمين، ولهما فى ذلك كلام مشهور.

ونحن فى هذا المقام نورد عنهما ما قالاه عن ابن عباس ثم نكر عليه مفندين مبطلين.

يقول جرلذيهر:

«وأجدر من ذلك بالتصديق الأخبار التى تفيد أن ابن عباس كان لا يرى غضاضة أن يرجع فى الأحوال التى يخامره فيها الشك إلى من يرجو عنده علمها.

وكثيراً ما ذكرنا أنه كان يرجع - كتابة - فى تفسير معانى الألفاظ إلى من يدعى أبا الجلد، والظاهر أنه غيلان بن فروة الأزدى الذى كان يثنى عليه بأنه قرأ الكتب، وقد ذكرت بنته على وجه الخصوص أن أباها كان يقرأ القرآن كل سبعة أيام، ويختم التوراة كل ثمانية أيام، بالروية والفهم - يبدو أن سبعة أيام إلى ثمانية أيام كانت تعد مدة وسطًا لختم القرآن بفهم - وكان يدعو جماعة كبيرة من الناس احتفالاً بكل مرة،

يختتم فيها التوراة، ويرى أن هذا العمل الصالح يستوجب رحمة الله ورضاه.

ولا يتضح حقًا من هذا الخبر الغامض، الذى ربما زادته مغالاة ابنته غموضًا، أى نسخة من التوراة كان يستخدمها فى دراسته.

ثم يتابع جولدزيهر كلامه بقوله:

وكثيراً ما نجد بين مصادر العلم المفضلة لدى ابن عباس اليهوديين الذين اعتنقا الإسلام، كعب الأحبار وعبد الله بن سلام.

كما نجد أهل الكتاب على وجه العموم، أى رجالاً من طوائف ورد التحذير من أخبارها - عدا ذلك - فى أقوال تنسب إلى ابن عباس نفسه.

ومن الحق أن اعتناقهم للإسلام قد سما بهم على مظنة الكذب ورفعهم إلى مرتبة مصادر العلم التى لا تثير ارتيابًا، ولم يَعْدُ «أو تولوث» شاكلة الصواب إذ يتحدث عن مدرسة ابن عباس، ذات المسحة اليهودية، ولم يعد ابن عباس أولئك الكتابيين الذين دخلوا فى الإسلام حججًا فقط فى الإسرائيليات، وأخبار الكتب السابقة، التى ذكر كثيراً عنها من الفوائد، بل كان يسأل أيضًا كعب الأحبار مثلاً عن التفسير الصحيح للتعبيرين القرآنيين: أم الكتاب، والمرجان.

كان يفترض عند هؤلاء الأحبار اليهود فهم أدق للمدارك الدينية العامة، الواردة فى القرآن، وفى أقوال الرسول ﷺ.

وكان يرجع إلى أخبارهم فى مثل هذه المسائل، على الرغم من ضروب التحذير الصادرة من جوانب كثيرة فيهم.

ففى تعيين وقت يوم الجمعة، الذى أخبر الرسول ﷺ أن أداء المسلم الصلاة فيه لابد أن يقبل، ذكر أن أبا هريرة طلب بيان ذلك عند

كعب الأحبار وعبد الله بن سلام، وذلك بأنهما يعرفان ٠ التوراة، التى لابد أن يوجد فيها مثل ذلك.

والظاهر أن المحور الذى تدور حوله مثل هذه الأخبار فى الغالب هو افتراضات المسلمين فى الزمن المتأخر.

ويدل على مدى ما تستطيع أن تبلغه مثل هذه الافتراضات من طابع السذاجة، ما روى مثلاً من حصول اختلاف بين ابن عباس وعمرو بن العاص على قراءة كلمة «من لدنى» فى الآية ٧٦ من سورة الكهف، هل هى بتشديد نون «لدنى» أو بتخفيفها، وأن الاثنين قصدا إلى كعب الأحبار لتسوية هذا الخلاف.

ومذهب التفسير الذى أقامه هذا الأب الأول لتفسير القرآن والمحصول الذى تعلمه من أهل الكتاب قد بينه «ليونى كينانى» أخيرًا على وجه ممتاز»[١].

هذا ما قاله جولدزيهر، أما ما قاله أحمد أمين، فقد سطره فى كتابه «فجر الإسلام» حيث قال ما نصه:

«وقد دخل بعض هؤلاء اليهود فى الإسلام، فتسرب منهم إلى المسلمين كثير من هذه الأخبار، ودخلت فى تفسير القرآن يستكملون بها الشرح.

ولم يتحرج حتى كبار الصحابة مثل ابن عباس عن أخذ قولهم، روى أن النبى ﷺ قال: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم، ولا تكذبوهم»[٢]. ولكن العمل كان على غير ذلك، وأنهم كانوا

---

(١) مذاهب التفسير الإسلامى: ٨٥ - ٨٩ - تحقيق د/ عبد الحليم النجار - طبعة دار إقرأ.

(٢) أخرجه البخارى بلفظ قريب منه فى كتاب التفسير باب (وقالوا اتخذ الله ولدًا) فى سورة البقرة. جـ

يصدقونهم، وينقلون عنهم»[1].

تفنيد هذا الزعم

إن أى منصف عادل، دارس حياة ابن عباس، ومطلع على تفسيره ومنهجه فيه، يدرك بلا عناء زيف هذا الإتهام الذى وجه إليه رضى الله عنه.

وإننا لنستطيع بيان هذا الزيف، من خلال النقاط الآتية:

١ - أن رجوع الصحابة - رضى الله عنهم أجمعين - وابن عباس خاصة - إلى مسلمى أهل الكتاب لم يكن بهذه الكثرة التى يحاول أعداء الإسلام أن يصوروها لنا، بل كان فى غاية القلة، بل إننا لا نتجاوز الصدق إن قلنا كان فى غاية الندرة.

والواقع العملى هو الفيصل بيننا وبين هؤلاء الحاقدين، فليجمعوا لنا ما صح عن الصحابة فى ذلك، وما صح عنهم من روايات أخرى فى التفسير وليوازنوا بين الأمرين، فسيجدوا أن النسبة بينهما فى غاية الضآلة.

وكفى بالواقع الصادق دليلاً على كذب هؤلاء الأفاكين.

٢ - إن هذا النادر الذى حدث فيه رجوع من الصحابة لأهل الكتاب لم يكن فى أمر يتعلق بالعقيدة، أو أمور التشريع، وإذا حدث فكان على سبيل الاستشهاد والتقوية لما جاء فى القرآن، بل كان سؤالهم غالبًا عن القصص القرآنى، ذلك أن بعض الصحابة رأوا أن هناك من القصص ما يمثل قدرًا مشتركًا بين القرآن والتوراة، إلا أنه كان فى القرآن مجملاً، وفى التوراة مفصلاً، فتاقت نفوسهم إلى سماع التفاصيل.

---

(١) فجر الإسلام: جـ١ ٢٤٨.

٣ - إن الصحابة لم يسألوهم عن شئ كان للرسول ﷺ فيه كلام، فالصحابة أجل من أن يقدموا بين يدى الله ورسوله.

٤ - إن الصحابة - خاصة ابن عباس - كانوا ينهون عن سؤال أهل الكتاب نظرًا لأن أهل الكتاب حرفوا وغيروا، وزالت الثقة تمامًا عنهم فلم يبق فى الدنيا كتاب سماوى صحيح إلا القرآن، وهو المهيمن على ما عداه، وفيه غنية عما سواه.

أخرج البخارى فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «يا معشر المسلمين: تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذى أنزل الله على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله، تقرءونه لم يشب، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله وغيروا بأيديهم الكتاب، فقالوا: هذا من عز الله ليشتروا به ثمنًا قليلاً.

أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟

ولا والله ما رأينا رجلاً منهم قط يسألكم عن الذى أنزل عليكم».

٥ - ما ذكره هؤلاء الأفاكون من أن ابن عباس والصحابة كانوا يصدقون أهل الكتاب فيما يقولونه كذب وافتراء، لا دليل عليه، بل لا يعقل بحال أن يكون.

أيعقل من هؤلاء الصحابة الذين ثبتت عدالتهم بالكتاب والسنة، وزكاهم الله ورسوله فى غير موضع من القرآن والسنة، والذين سمعوا النهى الصريح من رسول الله ﷺ عن تصديق أهل الكتاب فى مثل قوله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم»(٢).

---

(١) البخارى، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبى ﷺ: لا تسألوا أهل الكتاب.

(٢) سبق تخريجه.

أيعقل عن هـؤلاء الصحابة الذين تلـك سماتهم، وتلك منـزلتهم والذين تركـوا ديارهم وأموالهم وأبنـاءهم، وهاجروا ابتـغاء مرضاة الله ورسوله، وعرضوا أنفسهم للموت فى كل الغزوات، بل كانوا حريصين عليه أشد من حـرص هؤلاء الأفاكيـن على الحياة أيعقل مـن هؤلاء الصـحابـة أن لا يمتـثلـوا النهـى النبـوى عن تـصديق أهـل الكـتاب ويصدقـونهم؟ إن هذا إلا اختـلاق، اختلقوه زوراً وبهـتانًا، لتشـكيك المسلمين فى أعز عناصر الأمة على الإطلاق.

لقـد حدث فـى حياة الـرسول ﷺ وبـعدها مـا يدل عـلى أن الصحابة كانوا يمتثلون لنهى النبى ﷺ قدر الاستطاعة البشرية وأنهم كانوا ينهون غيرهم.

لقد حدث فى حياته ﷺ - كـما روى الإمام أحمد أن عمر بن الخطاب أتى إلـيه ﷺ بكتاب أصابـه من بعض أهل الكـتاب، فقرأه على النبى ﷺ .فـغضب النبى ﷺ وقال: «أمتهوكـون فيها يا ابن الخطاب؟ والذى نفسى بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شئ فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به.

والذى نفـسى بيده لو أن مـوسى ﷺ كان حيًا مـا وسعه إلا أن يتبعنى»(١).

وبعد موته كان الصحابة ينهون عن الأخذ عن أهل الكتاب، وعلى رأس هؤلاء الناهين عمر بن الخطاب وابن عباس(٢).

أقول: أيعقل بعد كل ذلك أن يقال إن الـصحابة كانوا يسألون أهل الكتاب بكثرة، ويصدقونهم فيما يقولون؟

---

(١) مسند أحمد: ٣/ ٣٨٧.

(٢) انظر فى ذلك عدة روايات أوردها ابن كثير فى تفسير صور سورة يوسف.

إن هذا لشئ عجاب.

- أما ما يذكره هؤلاء الأفاكون من أن ابن عباس سأل أبا الجلد عن معنى البرق الوارد فى سورة الرعد، فإن هذا على فرض ثبوته لا يتعلق بأمر من أمور العقيدة، أو بأصول التشريع.

ولا يعدو أن يكون ضمن نطاق الجواز والإباحة، التى أباحها الرسول ﷺ، كما سيتبين فى موضع لاحق إن شاء الله تعالى أثناء الحديث عن الإسرائيليات.

وإذا نظرنا إلى هذا الحديث الذى اعتمدوا عليه والذى ذكره الطبرى، وجدناه ضعيفًا، حيث جاء فى إسناده موسى بن سالم أبو جهضم وهو لم يدرك ابن عباس بل كان بعد ابن عباس بمدة طويلة.

ولينظر فى ذلك إلى ما قاله الذهبى فى ميزان الاعتدال جـ٣ صفحة ٢١٠.

- ولأستاذنا الجليل فضيلة الأستاذ الدكتور إبراهيم خليفة جهد مشكور فى رد هذه الشبهة، أقتطف منه كلمة حول نقطة معينة فى هذا الموضوع أعجبتنى أيما إعجاب، حيث يذهب مع القوم إلى أبعد مدى، على افتراض رجوع الصحابة إلى مسلمى أهل الكتاب، حيث يقول:

«إذا كان لنفر من بنى إسرائيل قد أسلموا وحسن إسلامهم من رجحان العقل، ودقة الفقه اللذين يقسمهما الله لمن يشاء من عباده، واللذين لم يقصرهما الله قطعًا على هؤلاء النفر، بل جعلهما حظ جميع الراسخين فى العلم، نقول: إذا كان لهؤلاء النفر حظ من ذلك فسألهم ابن عباس أو غيره عما يشاء من فقه الكتاب والسنة، لا بوصف كونهم من بنى إسرائيل، بل بوصف كونهم أولى رجاحة فى العقل،

ورسوخ فى العلم يعد آخذاً عن بنى إسرائيل، وراوياً للإسرائيليات عنهم؟

أو لأن هؤلاء النفر من بنى إسرائيل جنساً، وكانوا قبل إسلامهم على تلك الملة عقيدة وعلماً، يصبح ذلك سبة فيهم يسقط كل ما يمكن أن يهبهم الله من فقه ونصوع رأى بعد إسلامهم ويعد كل قول مما يقولون مجالاً للتهمة؟ ومحلاً للريبة واحتمال التحريف عن كفرة بنى جلدتهم؟

كيف وهذا الإسلام ممثلاً فى كتابه الحق وسنة نبيه المطهرة حاسم المنطق، وناصع الحجة فى غير موضع منهما على عدم قيام أدنى تفرقة البته بين أهله، وبغض النظر تماماً عما كانوا، وبأى دين قبله قد دانوا.

نعم دون أدنى تفرقة بينهم فى إمكان قسمة الله لمن يشاء منهم فقهاً فى الدين، وعلماً بالتأويل.

أليس القرآن يقول بصيغة لا يختلف اثنان فى أنها من صيغ العموم (يؤتى الحكمة من يشاء)؟

أليس نبى الإسلام هو القائل فى حديثه الصحيح بصيغة لها نفس هذا الشأن، بل لعلها أظهر فيه «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين، وإنما أنا قاسم والله عز وجل معط»؟، ويقول: «رب مبلغ أوعى من سامع». ويقول: «رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»؟.

ومع أنا لا نريد أن نقول، ولا نحسبه يتبادر من قولنا أصلاً كذلك، أن أيًا من هؤلاء كان أفقه من ابن عباس، فإن الذى نريد أن نقرره وننبه إليه، ولا نحسبه إلا من البدهى البين بنفسه، أن من سمة أهل العلم لا محالة أن يسألوا كل من يأنسون فيه فقهاً وعلماً. ولا شبهة فى أن هؤلاء النفر كانوا من أهل هذا الشأن»[1].

---

(١) دراسات فى مناهج المفسرين: ٣٥٢، ٣٥٣.

مرويات ابن عباس بين القبول والرد

لأسباب سنذكرها قريبًا إن شاء الله تعالى كثرت الروايات عن ابن عباس رضى الله عنهما كثرة لفتت أنظار جميع العلماء، حتى لا نكاد نجد آية من آيات القرآن الكريم إلا ونجد لابن عباس فيها قولاً أو أكثر.

ولهذا اختلط ما صح عنه بما وضع عليه.

من أجل هذا كان حريًا بكل من له صلة بالتفسير، أن يعرض مروياته على قواعد الجرح والتعديل، فما جاء من طريق صحيح قبل، وإلا رد على قائله.

وقد اهتم العلماء رحمهم الله ببيان طرق المرويات عن ابن عباس، وكان من أبرز المهتمين بذلك الحافظ السيوطى عليه رحمة الله.

فقد بين لنا أصح الطرق عنه، وكذلك أوهاها، ونستطيع أن نستخلص من كلامه أن هناك عشر طرق لمرويات ابن عباس نبينها على النحو التالى.

الطريق الأولى: طريق معاوية بن صالح عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس، وهى من جيد الطرق عن ابن عباس كما قال السيوطى.

وعنها قال الإمام أحمد بن حنبل: «بمصر صحيفة فى التفسير رواها على بن أبى طلحة لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصدًا ما كان كثيرًا»(١).

وعنها قال الحافظ ابن حجر: «وهذه النسخة كانت عند أبى صالح كاتب الليث، رواها عن معاوية بن أبى صالح عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس، وهى عند البخارى عن أبى صالح، وقد اعتمد عليها فى صحيحه كثيرًا فيما يعلقه على ابن عباس، وأخرج منها ابن جرير

---

(١) الإتقان: ٢/ ٢٦٨.

وابن أبى حاتم وابن المنذر كثيراً بوسائط بينهم وبين أبى صالح[١].

تشكيك فى هذه الطريق

وقد شكك جماعة - قديمًا وحديثًا - فى هذه الطريق، بحجة أن عليًا بن أبى طلحة لم يَلْق ابن عباس، ولم يسمع منه التفسير، فتكون هذه الطريق منقطعة.

قال السيوطى: «وقال قوم لم يسمع ابن أبى طلحة من ابن عباس التفسير وإنما أخذه عن مجاهد أو سعيد بن جبير».

وقال أيضًا: «وقال الخليلى فى الإرشاد: تفسير معاوية بن صالح قاضى الأندلس عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس رواه الكبار عن أبى صالح كاتب الليث، عن معاوية، وأجمع الحفاظ على أن ابن أبى طلحة لم يسمع من ابن عباس»[٢].

ومن المشككين المعاصرين فى هذه الطريق المستشرق اللئيم «جولدزيهر» حيث أراد بتشكيكه هذا أن يطعن فى تفسير ترجمان القرآن، وحبر الأمة وبحرها، وبذلك تفقد الأمة الإسلامية قدراً عزيزاً من التفسير بالمأثور، حيث يقول:

«بيد أن نقدة الحديث الإسلاميين أنفسهم يقررون أن علىّ بن أبى طلحة لم يسمع من ابن عباس أقوال التفسير التى أوردها فى كتابه على أنها سماع مباشر عنه.

هكذا يتقرر فى حكم النقد الإسلامى، حتى بالنظر إلى حجية ما هو أوفى الأجزاء حظًا فى الحكم بالقبول، من محصول التفسير الغزير المنسوب إلى ابن عباس الكبير»[٣].

---

(١) الموضع السابق.

(٢) الإتقان: ٢/١٨٨.

(٣) المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن: ٩٨.

تزييف هذا التشكيك

ولكن هذا الحاقد الكذاب المغرض نسى أو تناسى، وجهل أو تجاهل ما قرره علماء الجرح والتعديل أنه إذا عرفت الواسطة التى بسببها حدث انقطاع السند، وكانت تلك الواسطة ثقة، فإن السند صحيح يعتد به، وكأن ليس فيه انقطاع.

ولذلك يقول شيخ الصنعة، وإمام هذا الفن، الحافظ ابن حجر، مدافعًا عن هذه الطريق: «بعد أن عرفت الواسطة وهو ثقة فلا ضير فى ذلك»[١].

وهل هناك دليل على اعتماد هذه القاعدة، وتقرير تلك الطريق أكثر من اعتماد البخارى عليها، فى صحيحه، أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى، والذى شدد فى قبول أى رواية بما لم يشدد به أحد مثله من المحدثين؟

٢ - **الطريق الثانية**: ومن الطرق الجيدة أيضًا عن ابن عباس:

«طريق قيس عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عنه».

قال السيوطى: «وهذه الطريق صحيحة على شرط الشيخين، وكثيرًا ما يخرج منها الفريابى، والحاكم فى مستدركه»[٢].

٣ - **الطريق الثالثة**: وهى جيدة أيضًا، طريق ابن إسحاق عن محمد ابن أبى محمد مولى آل زيد بن ثابت عن عكرمة أو سعيد بن جبير عنه.

قال عنها السيوطى: «وهى طريق جيدة، وإسنادها حسن، وقد أخرج منها ابن جرير وابن أبى حاتم كثيرًا، وفى معجم الطبرانى منها

---

(١) الإتقان: ٢/ ١٨٨.

(٢) الإتقان: ٢/ ١٨٨.

أشياء»[١].

٤ - الطريق الرابعة: طريق شبل بن عباد المكى عن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس.

قال عنها السيوطى فى الإتقان: «وتفسير شبل بن عباد المكى عن أبى نجيح، عن مجاهد عن ابن عباس قريب إلى الصحة»[٢].

٥ - الطريق الخامسة: طريق إسماعيل بن عبد الوحمن السدى الكبير عن أبى مالك عن أبى صالح عن ابن عباس.

والسدى الكبير ثقة، احتج بحديثه مسلم وأهل السنن الأربعة، لكن تفسيره الذى جمعه مروى عن أسباط بن نصر وقد اختلف العلماء فى قبول رواية أسباط هذا.

ولذلك يقول السيوطى:

«وروى عن السدى الأئمة، مثل الثورى وشعبة، لكن التفسير الذى جمعه رواه أسباط بن نصر، وأسباط لم يتفقوا عليه، غير أن أمثل التفاسير تفسير السدى»[٣].

٦ - الطريق السادسة: طريق عبد الملك بن جريج عن ابن عباس، وهذه الطريق يجب أن يقف الباحث أمامها موقف نقد وتمحيص، لأنه سيجد نفسه أمام جمع من الروايات فيها الغث والسمين، لأن هدف ابن جريج كان مجرد الجمع، وليس الاقتصار على الصحيح.

وعن ابن جريج وطرقه يقول الخليلى فى كتابه الإرشاد فيما ينقل عنه السيوطى:

«وعن ابن جريج فى التفسير جماعة رووا عنه، وأطولها ما يرويه

---

(١) الموضع السابق. (٢) الموضع السابق.

(٣) الموضع السابق.

بكر بن سهل الدمياطى عن عبد الغنى بن سعد عن موسى بن محمد عن ابن جريج وفيه نظر.

وروى محمد بن نور عن ابن جريج ثلاثة أجزاء كبار.

وروى الحجاج بن محمد عن ابن جريج نحو جزء، وذلك صحيح متفق عليه».

إلى أن يقول: «فأما ابن جريج فإنه لم يقصد الصحة، وإنما روى ما ذكر فى كل آية من الصحيح والسقيم»[1].

٧ - **الطريق السابعة:** طريق عطيه العوفى عن ابن عباس وهى ضعيفه قال عنها السيوطى: «أخرج منها ابن جريج وابن أبى حاتم كثيرًا، والعوفى ضعيف ليس بواه، وربما حسن له الترمذى»[2].

٨ - **الطريق الثامنة:** طريق الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس وهى ضعيفة لأن الضحاك لم يسمع ابن عباس.

قال السيوطى: «وطريق الضحاك بن مزاخم عن ابن عباس منقطعة، فإن الضحاك لم يلقه، فإن انضم إلى ذلك رواية بشر بن عمارة عن أبى روق عنه فضعيفة، لضعف بشر.

وقد أخرج من هذه النسخة كثيرًا ابن جرير وابن أبى حاتم.

وإن كان من رواية جويبر عن الضحاك فأشد ضعفًا، لأن جويبرا شديد الضعف متروك، ولم يخرج ابن جرير ولا ابن أبى حاتم من هذه الطريق شيئًا، إنما خرجها ابن مردويه وأبو الشيخ ابن حبان»[3].

٩ - **الطريق التاسعة:** طريق مقاتل بن سليمان، وهى طريقة

---

(١) الإتقان: ٢/ ١٨٨. (٢) الإتقان: ٢./ ١٨٩.

(٣) الموضع السابق.

ضعيفة، فإن أحدًا لم يوثق مقاتلاً، بل كذبه غير واحد.

اشتهر عنه القول بالتجسيم والتشبيه، ولذلك قال عنه السيوطى:

«الكلبى يفضل عليه، لما فى مقاتل من المذاهب الردية»[(١)].

١٠ - **الطريق العاشرة**: طريق محمد بن السائب الكلبى عن ابن عباس، وهى أضعف الطرق عن ابن عباس. نظرًا لاتهام المحدثين الكلبى بالكذب، باعتراف الكلبى نفسه[(٢)].

قال السيوطى فى الإتقان:

«وأوهى طرقه طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فإن انضم إلى ذلك رواية محمد بن مروان السدى الصغير، فهى سلسلة الكذب، وكثيرًا ما يخرج منها الثعلبى والواحدى.

لكن قال ابن عدى فى الكامل: «للكلبى أحاديث صالحة وخاصة عن أبى صالح، وهو معروف بالتفسير وليس لأحد تفسير أطول منه ولا أشبع»[(٣)].

هذه هى أشهر الطرق عن ابن عباس، وهى تشمل الجيد والضعيف، بل الموضوع.

وعلى ذلك فيجب أن لا تقبل أى رواية عنه إلا بعد عرضها على قواعد الجرح والتعديل، فما أتى من طريق صحيح قبل، وإلا رد ولا ننخدع بنسبتها إليه، فليس كل ما ينسب إليه صحيحًا.

---

(١) الموضع السابق.

(٢) انظر ترجمته وبيان كذبه فى ميزان الاعتدال: ٣/٥٥٦ فما بعدها، والدر المنثور للسيوطى: ٦/٤٢٣.

(٣) الاتقان: ٢/١٨٩.

كثرة الوضع على ابن عباس

واضح مما سبق أن أكثر الطرق عن ابن عباس ضعيفة بل وصل رجال بعضها إلى حد الاتصاف بالكذب والوضع على ابن عباس، مما جعل المرويات الضعيفة والمكذوبة تصل إلى الكثرة التى لا يمكن أن تحصى، بينما الصحيح منها إذا قورن بها يصل إلى ما هو غاية فى القلة. ولذلك قال الشافعى - فيما يروى عنه-[(١)]: «لم يثبت عن ابن عباس فى التفسير إلا شبيه بمائة حديث».

وإذا أردنا أن نشير إلى أهم الأسباب التى جعلت الوضاعين يكثرون من الكذب على ابن عباس، فسنجدها متمثلة فيما يأتى:

أولاً: كونه من بيت النبوة. فالمسلمون بمقتضى إيمانهم بنبيهم يحبون كل من انتسب إليه، وبكل ما يروى عنه، ويحفظون ويرددون كل ما يرد عن بيت النبوة أكثر من غيره.

فالوضع على آل البيت يكسب الموضوع ثقة وذيوعًا وإقبالاً.

ثانيًا: معلوم أن كل عصر لا يخلو من المتملقين والمتزلفين إلى أهل السلطة.

ومعلوم أن السلطة فيما بعد قد آلت إلى العباسيين الذين ينتسبون إلى ابن عباس بصلة الرحم، فلم يجد أولئك المتزلفون وسيلة تقربهم إلى أهل السلطة العباسيين أفضل من نشر علم جدهم ابن عباس وروايته للناس، ولو كان ذلك بالوضع عليه، ونشر هذه الموضوعات.

٣ - المكانة العلمية الرفيعة لترجمان القرآن:

فالكلام يأخذ منزلته وقوته من منزلة المتكلم به وقوته، ولا أعلى منزلة، ولا أقوى تفسيرًا من منزلة ابن عباس وتفسيره.

---

(١) انظر الإتقان: ٢/١٨٩.

لذا لجأ الوضاعون إلى وضع الروايات عليه، حتى يختلط المكذوب منها بالصادق، ويروج العليل كما راج الصحيح.

التفسير المنسوب إلى ابن عباس

ذاع - ولازال - بين الناس تفسير منسوب إلى ابن عباس يحمل اسم «تنوير المقباس من تفسير ابن عباس».

وقد قام بجمع هذا التفسير أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز أبادى الشافعى، مصنف القاموس المحيط.

ومن اليسير على قارئ هذا التفسير إذا كان له أدنى دراية بمصطلح الحديث، وطرق الرجال أن يقف على عدم صحة نسبة هذا التفسير إلى ابن عباس. لأنه يدور على سلسلة الكذب، التى هى أوهى الطرق عن ابن عباس.

إذ أنه يدور على محمد بن مروان السدى الصغير، عن محمد بن السائب الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس.

وقد تبين لنا أثناء الحديث عن أشهر الطرق عن ابن عباس كيف أن العلماء قد حكموا على الكلبى بالكذب، وأوصوا بعدم الرواية عنه، وأخذ التفسير والحديث منه.

ومن أراد الوقوف على دوران هذا التفسير على هذا الإسناد فلا عليه إلا أن يبدأه من أوله عند الكلام على البسملة، وعند تفسير أول سورة البقرة، وبداية كل سورة.

وعلى ذلك فإننا نستطيع أن نقول بكل ثقة: إن هذا التفسير ليس من تفسير ابن عباس، وإذا أردنا التأكد من ذلك أكثر فلننظر إلى تلك الروايات المتناقضة عن ابن عباس فى التفسير والتى لا يمكن أن تكون

كلها صدرت عنه.

ولكن مما ينبغى التنبيه عليه هنا أن نفرق بين أمرين، الأمر الأول نسبة هذا التفسير إلى ابن عباس، والأمر الثانى، القيمة العلمية لتلك الروايات فى هذا التفسير.

أما الأمر الأول: فقد بيناه، وهو أن هذا التفسير لا تصح نسبته إلى ابن عباس.

أما الأمر الثانى: فإن كثيراً من هذه المرويات له قيمته العلمية ومقبول تفسيريًا، ولكن فرق بين كون الشئ صحيحًا فى نفسه وبين كونه صادراً عن شخص بعينه أو ليس بصادر.

وعلى ذلك فلا يلزم من نفى نسبته إلى ابن عباس ضعف جميع الروايات فيه.

ولا يلزم من صحة كثير من الروايات فيه صحة نسبته إلى ابن عباس، وهذا ظاهر بين، بل هو من البدهيات لكل أهل العلم.

* * *

المبحث الثانى

عبد الله بن مسعود[١]

ومن مفسرى الصحابة الكبار، وقرائها العظام عبد الله بن مسعود ابن غافل بن حبيب الهذيلى.

كنيته: أبو عبد الرحمن.

أمه: أم عبد بنت عبد بن ود سواء من هذيل، ينسب إليها أيضًا فيقال عنه ابن أم عبد، ومن الذين نسبوه إلى أمه رسول الله ﷺ، كما سيأتى قريبًا.

من صفاته الخلقية: نحافة جسده، وقصر قامته، ودقة ساقيه، وغزارة شعره، وطوله.

أخرج ابن سعد فى طبقاته عن قيس بن أبى حازم قال: رأيت عبد الله بن مسعود رجلاً خفيف اللحم.

كما أخرج عن هبيرة بن يريم أنه قال: كان لعبد الله شعر يرفعه على أذنيه، كأنما جُعِل بِعَسَلٍ».

وعن هبيرة أيضًا قال: كان شعر عبد الله بن مسعود يبلغ ترقوته، فرأيته إذا صلى يجعله وراء أذنيه»[٢].

وعن زر بن حبيش عن عبد الله قال: كنت أجتنى لرسول الله من الأراك. قال: فضحك القوم من دقة ساقى، فقال النبى ﷺ: مم تضحكون؟ قالوا: من دقه ساقه، فقال: هى أثقل فى الميزان من أحد[٣].

---

(١) انظر ترجمته فى: طبقات ابن سعد: ٣/ ١٥٠، وأسد الغابة: ٣/ ٢٥٦. والإصابة: ٢/ ٣٦٩، وتهذيب التهذيب: ٦/ ٢٨ وغيرها.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ ١٥٧، ١٥٨.

(٣) حلية الأولياء: جـ١/ ١٢٧.

سبقه إلى الإسلام: وكان رضى الله عنه من السابقين إلى الإسلام فقد كان سادس ستة ممن أسلم.

كما حدث هو بذلك عن نفسه، حيث يقول:

«لقد رأيتنى سادس ستة ما على ظهر الأرض مسلم غيرنا»(١).

وعن يزيد بن رومان قال: أسلم عبد الله بن مسعود قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم(٢).

ويتحدث رضى الله عنه عن قصة إسلامه فيقول:

«كنتت غلامًا يافعًا، أرعى غنمًا لعقبة بن أبى معيط فجاء النبى ﷺ وأبو بكر، وقد فرّا من المشركين، فقالا: ياغلام، هل عندك من لبن تسقينا؟ فقلت إنى مؤتمن، ولست ساقيكما.

فقال النبى ﷺ: هل عندك من جذعة لم يَنْزُ عليها الفحل؟ قلت: نعم، فأتيتهما بها، فاعتقلها النبى ﷺ، ومسح الضرع، ودعا، فحفّل الضرع.

ثم أتاه أبو بكر بصخرة متقعرة، فاحتلب فيها، فشرب أبو بكر، ثم شربت، ثم قال للضرع: اقلص، فقلص.

قال فأتيته بعد ذلك فقلت: علمنى من هذا القول، قال إنك غلام معلَّم، فأخذت من فيه سبعين سورة لا ينازعنى فيها أحد»(٣).

أول من جهر بالقرآن

ومن مآثره التى لم يشاركه فيها أحد أنه كان رضى الله عنه أول من جهر بالقرآن بمكة، وأوذى بسبب ذلك إيذاء شديدًا.

فقد اجتمع يومًا أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: والله ما

---

(١) حلية الأولياء: ١/٢٦. (٢) طبقات ابن سعد: ٣/١٥١.

(٣) الموضع السابق.

سمعت قريش هذا القرآن يجهر بها به قط، فمن رجلٌ يسمعهم؟

فقال عبد الله بن مسعود: أنا، فقالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلا له عشيرة تمنعه من القوم، إن أرادوه.

فقال: دعونى، فإن الله سيمنعنى، فغدا عبد الله حتى أتى المقام فى الضحى، وقريش فى أنديتها، حتى قام عند المقام، فقال رافعًا صوته:

«بسم الله الرحمن الرحيم، الرحمن، علم القرآن». فاستقبلها فقرأ بها، فتأملوا فجعلوا يقولون: ما يقول ابن أم عبد، ثم قالوا: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد.

فقاموا فجعلوا يضربون فى وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ.

ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا بوجهه، فقالوا: هذا الذى خشينا عليك.

فقال: ما كان أعداء الله قط أهون علىّ منهم الآن، ولئن شئتم غاديتهم بمثلها غدًا، قالوا: حسبك، قد أسمعتهم ما يكرهون[١].

وبعد إسلامه رضى الله عنه لازم رسول الله ﷺ، فى سفره وحضره.

ففى سفره كان صاحب سِواده[٢]، ووساده[٣]، وسواكه ونعليه، وطهوره.

قال ابن سعد فى طبقاته: «وهذا يكون فى السفر»، وعن أبى المليح قال: كان عبد الله يستر رسول الله ﷺ إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام، ويمشى معه فى الأرض وحشًا.

---

(١) أسد الغابة: ٣/٢٥٦، ٢٥٧.

(٢) أى سره.

(٣) أى فراشه: حيث كان يعده له.

وعن القاسم بن عبد الرحمن قال: كان عبد الله يلبس رسول الله ﷺ نعليه، ثم يمشى أمامه بالعصا، حتى إذا أتى مجلسه نزع نعليه، فأدخلهما فى ذراعيه، وأعطاه العصا.

فإذا أراد رسول الله ﷺ أن يقوم ألبسه نعليه، ثم مشا بالعصا أمامه، حتى يدخل الحجرة قبل رسول الله ﷺ».

هذا فى السفر، أما فى الحضر فقد كان مخالطًا لرسول الله ﷺ، ومطلعًا على سره أكثر من غيره.

فعن إبراهيم بن سويد عن عبد الله قال:

قال لى رسول الله ﷺ: «إذنك علىّ أن ترفع الحجاب، وأن تسمع سِوَادى حتى أنهاك»(١).

ويصور لنا شدة هذه المخالطة، وطول تلك الملازمة أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه فيما يرويه البخارى ومسلم فى صحيحهما، حيث يقول:

«قدمت أنا وأخى من اليمن، فكنا حينا وما نرى ابن مسعود وأمه إلا من أهل بيت رسول الله ﷺ، من كثرة دخولهم ولزومهم»(٢).

هاجر إلى الحبشة الهجرتين جميعًا(٣)، وبعد هجرته إلى المدينة آخى النبى ﷺ بينه وبين سعد بن معاذ.

شهد بدرًا وأجهز على أبى جهل بعد أن أثبته ابنا عفراء، وشهد أحدًا والخندق، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.

---

(١) مسند أحمد: ١/ ٣٨٨.

(٢) صحيح البخارى، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عبد الله، وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب (١١٠).

(٣) فى رواية أبى معشر ومحمد بن عمر، ولم يذكره ابن إسحاق إلا فى الهجرة الثانية إلى الحبشة.

وبعد رسول الله ﷺ شهد اليرموك، وفتوح الشام. وقد كان يثبت حين يفر الآخرون.

قال عبد الله بن عباس: «ما بقى مع رسول الله ﷺ يوم أحد إلا أربعة، أحدهم ابن مسعود»[١].

ولقد كان رضى الله عنه محل ثقة رسول الله ﷺ التى لا تضاهى، تلك الثقة التى قال عنها المعصوم ﷺ.

«لو كنت مؤمراً أحداً دون مشورة المؤمنين لأمرت ابن أم عبد»[٢].

كما بلغ من ثقة عمر وعثمان فيه أن ولياه بيت المال بالكوفة فى عهديهما، رضى الله عنهم أجمعين.

أقرب الناس هدياً وسمتاً برسول الله ﷺ

وكان رضى الله عنه - لشدة ملازمته وخدمته رسول الله ﷺ - يطلع على ما لم يطلع عليه غيره، وكان حريصاً على اتباع السنة قدر إمكانه.

قال عبد الرحمن بن يزيد لحذيفة: أخبرنا برجل قريب السمت والهدى من رسول الله ﷺ، نأخذ عنه.

فقال: ما أعرف أحداً أقرب سمتاً وهدياً ودلاً برسول الله ﷺ من ابن أم عبد، حتى يواريه جدار بيت، ولقد علم المحظوظون من أصحاب محمد أن ابن أم عبد من أقربهم إلى الله وسيلة»[٣].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١/٣٣٦.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده: ١/٧٦، والترمذى فى سننه فى كتاب المناقب، باب (٣٧).

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/١٥٤.

وقال علقمة: «كان عبد الله يُشَبَّه بالنبى ﷺ فى هديه ودله وسمته»(١).

وعنه قال نفيع مولاه: «كان عبد الله بن مسعود من أجود الناس ثوبًا أبيض ومن أطيب الناس ريحًا»(٢).

وقال طلحة: «كان عبد الله يعرف بالليل بريح الطيب»(٣).

وعن حبة بن جوين قال: «كنا عند على فذكرنا بعض قول عبد الله، وأثنى القوم عليه فقالوا: يا أمير المؤمنين، ما رأينا رجلاً كان أحسن خلقًا، ولا أرفق تعليمًا، ولا أحسن مجالسة ولا أشد ورعًا من عبد الله بن مسعود.

فقال على: نشدتكم الله، إنه لصدق من قلوبكم؟ قالوا: نعم، فقال: اللهم إنى أشهدك، اللهم إنى أقول فيه مثل ما قالوا أو أفضل»(٤).

وفى رواية أخرى زيادة «قرأ القرآن، فأحل حلاله، وحرم حرامه، فقيه فى الدين، عالم بالسنة»(٥).

وكان قرة عينه رضى الله عنه فى الصلاة، لذا كان يفضلها على الصيام.

فعن عبد الرحمن بن يزيد قال: ما رأيت فقيهًا أقل صومًا من عبد الله بن مسعود، فقيل له: لم لا تصوم؟ فقال: إنى أختار الصلاة عن الصوم، فإذا صمت ضعفت عن الصلاة»(٦).

ويروى عنه ابنه عبد الله فيقول: «كان عبد الله إذا هدأت العيون قام

---

(١) الموضع السابق.
(٢) طبقات ابن سعد: ٣/١٥٧.
(٣) الموضع السابق.
(٤) طبقات ابن سعد: ٣/١٥٦.
(٥) الموضع السابق.
(٦) طبقات ابن سعد: ٣/١٥٥.

فسمعت له دويًا كدوى النحل حتى يصبح»[١].

وكان شديد الورع والزهد فى الدنيا، والرغبة فى الآخرة، حتى أصبح للناس مثلاً يراد الوصول إليه.

قال تميم بن حرام: «جالست أصحاب رسول الله ﷺ فما رأيت أحدًا أزهد فى الدنيا، ولا أرغب فى الآخرة، ولا أحب إلىّ أن أكون فى صلاحه من ابن مسعود»[٢].

ورغم هذه العبادة وذلك الزهد والورع فإنه كان شديد الخوف من الله تعالى حدث بذلك ذات يوم فقال:

«وددت أنى إذا ما مت لم أبعث»[٣].

وكان رضى الله عنه شديد الحرص على وحدة الأمة وتماسكها، واجتماع كلمتها وقوتها.

فحينما بعث إليه عثمان رضى الله عنهما يأمره بالقدوم إلى المدينة - وكان واليًا له على بيت المال بالكوفة - اجتمع إليه الناس، وقالوا له: أقم ونحن نمنعك أن يصلك شئ تكرهه.

فقال: إنّ له علىّ حق الطاعة، ولا أحب أن أكون أول من فتح باب الفتن[٤].

ثم قدم المدينة وتوفى بها سنة ٣٢ للهجرة، ودفع بالبقيع مع الصحب الكرام رضى الله عنهم أجمعين.،

قال سلمة بن تمام: لقى رجل ابن مسعود، فقال: لا تعدم حالمًا مذكرًا، رأيتك البارحة ورأيت النبى ﷺ على منبر مرتفع وأنت دونه، وهو يقول: يا ابن مسعود، هلمّ إلىّ، فلقد جُفِيتَ بعدى،

---

(١) أسد الغابة: ٣/ ٢٥٩.
(٢) الإصابة: ٢/ ٣٧٠.
(٣) طبقات ابن سعد جـ٣/ ١٨٥.
(٤) الإصابة: ٢/ ٣٧٠.

فقال: آلله لأنت رأيت هذا؟ قال نعم، قال: فعزمت ألا تخرج من المدينة حتى تصلى علىّ، فما لبث أيامًا حتى مات[(١)].

ولما مات رضى الله عنه نعى إلى أبى الدرداء فقال: «ما ترك بعده مثله»[(٢)].

مكانته عند الله ورسوله والمؤمنين

ولقد تبوأ رضى الله عنه منزلة سامية عند الله عز وجل، ورسوله ﷺ والمؤمنين.

ونكتفى فى هذا المقام بإشارة إلى ذلك.

فمما يدل على سمو مكانته عند الله أنه نهى رسوله ﷺ أن يبعده من مجلسه حتى ولو كان الهدف ساميًا، والغاية نبيلة.

فحينما عرض رؤساء قريش على النبى ﷺ أن يجلسوا فى مجلسه بشرط أن لا يحضره ابن مسعود ومن معه نزل القرآن ينهى النبى عن ذلك.

أخرج مسلم وغيره عن سعد بن أبى وقاص قال: لقد نزلت هذه الآية[(٣)] فى ستة أنا وعبد الله بن مسعود وبلال ورجل من هذيل، ورجلان لست أسميهما، فقال المشركون للنبى ﷺ: اطرد هؤلاء عنك لا يجترئون علينا، فوقع فى نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله ﴿**ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى**﴾[(٤)].

وتبلغ تلك المكانة قمتها وذروتها حينما يشهد الله له بالإحسان

---

(١) أسد الغابة: ٣/ ٢٥٩.　　(٢) أسد الغابة: ٣/ ٢٦٠.

(٣) أى قوله تعالى ﴿**ولا تطرد الذين**﴾ آية: ٥٢ من سورة الأنعام.

(٤) صحيح مسلم كتاب: فضائل الصحابة، باب (٤٦).

الذى هو أعلى الدرجات، كما يشهد له بحبه إياه.

أخرج مسلم وغيره عن علقمة عن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما تقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين﴾ قال لى رسول الله ﷺ: «قيل لى أنت منهم»[١].

أما مكانته عند رسول الله ﷺ، فيدل عليها أحاديث كثيرة، منها:

١ - قوله ﷺ: «وما حدثكم ابن مسعود فصدقوه»[٢].

٢ - ومنها ما أخرجه أحمد فى مسنده عن زر بن حبيش عن عبد الله أن النبى ﷺ أتاه بين أبى بكر وعمر، وعبد الله يصلى فافتتح النساء فسحلها[٣]، فقال النبى ﷺ:

«من أحب أن يقرأ القرآن غضًا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد».

ثم تقدم فسأله، فجعل النبى ﷺ يقول: سل تعطه، سل تعطه».

فقال فيما سأل: «اللهم إنى أسألك إيمانًا لا يرتد، ونعيمًا لا ينفد، ومرافقة نبيك محمد ﷺ فى أعلى جنة الخلد».

قال: فأتى عمر رضى الله تعالى عنه عبد الله ليبشره، فوجد أبا بكر رضوان الله عليه قد سبقه، فقال: إن فعلت، لقد كنت سباقًا بالخير»[٤].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب (١٠٩).

(٢) سنن الترمذى: كتاب المناقب رقم ٣٨٨٧ وقال: حديث حسن كما أخرجه أحمد فى مسنده: ٥/ ٣٨٥.

(٣) أى قرأها متصلة دون انقطاع.

(٤) مسند أحمد: ٤٤٥، ٤٤٦.

ومما يدل على مكانته بين المسلمين: ما ذكره حبة بن جوين: أن أهل الكوفة قالوا لعلى:

«يا أمير المؤمنين ما رأينا رجلاً كان أحسن خلقًا، ولا أرفق تعليمًا، ولا أحسن مجالسة، ولا أشد ورعًا من عبد الله بن مسعود، فقال على: نشدتكم الله، إنه لصدق من قلوبكم؟ قالوا: نعم، قال: «اللهم إنى أشهدك، اللهم إنى أقول فيه مثل ما قالوا أو أفضل»[١].

ومن ذلك أيضًا قول حذيفة فيما أخرجه الترمذى:

«ولقد علم المحفوظون من أصحاب محمد أن ابن أم عبد من أقربهم إلى الله زلفى»[٢].

مكانته العلمية

توافر لابن مسعود رضى الله عنه من الأسباب ما جعله عالمًا عظيمًا ومفسرًا جليلاً، ويأتى على رأس هذه العوامل ما يأتى:

١ - قدم إسلامه، فلقد كان سادس ستة أسلموا. وبهذا وقف على معظم وقائع التنزيل، ومشاهدة الوحى.

٢ - شدة ملازمته لرسول الله ﷺ، فلقد كان كما ذكرنا آنفًا صاحب سره وسواكه ونعليه وطهوره ويمشى معه فى الأرض وحشًا، وكان مرفوعًا عنه الحجاب والإذن إلا أن ينهاه رسول الله ﷺ، إلى الحد الذى يظن الغريب أنه من بيت النبوة، كما ظن أبو موسى الأشعرى وأخوه.

ومعلوم أن من كان هذه صفته وحاله، كيف يستفيد من علم رسول الله ﷺ.

٣ - حرصه الشديد على الإقتداء برسول الله ﷺ. وقد بينا قريبًا أنه

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ١٥٦.

(٢) سنن الترمذى، كتاب المناقب، باب (٣٨).

كان أقرب الناس سمتًا وهديًا برسول الله ﷺ.

ومعلوم أن من كان حرصه بهذه الصورة، كيف يحرص على كل علم يجعله مطبقًا للسنة قدر الإمكان.

٤ - تأخر وفاته إلى خلافة عثمان، حيث اشتدت حاجة عصره إلى غزير علمه لذلك لم يكن عجبًا أن يكون أحداثنين انتهى إليهما علم الصحابة.

قال مسروق: «انتهى علم أصحاب رسول الله ﷺ إلى ستة: عمر وعلى وعبد الله بن مسعود، وأبى بن كعب، وأبو الدرداء، وزيد بن ثابت، ثم انتهى علم هؤلاء الستة إلى رجلين: على وعبد الله»(١).

لقد كان رضى الله عنه وعاء عظيمًا للعلم، وبهذا شبهه عمر بوعاء الراعى، وكان يتهلل وجهه حين يراه.

عن زيد بن وهب قال: كنت جالسًا فى القوم عند عمر، إذ جاء رجل نحيف قليل، فجعل عمر ينظر إليه ويتهلل وجهه، ثم قال: كُنَيْفٌ ملئ علمًا، كُنَيْفٌ ملئ علمًا، كنيفٌ ملىء علمًا، فإذا هو ابن مسعود»(٢).

قال الفيروز ابادى فى القاموس المحيط عند تعرضه لكلمة «كُنَيْف»:

«ولقب ابن مسعود، لقبه عمر تشبيهًا بوعاء الراعى»(٣).

ولقد رآه عمر جديرًا بأن يكون أستاذًا لأهل الكوفة، يعلمهم مما علمه الله، رغم أن مُهَاجره كان بأرض حمص.

أخرج ابن سعد فى طبقاته بإسناده عن داود عن عامر أن مهاجر

---

(١) طبقات ابن سعد: ٢/ ٣٥١.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ ١٥٦.

(٣) القاموس المحيط مادة كنف.

عبد الله بن مسعود كان بحمص، فأحضره عمر إلى الكوفة، وكتب إليهم «إنى والله الذى لا إله إلا هو آثرتكم به على نفسى فخذوا منه»(١).

وجاء فى الإصابة أن عمر «سيره إلى الكوفة ليعلمهم أمور دينهم وبعث عمارًا أميرًا، وقال: «إنهما من النجباء من أصحاب محمد فاقتدوا بهما»(٢).

وفى أسد الغابة أن عمر كتب إلى أهل الكوفة:

«إنى قد بعثت عمار بن ياسر أميرًا، وعبد الله بن مسعود معلمًا ووزيرًا، وهما من النجباء، فاقتدوا بهما، وأطيعوا واسمعوا قولهما، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسى»(٣).

وأقام رضى الله عنه بالكوفة يعلم الناس، حتى صارت له مدرسة عظيمة، وتلاميذ كثيرون، ملأوا الدنيا بعد ذلك علمًا.

وبهذا كان عمر على غاية الصواب حين أرسله إليهم، وآثرهم به على نفسه.

ولقد اعترف أهل الكوفة بأنهم ما رأوا رجلاً أحسن منه، ولا معلمًا أفضل منه، حيث قالوا لعلىّ بن أبى طالب لما آلت إليه الخلافة بعد ذلك:

«يا أمير المؤمنين، ما رأينا رجلاً كان أحسن خلقًا، ولا أرفق تعليمًا، ولا أحسن مجالسة، ولا أشد ورعًا من عبد الله بن مسعود».

وبعد أن يشهدوا الله على ذلك يقول على:

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ١٥٧.

(٢) الإصابة: ٢/ ٣٦٩، ٣٧٠.

(٣) أسد الغابة: ٣/ ٢٥٨، ٢٥٩.

«اللهم إنى أشهدك، اللهم إنى أقول فيه مثل ما قالوا أو أفضل»(١).

وكان رضى الله عنه شديد الخوف حينما يحدث عن رسول الله ﷺ.

أخرج ابن سعد فى طبقاته عن عمرو بن ميمون يحدث عن ابن مسعود: أنه حدث ذات يوم بحديث، فجرى على لسانه قال رسول الله ﷺ، فعلاه الكرب حتى رأيت العرق يتحدر عن جبهته، ثم قال: إن شاء الله، إما فوق ذاك، وإما قريب من ذاك، وإما دون ذاك»(٢).

وعن مسروق عن عبد الله قال: حدث يومًا حديثًا، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ثم أرعد، وأرعدت ثيابه، ثم قال: أو نحو ذا، أو شبه ذا»(٣).

ابن مسعود قارئًا ومفسرًا

وإذا كان ابن مسعود قد بلغ القمة فى العلوم الشرعية، فإنه قد بلغ ذروة تلك القمة فى حفظ القرآن وتفسيره.

وقد كان رضى الله عنه حريصًا أن يأخذ القرآن من فم رسول الله ﷺ مباشرة، دون واسطة، قدر الإمكان.

وكان يعتز بذلك، حيث يقول كما فى صحيح البخارى:

«والله لقد أخذت من فى رسول الله ﷺ بضعًا وسبعين سورة»(٤).

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/١٥٦.

(٢) الموضع السابق.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/١٥٧.

(٤) صحيح البخارى ح كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبى ﷺ.

وفى رواية: «لا ينازعنى فيها أحد»[١].

وقد أرشد الرسول ﷺ أمته إلى أخذ القراءة عنه رضى الله عنه، حيث قال:

«من سره أن يقرأ القرآن غضًا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»[٢].

وتبلغ مكانته القرآنية مداها حينما يحب الرسول ﷺ أن يستمع إليه وهو يقرأ.

فقد أخرج البخارى وغيره عن ابن مسعود قال: قال لى رسول الله ﷺ: **«إقرأ علىّ، قلت يارسول الله: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: نعم، إنى أحب أن أسمعه من غيرى»**.

فقرأت سور النساء، حتى أتيت إلى هذه الآية **﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا﴾**[٣] قال: حسبك الآن، فإذا عيناه تذرفان»[٤].

وأمر النبى ﷺ الأمة أن تأخذ منه القرآن، حيث قال: «خذوا القرآن من أربعة، من عبد الله بن مسعود، وسالم، ومعاذ، وأبى بن كعب»[٥].

وإذا كان هؤلاء الأربعة أساتذة للأمة فى القرآن، فإن لابن مسعود ميزة خاصة، بينها الرسول ﷺ بقوله:

«من سره أن يقرأ القرآن رطبًا فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»[٦].

---

(١) كما فى طبقات ابن سعد: ٣/ ١٥٠، وأسد الغابة: ٣/ ٢٥٦.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده: ١/ ٧، وابن ماجه فى مقدمة سننه باب (١١).

(٣) النساء: ٤١.

(٤) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير، تفسير سورة النساء.

(٥) البخارى: كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبى ﷺ.

(٦) أخرجه أحمد فى مسنده: ١/ ٧.

وكان لهذا كله تأثير فى نفس ابن مسعود، حيث أعطاه الرسول ﷺ بشهاداته هذه ثقة فى نفسه ما بعدها من ثقة.

هذه الثقة التى كان لها صداها أثناء جمع القرآن فى عهد أبى بكر رضى الله عنه.

فقد كان يرى أنه أولى من زيد بن ثابت، الذى كلف بهذه المهمة حيث قال فيما أخرجه عنه الترمذى:

«يا معشر المسلمين، أعزل عن نسخ كتابة المصحف، ويتولاها رجل، والله لقد أسلمت وإنه لفى صلب رجل كافر، يريد زيد بن ثابت»[١].

هذا فيما يتعلق بحفظه القرآن، أما فيما يتعلق بتفسيره فقد وجدناه هو يتحدث عن كيفية تعلمه، وعن علمه به.

أما كيفية تعلمه فيبينها لنا فيما يرويه ابن جرير الطبرى عن أبى عبد الرحمن قال:

«حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن - كعثمان بن عفان، وعبد الله ابن مسعود وغيرهما - أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها، حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل.

قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا»[٢].

وعن علمه بالتفسير وأسباب النزول يقول فيما يرويه عنه الإمام البخارى:

«والله الذى لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله، إلا أنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن نزلت،

---

(١) أخرجه الترمذى، كتاب التفسير، تفسير سورة التوبة.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبرى فى تفسير: ١/٣٦.

ولو أعلم أحدًا أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه»[١].

وعن أبى وائل قال: «لما شق عثمان رضى الله عنه المصاحف بلغ ذلك عبد الله، فقال: لقد علم أصحاب محمد أنى أعلمهم بكتاب الله، وما أنا بخيرهم، ولو أنى أعلم أحدًا أعلم بكتاب الله منى تبلغنيه الإبل لأتيته».

فقال أبو وائل: «فقمت إلى الحلق أسمع ما يقولون، فما سمعت أحدًا من أصحاب محمد ينكر ذلك عليه»[٢].

شهادة الصحابة والتابعين له

ولقد شهد له الصحابة والتابعون بالإمامة فى التفسير.

فعنه يقول أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب أمام أهل الكوفة فيما يرويه ابن سعد فى طبقاته:

«قرأ القرآن، فأحل حلاله، وحرم حرامه، فقيه فى الدين، عالم بالسنة»[٣].

وقال عامر الشعبى: كان علماء هذه الأمة بعد نبيها ﷺ ستة، عمر وعبد الله وزيد بن ثابت، فإذا قال عمر قولاً وقال هذان قولاً كان قولهما لقوله تبعًا.

وعلى وأبى بن كعب وأبو موسى الأشعرى، فإذا قال على قولاً، وقال هذان قولاً كان قولهما لقوله تبعًا»[٤].

وقال أبو الأحوص، فيما يرويه الإمام مسلم: «كنا فى دار أبى

---

(١) صحيح البخارى: كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبى ﷺ.

(٢) أسد الغابة: ٣/ ٢٥٩.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ ١٥٦.

(٤) طبقات ابن سعد: ٢/ ٣٥١.

موسى مع نفر من أصحاب عبد الله، وهم ينظرون فى مصحف، فقام عبد الله، فقال أبو مسعود ما أعلم رسول الله ﷺ ترك بعده أعلم بما أنزل الله من هذا القائم، فقال أبو موسى: أما لئن قلت ذاك لقد كان يشهد إذا غبنا، ويؤذن له إذا حجبنا»(١).

وقال مسروق: «كان عبد الله يقرأ علينا السورة، ثم يحدثنا فيها، ويفسرها عامة النهار»(٢).

وقال مسروق أيضًا: لقد جالست أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالإخاذ، فالإخاذ يروى الرجل، والإخاذ يروى الرجلين، والإخاذ يروى العشرة، والإخاذ يروى المائة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم، فوجدت عبد الله بن مسعود من ذلك الإخاذ (٣).

إلى غير ذلك من الآثار المبثوثة فى كتب التفسير وعلوم القرآن والسنة، مما يدل على أن ابن مسعود كان أعلم الصحابة فى زمانه بكتاب الله تعالى، وأفقههم بما فيه، من حلال وحرام، ومواعظ وحكم وأحكام، وأمثال وأقسام، وغير ذلك.

ولا أدل على ذلك من أمر الرسول ﷺ أمته أن تأخذ عنه القرآن إن أرادت أن تأخذه غضًا كما نزل من السماء.

ولا أدل على ذلك أيضًا من توفيق الله لعمر بن الخطاب حينما أرسله إلى أهل الكوفة معلمًا، ليؤسس فيها مدرسة تفسيرية عظيمة، تخرج فيها علماء عظماء كانوا أئمة هدى وبيان، حيث نشروا القرآن، وعلموا الأمة معناه، ووقفوها على مافيه من أحكام الله.

---

(١) صحيح مسلم، فضائل الصحابة، باب (١١٣).

(٢) تفسير الطبرى: ١/ ٨١ - ط. دار المعارف.

(٣) طبقا ابن سعد: ٢/ ٣٤٣، وتفسير القرطبى: ١/ ٣٥.

مرويات ابن مسعود

يحتل عبد الله بـن مسعود رضى الله عنه المرتبة الثانـية - بعد عبد الله بن عبـاس - فى التفسيـر بالمأثور، من نـاحية كثرة المرويـات عنه، فرغم أن عليًا بن أبى طالب توافرت له من الأسباب والظروف ما جعله مكثرًا فى التـفسير، إلا أن مرويات ابن مسعود فاقـت مروياته، ولذلك يقول السيوطى عليه رحمة الله بعد أن تحدث عن على وتفسيره:

«وأما ابن مسعود فروى عنه أكثر مما روى عن علىّ»[1].

وبتصفح كـتب التفسير بالمأثـور - كتفسير ابن جريـر الطبرى وابن كثير وابن أبـى حاتم - وكتـب السنـة أيضًا نجـد أن هناك عـدة طرق وصلت إلينا من خلالها مرويات ابن مـسعود، وهذه الطرق بالطبع فيها الصحيح وفيها الضعيف، ومن أبرز الطرق الصحيحة ما يأتى:

١ - طريق الأعمش، عن أبى وائل، عن ابن مسعود.

٢ - طريـق الأعمـش، عن أبـى الضـحى، عـن مسـروق، عن ابـن مسعود.

٣ - طريق مجاهد عن أبى معمر، عن ابن مسعود.

٤ - طريق أبى كريب، عن أبى بكـر بن عياش، عن عاصم، عن زر، عن ابن مسعود.

٥ - طريق سعيد بن يحيى بن سـعيد الأموى، عن أبيه، عن الأعمش عن عاصم عن زر بن حبيش، عن ابن مسعود.

ومن أبرز الطرق الضعيفة ما يأتى:

١ - طريق سفيان عن أبراهيـم الهجرى عن أبى الأحوص عن ابن مسعود ضعيف من أجل إبراهيم الهجرى.

---

(١) الإتقان: ٢/ ٢٨٧م.

٢ - طريق سلمة بن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه عن ابن مسعود.

ضعيف لأنه أبا سلمة لم يلق ابن مسعود.

٣ - طريق عمرو بن أبى قيس عن عاصم عن المسيب عن ابن مسعود.

ضعيف من أجل المسيب وهو ابن رافع الأسدى، تابعى ثقة إلا أنه لم يلق ابن مسعود.

٤ - الطريق التى يكثر الطبرى من ذكرها، حتى لا تكاد تخلو آية من ذكر هذا الإسناد، كما يقول الشيخ أحمد شاكر فى تحقيق التفسير الطبرى.

هذا الإسناد هو: «حدثنى موسى بن هارون الهمدانى، قال: حدثنا عمرو بن حماد القناد، قال: حدثنا أسباط بن نصر الهمدانى، عن إسماعيل بن عبد الرحمن السدى، عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس، وعن الهمدانى عن ابن مسعود».

يقول الطبرى: «فإن كان ذلك صحيحًا ولست أعلمه صحيحًا إذ كنت بإسناده مرتابًا»(١).

وعلى أى حال فالحق أحق أن يتبع، فلينظر إلى كل رواية حسب قواعد القبول والرد، فما كان صحيحًا قبل، وما كان ضعيفًا رد.

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر ١/١٥٦ - ١٥٧ من تفسير الطبرى - ط. دار المعارف.

المبحث الثالث

على بن أبى طالب

نسبه: هو على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشى الهاشمى، ابن عم رسول الله ﷺ، وزوج ابنته فاطمة.

كنيته: أبو الحسن، وجميع أحفاد النبى ﷺ من على وفاطمة.

أنعم الله عليه بذرية كثيرة، من الذكور والإناث، فكان له من صلبه - كما يقول ابن سعد فى طبقاته - أربعة عشر ذكرًا وتسع عشرة امرأة، وكان النسل من ولده لخمسة، الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية، والعباس بن الكلابية، وعمر بن التغلبية[١].

ويذكر ابن حجر فى تهذيبه أنه كان له من الذكور أحد وعشرون، ومن الإناث ثمانى عشرة[٢].

ولا منافاة بين القولين، فكل حدث بما وقف عليه.

ولد قبل البعثة بعشر سنين على الصحيح[٣]، فربى فى حجر النبى ﷺ.

أمه: فاطمة بنت أسد بن هاشم، بن عبد مناف بن قصى.

إسلامه ﵁ ذهب كثير من العلماء إلى أنه أول من أسلم من الرجال على الإطلاق، فقد كان إسلامه بعد خديجة مباشرة، لم يتخلل بين إسلامهما إسلام أحد، ولكنه كان يكتم إسلامه خشية أبى طالب.

وعلى ذلك فيكون إسلام أبى بكر جاء متأخرًا عن إسلامه إلا أن

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ١٩.

(٢) تهذيب التهذيب: ٧/ ٣٣٥.

(٣) كما قال ابن حجر فى الإصابة: ٢/ ٥٠٩.

أبا بكر أظهر إسلامه، وعليًا كان يكتمه.

جاء فى أسد الغابة: «ذهب كثير من العلماء إلى أنه أول من أسلم بعد خديجة، وكتم إسلامه خوفًا من أبى طالب، فعن أنس بن مالك: بعث النبى ﷺ يوم الإثنين وأسلم على يوم الثلاثاء».

وعن حبة العُرَنى قال: سمعت عليًا يقول: أنا أول من أسلم مع النبى ﷺ.

وسئل محمد بن كعب القرظى عن أول من أسلم، على أو أبو بكر؟ قال: سبحان الله!! على أولهما إسلامًا، وإنما اشتبه على الناس لأن عليًا أخفى إسلامه عن أبى طالب، وأسلم أبو بكر وأظهر إسلامه»[1].

وقال الحافظ ابن حجر فى الإصابة عنه: «أول الناس إسلامًا فى قول كثير من أهل العلم»[2].

ويدلل فى تهذيب التهذيب على صحة ذلك، فيقول:

«روى أبو عوانة عن أبى بلج عن عمرو بن ميمون عن ابن عباس قال: كان على أول من آمن بالله من الناس بعد خديجة»، قال ابن عبد البر: هذا إسناد لا مطعن فيه لأحد، لصحته، ولثقة نقلته، وهو يعارض ما ذكرنا عن ابن عباس فى باب أبى بكر، والصحيح فى أمر أبى بكر أنه أول من أظهر إسلامه».

قال ابن عبد البر: وقد أجمعوا على أنه أول من صلى إلى القبلتين»[3].

---

(١) أسد الغابة: ٤/١٧.

(٢) الإصابة: ٢/٥٠٩.

(٣) تهذيب التهذيب: ٧/٣٣٦.

مكانتــــه

لعلـى بن أبى طالب رضـى الله عنه منزلة عـظيمة عنـد الله وعند رسوله والمؤمنين.

فبالإضافـة إلى كونه أول من أسلم فـله المناقب العـديدة، والمزايا الفريدة.

فموقفه فى الهجرة مشهور غير مطمور، حيث كلفه الرسول ﷺ بأن يبيت فى فراشه ليوهم قريشًا أنه لم يغادر الفراش، ثم يلحق به إلى المدينة بعد ثلاث مصطحبًا أهل رسول الله ﷺ.

وقد صاهر النبى ﷺ على ابنته فاطمة، رضـى الله عنها، ولم يكن لرسول الله ﷺ أحفاد إلا منهما.

شهد بدرًا وأحدًا وسائـر المشاهد كلها، ولم يتخـلف إلا فى تبوك خلفه رسول الله ﷺ على المدينة، عـلى مضض منه رضى الله عنه، ولم تهـدأ نفسه إلا بـعد أن قال له رسـول الله ﷺ: «ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى»[(١)]. كان اللواء بيده فى أكثر المشـاهد، حيث اشتهر بالفروسية والـشجاعة والإقدام بما لم يفضل عليه أحد.

ومن خصائصه رضى الله عنه أنـه لما كان يوم خيبر قال رسول الله ﷺ: «لأعطين الـراية غدًا إلى رجل يحب الله ورسولـه ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه.

فلما أصبح رسول الله ﷺ غدوا كلهـم يرجو أن يعطاها، فقال رسول الله ﷺ: أين علىٌّ بن أبى طالب؟

فقالوا: هـو يشتكى عينيه، فأتى به، فبـصق فى عينيـه، فدعا له

---

(١) أخرجه البخاريّ، في المغازي، باب (٧٨)، وغير البخاري.

فبرأ، فأعطاه الراية».

وفى رواية مسلم فقال عمر: «ما أحببت الإمارة إلا ذلك اليوم»[١].

وهو أحد المبشرين بالجنة.

بل إن رسول الله ﷺ اعتبر حبه دليلاً على صدق الإيمان وبغضه دليلاً على الكفر والنفاق.

فقد أخرج الترمذى - وأصله فى صحيح مسلم - عن على قال: لقد عهد إلىّ النبى ﷺ أن لا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق»[٢].

وعن أبى سعيد الخدرى قال: «كنا نعرف المنافقين نحن معاشر الأنصار ببغضهم علىّ بن أبى طالب»[٣].

كما أخرج الترمذى بسند قوى[٤] عن سعيد بن أبى وقاص أن معاوية قال له: ما يمنعك أن تسب أبا تراب - يعنى عليًا - فقال أما ذكرت ثلاثًا قالهن رسول الله ﷺ، لأن تكون لى واحدة منهن أحب إلىّ من أن يكون لى حمر النعم، فلن أسبه.

سمعت رسول الله ﷺ يقول - وقد خلفه فى بعض المغازى فقال له على: يارسول الله تخلفنى مع النساء والصبيان؟ فقال له: أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون وموسى، إلا أنه لا نبوة بعدى.

وسمعته يقول يوم خيبر: لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، فتطاولنا، فقال: ادعوا لى عليًا، فأتاه وبه رمد،

---

(١) البخاري ومسلم، البخاري في كتاب: فضائل الصحابة، باب مناقب علي، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي.

(٢) الترمذي كتاب: المناقب، باب (٢١).

(٣) المصدر السابق.

(٤) كما قال الحافظ ابن حجر في الإصابة: ٢/ ٥٠٩.

فبصق فى عينيه، ودفع الراية إليه، ففتح الله عليه.

وأنزلت هذه الآية: ﴿فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم﴾(١) فدعا رسول الله ﷺ عليًا وفاطمة وحسنًا وحسينًا، فقال: اللهم هؤلاء أهلى(٢).

ولما آخى النبى ﷺ بين أصحابه قال له: أنت أخى فى الدنيا والآخرة(٣).

قال ابن حجر: «ومناقبه كثيرة، حتى قال الإمام أحمد: لم ينقل لأحد الصحابة مانقل لعلى.

وقال غيره: وكان سبب ذلك بغض بنى أمية له، فكان كل من كان عنده علم من شئ من مناقبه من الصحابة يثبته، وكلما أرادوا إخماده، وهددوا مَنْ حَدَّث بمناقبه لا يزداد إلا انتشارًا»(٤).

وما أبلغ ما يرويه أبو الطفيل، حيث يقول:

«قال بعض أصحاب النبى ﷺ: لقد كان لعلى من السوابق، ما لو أن سابقة منها بين الخلائق لوسعتهم خيرًا»(٥).

وكان على رضى الله عنه أحد الشورى الذين نص عليهم عمر، فعرضها عليه عبد الرحمن بن عوف، وشرط عليه شروطًا، امتنع من بعضها، فعدل عنه إلى عثمان فقبلها، فولاه، وسلم علىٌّ، وبايع عثمان.

قتل رحمه الله ليلة السابع عشر من شهر رمضان سنة أربعين من

---

(١) آل عمران: ٦١.

(٢) الترمذي في كتاب المناقب، باب (٢١).

(٣) الموضع السابق.

(٤) الإصابة: ٢/٥٠٩.

(٥) أسد الغابة: ٤/٢٣.

الهجرة بيد عبد الرحمن بن ملجم الخارجى، وكانت مدة خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر، ونصف شهر[١].

منزلته العلمية والتفسيرية

أسباب نبوغه العلمى:

توافر لعلى رضى الله عنه من المقومات ما جعل منه عالمًا نابغة ومفسرًا عظيمًا، ويأتى على رأس هذه المقومات ما يلى:

١- ذكاؤه الفطرى وحرصه على التعليم، ولذلك قال: «إن ربى وهب لى قلبًا عقولاً ولسانًا سؤولاً»[٢].

٢- قدم إسلامه، فقد كان أول من أسلم بعد خديجة رضى الله عنهما. وهذا يعنى أنه عاصر القرآن الكريم وأحداثه من أول نزوله إلى آخره.

٣- نشأته فى حجر رسول الله ﷺ. فقد كفله النبى ﷺ بعد موت أبى طالب، وهذا يعنى أنه قضى طفولته فى بيت النبوة، يسمع ويرى أقوال وأفعال النبى ﷺ، وقديمًا قالوا التعليم فى الصغر كالنقش على الحجر.

٤- مصاهرته للنبى ﷺ، حيث كان زوج ابنته فاطمة رضى الله عنهما، وهذا يعنى شدة الاختلاط والملازمة للنبى ﷺ، وسماع ما لم يتيسر لغيره، ممن لم تتوافر له تلك المخالطة.

٥ - الصلة الخاصة، والمحبة المتميزة بينه وبين رسول الله ﷺ تلك المحبة التى توجت بقول النبى ﷺ له: «أنت أخى» حينما آخى بين المسلمين.

---

(١) الإصابة: ٢/٥٠٩.

(٢) حلية الأولياء: ١/٦٧ - ط. دار الكتاب العربي - بيروت.

وبقول النبى ﷺ لما خلفه فـى غزوة تبوك: «أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى».

٦- دعاء النبى ﷺ له بقـوله: «اللهـم أجل قلبـه، واجعل ربيـعه الإيمان»(١).

وهذه محاورة نلحظ فيها بعض هـذه المقومات يرويها لنا ابن الأثير فى سفره العظيم «أسد الغابة».

حيث يقول رحمه الله: «قال سعيد بـن عمرو بن سعيد بن العاص لعبد الله بن عياش بن أبى ربيعة:

ياعم، لم كان صـغو الناس إلى على؟ قال: يا ابن أخـى إن علياً كان لـه ما شئت مـن ضرس قاطـع فى العـلم، وكان له الـبسطـة فى العشيرة، والقدم فى الإسلام، والـصهر لرسول الله ﷺ، والفقه فى السنة، والنجدة فى الحرب، والجود بالماعون»(٢).

لهذه الأسباب جميعها رأينا منه بحراً لا ساحل له، ومحيطًا تطيح أمواجه بمن يقف أمامها.

لذلك قـال ابن عباس رضى الله عـنهما: «لقـد أعطى علىٌّ تـسعة أعشار العلم، وأيم الله لقد شاركهم فى العشر العاشر»(٣).

ولثقـة الرسول ﷺ فى علـمه وعدالتـه بعثه إلى الـيمن، وولاه القضاء عليه، ودعا له بالسداد فكان موفقًا غاية التوفيق.

فعن أبـى البحترى عن على قـال: بعثنـى رسول الله ﷺ إلى اليمن، فقـلت يارسول الله، تبعثنى إلـى اليمن ويسألوننـى عن القضاء ولا علم لى به؟

قال: ادن، فدنوت، فـضرب بيده على صدرى، ثم قـال: «اللهم

---

(١) كما في تهذيب التهذيب: ٧/ ٣٣٧، وأسد الغابة: ٤/ ٢٢.

(٢) أسد الغابة: ٤/ ٢٣.   (٣) الموضع السابق.

ثبت لسانه، واهد قلبه».

فلا والذى فلق الحبة، وبرأ النسمة مـا شككت فى قضاء بين اثنين بعد»[١].

واعترف له الصحابة والتابعون بالإمامة فى القضاء.

قال عمر: «على أقضانا»[٢].

وعن سعيد بن المسيب قال: «كان عمر يـتعوذ من معضلة ليس لها أبو الحسن»[٣].

وعن علقمة عن ابن مسعود قال: كنا نتحدث إن أقضى أهل المدينة على بن أبى طالب[٤].

ويثق على بنفسه وبعلمه، فيتصدى لنشر العلم، ويحث الناس على أخذه منه.

قال سعيد بن المسيب: «ما كان أحد من الناس يقـول سلونى غير على بن أبى طالب»[٥].

وكما شهـد له الصحابة والتابـعون بالإمامة فى القضـاء شهدوا له أيضًا بالإمامة فى العلم.

قال ابن عباس: «إذا جاءنا الثبت عن على لم نعدل به»[٦].

وقال عبد الملك بن سليمان: قلت لعطاء: أكان فى أصحاب محمد أعلم من على؟ قال: لا، والله لا أعلمه»[٧].

ومعلوم أن علمه رضى الله عنه بـكتاب الله تعالى، والوقوف على

---

(١) الموضع السابق، وتهذيب التهذيب: ٧/ ـ٣٣٧.

(٢) تهذيب التهذيب: ٧/ ٣٣٧.

(٣) الموضع السابق.

(٤) أسد الغابة: ٤/ ٢٢.

(٥) الموضع السابق.

(٦) الإصابة: ٢/ ٥٠٩، وتهذيب التهذيب: ٧/ ٣٣٧.

(٧) تهذيب التهذيب: ٧/ ٣٣٨، والإصابة: ٢/ ٥٠٩.

ما فيه من حكم وأحكام، وحلال وحرام، وسائر ما يتعلق بتفسيره يأتى فى مقدمة ما كان محيطًا به من علوم، إذ لا يعقل أن يكون نابغة، فى العربية والشعر وغير ذلك دون أن يكون نابغًا فى فهم كتاب الله تعالى، وإلا ما ولاه الرسول ﷺ قضاء اليمن.

بل لقد كان رضى الله عنه يعرف فى نفسه ذلك، ويطلب من الناس أن يسألوه عن التفسير.

يقول الحافظ ابن حجر فى التهذيب، وفى الإصابة:

«قال أبو الطفيل: «شهدت عليًا يخطب وهو يقول: سلونى، فوالله لا تسألونى عن شئ إلا أخبرتكم، وسلونى عن كتاب الله ، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار، أم فى سهل أم فى جبل»[1].

ويروى أبو نعيم فى حلية الأولياء عن على أنه قال:

«والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم نزلت، وأين نزلت، وإن ربى وهب لى قلبًا عقولاً، ولسانًا سؤولاً».

ولا أدل على إمامته رضى الله عنه فى التفسير من أن حبر الأمة وترجمان القرآن قد تعلم التفسير على يديه، فقال معترفًا بذلك: «ما أخذت من تفسير القرآن فعن على بن أبى طالب»[2].

***

(١) الموضعان السابقان.

(٢) تفسير القرطبي: ١/ ٣٥.

الوضع على علىّ

المتتبع للروايات الواردة عن على رضى الله عنه يرى أنها بلغت من الكثرة ما يفوق الحصر، كما يرى أن معظمها - بعد عرضها على ميزان القبول والرد - مختلق عليه، ليس له سند صحيح إليه، وعلامات الكذب بارزة عليه.

ونستطيع أن نرجع تلك الكثرة من ناحية، وذلك الوضع من ناحية أخرى إلى عدة أسباب، على رأسها ما يأتى:

١ - كونه من بيت النبوة:

فكما قلنا فى أسباب الوضع على ابن عباس إن المسلمين بمقتضى إيمانهم بنبيهم يحبون كل من انتسب إليه، وكل ما يروى عن هذا المنتسب، ويزيدون على ذلك حفظه ونشره بين الناس.

فاستغل الوضاعون هذه النسبة لعلى ووضعوا عليه حتى يضمنوا لمروياتهم الموضوعة انتشاراً واشتهاراً.

٢ - ومما هو قريب الصلة بالسبب السابق..

غلو الشيعة فى حب على رضى الله عنه:

فقد دعاهم هذا الغلو فى حبه إلى الوضع عليه، حتى لو كان ذلك حرامًا، لأنه يحقق لهم مكاسب فى زعمهم.

هذه المكاسب تتمثل فى اشتهار مذهبهم وتثبيت دعائمه، وذيوعه بين الناس.

وربما اعتقدوا أن هذه المرويات الموضوعة تكسب عليًا شأنًا أعظم وقدرًا أكبر من شأن وقدر بقية الصحابة.

وهذا ما يرفضه الشرع، حتى لو كان الهدف نبيلاً، والقصد ساميًا، فلابد أن تكون الوسائل سامية بقدر سمو الهدف. والعجب

أن الوضع على عليّ جاء بنتيجة سلبية، على عكس ما أراده الوضاعون، فقد تشكك الناس فى كل ما يروى عنه، حتى لو كان صحيحًا.

وبناء عليه: فإن الإنصاف يقتضى منا أن نضع مروياته فى الميزان فلا نقبلها كلها لمكانته العالية فى الإسلام، ولا نرفضها كلها بسبب كثرة الوضع عليه، بل ما كان صحيحًا منها قبلناه، وما كان ضعيفًا أو موضوعًا رددناه.

أشهر طرق المرويات عن على

ولمرويات على بن أبى طالب رضى الله عنه طرق متعددة، منها الصحيح، ومنها الضعيف.

ومن أصح تلك الطرق تلك التى ذكرها ابن الصلاح فى مقدمته وهى[(١)]:

١ - ما جاء من طريق محمد بن سيرين عن عبيدة بن عمرو عن على.

وقد اعتبر عمرو بن على الفلاس هذا الإسناد أصح الأسانيد على الإطلاق فى علم المصطلح.

٢ - ما جاء من طريق الزهرى عن عليّ زين العابدين بن الحسين عن الحسين عن على.

وقد اعتبر أبو بكر بن أبى شيبة هذا الإسناد أصح الأسانيد كلها على الإطلاق.

٣ - وهناك طريق ثالثة لم يشر إليها ابن الصلاح فى مقدمته[(٢)] ألا وهى

---

(١) انظر التقييد والإيضاح لما أطلق وأغلق من مقدمة ابن الصلاح، للحافظ العراقي: ٢٧.

(٢) وقد ذكرها الدكتور/ محمد الذهبي في التفسير والمفسرون: ١/ ٩١.

طريـق ابن أبى الحسـين، عن أبى الـطفيل عـن على وهى طـريق صحيحة يخرج منها ابن عيينة فى تفسيره.

ومن أبـرز تلك الطـرق الضعيـفة عن علـى رضى الله عنه طـريق الحـارث الأعور، ومـنهـا يروى ابـن جريـر الطـبرى والـترمـذى وغيرهما.

* * *

المبحث الرابع

أبي بن كعب

هو أبى بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك النجار.

كناه النبى ﷺ بأبى المنذر، وكناه عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأبى الطفيل، وهو ابنه(١).

كان حبراً من أحبار اليهود الذى يسكنون يثرب، فلما سمع بالنبى ﷺ قدم إليها، وشهد العقبة مع السبعين من الأنصار، وبايع النبى ﷺ (٢).

شهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.

كان صاحب دين وورع، ومن طيِّب كلامه: «إن الدنيا فيها بلاغنا، وزادنا إلى الآخرة، وفيها أعمالنا التى نجازى بها فى الآخرة»(٣).

ولما أراد أن يتقلد فى عهد عمر عملاً من خلاله يخدم الإسلام والمسلمين كره له عمر ذلك، خوفًا على دينه.

فعن عمران بن عبد الله قال:

«قال أبى بن كعب لعمر بن الخطاب رضى الله عنه مالك لا تستعملنى؟ قال: أكره أن يدنس دينك»(٤).

اختلف فى سنة وفاته، فقيل توفى فى خلافة عمر، وقيل فى خلافة عثمان، والثانى هو الصحيح، لأمرين:

الأمر الأول: ما ذكره أبو نعيم(٥)، حيث قال: لأن زر بن حبيش

---

(١) أسد الغابة: ١/ ٤٩.
(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ ٤٩٨.
(٣) المصدر السابق: ٣/ ٤٩٩.
(٤) الموضع السابق.
(٥) كما في أسد الغابة: ١/ ٥٠.

لقيه فى خلافة عثمان.

الأمر الثانى: ما ذكره ابن سعد فى طبقاته، حيث قال: «لأن عثمان جمع اثنى عشر رجلاً من قريش والأنصار، فيهم أبى بن كعب وزيد ابن ثابت فى جمع القرآن»[1].

ولقد ماجت المدينة يوم وفاته، وازدحمت سككها، وتعطلت الأمور بها لهذا الحدث الجلل.

فعن عُتَىّ بن ضمرة قال: قلت لأبى: مالكم أصحاب رسول الله ﷺ نأتيكم من البعد، نرجو عندكم الخير أن تعلمونا، فإذا أتيناكم استخففتم أمرنا كأنا نهون عليكم؟

فقال: والله لئن عشت إلى هذه الجمعة لأقولن فيها قولاً لا أبالى، استحييتمونى عليه أو قتلتمونى.

فلما كان يوم الجمعة من بين الأيام أتيت المدينة، فإذا أهلها يموجون بعضهم فى بعض فى سككهم.

فقلت: ما شأن هؤلاء الناس؟ قال بعضهم: أما أنت من أهل هذا البلد؟

قلت: لا، قال: فإنه قد مات سيد المسلمين اليوم، أبى بن كعب»[2].

* * *

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ٥٠٢.

(٢) الطبقات الكبري: ٣/ ٥٠٠، ٥٠١.

مكانته العلمية

تبوأ أبى بن كعب مكانة مرموقة فى العلم والقرآن، جعلته محل رضا الله عز وجل، وإعجاب المسلمين وثنائهم، والاعتراف له بالسيادة.

ويرجع ذلك إلى عدة أسباب، على رأسها ما يلى:

١ - أنه كان قبل الإسلام عليمًا بالتوراة، وحبرًا من أحبار اليهود.

٢ - وكان بعد الإسلام أبرز كتاب الوحى لرسول الله ﷺ، بل هو أول كاتب للوحى حين قدم النبى ﷺ إلى المدينة كما قال الواقدى[1].

٣ - كان أحد أربعة أمر النبى ﷺ بأخذ القرآن عنهم.

حيث قال فيما أخرجه البخارى فى صحيحه:

«خذوا القرآن من أربعة، من عبد الله بن مسعود وسالم، ومعاذ، وأبى بن كعب»[2].

٤ - كان أقرأ الصحابة على الإطلاق، بشهادة رسول الله ﷺ.

حيث قال: «أرحم أمتى بأمتى أبو بكر، وأشدهم فى دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت وأقرأهم أبى بن كعب، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»[3].

٥ - كان من الحافظين للقرآن، المكثرين من تلاوته.

---

(١) هكذا في أسد الغابة: ١/ ٥٠.

(٢) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده: ٣/ ٢٨١، كما أخرجه الترمذي في سننه في كتاب المناقب، باب (٣٣) وابن ماجه في المقدمة (١١).

فعن أبى المهلب عن أبىّ أنه كان يختم القرآن فى ثمانى ليالى[(١)].

٦ - كان أحد ستة فاقوا الصحابة جميعًا فى القضاء.

فعن مسروق قال: كان أصحاب القضاء من أصحاب رسول الله ﷺ ستة، عمر وعلى وعبد الله، وأبى، وزيد وأبو موسى»[(٢)].

٧ - وفوق ذلك كله: ما ثبت له من المنزلة عند الله عز وجل، وأمر رسول الله ﷺ بإظهارها للمسلمين.

فعن قتادة عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ دعا أبى بن كعب، فقال: إن الله تبارك وتعالى أمرنى أن أقرأ عليك ﴿لم يكن الذين كفروا﴾.

قال: آللهُ سمانى لك؟ قال: الله سماك لى، قال: فجعل أبىّ يبكى.

قيل لأبى وفرحت بذلك؟ قال: وما يمنعنى وهو يقول ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خيرٌ مما يجمعون﴾[(٣)].

٨ - كان رسول الله ﷺ يخصه بالاستفسار والاستيثاق إذا ما اضطر إلى ذلك.

فقد أخرج ابن الأنبارى فى المصاحف عن حميد بن عبد الرحمن ابن عوف أن رسول الله ﷺ صلى الصبح، فقرأ سورة الفرقان فأسقط آية، فلما سلم قال: هل فى القوم أبىّ؟ فقال أبىّ: ها أنا

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ٥٠٠.

(٢) أسد الغابة: ١/ ٥٠.

(٣) الآية من سورة يونس، والحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير، تفسير سورة لم يكن، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة باب (١٢١، ١٢٢)، وأحمد في مسنده: ٣/ ١٣٠ وغيرها والترمذي في كتاب المناقب باب (٣٣) وأسد الغابة: ١/ ٤٩.

يارسول الله، فقال: ألم أسقط آية؟ قال: بلى، قال فلم لم تفتحها علىّ؟ قال: حسبتها آية نسخت، قال: لا، ولكنى أسقطتها»[١].

٩ - ولكونه أقرأ الأمة، وأحد أبرز كتاب الوحى لرسول الله ﷺ، استعان به زيد بن ثابت فى جمع القرآن فى العهد البكرى، فى مكان واحد، بعد أن كان مكتوبًا مفرقًا فى أماكن شتى.

تلك المهمة التى عبر عنها وعن ضخامتها زيد بن ثابت بقوله: «فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن»[٢].

وأخرج ابن أبى داود بإسناده عن أبى العالية أنه قال:

«إنهم جمعوا القرآن فى مصحف، فى خلافة أبى بكر، فكان رجال يكتبوه، ويملى عليهم أبىّ بن كعب»[٣].

١٠ - ولجودته الفائقة فى قراءة القرآن وإقرائه رشحه عمر بن الخطاب ضمن خمسة للذهاب إلى الشام لإقراء أهلها القرآن، وتعليمهم دين الله تعالى.

فعن محمد بن كعب القرظى قال: لما كان زمن عمر بن الخطاب كتب إليه يزيد أبى سفيان أن أهل الشام قد كثروا وربلوا[٤] وملأوا المدائن، واحتاجوا إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم، فأعنى يا أمير المؤمنين برجال يعلمونهم.

فدعا أولئك الخمسة[٥]، فقال لهم: إن إخوانكم من أهل الشام قد

---

(١) الدر المنثور: ٥/ ٦٢ - ط. محمد أمين، بيروت.

(٢) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن.

(٣) المصاحف لابن أبي داود: ١٠.

(٤) كَثُروا، أو كثر أموالهم وأولادهم، (القاموس المحيط: ربل).

(٥) أي أبو أيوب الأنصاري، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء.

استعانونى بمن يعلمهم القرآن، ويفقههم فى الدين، فأعينونى رحمكم الله بثلاثة منكم.

إن أحببتم فاستهموا، وإن انتدب ثلاثة منكم فليخرجوا.

فقالوا: ما كنا لنتساهم، هذا شيخ كبير لأبى أيوب، وأما هذا فسقيم. لأبى بن كعب.

فخرج معاذ، وعبادة، وأبو الدرداء»[1].

١١ - ولم يكن بقاء أبى فى المدينة سببًا للإخلاد فى الأرض، وركونًا للراحة، ولكنه جلس يقرئ الناس القرآن ويفسره لهم، وامتثل الناس لأمر الرسول ﷺ خذوا القرآن من أربعة، وعَدّ منهم أبىّ ابن كعب.

وأصبح أبى بن كعب صاحب مدرسة قرآنية تفسيرية مقرها المدينة، وتتلمذ على يديه الكثير من التابعين، الذين صاروا فيما بعد أئمة هدى وبيان، يبلغون الناس كتاب ربهم ويبينون لهم ما احتاجوا إليه من بيان، ويزيلون ما حصل لهم من إشكال أو إبهام.

وسنتكلم عن مدرسة أبى بن كعب قريبًا إن شاء الله أثناء حديثنا عن التفسير فى عهد التابعين.

منهجه فى التفسير

كان أبىّ رضى الله عنه كبقية الصحب الكرام، لا يتقدمون بين يدى الله ورسوله، فإذا أراد تفسيراً لآية نظر إلى القرآن نفسه، ثم إلى السنة، وإلا اجتهد رأيه.

وقد كان لكتابته الوحى لرسول الله ﷺ، ووقوفه على أسباب النزول، الأثر العظيم فى فهم معانى القرآن الكريم.

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢/ ١١٤.

ومن يتصفح كتب التفسير بالمأثور يجد الكثير من الروايات واردة عنه حيث فسر القرآن مستعينًا بأسباب النزول، أو بما سئل عنه رسول الله ﷺ، أو بما سأله هو شخصيًا، كما فى تعيين المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم؛ وعن الزيادة الواردة فى قوله تعالى ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾[1].

فإن لم يجد فى القرآن أو السنة أعمل عقله بما يمتلكه من مقومات تفسيرية.

وكان من منهجه رضى الله عنه فى تفسير القرآن والفتوى أنه لا يتحدث عن أمور افتراضية لم تحدث بعد.

فعن مسروق قال: سألت أبى بن كعب عن مسألة فقال: يا ابن أخى، أكان هذا؟ قلت: لا، قال: فأحمنا حتى يكون، فإذا كان اجتهدنا لك رأينا»[2].

أصح الطرق لمرويات أبى بن كعب

للأسباب السابق ذكرها كان أبى بن كعب من أشهر المفسرين من الصحابة، ومن المكثرين فى التفسير، ولذلك كثرت الرواية عنه وتعددت طرقها، ولكن هذه الطرق ليست على درجة واحدة فهى متفاوتة بين الصحة والوضع، ولذا كان لابد من عرض مروياته على قواعد الجرح والتعديل.

ومن الطرق الصحيحة عنه.

١ - طريق أبى جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية عن أُبَىّ بن كعب.

---

(١) يونس: ٢٦.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ ٥٠٠.

٢ - طريق وكيع عن سفيان عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن الطفيل بن أبيّ بن كعب عن أبيه.

٣ - طريق محمد بن بشار عن ابن أبى عدى، عن حميد الطويل عن أنس بن مالك، عن أبى بن كعب.

٤ - طريق محمد بن مرزوق، عن أبى الوليد، عن حماد بن سلمة عن حميد، عن أنس بن مالك عن عبادة بن الصامت عن أبى بن كعب.

٥ - طريق أحمد بن محمد الطوسى عن عبد الصمد عن أبيه عن محمد بن جُحادة عن الحكم بن عتيبة عن مجاهد عن ابن أبى ليلى، عن أبى بن كعب وغير ذلك كثير[1].

حديث فضائل السور المروى عن أبى بن كعب

رغم أن هناك أحاديث فى فضائل بعض سور القرآن كالفاتحة والبقرة وآل عمران والإخلاص والكافرون والمعوذتين وغيرها، إلا أن الوضاعين لم يكتفوا بالصحيح المرفوع فى ذلك، بل وضعوا حديثًا طويلاً فى فضائل سور القرآن سورة سورة، ونسبوه إلى أبى بن كعب يرفعه إلى رسول الله ﷺ.

ولعل اختيارهم أبيًا بالذات لأنه أقرأ هذه الأمة، وبه أوصى الرسول ﷺ أمته أن يأخذوا عنه القرآن، فالنسبة إليه تعطى الحديث ثقة وقبولاً وذيوعًا بين الناس.

ويوضح لنا السيوطى قصة هذا الحديث الموضوع على أبى، وسبب وضعه فيقول:

---

(١) ينظر فى ذلك إلى تفسير ابن جرير الطبرى وغيره من كتب التفسير بالمأثور وإلى كتب السنة أيضًا.

«وروينا عن المؤمل بن إسماعيل قال: حدثنى شيخ بحديث أبىّ بن كعب فى فضائل سور القرآن، سورة سورة، فقال: حدثنى رجل بالمدائن وهو حى، فصرت إليه، فقلت له: من حدثك؟ قال: حدثنى شيخ بواسط، وهو حى، فصرت إليه، فقلت له: من حدثك؟ قال: حدثنى شيخ بالبصرة، فصرت إليه، فقلت له: من حدثك؟ فقال: حدثنى شيخ بعبادان، فصرت إليه فأخذ بيدى، فأدخلنى بيتًا، فإذا فيه من المتصوفة، وبينهم شيخ، فقال هذا الشيخ حدثنى، فقلت: ياشيخ، من حدثك؟ فقال: لم يحدثنى أحد، ولكننا رأينا الناس قد رغبوا عن القرآن، فوضعنا لهم هذا الحديث، ليصرفوا قلوبهم إلى القرآن»[1].

وقد درج بعض المفسرين على ذكر هذا الحديث عند بداية كل سورة كما فعل الثعلبى والواحدى، بينما درج آخرون على ذكره فى نهاية كل سورة كما فعل الزمخشرى وأبو مسعود والبيضاوى.

حيث يذكرون فى بداية تفسير كل سورة أو فى آخرها الجزء الخاص بفضلها من هذا الحديث.

فليحذر هذا الحديث، وليعلم أن ما صح عن النبى ﷺ فى فضائل القرآن عامة، خير من هذا الحديث.

* * *

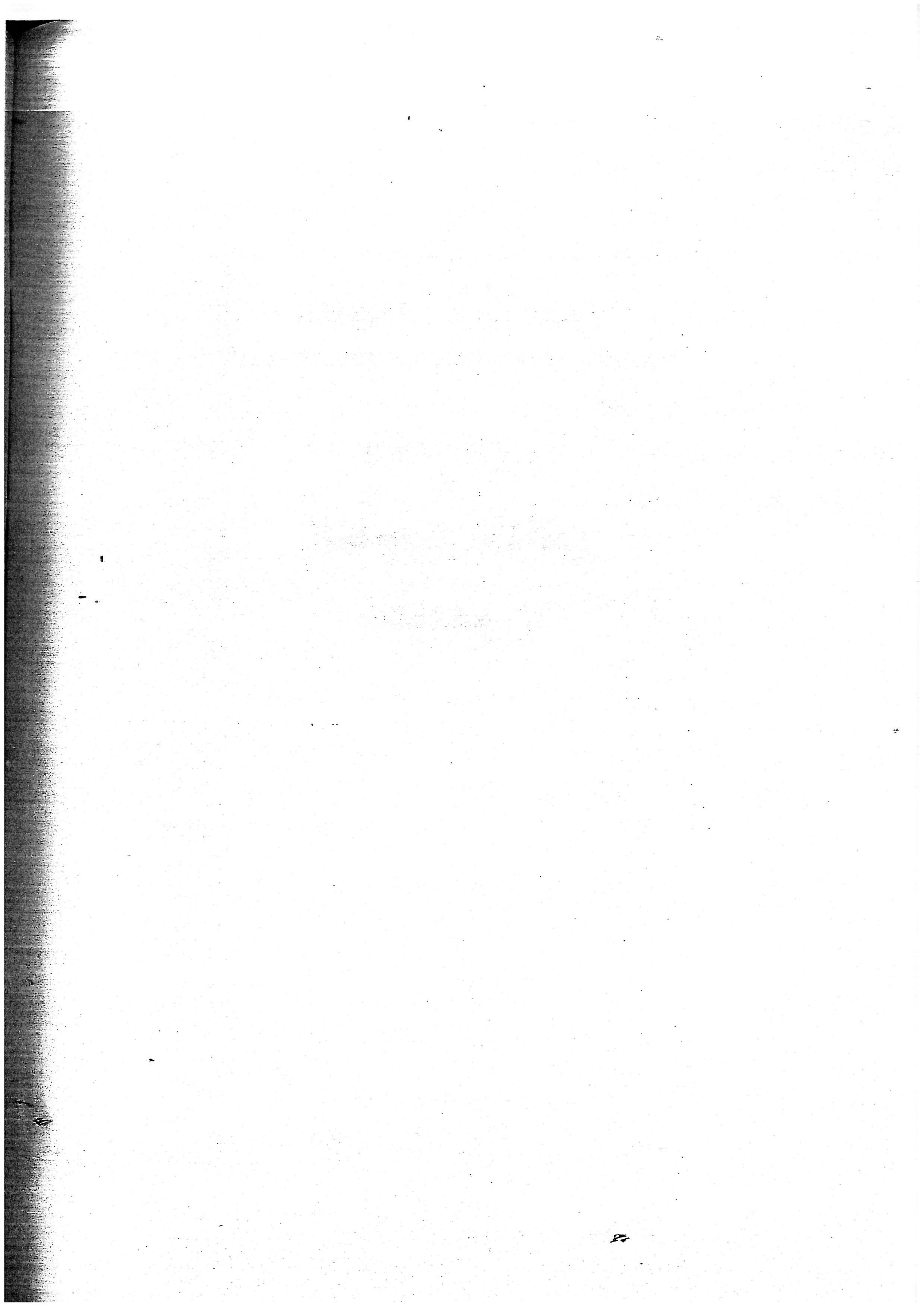
(١) الإتقان: ٢/ ١٥٥، ١٦٥.

الفصل الخامس

المصدر الرابع

للتفسير بالمأثور

«التابعون»



المبحث الأول

من التابعون؟

بعد أن انتقل الرسول ﷺ إلى جوار ربه، ترك عبء الدعوة الإسلامية، وتبليغ كتاب الله عز وجل وتفسيره على عاتق أصحابه الكرام.

وقد قدر هؤلاء الذين رضى الله عنهم هذا العبء حق قدره، فلم يخلدوا للراحة فى المدينة، أو الجوار بالبيت الحرام فى مكة، بل انطلقوا يجاهدون فى سبيل الله تعالى، لفتح البلاد، وهداية العباد، وأصبحوا منارات للعلم، ومشاعل للهداية، فاجتمع الناس إليهم من كل حدب، ليتتلمذوا على أيديهم، وينقلوا عنهم لمن خلفهم، وقد عرف هؤلاء الذين تتلمذوا على أيدى الصحابة بالتابعين.

تعريف التابعين

وعلى ذلك: فالتابعون جمع تابع، ويقال له تابعى أيضًا.

والتابعى - كما قال الخطيب البغدادى: «من صحب الصحابى»(١).

فعلى هذا التعريف لا يكتفى بمجرد الرؤية واللقى بل لابد من الصحبة.

وقد مال ابن كثير رحمه الله تعالى إلى هذا، حيث قال: «قلت: لم يكتفوا بمجرد رؤيته الصحابى، كما اكتفوا فى إطلاق اسم الصحابى على من رآه عليه السلام، والفرق عظمة وشرف رؤيته عليه السلام»(٢).

وذهب أكثر أهل الحديث إلى عدم اشتراط الصحبة، والاكتفاء باللقى والرواية.

---

(١) الكفاية فى علم الرواية: ٤٨.

(٢) الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث: ١٦٢ - ط. دار مصر.

قال الحاكم: «التـابعى: من لـقى الصـحابى، وروى عنـه وإن لم يصحبه»[١].

وقال ابن الصلاح: «وهو أقرب»[٢].

وقال النووى: «وهو الأظهر»[٣].

وقال العراقى: «وعليه عـمل الأكثرين من أهل الحديـث، فقد ذكر مسلم وابن حبان الأعمش فى طبقة التابعين، وقال ابن حبان: أخرجناه فى هذه الطبقـة لأن له لقيًا وحفظًا، رأى أنسًا وإن لـم يصح له سماع المسند عنه»[٤].

وقال العراقى أيضًا: «وقد أشار النبى ﷺ إلى الصحابة والتابعين بـقولـه: «طوبـى لمن رآنـى وآمـن بى، وطـوبى لمـن رأى من رآنـى» الحديث[٥]. فاكتفى فيهما بمجرد الرؤية»[٦].

وأيًا ما كان الأمر فالتابعـون هم تلاميذ صحابة رسول الله ﷺ، الذين جابوا البلاد لهداية العباد.

ولم يمض وقت طـويل على الصحابة وتعـليمهم للتابـعين، حتى قطفوا ثمرة جهادهم فى سبيل الله، وفتوحاتهم، وتدريسهم.

فقد برز مـن التابعين فـى التفسير عـدد عظيم، وأصبحـوا أساتذة الزمان فيه، حتى إن بعض الصحابة كان يأخذ عنهم، أو يوصى بالأخذ عنهم، كما حدث من عبد الله بن عباس، حيث قال لأهل مكة:

---

(١) الباعث الحثيث: ١٠٠ - ط. دار الفكر.

(٢) تدريب الراوى: ٢١٣ - ط. المطبعة الخيرية.

(٣) الموضع السابق. (٤) الموضع السابق.

(٥) أخرجه الترمذى بلفظ: «لا تمس النار مسلمًا رآنى أو رأى من رآنى». انظر كتاب المناقب، باب (٥٧).

(٦) تدريب الراوى: ٢١٣.

«تجتمعون إليَّ يا أهل مكة وعندكم عطاء؟»[1].

وكما حدث من عبد الله بن عمر، حيث كان يرسل إلى سعيد بن المسيب يسأله عن بعض شأن عمر وأمره»[1].

وقد نقل الزمان إلينا الكثير والكثير من تفاسيرهم، التى لا تزال بين أيدينا، ننتفع بها كما انتفع السابقون، وكما سينتفع بها اللاحقون، إن شاء الله تعالى.

* * *

(١) تهذيب التهذيب: ٧/ ٢٠٠، ٢٠١.

(٢) تهذيب التهذيب: ٤/ ٨٦.

المبحث الثاني

مقومات التفسير عند التابعين

كان للتابعين - عليهم رحمات الله متتابعة - عدة مقومات، يرتكزون عليها في تفسيرهم للقرآن الكريم، ويأتي على رأس هذه المقومات ما يأتي:

١ - القرآن الكريم نفسه، حيث يوجد فيه آيات تفسر آيات أخرى، بعدة طرق كما ذكرنا في حينه.

٢ - السنة النبوية،، إذ هي المبينة للقرآن.

٣ - الآثار الصحيحة عن الصحابة، التي تتعلق بأسباب النزول وملابسات القرآن، ومعاني الآيات.

٤ - أقوال من أسلم من أهل الكتاب، حيث حملوا في جعبتهم الكثير من ثقافاتهم الموروثة، والتي اعتبرها كثير من التابعين تفصيلاً لما أجمل في بعض الآيات القرآنية.

٥ - إجادتهم للغة العرب، التي أتقنوها تمام الإتقان، وتفننوا في صناعتها على أبلغ ما يرام.

٦ - توافر أدوات الاجتهاد عندهم، حيث وقفوا على تلك العلوم الواجب توافرها فيمن يتصدى لتفسير كتاب الله تعالى.

لذا لم يكن غريبًا أن نقف على هذا الكم الهائل من الروايات المأثورة عنهم في تفسير القرآن الكريم، والتي تدل بصدق على أنهم خير خلف لخير سلف.

وصدق فيهم حديث رسول الله ﷺ:

«خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[1].

---

(١) البخاري ، كتاب فضائل الصحابة باب (١).

المبحث الثالث

سمات تفسير التابعين

وقد تميز تفسير التابعين بعدة سمات، نستطيع أن نبرز أهمها فيما يلى:

١ - استمرار الطابع الشفهى للتفسير، وكان هذا هو الغالب الأعم فى عهد التابعين.

وإن وجد تفسير كتبه بعضهم لنفسه - كمجاهد بن جبر وسعيد بن جبير - فهذا عمل فردى، وليس سمة لتفسير هذا العصر، فلا يضفى صفة العموم لتفسير التابعين.

٢ - لم يتعرض مفسرو التابعين لكل آيات القرآن تعرضًا شاملاً، ولذا لم نجد تفسيراً كاملاً للقرآن، وإنما تعرضوا لما احتاج إليه أهل عصرهم، من إزالة لغموض، أو كشف للبس، ونحو ذلك.

فزادوا على تفسير الصحابة بقدر مازاد من غموض عند الناس، أو ما وجد لديهم من استشكالات.

٣ - اتساع رقعة الاختلاف فى التفسير.

فلئن تميز تفسير الصحابة بقلة الاختلاف، وكان معظم هذا الاختلاف اختلاف تنوع، وليس اختلاف تضاد، فإن تفسير التابعين تميز بكثرة الاختلاف الحقيقى، بين الأقوال، ولكنه على أى حال - إذا قيس باختلاف من بعدهم - قليل.

٤ - ومن السمات السيئة لتفسير التابعين احتشاده بكثير من الإسرائيليات.

وكان مصدر هذه الإسرائيليات من أسلم من أهل الكتاب، ويأتى على رأسهم أربعة:

أ - عبد الله بن سلام.   ب - كعب الأحبار.

جـ - وهب بن منبه.   د - عبد الملك بن العزيز بن جريج.

لقد رأى بعض المفسرين من التابعين، تلك الثقافة الإسرائيلية التى لا علاقة لها بالعقيدة، ولا بأحكام التشريع، وإنما هى روايات عن كيفية بدء الوجود، وبعض أسراره، وقصص الأنبياء السابقين وغيرهم، رأوا تلك الثقافة بتفصيل غير موجود فى القرآن، ولاحظوا ميول كثير من الناس لهذا التفصيل، فلم يروا تحرجًا من إدخالها فى مجال التفسير.

وليتهم ما أدخلوها، فقد كان لها أثر سئ على المسلمين، واعتبرها المستشرقون دليلاً قويًا يدللون به على أن الإسلام دين خرافات وأساطير، مع أن الإسلام برئ من كل هذا.

٥ - نتيجة لظهور الفرق الإسلامية على مسرح الأحداث بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه، فقد رأينا تفسير هذا العصر يحمل نواة الاختلاف المذهبى، ويصطبغ به، وإن كان على قلة، إلا أنه اعتبر ركيزة للتوسع فى هذه الصبغة فيما بعد.

ويتضح هذا بجلاء فى مفهوم بعضهم، للقدر، حيث تأثرت تفاسيرهم بهذا المفهوم.

* * *

المبحث الرابع

حكم الأخذ بتفسير التابعى

ذهب كثير من المفسرين إلى ضرورة الأخذ بأقوال التابعين فى التفسير، ولذلك نقلوها فى كتبهم، واعتمدوا عليها فى بيان المراد من الآيات.

وحجتهم فى ذلك: أن التابعين تتلمذوا على أيدى الصحابة وحفظوا القرآن على أيديهم، وعنهم أخذوا تفسيره، وعليهم أثنى الرسول والصحابة خيراً، وأرشدوا الناس إليهم ليأخذوا عنهم، رغم وجودهم.

قال رسول الله ﷺ : «خير الناس قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»(١).

وسعيد بن جبير مثلاً يقول عنه إسماعيل بن عبد الملك: «كان سعيد بن جبير يؤمنا فى شهر رمضان، فيقرأ ليلة بقراءة عبد الله بن مسعود، وليلة بقراءة زيد بن ثابت، وليلة بقراءة غيره، وهكذا أبداً»(٢).

وعنه يقول أستاذه ابن عباس لأهل الكوفة الذين جاءوا يستفتونه: «أليس فيكم ابن أم الدهماء؟» يعنى سعيد بن جبير(٣).

وهذا مجاهد يقول: «عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة»(٤). أى لتمام ضبطه، وحسن قراءته وأدائه.

ويقول أيضًا: «عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات، من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه، وأسأله عنها»(٥).

---

(١) البخارى: كتاب فضائل الصحابة، باب (١).

(٢) وفيات الأعيان: ١/ ٣٦٤.

(٣) تهذيب التهذيب: ٤/ ١٢.

(٤) ميزان الاعتدال: ٣/ ٩.

(٥) تفسير الطبرى: ١/ ٩٠ - ط. دار المعارف.

وعن ابن أبى مليكة قال: رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن، ومعه ألواحه، فقال ابن عباس: اكتب حتى سأله عن التفسير كله»[١].

وقال سفيان الثورى: «إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به»[٢].

وهذا عكرمة مولى ابن عباس، قد بلغت مكانته فى التفسير أنه كان يبين لأستاذه بعض ما أشكل عليه فى التفسير.

روى داود بن أبى هند عن عكرمة قال: قرأ ابن عباس هذه الآية:

﴿لم تعظون قومًا الله مهلكهم أو معذبهم عذابًا شديدًا﴾[٣].

قال ابن عباس: «لم أدر أنجا القوم أم هلكوا؟».

قال: فما زلت أبين له حتى عرف أنهم نجوا، فكسانى حلة»[٤].

وها هو عطاء بن أبى رباح الذى أدرك مائتين من الصحابة، يقول ابن عباس فى شأنه لأهل مكة حينما أتوه سائلين:

«تجتمعون إلىّ يا أهل مكة، وعندكم عطاء؟»[٥].

وغير هؤلاء كثيرون.

وبينما يذهب كثير من المفسرين إلى ضرورة الأخذ بتفسير التابعين، نرى بعضًا آخر يرى عدم الأخذ به، وحجتهم فى ذلك:

١ - أن التابعين لم يسمعوا من رسول الله ﷺ، حتى يمكن حمل ما قالوه على سماعهم منه ﷺ، كما قيل عن تفسير الصحابى.

٢ - أن التابعين لم يشاهدوا الوحى والتنزيل، ولم يعايشوا ملابسات

---

(١) تفسير الطبرى: ١/ ٩٠ - ط. دار المعارف.

(٢) المصدر السابق: ١/ ٩١.

(٣) الأعراف: ١٦٤.

(٤) تهذيب التهذيب: ٧/ ٢٦٥.

(٥) تهذيب التهذيب جـ٧/ ٢٠١.

القرآن مثل الصحابة، فتفسيرهم عرضة للخطأ.

٣ - عدالة التابعين غير ثابتة، كما ثبتت عدالة الصحابة بالكتاب والسنة

قال صاحب مسلم الثبوت: «التابعى ولو زاحم بفتواه رأى الصحابة فى عصرهم فليس مثلاً لهم، فلا يكون قوله كالمرفوع، لعدم وجود المناط، وهو السماع ومشاهدة القرائن، ولا فضل الصحابة»[١].

ولذلك ورد عن أبى حنيفة رحمه الله أنه قال:

«ما جاء عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين، وما جاء عن الصحابة تخيرنا، وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال.

وقد جاء فى ذلك عن الإمام أحمد روايتان:

حيث قال: «إذا جاء الشئ عن الرجل من التابعين لا يوجد فيه عن النبى ﷺ لا يلزم الأخذ به.

وقال أيضًا: الاتباع أن يتبع ما جاء النبى ﷺ وعن أصحابه، ثم هو بعد فى التابعين مخير»[٢].

هذا عن كلامه فى عدم الالتزام بكلامهم.

أما رواية الالتزام بكلامهم، فقد قال: «ينظر ما كان عن النبى ﷺ، فإن لم يكن فعن أصحابه، فإن لم يكن فعن التابعين»[٣].

ويعلل الزركشى اختلاف الرواية عن الإمام أحمد بقوله:

«ولعل اختلاف الرواية عن أحمد إنما هو فيما كان من أقوالهم وآرائهم»[٤].

---

(١) مسلم الثبوت: ٢/٨٨.

(٢) العدة فى أصول الفقه، لأبى يعلى الفراء: ٣/ ٧٢٤.

(٣) الموضع السابق.

(٤) البرهان: ٢/ ٣٩٦.

رأينا فى المسألة

والذى نميل إليه فى هذا الموضوع.

١ - أن التابعين إذا أجمعوا على شئ، كان إجماعهم حجة، ويجب الأخذ بقولهم لأن الإجماع لابد وأن يستند إلى دليل شرعى، ولا تجتمع الأمة على ضلالة.

٢ - أما إذا اختلفوا فلا يكون قولهم حجة.

٣ - فإن قال أحدهم بتفسير، ولم يأت تفسير غيره:

أ - فإن كان مما لا مجال للرأى والاجتهاد فيه، ولم يعلم عن هذا التابعى أخذ عن ثقافة أهل الكتاب، فالأخذ به أولى من تركه، لاحتمال أن يكون سمعه من صحابى أخذه هو الآخر بدوره من رسول الله ﷺ.

ب - أما إذا كان فى مجال للرأى والاجتهاد فيه نصيب، فنحن مخيرون بين قبوله ورده.

قال ابن تيمية: «وقال شعبة بن الحجاج وغيره: «أقوال التابعين فى الفروع ليست حجة، فكيف تكون حجة فى التفسير؟

يعنى: أنها لا تكون حجة على غيرهم، ممن خالفهم، وهذا صحيح.

أما إذا اجتمعوا على الشئ، فلا يرتاب فى كونه حجة.

فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويرجع فى ذلك إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة فى ذلك»[١].

---

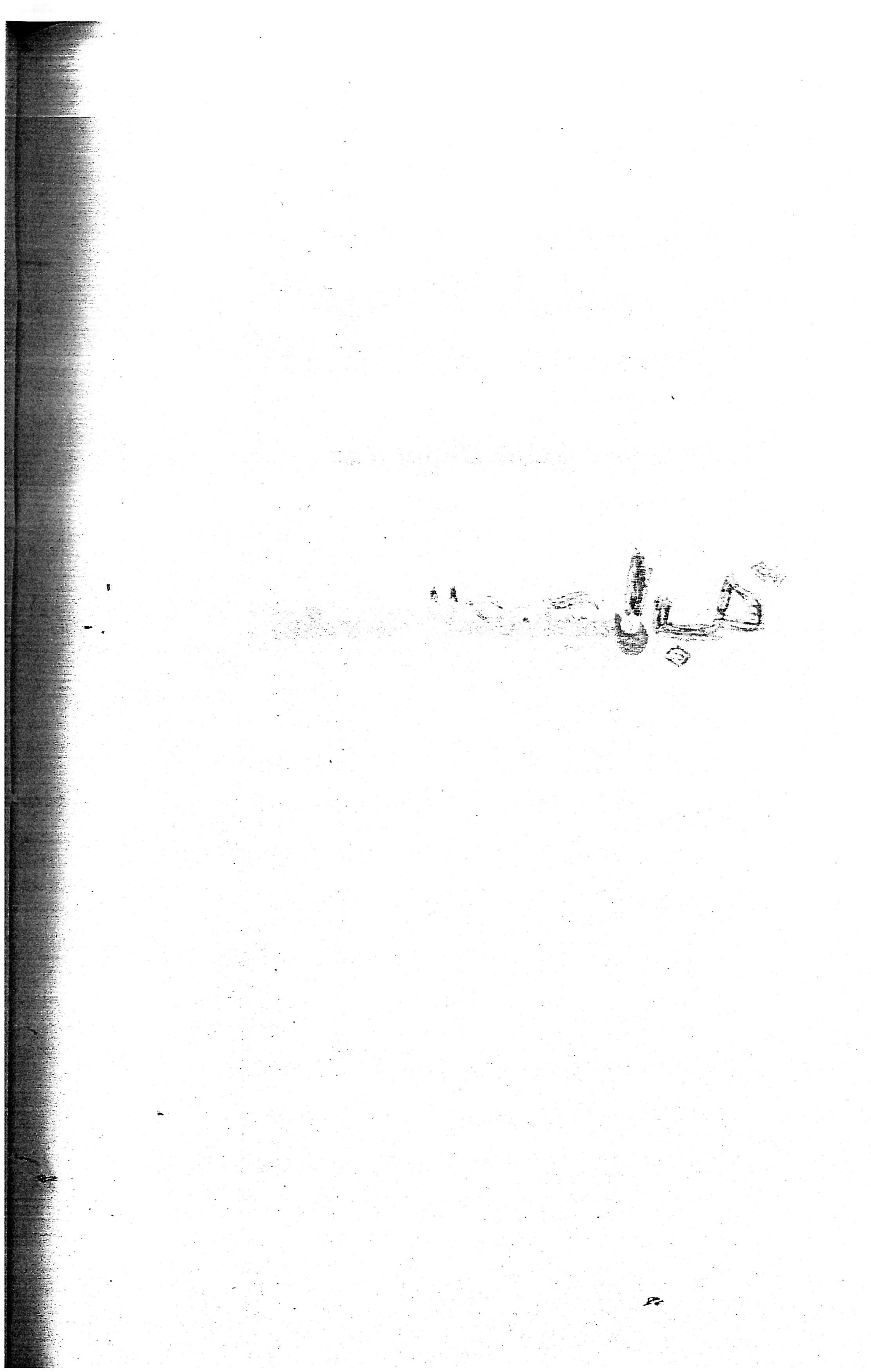
(١) مقدمة فى أصول التفسير: ١٠٥.

الفصل السادس

مدارس التفسير

فى

عهد الصحابة



مدارس التفسير فى عهد الصحابة

تمهيد:

حينما مَنَّ الله على صحابة رسول الله ﷺ بفتح البلاد، وأدان لهم قلوب العباد، لم يتوانوا لحظة فى تنفيذ الهدف الذى من أجله جاهدوا، ألا وهو تعليم الناس كتاب ربهم، وبيان حكمه وأحكامه، وحلاله وحرامه.

وقد تزاحم عليهم أهل هذه البلاد، فتتلمذوا على أيديهم، ينهلون من نبعهم الصافى، ويرتوون بما فيه حياة القلوب، وطب الأرواح.

ولم تمر سنوات قلائل إلا وقد أينعت تلك الجهود، فرأينا مدارس علمية كان الصحابة أساتذتها، والتابعون طلابها، وآتت تلك المدارس أكلها بإذن ربها، فتخرج فيها عدد عظيم من التلاميذ، الذين صاروا فيما بعد أئمة بيان وقراء قرآن، ومصابيح ظلام، يضيئون للناس حياتهم، ويخرجونهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم.

ورغم أن تلك المدارس كانت منتشرة فى كل مكان فتحه الصحابة إلا أن هناك مدارس ثلاث برزت أكثر من غيرها وأثرت فى الحركة التفسيرية تأثيرًا منقطع النظير.

هذه المدارس هى:

١ - مدرسة مكة: وكان أستاذها عبد الله بن عباس.

٢ - مدرسة الكوفة: وكان أستاذها عبد الله بن مسعود.

٣ - مدرسة المدينة: وكان أستاذها أبى بن كعب.

لذلك عد تلاميذ هذه المدارس الثلاث أفضل علماء التفسير فى عهد التابعين.

لذلك يقول ابن تيمية رحمه الله:

«وأما التفسير فأعلم الناس به أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد، وعطاء بن أبى رباح، وعكـرمة مولى ابن عباس وغيرهم من أصحاب ابن عباس كطاوس، وأبى الشعثاء وسعيد بن جبير وأمثالهم.

وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابـن مسعود، ومن ذلك ما تميزوا به عن غيرهم.

وعلماء أهل المدينة فى التفسير، مثل زيد بن أسلم، الذى أخذ عنه مالـك التفسـير، وأخذ عنـه أيضًا ابـنه عبد الـرحمن، وعبـد الله بن وهب»[1].

ويحسن بنا أن نتعرض لأبرز تلاميذ كل مدرسة على حدة بشئ من التفصيل، على النحو التالى:

* * *

(١) مقدمة فى أصول التفسير.

المبحث الأول

مدرسة مكة

ومؤسسها وأستاذها - كما قلنا الآن - هو عبد الله بن عباس أما أبرز تلاميذها فهم:

١ - سعيد بن جبير

هو الإمام الحافظ المقرئ المفسر الشهير، أبو محمد ويقال أبو عبد الله، سعيد بن جبير بن هشام، الأسدى الوالبى، ومولاهم الكوفى كان أسود اللون، أبيض القلب.

قرأ القرآن على ابن عباس، وقرأ عليه أبو عمرو بن العلاء وطائفة، حيث كان إمامًا فى ملازمة التلاوة، وإمامًا فى القراءات.

ينقل عنه ابن سعد فى الطبقات قوله: «ما مضت عليّ ليلتان منذ قتل الحسين إلا أقرأ فيهما القرآن، إلا مسافرًا أو مريضًا».

كما يروى الذهبى عن سعيد بن جبير أنه كان يختم القرآن فى كل ليلتين»(١).

ويروى ابن خلكان فى وفيات الأعيان، عن إسماعيل بن عبد الملك أنه قال: «كان سعيد بن جبير يؤمنا فى شهر رمضان، فيقرأ ليلة بقراءة عبد الله بن مسعود، وليلة بقراءة زيد بن ثابت، وليلة بقراءة غيره، هكذا أبدًا»(١).

وكان رحمه الله مثالاً رائعًا لطالبى العلم، فى الحرص عليه وتدوينه.

جاء فى طبقات ابن سعد: أن سعيد بن جبير قال:

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٢٥.

(٢) وفيات الأعيان: ٢/ ٣٧١.

«ربما أتيت ابن عباس، فكتبت فى صحيفتى حتى أملأها، وكتبت فى نعلى حتى أملأها، وكتبت فى كفى»[١].

ولم يقف نبوغه رحمه الله على التفسير فقط، بل شمل علومًا عظيمة.

يروى ابن خلكان عن خصيف أنه قال: «كان من أعلم التابعين بالطلاق سعيد بن المسيب، وبالحج عطاء، وبالحلال والحرام طاوس، وبالتفسيير أبو الحجاج مجاهد بن جبر، وأجمعهم لذلك كله سعيد بن جبير»[٢].

ولذلك كان يقال له جهبذ العلماء، كما ذكر الذهبى فى تذكرة الحفاظ ١/٧٦، ٧٧ ولما وصل إلى هذه المرتبة الفائقة رآه الصحابة المعاصرون أهلاً للفتوى.

يروى ابن سعد عنه أن ابن عباس قال له: حَدِّث، فقال أحدث وأنت ههنا؟ فقال: أو ليس من نعمة الله عليك أنت تتحدث وأنا شاهد، فإن أصبت فذاك، وإن أخطأت علمتك»[٣].

كما يروى ابن سعد عن جعفر بن أبى المغيرة أنه قال: كان ابن عباس - بعد ما عمى - إذا أتاه أهل الكوفة يسألونه قال تسألونى، وفيكم ابن أم الدهماء؟ قال يعقوب: يعنى سعيد بن جبير[٤].

كما يروى الذهبى عن سعيد أنه قال: سأل رجل ابن عمر رضى الله عنهما عن فريضة، فقال: ائت سعيد بن جبير، فإنه أعلم بالحساب منى، وهو يفرض فيها ما أفرض»[٥].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٦/٢٥٧.
(٢) وفيات الأيان: ٢/٣٧٢.
(٣) طبقات ابن سعد: ٦/٢٥٦، ٢٥٧.
(٤) الموضع السابق.
(٥) سير أعلام النبلاء: ٤/٣٣٦.

كما يروى عن عمرو بن ميمون عن أبيه قوله: «لقد مات سعيد ابن جبير وما على ظهر الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه»[١].

وكان رحمه الله حريصًا على نشر العلم، وبذله للناس بدلاً من حبسه فى صدره.

ولذلك يقول كما ينقل عنه الذهبى: «لأن أنشر علمى أحبّ إلىّ من أن أذهب به إلى قبرى»[٢].

إلا أنه كان شديد الورع فى تفسير القرآن.

يروى عنه ابن خلكان أن رجلاً سأله أن يكتب له تفسير القرآن فغضب وقال: لأن يسقط شِقِّى أحبّ إلىّ من ذلك»[٣].

وكان رحمه الله بجانب علمه الغزير على درجة عالية من العبادة فقد كان يحرم فى كل سنة مرتين، مرة للحج، ومرة للعمرة[٤].

وكان يحافظ على قيام الليل ويشق عليه تركه، ويبكى كثيرًا بالقرآن فعن أصبغ بن زيد قال: كان لسعيد بن جبير ديك كان يقوم من الليل بصياحه، فلم يصح ليلة من الليالى، حتى أصبح، فلم يصل سعيد تلك الليلة، فشق عليه، فقال: ما له، قطع الله صوته؟ فما سمع له صوت بعد، فقالت له أمه: يابنى، لا تدع على شئ بعدها»[٥].

وعن القاسم بن أيوب قال: كان سعيد بن جبير يبكى بالليل حتى عمش، وسمعته يردد هذه الآية ﴿واتقوا يومًا ترجعون فيه إلى الله﴾[٦]، بضعًا وعشرين مرة[٧].

وكان لا يدع أحدًا يغتاب عنده أحدًا، يقول: إن أردت ذلك ففى

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٢٥.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٢٦.
(٣) وفيات الأعيان: ٢/ ٣٧١.
(٤) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٢٥.
(٥) المصدر السابق ٤/ ٣٢٣.
(٦) البقرة: ٢٨١.
(٧) تذكرة الحفاظ: ١/ ٧٧.

وجهه[١].

ولدينه وصدقه وضبطه وثقه العلماء، وأجمع أصحاب الكتب الستة على قبول روايته، وتدوينها فى كتبهم.

كان واثقًا من نيل الشهادة فى سبيل الله.

يروى الذهبى بإسناده عن داود بن أبى هند قال: لما أخذ الحجاج سعيد بن جبير قال: ما أرانى إلا مقتولاً، وسأخبركم، إنى كنت أنا وصاحبان لى دعونا حين وجدنا حلاوة الدعاء، ثم سألنا الله الشهادة فكلا صاحبى رزقها، وأنا أنتظرها، قال فكأنه رأى أن الإجابة عند حلاوة الدعاء»[٢].

قتله الحجاج فى شعبان سنة خمس وتسعين[٣]. حينما أبى أن يبايعه، لسابق بيعته لابن الأشعث وأثناء قتله دعا على الحجاج فقال: اللهم لا تسلطه على أحد يقتله بعدى، فلم يسلطه الله تعالى بعده على قتل أحد، حتى مات.

وقيل للحسن البصرى: إن الحجاج قد قتل سعيد بن جبير، فقال اللهم ايت على فاسق ثقيف، والله لو أن مَنْ بين المشرق والمغرب اشتركوا فى قتله لكبهم الله عز وجل فى النار.

ويقال إن الحجاج لما حضرته الوفاة كان يغوص ثم يفيق، ويقول: مالى ولسعيد بن جبير.

وقيل إنه فى مدة مرضه كان إذا نام رأى سعيد بن جبير آخذًا بمجامع ثوبه، ويقول له: يا عدو الله، فيم قتلتنى؟ فيستيقظ مذعورًا، ويقول: مالى ولسعيد بن جبير[٤].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٦/ ٢٦١.
(٢) السير: ٤/ ٣٤٠.
(٣) الموضع السابق.
(٤) وفيات الأعيان: ٢/ ٣٧٤.

٢ - مجاهد بن جبر

هو الإمام، شيخ القراء والمفسرين، أبو الحجاج المكى الأسود مولى السائب بن أبى السائب المخزومى، وقيل مولى غيره.

منزلته العلمية:

لازم رحمه الله ابن عباس مدة من الزمن وقرأ عليه القرآن وتعلم على يديه التفسير والفقه.

روى ابن سعد فى طبقاته عن الفضل بن ميمون أنه قال: سمعت مجاهدًا يقول: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين عرضة[١].

وروى عنه الذهبى فى تذكرة الحفاظ أنه قال:

«عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات، أقف عند كل آية - أسأله فيم نزلت؟ وكيف كانت[٢]؟

ويمكن حمل الرواية الأولى على إتقانه التلاوة، وأحكام التجويد، ووجوه القراءات، أما الرواية الثانية فتحمل على أخذه التفسير عنه كما هو واضح من ألفاظها.

وعن جودة حفظه يقول: «قال لى ابن عمر: «وددت أن نافعًا يحفظ حفظك»[٣].

وبهذه التلمذة على يدى ترجمان القرآن، وحبر الأمة وبحرها صار مجاهد علمًا عظيمًا من أعلام التفسير، استحق ثناء العلماء عليه وتقدير الصحابة له.

حدث عن نفسه فقال: «صحبت ابن عمر، وأنا أريد أن أخدمه فكان يخدمنى»[٤].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٥/ ٤٦٦. (٢) تذكرة الحفاظ: ١/ ٩٢.

(٣) ميزان الاعتدال: ٣/ ٩. (٤) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٤٥٢.

وقال أيضًا: «ربما أخذ لى ابن عمر رضى الله عنهما بالركاب»[١].

قال سفيان الثورى: خذوا التفسير من أربعة: مجاهد وسعيد بن جبير، وعكرمة، والضحاك»[٢].

وقال خُصيْف: «كان مجاهد أعلمهم بالتفسير»[٣].

وقال قتادة: «أعلم من بقى بالتفسير مجاهد»[٤].

وقال ابن جريج: «لأن أكون سمعت من مجاهد فأقول: سمعت مجاهدًا أحبُّ إلىّ من أهلى ومالى»[٥].

ومع ذلك العلم الغزير، فإنهم كانوا لا يأخذون عنه التفسير، لرجوعه إلى أهل الكتاب.

أخرج ابن سعد فى طبقاته بإسناده عن أبى بكر بن عياش، قال: قلت للأعمش: ما لهم يتقون تفسير مجاهد؟ قال: كانوا يرون أنه يسأل أهل الكتاب[٦].

ولكن هذا لا يعنى الطعن فى ثقته وعدالته، إذ هو مجمع عليه من الأمة كلها، ولا أدل على ذلك من أن أصحاب الكتب الستة أجمعوا على توثيقه، وإخراج حديثه فى كتبهم.

بل إن سفيان الثورى يقول فى حقه: «إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به»[٧].

وكان رحمه الله زاهد فى الحياة، ولا يهتم بزينتها، ولا يحب الشهرة بين الناس.

---

(١) تذكرة الحفاظ: ١/ ٩٢.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٤٥١.
(٣) المصدر السابق: ٤/ ٤٥١.
(٤) الموضع السابق.
(٥) الموضع السابق.
(٦) طبقات ابن سعد: ٥/ ٤٦٧.
(٧) تفسير ابن جرير الطبرى: ١/ ٣٠.

قال رحمه الله: «لا تنوهوا بى فى الخلق»[١].

وقال عنه الأعمش: «كنتُ إذا رأيت مجاهداً ازدريته، متبذلاً كأنه خربندج ضل حماره، وهم مغتم، فإذا نطق خرج من فيه اللؤلؤ»[٢].

مات بمكة سنة اثنتين، أو ثلاث، ومائة وهو ساجد[٣].

* * *

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٤٥٢.

(٢) الموضع السابق، وتذكرة الحفاظ ١/ ٩٢.

(٣) طبقات ابن سعد: ٥/ ٤٦٧، سير أعلام النبلاء: ٤/ ٤٥٥، خلاصة تذهيب التهذيب: ٣٦٩.

٣ - عكرمـــة

أبو عبد الله البربرى، ثم المدنى، الهاشمى، مولى ابن عباس رضى الله عنهما.

كان حريصًا على طلب العلم فهيأ الله له من يعلمه.

قال عن نفسه - كما فى تذكرة الحفاظ -: «طلبت العلم أربعين سنة، وكان ابن عباس يضع الكبل - أى القيد - فى رجلى على تعليم القرآن والسنة»(١).

وقال عن فتوح الله له: «إنى لأخرج إلى السوق فأسمع الرجل يتكلم بالكلمة فينفتح لى خمسون بابًا من العلم»(٢).

وقد بلغ نبوغه العلمى درجة مراجعة أستاذه، وتنبيهه إلى أشياء خافية عليه.

قال عكرمة - كما فى سير أعلام النبلاء -:

«قرأ ابن عباس هذه الآية **﴿لم تعظون قومًا الله مهلكهم أو معذبهم عذابًا شديدًا﴾**(٣) قال ابن عباس لم أدر، أنجا القوم أم هلكوا؟ قال: فما زلت أبين له، أُبصِّره، حتى عرف أنهم قد نجوا، قال: فكسانى حُلَّةً»(٤).

ولما وثق منه أستاذه أذن له فى الفتوى.

يروى عنه الذهبى قوله: «طلبت العلم أربعين سنة، وكنت أُفتى بالباب وابن عباس فى الدار»(٥).

وقد جاء كبار العلماء، وطلاب العلم ينهلون من معينه.

---

(١) تذكرة الحفاظ: ١/ ٩٥.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٥/ ١٨.

(٣) الأعراف: ١٦٤.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٥/ ١٦.

(٥) المصدر السابق: ٥/ ١٥.

جاء فى سير أعلام النبلاء، عن حبيب بن أبى ثابت قال: «اجتمع عندى خمسة لا يجتمع مثلهم أبدًا، عطاء وطاوس، ومجاهد، وسعيد ابن جبير، وعكرمة، فأقبل مجاهد وسعيد يلقيان على عكرمة التفسير، فلم يسألاه عن آية إلا فسرها لهما، فلما نفذ ما عندهما جعل يقول: أنزلت آية كذا فى كذا، وآية كذا فى كذا، قال: ثم دخلوا الحمام ليلاً»(١).

كما يروى الذهبى عن مَعْمر عن أيوب قال: قدم علينا عكرمة، فاجتمع الناس عليه، حتى صعد فوق ظهر بيت(٢).

بل إن كبار التابعين كانوا لا يتحدثون بحضرته.

جاء فى تذكرة الحفاظ عن قرة بن خالد أنه قال: كان الحسن إذا قدم عكرمة البصرة أمسك عن التفسير والفتيا، مادام عكرمة بالبصرة.

وبجانب علمه الغزير، كان ثقة، يحتج بروايته.

أما ما اتهم به من الكذب أو بأنه يرى رأى الخوارج، أو يقبل هدايا الأمراء فقد رد ابن حجر فى مقدمة تفسيره على ذلك ردًا بليغًا وبين أن كل ذلك لا يقدح فى قبول روايته فليرجع إليه صفحة ٤٤٧ وما بعدها من المقدمة ويحسن هنا أن أنقل بعض العبارات من أقوال العلماء عنه.

«**قال عمرو بن دينار**: «والله ما رأيت مثل عكرمة قط».

وقال سفيان الثورى: «خذو التفسير من أربعة، فبدأ به».

وقال البخارى: «ليس أحد من أصحابنا إلا احتج بعكرمة».

وقال المروزى: قلت لأحمد بن حنبل يحتج بحديثه؟ قال: نعم.

وقال أبو عبد الله محمد بن نصر المروزى: «أجمع عامة أهل العلم على الاحتجاج بحديث عكرمة، واتفق على ذلك رؤساء أهل العلم

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٥/١٨.   (٢) الموضع السابق.

بالحديث من أهل عصرنا، منهم أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه وأبو ثور، ويحيى بن معين، ولقد سألت إسحاق عن الاحتجاج بحديثه فقال: عكرمة عندنا إمام أهل الدنيا، وتعجب من سؤالى إياه.

وقال ابن منده: قال أبو حاتم: أصحاب ابن عباس عيال على عكرمة.

وقال العباس بن مصعب المروزى: كان عكرمة أعلم موالى ابن عباس وأتباعه بالتفسير.

وقال أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى: «ولم يكن أحد يدفع عكرمة عن التقدم فى العلم بالفقه والقرآن، وتأويله، وكثرة الرواية للآثار، وأنه كان عالمًا بمولاه، وفى تقريظ جلة أصحاب ابن عباس إياه، ووصفهم له بالتقدم، فى العلم، وأمرهم الناس بالأخذ عنه، ومن ثبتت عدالته لم يقبل فيه الجرح، وما تسقط العدالة بالظن، وبقول فلان لمولاه لا تكذب علىّ وما أشبهه من القول الذى له وجوه وتصاريف ومعان غير الذى وجهه إليه أهل الغباوة، ومن لا علم له بتصاريف كلام العرب».

وقال ابن عدى فى الكامل: «ولم يمتنع الأئمة وأصحاب الصحاح من تخريج حديثه».

وقال ابن منده: «أما حال عكرمة فى نفسه فقد عَدَّله أُمَّةٌ من التابعين، منهم زيادة على سبعين رجلاً من خيار التابعين، ورفعائهم، وهذه منزلة لا تكاد توجد منهم لكبير أحد من التابعين، على أن من جرحه من الأئمة لم يمسك عن الرواية عنه ولم يستغن عن حديثه، وكان حديثه متلقى بالقبول، قرنًا بعد قرن إلى زمن من الأئمة الذين أخرجوا الصحيح، على أن مسلمًا كان أسوأهم رأيًا فيه، وقد أخرج له مع ذلك مقرونًا.ﻫ

وقال أبو عمر ابن عبد البر: كان عكرمة من جلة العلماء، ولا يقدح فيه كلام من تكلم فيه، لأنه لا حجة مع أحد تكلم فيه»[١].

وها هو سعيد بن جبير - وهو من هو - قيل له: تعلم أحدًا أعلم منك؟ قال: نعم، عكرمة[٢].

وعن الفرزدق بن جواس الحِمَّانى قال: كنا مع شهر بن حوشب بجُرْجَان، فقدم علينا عكرمة، فقلنا لشهر: ألا نأتيه؟ قال: ائتوه، فإنه لم تكن أمة إلا كان لها حبر، وإن مولى ابن عباس حبر هذه الأمة[٣].

وقال يحيى بن أيوب: قال لى ابن جريج: قدم عليكم عكرمة؟ قلت: بلى، قال: فكتبتم عنه؟ قلت: لا، قال: فاتكم ثلثا العلم[٤].

وقال ابن أبى حاتم: سئل أبى عن عكرمة وسعيد بن جبير أيهما أعلم بالتفسير؟ فقال: أصحاب ابن عباس عيال على عكرمة[٥].

وهكذا يتبين لنا منزلة عكرمة فى التفسير خاصة، وفى العلوم الشرعية عامة، كما يتبين لنا مدى ثقة العلماء فيه كالبخارى وأحمد بن حنبل وأصحاب الصحاح وأنه لا صحة إطلاقًا لما يثار حوله من شبهات، يريد بها أعداء الله استغلالها للطعن فى أئمة الأمة، للطعن فى الدين نفسه.

وحينما توفى ابن عباس رضى الله عنهما كان عكرمة رقيقًا فباعه ابنه على لخالد بن يزيد بن معاوية بأربعة آلاف دينار، فقال له عكرمة: ما خير لك، بعت علم أبيك بأربعة آلاف دينار؟ فاستقاله، فأقاله، وأعتقه[١].

توفى رحمه الله سنة أربع ومائة، وقيل سنة خمس ومائة وغير ذلك.

---

(١) انظر مقدمة فتح البارى (هدى السارى): ٤٥٠ - ٤٥١.

(٢) تذكرة الحفاظ: ١/٩٥، ٩٦. (٣) سير أعلام النبلاء: ٥/١٥.

(٤) المصدر السابق. (٥) المصدر السابق. (٦) المصدر السابق.

٤ - عطاء بن أبى رباح

واسم أبى رباح أسلم، وكان عطاء من مولّدى الجَنَد، من مخاليف اليمن، وكنيته أبو محمد.

قال ابن سعد فى طبقاته: سمعت بعض أهل العلم يقول: كان عطاء أسود أعور، أفطس أشل، أعرج ثم عمى بعد ذلك(١).

وقال الذهبى: كان أعور، أفطس، أعرج، ضربت يده أيام ابن الزبير فشلت(٢).

ولد فى خلافة عثمان، وأدرك مائتين من أصحاب رسول الله ﷺ، كما حدث بذلك عن نفسه(٣).

ولذلك روى عن كثير منهم كعائشة وأم سلمة وأم هانئ، وأبى هريرة، وابن عباس وغيرهم.

وحدث عنه مجاهد بن جبر، وعمرو بن دينار، والزهرى وقتادة، وخلق كثير.

منزلته العلمية:

ولكثرة من خالطهم من الصحابة وتتلمذه على أيديهم، خاصة حبر الأمة وجدناه يرتقى الدرجة العليا بين معاصريه.

ويتضح ذلك من ثناء كبار الأعلام عليه، وعلى رأسهم أستاذه ابن عباس.

قال ابن عباس: يا أهل مكة، تجتمعون علىّ وعندكم عطاء(٤)؟

---

(١) طبقات ابن سعد: ٥/ ٤٧٠.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٥/ ٨١.

(٣) الموضع السابق.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٥/ ٨١.

وقال أبو جعفر الباقر: «خذوا من عطاء ما استطعتم»[١].

وقال أيضًا: «ما بقى على ظهر الأرض أحد أعلم بمناسك الحج من عطاء».

وقال قتادة: إذا اجتمع لى أربعة لم ألتفت إلى غيرهم، ولم أبال من خالفهم، الحسن، وابن المسيب، وإبراهيم، وعطاء، وهؤلاء أئمة الأمصار».

وقال إسماعيل بن أمية: «كان عطاء يطيل الصمت فإذا تكلم يخيل لنا أنه يؤيد».

وقال أبو حنيفة: «ما رأيت فيمن لقيت أفضل من عطاء بن أبى رباح».

وقال محمد بن عبد الله الديباج: «ما رأيت مفتيًا خيرًا من عطاء، إنما كان مجلسه ذكر الله لا يفتر وهم يخوضون، فإن تكلم أو سئل عن شئ أحسن الجواب».

وقال الأوزاعى: «مات عطاء بن أبى رباح وهو أرضى أهل الأرض عند الناس».

وقدم ابن عمر مكة فسألوه فقال: «تجمعون لى المسائل وفيكم عطاء؟».

عبادته وزهده:

وإلى جانب علمه العظيم، كان رحمه الله عابدًا زاهدًا قال ابن جريج: كان المسجد فراش عطاء عشرين سنة، وكان من أحسن الناس صلاة.

---

(١) انظر هذا القول والأقوال التى بعده فى سير أعلام النبلاء: ٨١/٥، وما بعدها، وتذكرة الحفاظ ٩٨/١، وطبقات ابن سعد: ٤٦٨/٥ وما بعدها.

وأخرج ابن سعد بإسناده عن ليث عن عبد الرحمن قال: والله ما أرى إيمان أهل الأرض يعدل إيمان أبى بكر، وما أرى إيمان أهل مكة يعدل إيمان عطاء.

وقيل إنه حج أكثر من سبعين حجة.

وقال سلمة بن كهيل: «ما رأيت أحدًا يريد بهذا العلم وجه الله غير هؤلاء الثلاثة: عطاء، وطاوس، ومجاهد»(١).

قلة الرواية عنه فى التفسير:

ومع علمه الغزير رحمه الله إلا أننا قد وجدنا قلة الرواية عنه فى التفسير، ويرجع ذلك إلى تحرجه وتورعه.

ويؤيد ذلك ما قاله عبد العزيز بن رفيع: سئل عطاء عن مسألة، فقال: لا أدرى، فقيل له ألا تقول فيها برأيك؟ قال: إنى أستحى من الله أن يدان فى الأرض برأيى(٢).

ثقته وصدقه:

وكان رحمه الله ثقة صادقًا، ولهذا جاء حديثه عند أصحاب الكتب الستة.

قال عنه ابن حبان: «كان من سادات التابعين، فقهًا وعلمًا وورعًا، وفضلاً»(٣).

قال عنه ابن سعد: «قالوا: وكان ثقة فقيهًا عالمًا كثير الحديث»(٤).

وفاتــه:

توفى رحمه الله سنة أربع عشرة ومائة.

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٥/٤٨.
(٢) تهذيب التهذيب: ٧/١٩٩.
(٣) تهذيب التهذيب: ٧/١٩٩.
(٤) طبقات ابن سعد: ٥/٤٦٨.

روى ابن سعد فى طبقاته عن أبى المليح قال:

«مات عطاء سنة أربع عشرة ومائة، فلـما بلغ موته ميمونًا قال: ما خلف بعده مثله»[١].

وجاء فى خلاصة تذهيب التهذيب عن حماد بن سلمة قال:

«حججت سنة مات عطاء، سنة أربع عشرة ومائة»[٢].

* * *

---

(١) المصدر السابق: ٥/ ٤٧٠.

(٢) خلاصة تذهيب التهذيب: ٢٦٦.

٥ – طاوس

هو طاوس بن كيسان أبو عبد الرحمن اليمانى الجَنَدى الهَمَدانى.

قال ابن سعد فى طبقاته: «وكان أبو طاوس من أهل فارس وليس من الأبناء، فوالى أهل هذا البيت، وكان يسكن الجند باليمن»(١).

سمع زيد بن ثابت وعائشة وأبا هريرة، وزيد بن أرقم وابن عباس وغيرهم من الصحابة، وروى عن كثير منهم، وعلى رأسهم العبادلة الأربعة.

ويلاحظ أن جلوسه وأخذه عن ابن عباس أكثر من غيره، ولهذا ذكرناه ضمن تلاميذ مدرسة مكة، التى أسسها ابن عباس رضى الله عنهما.

وروى عنه كثيرون مثل: ابنه عبد الله، والزهرى، وإبراهيم بن ميسرة، وأبو الزبير المكى، وعبد الله بن أبى نجيح، وغيرهم، ولملازمته لكثير من الصحابة صار رأسًا فى العلم والعمل.

قال عمرو بن دينار: ما رأيت أحدًا مثل طاوس(٢).

وقال قيس بن سعد: كان سعد فينا مثل ابن سيرين فى أهل البصرة(٣).

وبجانب علمه رحمه الله كان ورعًا زاهدًا.

وكان من دعائه: اللهم احرمنى المال والولد، وارزقنى الإيمان والعمل(٤).

---

(١) طبقات ابن سعد: ٥/ ٥٣٧.

(٢) تذكرة الحفاظ: ١/ ٩٠/.

(٣) تذكرة الحفاظ ١/ ٩٠، طبقات ابن سعد: ٥/ ٥٤١.

(٤) طبقات ابن سعد: ٥/ ٥٤٠.

قال النعمان بن الزبير الصنعاني: بعث أمير اليمن إلى طاوس بخمسمائة دينار فلم يقبلها[١].

وقال إبراهيم بن ميسرة: ما رأيت أحداً الشريف والوضيع عنده بمنزلة إلا طاوساً[٢].

وكان رحمه الله ثقة عدلاً، ولهذا أخرج له أصحاب الكتب الستة.

قال الذهبي: «طاوس كان شيخ أهل اليمن وبركتهم ومفتيهم، له جلالة عظيمة، وكان كثير الحج، فاتفق موته بمكة قبل التروية بيوم سنة ست ومائة، وصلى عليه هشام بن عبد الملك الخليفة، رحمة الله عليه»[٣].

* * *

---

(١) تذكرة الحفاظ: ١/ ٩٠.

(٢) الموضع السابق.

(٣) تذكرة الحفاظ: ١/ ٩٠.

المبحث الثانى

مدرســة الكوفــة

ومؤسسها وأستاذها عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

وأبرز تلاميذها:

١ - علقمة بن قيس(١)

هو الإمام الحافظ المُجَوِّد المجتهد، فقيه الكوفة وعالمها، ومقرئها علقمة بن قيس بن عبد الله بن مالك بن علقمة النَّخَعِى الكوفى.

أبو شبل، هكذا كناه ابن مسعود، مع أنه عقيم لم يولد له.

ولد فى أيام الرسالة المحمدية، وعداده فى المخضرمين، هاجر فى طلب العلم والجهاد، ونزل الكوفة ولازم ابن مسعود، وكان يشبه به فى هديه وسمته.

قال رباح أبو المثنى: إذا رأيت علقمة فلا يضرك أن لا ترى عبد الله، أشبه الناس به سمتًا وهديًا.

جود القرآن على ابن مسعود، وكان ابن مسعود يحب أن يسمعه منه لحسن صوته.

قال علقمة: كنت رجلاً قد أعطانى الله حسن الصوت بالقرآن، وكان ابن مسعود يرسل إلىّ فأقرأ عليه، فإذا فرغت من قراءتى قال: زدنا فداك أبى وأمى.

وكان ابن مسعود يقول: ما أقرأ شيئًا ولا أعلمه إلا علقمة يقرؤه أو يعلمه.

وبلغ رحمه الله فى العلم منزلة عالية ساد بها معاصريه وشهد له

---

(١) انظر فى ترجمته: سير أعلام النبلاء: ٤/٥٣، طبقات ابن سعد: ٦/٨٦، تذكرة الحفاظ: ١/٤٥، تهذيب التهذيب: ٧/٢٧٦، شذرات الذهب: ١/ ٧٠.

بها أستاذه ابن مسعود.

فقد قيل لابن مسعود: ما علقمة بأقرئنا، قال: بلى والله إنه لأقرؤكم.

وبلغ من منزلته تلك أن الصحابة كانوا يستفتونه.

فعن قابوس بن أبى ظبيان قال: قلت لأبى: لأى شئ كنت تأتى علقمة، وتدع أصحاب النبى ﷺ؟ قال: أدركت ناسًا من أصحاب النبى ﷺ يسألون علقمة ويستفتونه.

وقال إبراهيم النَّخَعِي: كان أصحاب عبد الله الذين يقرئون الناس القرآن ويعلمونهم السنة، ويصدر الناس عن رأيهم ستة: علقمة، والأسود، ومسروق، وعبيدة، وأبو ميسرة عمرو بن شرحبيل، والحارث بن قيس.

حدث عن عمر وعثمان وعلىّ وسلمان، وعائشة وعمار وغيرهم.

وحدث عنه: أبو وائل، والشعبى، وإبراهيم النخعى، وابن سيرين، وخلق كثير.

وكان رحمه الله ثقة عدلاً.

قال عنه مُرَّة الهمدانى: كان علقمة من الربانيين.

وقال أحمد بن حنبل: علقمة ثقة من أهل الخير، وكذا وثقه يحيى بن معين.

لذا روى له أصحاب الكتب الستة.

كان رحمه الله نزيهًا لا يحب السمعة، ولا التقرب من السلاطين.

فقد قيل له: لو صليت فى المسجد وجلسنا معك فتُسْأل: قال: أكره أن يقال: هذا علقمة.

قالوا: لو دخلت على الأمراء؟ قال: أخاف أن ينتقصوا منى أكثر مما أنتقص منهم.

توفى رحمه الله سنة إحدى وستين عن تسعين سنة وقيلَ غير ذلك.

٢ - زِرّ بن حُبَيْش(١)

هو زر بن حبيش بن حباشة بن أوس، الإمام القدوة، مقرئ الكوفة، أبو مريم الأسدى الكوفى، ويكنى أيضًا أبا مطرِّف، أدرك أيام الجاهلية.

حدث عن عمر بن الخطاب، وأبى بن كعب، وعثمان، وعلى، وغيرهم، وقرأ على ابن مسعود وعلى، وتصدر للإقراء، فقرأ عليه يحيى بن وثاب، وعاصم بن بهدلة، وأبو إسحاق، والأعمش، وغيرهم وحدثوا عنه، هم والمنهال بن عمرو، وعبدة بن أبى لبابة وآخرون.

قال ابن سعد: كان ثقة كثير الحديث، وقال يحيى بن معين: زِرٌّ ثقة.

وقال عاصم: كان زر من أعرب الناس، كان ابن مسعود يسأله عن العربية.

وكان رحمه الله شديد الحرص على لقاء أصحاب رسول الله ﷺ وإن كلفه ذلك ترك الأوطان وتحمل المشاق.

يروى عنه تلميذه عاصم أنه قال: خرجت فى وفد من أهل الكوفة، وأيم الله إن حَرَّضَنى على الوفادة إلا لقىّ أصحاب رسول الله ﷺ، فلما قدمت المدينة أتيت أبى بن كعب، وعبد الرحمن بن عوف، فكانا جليسىَّ وصاحبىَّ، فقال أبىّ يازر ما تريد أن تدع من القرآن آية إلا سألتنى عنها.

وصفه عاصم أيضًا بقوله: ما رأيت أحدًا أقرأ من زر.

توفى رحمه الله سنة إحدى وثمانين عن مائة ونيف وعشرين سنة.

---

(١) انظر ترجمته: سير أعلام النبلاء: ٤/ ١٦٦، غاية النهاية لابن الجزرى: ١/ ٢٩٤، تذكرة الحفاظ: ١/ ٥٤، شذرات الذهب: ١/ ٩١، والطبقات الكبرى لابن سعد: ٦/ ١٠٤.

٣ - مسروق بن الأجدع[١]

هو مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية بن عبد الله بن مر الهمدانى الكوفى، أبو عائشة.

قال أبو بكر الخطيب: يقال إنه سُرِق وهو صغير، ثم وجد، فسمى مسروقًا.

عداده فى كبار التابعين، وفى المخضرمين الذين أسلموا فى حياة النبى ﷺ.

حدث عن كثير من الصحابة، مثل عمر وعثمان وعلى وابن مسعود وابن عمر وعائشة ومعاذ وأم رومان، وزيد، وغيرهم.

وحدث عنه الشعبى وإبراهيم النخعى، ويحيى بن وثاب، وعبد الله بن مرة، وأبو وائل، وخلق كثير.

ويرجع كل ذلك لكثرة مصاحبته لصحابة رسول الله ﷺ، واستفادته منهم.

فقد قال عنهم: «جالست أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالإخاد، فالإخاذ يروى الرجل، والإخاذ يروى الرجلين، والإخاذ يروى العشرة، والإخاذ يروى المائة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم»[٢].

كان رحمه الله عالمًا بالقرآن والسنة، ومن أشهر تلاميذ ابن مسعود.

قال عنه إبراهيم النخعى: كان أصحاب عبد الله الذين يقرئون الناس ويعلمونهم السنة: علقمة والأسود، وعبيدة، ومسروقًا، والحارث

---

(١) انظر ترجمته: طبقات ابن سعد ٦/٧٦، وسير أعلام النبلاء ٤/١٦٦، وتذكرة الحفاظ: ١/٤٩، وتهذيب التهذيب: ١٠/١٠٩.

(٢) تفسير الطبرى: ١/٣٥.

ابن قيس وعمرو بن شرحبيل.

وقال عنه الشعبي: كان مسروق أعلم بالفتوى من شريح، وكان شريح أعلم بالقضاء من مسروق، وكان شريح يستشير مسروقًا، وكان مسروق لا يستشير شريحًا.

وكان رحمه الله كثير العبادة، فقد كان يصلى حتى ترم قدماه.

روى شعبة عن أبى إسحاق: حج مسروق فلم ينم إلا ساجدًا على وجهه حتى رجع.

وروى أنس بن سيرين عن امرأة مسروق قالت: كان مسروق يصلى حتى تورم قدماه، فربما جلست أبكى مما أراه يصنع بنفسه.

كما كان زاهدًا فى الحياة، فقد أهدى إليه خالد بن عبد الله بن أسيد عامل البصرة ثلاثين ألفًا، وهو يومئذ محتاج فلم يقبلها.

ولا أدل على زهده من أنه كان قاضيًا ولا يتقاضى على القضاء أجرًا.

كما كان ينأى بنفسه عما فيه تفرقة المسلمين، والإضرار بهم.

روى عنه الشعبى أنه كان إذا قيل له أبطأت عن علىّ وعن مشاهده فيقول: أرأيتم لو أنه حين صف بعضكم لبعض فنزل بينكم ملك فقال: **﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيمًا﴾**[1]. أكان ذلك حاجزًا لكم، قالوا نعم، قال: فوالله لقد نزل بها ملك كريم على لسان نبيكم، وإنها لمحكمة ما نسخها شئ.

وكان رحمه الله ثقة وعدلاً، أخرج له أصحاب الكتب الستة، وكثرت عبارات العلماء فى فضله وتوثيقه.

قال الشعبى: لما قدم عُبَيْد الله بن زياد الكوفة قال: من أفضل

---

(١) النساء: ٢٩.

الناس؟ قالوا له: مسروق.

وقال ابن المدينى: أنا ما أقدم على مسروق أحدًا، صلى خلف أبى بكر.

وقال ابن عيينة: بقى مسروق بعد علقمة لا يفضل عليه أحدٌ وقال يحيى بن معين: مسروق ثقة لا يسأل عن مثله.

وسأل عثمان بن سعيد يحيى عن مسروق وعروة فى عائشة، فلم يُخَيِّر.

وقال العجلى: تابعى ثقة، كان أحد أصحاب عبد الله الذين يقرئون ويفتون، وكان يصلى حتى ترم قدماه.

وقال ابن سعد: كان ثقة له أحاديث صالحة.

مات رحمه الله سنة ثلاث وستين.

قال ابن سعد: أخبرنا عفان بن مسلم قال: حدثنا أبو عوانة عن مغيرة عن عامر، أن رجلاً كان يجلس إلى مسروق، يُعْرف وجهه ولا يسمى اسمه، فشيعه، وكان آخر من ودعه فقال: إنك قريع القراء وسيدهم، وإن زينك لهم زين، وشينك لهم شين، فلا تحدثن نفسك بفقر، ولا بطول عمر.

⁂ ⁂ ⁂

٤ - عَبيدة بن عمرو[1]
وقيل بن قيس

هو عبيدة بن عمرو السَّلمانى، المرادى الكوفى أحد الأعلام.

أسلم فى عام فتح مكة بأرض اليمن، ولا صحبة له، أحد أصحاب عبد الله بن مسعود الذين يقرئون ويفتون وكان أعور.

أخذ عن ابن مسعود وعلى وغيرهما، وكما برع فى القرآن برع فى الفقه، وكان ثبتًا فى الحديث.

روى عنه إبراهيم النخعى، والشعبى، ومحمد بن سيرين وآخرون.

قال الشعبى: كان عبيدة يوازى شريحًا فى القضاء.

وقال ابن سيرين: ما رأيت رجلاً كان أشد تَوَقِّيًا من عبيدة.

ولهذا أخرج له البخارى ومسلم وغيرهما فى كتب السُّنَّة.

توفى رحمه الله فى سنة اثنتين وسبعين على أصح الأقوال.

* * *

---

(١) انظر ترجمته فى طبقات ابن سعد: ٦/ ٩٣، وسير أعلام النبلاء: ٤/ ٤٠، تذكرة الحفاظ: ١/ ٤٧، غاية النهاية: ١/ ٤٩٨.

٥ - عُبَيْد بن نُضَيْلة(١)

هو عبيد بن نضيلة أبو معاوية الخزاعى الكوفى، تابعى ثقة، أخذ القراءة عرضًا عن عبد الله بن مسعود وعرض أيضًا على علقمة بن قيس.

روى القراءة عنه عرضًا يحيى بن وثاب، وحمران بن أعين، وكان مقرئ أهل الكوفة فى زمانه.

قال عنه الكسائى: كان من خيار أصحاب عبد الله.

قال ابن سعد: قال يحيى بن آدم عن الحسن بن صالح قال: قرأ يحيى بن وثاب على عبيد بن نضيلة، وقرأ عبيد بن نضيلة - على عبد الله، فأى قراءة أصح من هذه؟

وقال غير يحيى بن آدم: إن عبيد بن نضلة قد قرأ على عبد الله بن مسعود، ثم قرأ على علقمة بعد ذلك.

قال ابن الجزرى: وثقه ابن حبان، وخرج له مسلم، ومات فى حدود سنة خمس وسبعين.

وقال ابن سعد: توفى عبيد بن نضيلة بالكوفة فى ولاية بشر بن مروان.

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر ترجمته فى طبقات ابن سعد: ٦/١١٧، ٢١١.
وغاية النهاية لابن الجزرى: ١/٤٩٨.

٦ - الأسود بن يزيد(١)

هو الأسود بن يزيد بن قيس بن عبد الله بن مالك بن علقمة بن سلامان، أبو عمرو وقيل أبو عبد الرحمن النخعي الكوفي كان مخضرمًا، أدرك الجاهلية والإسلام.

حدث عن معاذ بن جبل، وبلال، وابن مسعود، وعائشة وغيرهم.

وحدث عنه ابنه عبد الرحمن، وأخوه عبد الرحمن، وإبراهيم النخعي والشعبي وآخرون.

قال الذهبي: وهو نظير مسروق في الجلالة والعلم والثقة والسن يضرب بعبادتهما المثل.

كان يختم القرآن في رمضان في كل ليلتين، وكان ينام بين المغرب والعشاء، وكان يختم القرآن في غير رمضان في ست ليال.

قال الشعبي: كان الأسود صوامًا قوامًا حجاجًا.

وقال إبراهيم النخعي: كان الأسود يصوم حتى يسود لسانه من الحر.

وروى شعبة عن الحكم أن الأسود كان يصوم الدهر.

قال الذهبي: هذا صحيح عنه، وكأنه لم يبلغه النهي عن ذلك، أو تأول.

وقال حنش بن الحارث: رأيت الأسود قد ذهبت إحدى عينيه من الصوم.

قرأ الأسود على عبد الله بن مسعود، وتلا عليه يحيى بن وثاب

---

(١) انظر ترجمته في طبقات ابن سعد: ٦/ ٧٠، وسير أعلام للذهبي: ٤/ ٥٠، تذكرة الحفاظ: ١/ ٤٨.

وإبراهيم النخعى، وأبو إسحاق السَّبِيعى.

وكان رحمه الله ثقة عدلاً، أخرج له أصحاب الكتب الستة.

قالت عنه عائشة رضى الله عنها: ما بالعراق رجل أكرم علىّ من الأسود.

وقال شعبة: هذا رأس مال أهل الكوفة.

وقال عنه ابن سعد الذى نقل هذه الأقوال السابقة: «كان ثقة وله أحاديث صالحة».

* * *

٧ - أبو عبد الرحمن السُّلَمى[1]

مقرئ الكوفة، الإمام العلم، عبد الله بن حبيب بن رُبيِّعة الكوفى من أولاد الصحابة، مولده فى حياة النبى ﷺ.

قال عن نفسه: والدى علمنى القرآن، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ، قد غزا معه.

قرأ القرآن وجوَّده، ومهر فيه، وعرض على عثمان وعلى وابن مسعود، وزيد، وأبى بن كعب.

أخذ عنه القرآن عاصم بن أبى النجود، ويحيى بن وثاب، وعطاء ابن السائب، والشَّعبى، وعرض عليه الحسن والحسين رضى الله عنهما.

قال أبو إسحاق: كان أبو عبد الرحمن السلمى يقرئ الناس فى المسجد الأعظم أربعين سنة.

وقال سعد بن عبيدة: أقرأ أبو عبد الرحمن فى خلافة عثمان، وإلى أن توفى فى زمن الحجاج.

روى أبو عبد الرحمن السلمى عن عثمان بن عفان أن النبى ﷺ قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[1].

قال أبو عبد الرحمن: «فذلك الذى أقعدنى هذا المقعد»، وكان لا يأخذ أجرًا على تعليم القرآن.

دخل مرة داره وفيها جلال وجُزُر، فقالوا: بعث بها عمرو بن حُرَيث، لأنك علمت ابنه القرآن، فقال: رُدَّ، إنا لا نأخذ على كتاب الله أجرًا.

---

(١) ترجمته من: سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٦٧، وطبقات ابن سعد: ٦/ ١٧٢، وتهذيب التهذيب: ٥/ ١٨٣، وتذكرة الحفاظ: ١/ ٥٥.

(٢) أخرجه البخارى فى فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه.

وعن عطاء بن السائب قال: كان رجل يقرأ على أبى عبد الرحمن فأهدى له قوسًا، فردها، وقال: ألاَّ كان هذا قبل القراءة!!

حدث عن عمر وعثمان وطائفة، وحدث عنه عاصم وأبو إسحاق وعلقمة بن مرثد، وعطاء بن السائب، وخلق كثير.

وعن عطاء بن السائب أن أبا عبد الرحمن قال: أخذنا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الأُخر، حتى يعلموا ما فيهن، فكنا نتعلم القرآن والعمل به، وسيرث القرآن بعدنا قوم يشربونه شرب الماء، لا يجاوز تراقيهم.

وكان رحمه الله ثقة صدوقًا، تقبل العلماء حديثه فى أصح كتب السنة.

قال عنه الذهبى: «كان ثبتًا فى القراءة وفى الحديث، حديثه مخرج فى الكتب الستة».

توفى رحمه الله سنة أربع وسبعين، وقيل غير ذلك.

❊ ❊ ❊

٨ - عامر الشعبى[١]

هو عامر بن شراحيل بن عبد بن ذى كِبَار، وذو كبار قَيْل من أقيال اليمن، أبو عمرو الهَمْدانى، ثم الشعبى، ويقال هو عامر بن عبد الله، وكانت أمه من سبى جَلوُلاء[٢].

ولد فى إمرة عمر بن الخطاب لست سنين خلت منها، وقيل ولد سنة إحدى وعشرين.

رأى عليًا رضى الله عنه، وسمع من عدة من كبراء الصحابة.

حدث عن سعيد بن أبى وقاص، وسعيد بن زيد، وأبى موسى الأشعرى، وعدى بن حاتم، وأكثر من خمسين من الصحابة.

كما حدث عن كثير من التابعين، كعلقمة والأسود، والحارث الأعور، والقاضى شريح، وغيرهم.

روى عنه الحكم وحماد، وأبو إسحاق، ومكحول، وأبو حنيفة وأمم سواهم.

وقبيلته من كان منهم بالكوفة قيل شعبى، ومن كان بمصر قيل الأشعوبى، ومن كان باليمن قيل لهم آل ذى شعبين ومن كان بالشام قيل الشَّعْبَانى، وهم جميعًا ولد حسان بن عمرو بن شَعْبَين.

قال الشعبى: أدركت خمسمائة صحابى أو أكثر يقولون أبو بكر وعمرو وعثمان وعلى.

ولذا فقد كان رحمه الله عالمًا جليلاً فى فروع كثيرة من فروع العلم، وكان يتمتع بحافظة قوية، وشهد له العظماء بذلك.

---

(١) انظر ترجمته: فى طبقات ابن سعد: ٦/ ٢٤٦، سير أعلام النبلاء: ٤/ ٢٩٤، غاية النهاية: ١/ ٣٥٠، تذكرة الحفاظ: ١/ ٧٤.

(٢) قرية بناحية فارس، تقع بالعراق الآن، واسمها السعدية.

قال ابن الجزرى: ومناقبه وعلمه وحفظه أشهر من أن تذكر.

قال مكحول: ما رأيت أحدًا أعلم من الشعبى.

وقال أبو حصين: ما رأيت أحدًا قط كان أفقه من الشعبى.

وقال أبو مِجْلَز: ما رأيت أحدًا أفقه من الشعبى، لا سعيد بن المسيب، ولا طاوس، ولا عطاء، ولا الحسن، ولا ابن سيرين، فقد رأيت كلهم.

وقال أبو بكر الهذلى: قال لى ابن سيرين: الزم الشعبى، فلقد رأيته يستفتى وأصحاب رسول الله ﷺ متوافرون.

وقال ابن عيينة: علماء الناس ثلاثة، ابن عباس فى زمانه والشعبى فى زمانه، والثورى فى زمانه.

أطلق عليه قراء أهل الكوفة لقب زعيم القراء[1].

وكان رحمه الله يعتمد على ذهنه فى ضبط العلم دون تدوينه.

يقول ابن شُبْرُمة: سمعت الشعبى يقول: ما كتبت سوداء فى بيضاء إلى يومى هذا، ولا حدثنى رجل بحديث قط إلا حفظته، ولا أحببت أن يعيده علىَّ.

كما يقول ابن شبرمة: سمعت الشعبى يقول: ما سمعت منذ عشرين سنة رجلاً يحدث بحديث إلا أنا أعلم به منه، ولقد نسيت من العلم ما لو حفظه رجل لكان به عالمًا.

وكان رحمه الله يخاف من تبعة العلم، وكونه حجة على صاحبه قال رحمه الله: إنا لسنا بالفقهاء، ولكنا سمعنا الحديث فرويناه، ولكن الفقهاء من إذا عَلِمَ عمل.

وقال أيضًا: ليتنى لم أكن علمت من ذا العلم شيئًا.

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٠٤.

قال الذهبى: لأنه حجة على العالم، فينبغى أن يعمل به، وينبه الجاهل، فيأمره وينهاه، ولأنه مظنة أن لا يخلص فيه، وأن يفتخر به، ويمارى به، لينال رئاسة ودنيا فانية.

وقال الشعبى: ياليتنى أنفلت من علمى كفافا، لا علىّ، ولا لى.

ورغم أن الشعبى كان عالمًا بالقرآن، وزعيمًا للقراء، إلا أنه كان يتحرج فى التفسير.

أخرج الطبرى بإسناده عن الشعبى أنه قال: «والله ما من آية إلا سألت عنها، ولكنها الرواية عن الله»(١).

وأخرج عنه أيضًا أنه قال: «ثلاث لا أقول فيهن حتى أموت: القرآن والروح والرأى(٢).

وقال ابن عطية: «وكان جلة من السلف كسعيد بن المسيب وعامر الشعبى وغيرهما يعظمون تفسير القرآن، ويتوقفون عنه تورعًا واحتياطًا لأنفسهم، مع إدراكهم وتقدمهم»(٣).

ولذلك فليس عجبًا أن نراه ينكر على من يفسر القرآن وهو ليس أهلاً لذلك.

فقد كان يمر بأبى صالح باذان فيأخذ بأذنه فيعركها ويقول: «تفسر القرآن وأنت لا تقرأ القرآن!!»(٤).

ومر على السدى وهو يفسر فقال: لأن يضرب على إستك بالطبل خير لك من مجلسك هذا»(٥).

توفى رحمه الله سنة أربع ومائة. وقيل غير ذلك.

(١ , ٢) تفسير الطبرى: ٢٨/١.   (٣) المحرر الوجيز: ٤١/١.

(٤) تفسير الطبرى: ١/ ٣٠، وسير أعلام النبلاء: ٣٠٨/٤.

(٥) تفسير الطبرى: ٣٠/١.

٩ - الحسن البصرى[1]

هو الحسن بن أبى الحسن يسار، أبـو سعيد، مولى زيد بن ثابت، وكانت أمه مولاة لأم سلمة زوجة رسول الله ﷺ.

ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر.

اشتهر رحمه الله بالورع والزهد.

قال إبراهيم بن عيسى اليشكرى: ما رأيت أحدًا أطول حزنًا من الحسن، ما رأيته إلا حسبته حديث عهد بمصيبة.

وقال خالد بن صفوان: لقيت مَسْلَمة بن عبد الملك فقال: يا خالد: أخبرنى عن حسن أهل البصرة، قلت: أصلحك الله، أخبرك عنه بعلم، أنا جاره إلى جنبه، وجليسه فى مجلسه، وأعلم مِنْ قِبَلى به، أشبه الناس سريرة بعلانية، وأشبهه قولاً بفعل، إن قعد على أمر قام به، وإن قام على أمر قعد عليه، وإن أمر بأمر كان أعمل الناس به، وإن نهى عن شئ كان أترك الناس له، رأيته مستغنيًا عن الناس ورأيت الناس محتاجين إليه.

قال: حسبك، كيف يضل قوم هذا فيهم.

وكان الحسن يحلف بالله قائلاً: ما أَعز أحد الدرهم إلا أذله الله.

وكان شديدًا شجاعًا، فكان المهلب إذا قاتل المشركين يقدمه.

أما عن علمه ووعظه، وفقهه بكتاب الله، فلا تسل.

ولذلك كثرت أقوال العلماء فى الثناء عليه.

عن أنس بن مالك قال: سلوا الحسن فإنه حفظ ونسينا.

وقال معتمر بن سليمان: كان أبى يقول: الحسن شيخ أهل

---

(١) انظر فى ترجمته: طبقات ابن سعد: ٧/١٥٦، وسير أعلام النبلاء: ٤/٥٦٣. وفيات الأعيان: ٢/٦٩، تذكرة الحفاظ: ١/٦٦، شذرات الذهب: ١/١٣٦.

البصرة.

وقال العوام بن حوشب: ما أشبه الحسن إلا بنبى.

وقال مطر الوراق: لما ظهر الحسن جاء كأنما كان فى الآخرة، فهو يخبر عما عاين.

وقال الأشعث: ما لقيت أحدًا بعد الحسن إلا صغر فى عينى.

وقال عطاء لحجاج بن أرطأة: عليك بذاك - أى بالحسن - ذاك إمام ضخم يقتدى به.

وعن الربيع بن أنس قال: اختلفت إلى الحسن عشر سنين أو ما شاء الله، فليس من يوم إلا أسمع منه ما لم أسمع قبل ذلك.

وقال أيوب: كان الحسن يتكلم بكلام كأنه الدر، فتكلم قوم من بعده بكلام يخرج من أفواههم كأنه القئ.

ولأبى سعيد بن الأعرابى فى كتابه «طبقات النساك»(١) كلام جامع فى مكانة الحسن البصرى العلمية.

يقول ابن الأعرابى: «كان عامة مَنْ ذكرنا من النساك يأتون الحسن، ويسمعون كلامه، ويذعنون له بالفقه، فى هذه المعانى خاصة وكان له مجلس خاص فى منزله، لا يكاد يتكلم فيه إلا فى معانى الزهد والنسك وعلوم الباطن، فإن سأله إنسان غيرها تبرم به وقال: إنما خلونا مع إخواننا نتذاكر.

فأما حلقته فى المسجد فكان يمر فيها الحديث والفقه وعلم القرآن واللغة، وسائر العلوم.

وكان ربما يسأل عن التصوف فيجيب، وكان منهم من يصحبه للحديث، ومنهم من يصحبه للقرآن والبيان ومنهم من يصحبه للبلاغة،

---

(١) كما نقل عنه الذهبى فى سير الأعلام: ٤/ ٥٧٩.

ومنهم من يصحبه للإخلاص وعلم الخصوص.

ورغم أن بشرة الحسن كانت شديدة السواد كما قال الشعبى: «ما رأيت الذى كان أسود من الحسن» إلا أن طاعته لله عز وجل، وتقربه إليه أضفى على بشرته وسامة وجمالاً.

قال ابن سعد فى طبقاته:

«كان الحسن رحمه الله جامعًا، عالمًا، رفيعًا فقيهًا، ثقة، حجة، مأمونًا، عابدًا، ناسكًا، كثير العلم، فصيحًا جميلاً وسيمًا»(١).

وقال الذهبى: «قلت: كان رجلاً تام الشكل، مليح الصورة، بهيًا، وكان من الشجعان الموصوفين»(٢).

ومما هو جدير بالذكر هنا أن بعض الناس كان يعيبه بالقدر.

ولكن الصحيح عنه أنه كان يقول بإثبات القدر، ويكذب من يكفر به.

قال سليمان التَّيْمى: رجع الحسن عن قوله فى القدر.

وقال حماد بن سلمة عن حميد: قرأت القرآن كله على الحسن ففسره لى أجمع على الإثبات.

وروى ابن عون عن الحسن أنه قال: من كذب بالقدر فقد كفر(٣).

قال أبو سعيد بن الأعرابى:

«كان يجلس إلى الحسن طائفة من هؤلاء فيتكلم فى الخصوص، حتى نسبته القدرية إلى الجبر، وتكلم فى الاكتساب حتى نسبته السنة إلى القدر كل ذلك لافتنانه، وتفاوت الناس عنده، وتفاوتهم فى الأخذ عنه، وهو برئ من القدر ومن كل بدعة.

---

(١) طبقات ابن سعد: ٧/ ١٥٧، ١٥٨.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٥٧٢.

(٣) المصدر السابق: ٤/ ٥٨١.

وإلى جانب علمه الغزير، وورعه وزهده كان ثقة عدلاً، عند أهل الحديث.

لذا فقد أخرج له أصحاب الكتب الستة.

توفى رحمه الله سنة عشر ومائة.

وكانت جنازته مشهورة، صلوا عليه عقيب الجمعة بالبصرة فى أول رجب.

شيعه الخلق، وازدحموا عليه، حتى إن صلاة العصر لم تقم فى الجامع.

يروى أنه أغمى عليه ثم أفاق إفاقة فقال: لقد نبهتمونى من جنات وعيون، ومقام كريم.

* * *

١٠ - قتادة [(١)]

هو قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز، أبو الخطاب السَّدُوسى البصرى الضرير الأكمه.

قال عنه الذهبى: قدوة المفسرين والمحدثين، حافظ العصر، من أوعية العلم، وممن يضرب به المثل فى قوة الحفظ.

قال عن نفسه: «ما سمعت شيئًا إلا وحفظته».

وقال أيضًا: «تكرير الحديث فى المجلس يذهب نوره، وما قلت لأحد قط: أعد علىَّ».

وقال أيضًا: «ما سمعت أذناى شيئًا قط إلا وعاه قلبى.

ولقد جاءت شهادات العلماء تترا لقتادة، لتؤكد على تلك القدرة النادرة لحفظه، وسيلان ذهنه.

قال معمر: أقام قتادة عند سعيد بن المسيب ثمانية أيام، فقال له فى اليوم الثالث: ارتحل يا أعمى، فقد أنزفتنى.

وقال سعيد بن المسيب: ما أتانى عراقى أحفظ من قتادة.

وقال محمد بن سيرين: قتادة أحفظ الناس، أو من أحفظ الناس.

وقال بكر المُزْنى: من سره أن ينظر إلى أحفظ مَنْ أدركنا فلينظر إلى قتادة.

وجاء رجل إلى ابن سيرين، فقال: رأيت كأن حمامة التقطت لؤلؤة فقذفتها سواء، قال: ذاك قتادة، ما رأيت أحفظ منه.

وقال الإمام أحمد: كان قتادة أحفظ أهل البصرة، لا يسمع شيئًا إلا حفظه، قرئ عليه صحيفة جابر مرة واحدة فحفظها.

---

(١) انظر فى ترجمته: طبقات ابن سعد: ٧/٢٢٩، وفيات الأعيان: ٤/٨٥، سير أعلام النبلاء: ٥/٢٦٩، طبقات القراء: ٢/٢٥.

وكان لهذه الحافظة القوية عند قتادة أبلغ الأثر فى تبوئه المنزلة العالية فى العلم، حتى شهد له الجميع بذلك.

قيل للزهرى: أقتادة أعلم عندكم أم مكحول؟ قال: لا بل قتادة، ما كان عند مكحول إلا شئ يسير.

وقال مطر الوراق: «مازال قتادة متعلمًا حتى مات».

وقال أيضًا: «كان قتادة عبد العلم».

وقال سعيد بن المسيب لقتادة: «ما كنت أظن أن الله خلق مثلك.

وقال أحمد بن حنبل: كان قتادة عالمًا بالتفسير، وباختلاف العلماء، ثم وصفه بالفقه والحفظ، وأطنب فى ذكره، وقال: قلما تجد من يتقدمه.

وقال سفيان الثورى: «وهل كان فى الدنيا مثل قتادة؟».

وقال الذهبى: «وقد كان قتادة أيضًا رأسًا فى العربية والغريب وأيام العرب، وأنسابها، حتى قال فيه أبو عمرو بن العلاء: كان قتادة من أنسب الناس.

ونقل القِفطى فى تاريخه أن الرجلين من بنى أمية كانا يختلفان فى البيت من الشعر، فيبردان بريدًا إلى العراق يسألان قتادة عنه»[1].

ومع هذا العلم الجم لقتادة إلا أنه كان يتحرى الدقة فيما يقول، ولا يتحدث إلا بما غلب على ظنه أنه حق.

قال أبو هلال: سألت قتادة عن مسألة، فقال: لا أدرى، فقلت: قل فيها برأيك، قال: ما قلت برأى منذ أربعين سنة، وكان يومئذ له نحو من خمسين سنة.

قال الذهبى معقبًا: فدل على أنه ما قال فى العلم شيئًا برأيه.

---

(١) الأقوال السابقة ومَّا بعدها فى سير الأعلام: ٥/٢٦٩، وما بعدها.

وقال أبو عوانة: سمعت قتادة يقول: ما أفتيت برأى منذ ثلاثين سنة.

من أجل هذا بلغ قتادة المرتبة السامية بين أقرانه، بحيث كان كما قال عنه الذهبى: حافظ عصره وقدوة المفسرين والمحدثين.

إلا أنه مما يعكر عليه رحمه الله، خوضه فى القدر، وتكلمه فيه بما يجافى الصواب، وما يتنافى مع معتقد أهل السنة والجماعة.

قال حنظلة بن أبى سفيان: كنت أرى طاووسًا إذا أتاه قتادة يفر، قال: وكان قتادة يتهم بالقدر.

وقال وكيع: كان سعيد بن أبى عروبة وهشام الدستوائى وغيرهما يقولون: قال قتادة: كل شئ بالقدر إلا المعاصى.

وقال ابن شوذب: ما كان قتادة لا يرضى حتى يصيح به صياحًا، يعنى القدر.

وينسب إليه الذهبى قوله بالقدر، ويسأل الله له المغفرة نظرًا لحسن نيته فى ذلك، فيقول:

«وكان يرى القدر، نسأل الله العفو، ومع هذا فما توقف أحد فى صدقه وعدالته وحفظه، ولعل الله يعذر أمثاله، ممن تلبس ببدعة، يريد بها تعظيم البارى وتنزيهه، وبذل وسعه، والله حكم عدل لطيف بعباده، ولا يسأل عما يفعل.

ثم إن الكبير من أئمة العلم إذا كثر صوابه وعلم تحريه للحق، واتسع علمه، وظهر ذكاؤه وعرف صلاحه وورعه واتباعه يغفر له زلله، ولا نضلله ونطرحه، وننسى محاسنه، نعم، ولا نقتدى به فى بدعته وخطئه، ونرجو له التوبة من ذلك»[1].

---

(١) سير الأعلام: جـ٥/ ٢٧١.

وقال الذهبي في موضع آخر عنه:

«قد اعتذرنا عنه وعن أمثاله، فإن الله عذرهم فياحبذا، وإن هو عذبهم فإن الله لا يظلم الناس شيئًا، ألا له الخلق والأمر»[١].

ورغم ما قيل عنه في القدر، فإن هذا لا يحط من قدرته العلمية، أو من عدالته، وثقة العلماء وأصحاب السنة فيه.

ولذلك وجدنا حديثه في أعلى كتب السنة، كما في صحيحي البخاري ومسلم.

قال الذهبي: «وهو حجة بالإجماع، إذا تبين السماع، فإنه مدلس معروف بذلك».

أي إذا صرح بالسماع فحديثه حجة، وإذا عنعن فهو مدلس.

توفي رحمه الله سنة سبع عشرة ومائة[٢].

* * *

---

(١) المصدر السابق: ٥/ ٢٧٧.

(٢) المصدر السابق: ٥/ ٢٧١.

المبحث الثالث

مدرسـة المدينـة

ومؤسسها وأستاذها أبى بن كعب رضى الله عنه.

ومن أبرز تلاميذها:

١ - أبو العالية(١)

هو رُفَيع بن مِهْران، الرياحى، البصرى، أحد الأعلام. أدرك زمان النبى ﷺ وهو شاب، وأسلم فى خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه، ودخل عليه.

سمع من عمر وعلى، وأبىّ، وأبى ذر، وابن مسعود، وعائشة وأبى موسى، وأبى أيوب، وابن عباس، وزيد بن ثابت وغيرهم..

حفظ القرآن وقرأه على أبى بن كعب، وتصدر لإفادة العلم، وبَعُد صيته.

قرأ عليه أبو عمرو بن العلاء فيما قيل، وماذاك ببعيد، فإنه تميمى، وكان معه ببلده، وأدرك من حياة أبى العالية نيفًا وعشرين سنة.

قال أبو عمرو الدانى: أخذ أبو العالية القراءة عرضًا عن أبىّ وزيد، وابن عباس، ويقال قرأ على عمر.

وروى عنه القراءة عرضًا شعيب بن الحباب وآخرون.

قال قتادة: قال أبو العالية: قرأت القرآن بعد وفاة نبيكم ﷺ بعشر سنين.

وقال أيضًا: تعلمت الكتابة والقرآن فما شعر بى أهلى، ولا رئى

---

(١) هذه الترجمة مأخوذة من سير أعلام النبلاء للذهبى: ٢٠٧/٤، وما بعدها، والإتقان للسيوطى: ١٨٩/٢.

فى ثوبى مداد قط.

عن حفصة بنت سيرين قالت: قال لى أبو العالية: قرأت القرآن على عمر رضى الله عنه ثلاث مرار.

قال أبو العالية: كان ابن عباس يرفعنى على السرير، وقريش أسفل من السرير، فتغامزت بى قريش، فقال ابن عباس: هكذا العلم، يزيد الشريف شرفًا، ويجلس المملوك على الأسرة.

قلت - أى الذهبى -: هذا كان سرير دار الإمرة، لما كان ابن عباس متوليها لعلى رضى الله عنهما.

قال أبو بكر بن أبى داود: وليس أحد من الصحابة أعلم بالقرآن من أبى العالية، وبعده سعيد بن جبير.

حدث أبو العالية عن نفسه فقال: كنت أرحل إلى الرجل مسيرة أيام لأسمع منه، فأتفقد صلاته، فإن وجدته يحسنها أقمت عليه، وإن أجده يضيعها رحلت، ولم أسمع منه، وقلت: هو لما سواها أضيع.

وقال أيضًا: لما كان زمان علىّ ومعاوية، وإنى لشاب القتال أحب إلىّ من الطعام الطيب، فتجهزت بجهاز حسن حتى أتيتهم، فإذا صفان ما يرى طرفاهما إذا كبر هؤلاء كبر هؤلاء، وإذا هلل هؤلاء هلل هؤلاء، فراجعت نفسى فقلت: أى الفريقين أنزّله كافرًا؟ ومن أكرهنى على هذا؟ قال: فما أمسيت حتى رجعت وتركتهم.

قال قتيبة: حدثنا جرير عن مغيرة قال: أول من أذن بما وراء النهر أبو العالية الرياحى.

وتروى عن أبى بن كعب نسخة كبيرة فى التفسير رواها عنه أبو

العاليـة، أخرج منها كثـير من العلمـاء كالإمام أحمد فى مـسنده وابن جرير وابن أبى حاتم فى تفسيرهما، والحاكم فى مستدركه.

قال السيوطى فى الإتقان[١]:

«وأما أبى بن كعب فعنه نسخة كبيرة يرويها أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عنه، وهذا إسناد صحيح».

❋ ❋ ❋

---

(١) الإتقان: ٢/ ١٨٩جـ

٢ - سعيد بن المسيب[1]

هو سعيد بن حَزْن بن أبى وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران.

ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وقيل لأربع.

قال عن نفسه: إن كنت لأسير الليالى والأيام فى طلب الحديث الواحد.

وقال أيضًا: ما بقى أحد أعلم بكل قضاء قضاه رسول الله ﷺ ولا أبو بكر وعمر منى.

جالس سعد بن أبى وقاص وابن عباس وابن عمر، ودخل على أزواج النبى وعائشة وأم سلمة، وكان قد سمع من عثمان بن عفان وعلى وصهيب ومحمد بن مَسْلَمة، وجل روايته المسندة عن أبى هريرة، وكان زوج ابنته، وسمع من أصحاب عمر وعثمان.

قال يحيى بن سعيد: كان يقال ابن المسيب راوية عمر.

وقال قدامة بن موسى الجمحى: كان سعيد بن المسيب يفتى وأصحاب رسول الله ﷺ أحياء.

وقال محمد بن يحيى بن حبان: كان رأس مَنْ بالمدينة فى دهره المقدم عليهم فى الفتوى سعيد بن المسيب، ويقال: فقيه الفقهاء.

وقال مكحول: سعيد بن المسيب عالم العلماء.

قال سلام: يقول عمران: والله ما أراه مر على أذنه شئ قط إلا وعاه قلبه. يعنى سعيد بن المسيب.

أخرج البخارى بإسناده أن النبى ﷺ قال لأبى سعيد: ما

---

(١) انظر ترجمته فى الطبقات الكبرى لابن سعد: ١١٩/٥ وما بعدها، وسير أعلام النبلاء للذهبى: ٢١٧/٤، وما بعدها.

اسمك؟ قال: حَزْن، قال: أنت سهل، فقال: لا أغير اسمًا سمانيه أبى»، قال سعيد: فما زالت تلك الحزُونة فينا بعد»(١).

كان رحمه الله مبالغًا فى الحفظ على صلاة الجماعة، حدث عن نفسه فى ذلك فقال: ما فاتتنى الصلاة فى جماعة منذ أربعين سنة.

وقال أيضًا: ما أذن المؤذن منذ ثلاثين سنة إلا وأنا فى المسجد.

قال الذهبى: إسناده ثابت.

وكان رحمه الله يسرد الصوم، وكان كثير الحج.

قال عن نفسه: حججت أربعين حجة.

وكان رحمه الله عزيز النفس، لا يخشى فى الله لومة لائم.

فقد كان له فى بيت المال بضعة وثلاثون ألفًا، وكان يدعى إليها فيأبى ويقول: لا حاجة لى فيها حتى يحكم الله بينى وبين بنى مروان.

وقيل له: ما شأن الحجاج لا يبعث إليك، ولا يحركك ولا يؤذيك قال: والله ما أدرى، إلا أنه دخل ذات يوم مع أبيه المسجد، فصلى صلاة لا يتم ركوعها ولا سجودها، فأخذت كفًا من حصى فحصبته بها، زعم أن الحجاج قال: مازلت بعد أحسن الصلاة.

ودعى سعيد بن المسيب للوليد وسليمان بعد أبيهما فقال: لا أبايع اثنين ما اختلف الليل والنهار، فقيل: ادخل واخرج من الباب الآخر، قال: والله لا يقتدى بى أحد من الناس، فجلده مائة وألبسه المسُوح».

أبى تزويج ابنته لابن عبد الملك، الوليد، وأوذى من عبد الملك

---

(٢) صحيح البخارى، كتاب الأدب، باب اسم الحزن، والحزن ما غلظ من الأرض وهو ضد السهل ويستعمل فى الخلق، فيقال فلان حزون أى فى خلقه قساوة وغلظة.

بسبب ذلك، وزوجها لكثير بن أبى وداعة الذى فقد امرأته على درهمين أو ثلاثة لم يكن يملك غيرها.

وبعد أن دخل بها وجه إليه بعشرين ألف درهم.

وكان رحمه الله عالمًا بالتعبير، أخذه - كما قال ابن سعد فى طبقاته - عن أسماء بنت أبى بكر، التى أخذته عن أبيها الصديق رضى الله عنهم أجمعين.

وكان يحب أن يسمى ولده بأسماء الأنبياء.

وكان رحمه الله مع غزارة علمه بالتفسير يتحرج فيه ويقول: لا أقول فى القرآن شيئًا.

توفى رحمه الله سنة أربع وتسعين، وكان يقال لهذه السنة سنة الفقهاء، لكثرة من مات منهم فيها.

❋ ❋ ❋

٣ - محمد بن كعب القرظى [١]

هو محمد بن كعب بن سُليم، أبو حمزة، وقيل أبو عبد الله القرظى المدنى من حلفاء الأوس، وكان أبوه كعب من سبى بنى قريظة سكن الكوفة، ثم المدينة.

حدث عن أبى أيوب الأنصارى وأبى هريرة ومعاوية، وزيد بن أرقم وابن عباس وابن عمر وغيرهم.

روى عنه أخوه عثمان، ويزيد بن الهاد، وأبو جعفر الخَطْمى، وعاصم بن كليب، وخلق كثير.

قال عنه الذهبى: كان من أئمة التفسير.

وقال العجلى: مدنى تابعى، رجل صالح، عالم بالقرآن.

وقال عنه عون بن عبد الله: ما رأيت أحدًا أعلم بتأويل القرآن من القرظى.

وقيل كان له أملاك بالمدينة وحصل مالاً مرة، فقيل له: ادخر لولدك، قال: لا، ولكن أدخره لنفسى عند ربى، وأدخر ربى لولدى، وقيل إنه مجاب الدعوة، كبير القدر.

وكان القرظى ثقة عادلاً، ولذلك أخرج له أصحاب الكتب الستة.

قال عنه ابن سعد: كان ثقة عالمًا، كثير الحديث ورعًا.

وكانت نهايته حياته فى مسجد الرَّبذة [٢]، حينما كان يجلس مع أصحاب له من أعلم الناس بالتفسير، فأصابتهم زلزلة، فسقط عليهم المسجد، فماتوا جميعًا تحته.

وكان ذلك عام ثمانى عشرة ومائة وقيل تسع عشرة، وقيل سبع عشرة.

---

(١) انظر هذه الترجمة فى سير أعلام النبلاء للذهبى: ٥/ ٦٥. ومنا بعدها.

(٢) قرية من قرى المدينة على ثلاثة أيام. قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز.

٤ - زيد بن أسلم(١)

هو الإمام الحجة، القدوة، أبو عبد الله العدوى العُمَرِى المدنى الفقيه.

كان له حلقة للعلم فى مسجد رسول الله ﷺ.

قال أبو حازم الأعرج: لقد رأيتنا فى مجلس زيد بن أسلم أربعين فقيهًا، أدنى خصلة فينا التواسى بما فى أيدينا، وما رأيت فى مجلسه متماريَيْن، ولا متنازعين فى حديث لا ينفعنا.

حدث عن والده أسلم مولى عمر، وعن عبد الله بن عمر، وجابر ابن عبد الله وغيرهم.

وحدث عنه مالك بن أنس، وسفيان الثورى، والأوزاعى وسفيان ابن عيينة، وخلق كثير.

وكان رحمه الله ثقة عدلاً، ولا أدل على ذلك من رواية أصحاب الكتب الستة له.

كما شهد له العلماء بالفضل فى العلم والعمل.

كان أبو حازم يقول: لا أرانى الله يوم زيد بن أسلم، إنه لم يبق أحد أرضى لدينى ونفسى منه، فأتاه نعى زيد بن أسلم، فَعَقِر فما شهده.

وقال البخارى: كان على بن الحسين يجلس إلى زيد بن أسلم، فكلم فى ذلك، فقال: إنما يجلس الرجل إلى من ينفعه فى دينه.

قال الذهبى: قلت: لزيد تفسير رواه عنه ابنه عبد الرحمن وكان من العلماء العاملين.

أرخ ابنه وفاته فى ذى الحجة سنة ست وثلاثين ومائة.

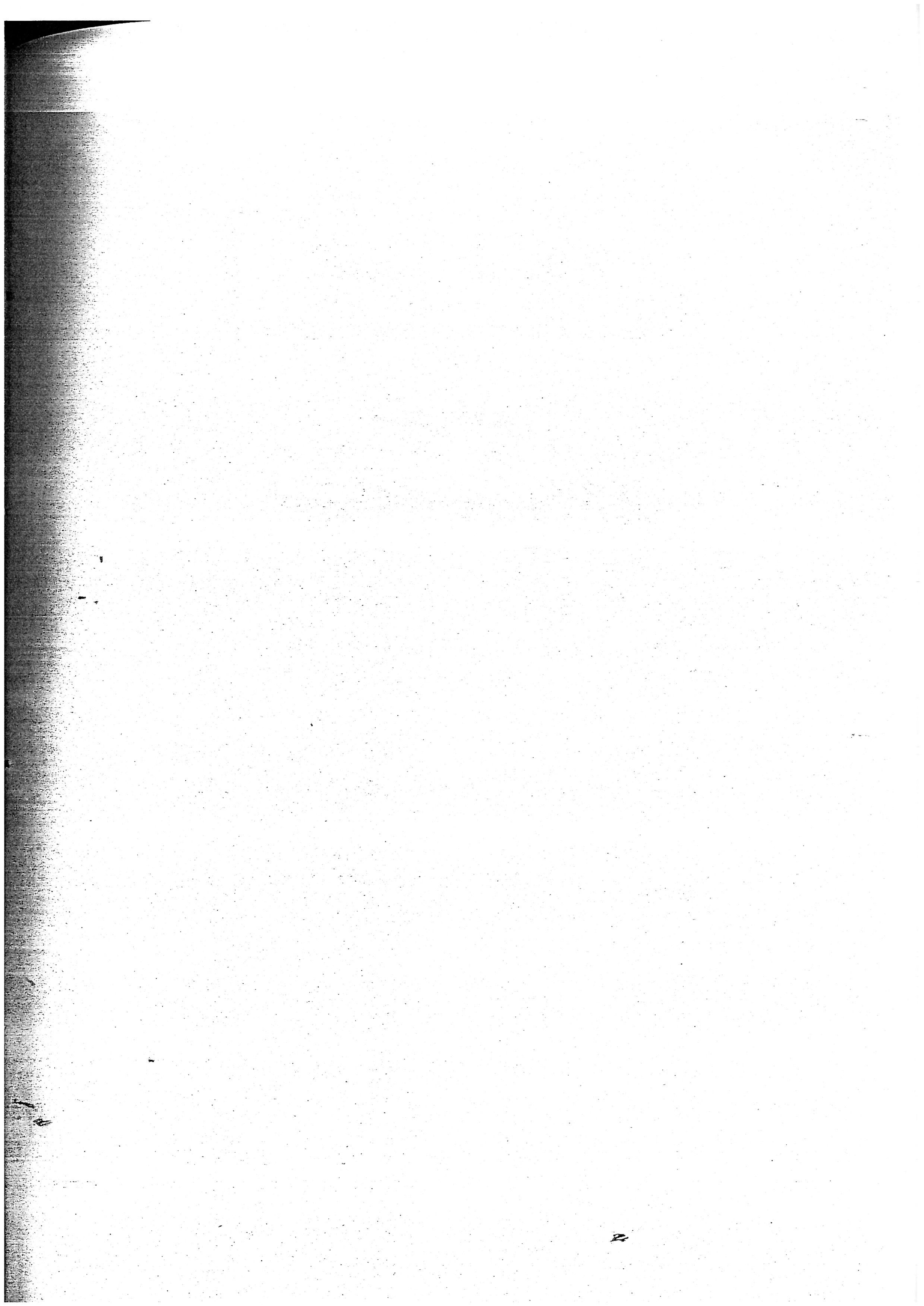
---

(١) انظر فى ترجمته: سير أعلام النبلاء: ٥/٣١٦، وحلية الأولياء: ٣/٢٢١، ٢٢٩، تذكرة الحفاظ: ١/١٣٢، وتهذيب التهذيب: ٣/٣٩٥.

الفصل السابع

أخطر الأمور

فـى التفسير بالمأثور



أخطر الأمور فى التفسير بالمأثور

وإذا كان التفسير بالمأثور مقدمًا على التفسير بالرأى، فإن هناك عدة أمور فى منتهى الخطورة على التفسير بالمأثور، يجب على المفسرين أخذ الحذر - كل الحذر - منها، حتى لا يوقعوا الناس فى شراكها، ولا يكتوون بأضرارها.

وأبرز هذه الأمور ثلاثة:

١ - الأحاديث الموضوعة.

٢ - الإسرائيليات.

٣ - حذف الأسانيد.

ويحسن بنا الآن أن نقف مع كل منها على حدة، وقفة متأنية، لندرك تصورها، ومدى خطورتها، وكيفية النجاة من أضرارها، على النحو التالى:

* * *

المبحث الأول

الأحاديث الموضوعة

يعتبر الحديث الموضوع أخطر شئ على الإطلاق فى مجال التفسير بالمأثور نظرًا لأنه ينسب إلى رسول الله ﷺ فيعتقد العامة صدقه فيؤمنون به ويعملون بمقتضاه.

ونحن فى هذا المقام نتناوله من حيث: تعريفه، ومن حيث أسباب وضعه، ومن حيث القرائن التى بها يعرف أنه موضوع، ومن حيث حكم روايته، فإلى الحديث عن هذه النواحى.

أولاً: تعريفه

عرفه الإمام النووى بقوله: «الموضوع هو المختلق المصنوع، وشر أنواع الضعيف»(١).

وعرفه صاحب الباعث الحثيث بقوله: «الخبر الموضوع هو المختلق المصنوع، وهو الذى نسبه الكذابون المفترون إلى رسول الله ﷺ وهو شر أنواع الرواية»(٢).

فالحديث الموضوع - إذًا - هو ذلك الذى اختلقه كذاب أشر، وتقوله على رسول الله ﷺ زورًا وبهتانًا، لفقدان رادع يردعه، أو ضمير يؤنبه ويمنعه.

ولما كان حديث رسول الله ﷺ شريعة مستمرة إلى يوم القيامة بها يتعبد الناس، وبها يعرف الحق فيتبع، ويعلم الباطل فيجتنب فقد كان من الطبعى أن يكون الكذب عليه ﷺ من الشناعة بمكان لا

---

(١) تدريب الراوى: ١/ ٢٧٤.

(٢) الباعث الحثيث: ٦٧.

يدانيه أى كذب على الخلق.

وفى هذا المعنى يقول رسول الله ﷺ :

«إن كذبا علىَّ ليس ككذب على أحد»[١].

ومن هنا جاءت الأحاديث تترا ناهية عن الكذب على رسول الله ﷺ :

فقد قال عليه الصلاة والسلام:

«من حدث عنى بحديث يُرَى أنه كذب فهو أحد الكاذبين»[٢].

وقال أيضًا:

«لا تكذبوا علىَّ؛ فإنه من يكذب علىّ يلج النار»[٣].

وقال أيضًا:

«من تعمد علىّ كذبًا فليتبوأ مقعده من النار»[٤].

وغير ذلك من الأحاديث الكثير والكثير.

وبناء على ذلك عُدَّ الكذب على رسول الله ﷺ من أكبر الكبائر، من أعظم التقولات والمفتريات، حتى بالغ بعضهم فى ذلك، وجزم بكفر من كذب على رسول الله ﷺ كما نقل السيوطى فى تدريب الرواى عن الشيخ أبى محمد الجوينى[٥]، وإن كان البعض قد تأول الروايات، ووجه الأقوال بأن ذلك فى حق من تعمد الكذب، أو أن ذلك على سبيل المبالغة والزجر عن الكذب والوضع عليه ﷺ .

---

(١) صحيح مسلم، المقدمة: ١/ ٥٧ - ط. الشعب.

(٢) صحيح مسلم، المقدمة: ١/ ٥١ - ط. الشعب.

(٣) المصدر السابق: ١/ ٥٣.

(٤) المصدر السابق: ١/ ٥٤.

(٥) تدريب الرواى ١/ ٢٨٤.

أسباب الوضع

من المعلوم لدى دارسى علمى التفسير والحديث أن هذين العلمين كانا فى ابتداء الأمر علمًا واحدًا؛ إذ كان التفسير جزءًا من الحديث، وبابًا من أبوابه، ولذلك، فإن الدوافع والأسباب التى أدت إلى الوضع والكذب فى الحديث هى ذاتها التى أدت إلى الوضع فى التفسير.

وإذا بحثنا عن أسباب الوضع، فإننا سنجدها متنوعة، فمنها ما كان بدافع العقيدة، ومنها ما كان بدافع السياسة، إلى غير ذلك، كما يتضح مما يأتى:

أولاً: الزندقة:

فبعد أن أظهر الله نوره، وشاع أمر الإسلام فى أرجاء المعمورة، وتطاير صدق خبره، وتناقلت جميع الأمم حسن ذكره وعظيم أمره، وأصبحت للإسلام دولة، وللمسلمين مهابة وعزة وقوة، هال ذلك جماعة ممن خبثت نياتهم، ولم تصف أرواحهم، فاعتنقوا الإسلام ظاهرًا وهم له كارهون ولنبيه مكذبون، ونطقت ألسنتهم بالشهادتين وقلوبهم على الكفر مطوية، إذ لم يتغلغل الإيمان فيها، بل أشربوا حب النفاق، حتى سرى فى دمائهم، فباتوا يكيدون الإسلام ويضمرون الحقد والشر للمسلمين.

فنظروا إلى أقدس مقدسات المسلمين، إلى القرآن الكريم فعجزوا عن النيل منه، مصداقًا وتحقيقًا للعهد الذى أخذه الله على نفسه بقوله: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[1].

فلما لم ينالوا مأربهم من النص القرآنى مباشرة تصوروا أنهم

---

(١) سورة الحجر: آية٩.

واجدوه فى التقول على نبى الإسلام، محمد بن عبد الله ﷺ، ومن هنا فقد راحوا يدسون سمومهم، ويروجون أباطيلهم، يحللون بها الحرام، ويحرمون بها الحلال، ويدعون إلى مذاهب الكفر والإلحاد.

يقول الحافظ السيوطى - رحمه الله -: «روى العقيلى بسنده إلى حماد بن زيد، قال: «وضعت الزنادقة على رسول الله ﷺ أربعة عشر ألف حديث!!، منهم عبد الكريم بن أبى العوجاء، الذى قتل وصلب فى زمن المهدى.

قال ابن عدى: «لما أخذ ليضرب عنقه قال: «وضعت فيكم أربعة آلاف حديث، أحرم فيها الحلال، وأحلل الحرام»، وكبيان بن سمعان النهدى، الذى قتله خالد القسرى وأحرقه بالنار.

قال الحاكم: «وكمحمد بن سعيد الشامى، المصلوب فى الزندقة فقد روى عن حميد عن أنس، مرفوعًا: «أنا خاتم النبيين لا نبى بعدى، إلا أن يشاء الله». وضع هذا الاستثناء لما كان يدعو إليه من الإلحاد، والزندقة، والدعوة إلى التنبى»[1].

ولم يقف أمر الوضاعين عند هذا الحد، فلقد بلغ الكفر بأحدهم - وهو بيان بن سمعان - إلى الدرجة التى جعلته يدعى ألوهية على بن أبى طالب - رضى الله تعالى عنه -[2].

❊ ❊ ❊

---

(١) تدريب الراوى: ١/ ٢٨٤.

(١) الباعث الحثيث: ٧٠.

ثانيًا: مناصرة البدع والآراء، ومتابعة الضلالات والأهواء دون دليل من القرآن، أو حجة من السنة

ظل المسلمون فكرًا واحدًا، وجماعة قوية متحدة، لا يتحكم فيها هوى، ولا يتسلط عليها شيطان، إلى أن نجح أعداء الإسلام فى زرع أعظم فتنة، تمثلت فى قتل الخليفة الثالث، عثمان بن عفان - رضى الله عنه وأرضاه - وعلى أثرها وجدنا الآراء قد تشعبت، والمذاهب قد تعددت، فظهر على الساحة من اعتنق أفكارًا غريبة، وآراء دخيلة، ووجدنا فرقًا متعددة تظهر على مسرح تلك الفتنة، فظهرت الشيعة، والخوارج، والمعتزلة، والمرجئة، وغيرها، كل فرقة تدعى أنها - وحدها - على الحق اليقين، وأن غيرها يهيم فى ضلال مبين.

ونظرت كل فرقة إلى ظاهر النصوص من الكتاب أو السنة وحاولت - دونما كلل أو ملل - لَىّ عنق النص، حتى يشهد لمبادئها، ويتمشى مع أهوائها، أو على الأقل لا يعارض ادعاءاتها.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تجاوزوه - عامدين - إلى وضع الحديث، متقولينه على رسول الله ﷺ وهو منه ومنهم براء.

يروى ابن الجوزى بسنده، عن شيخ من الخوارج، تاب ورجع، وهو يقول: «إن هذه الأحاديث دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم؛ فإنا كنا إذا هوينا أمرًا صيرناه حديثًا»(١).

كما يروى بسنده إلى حماد بن سلمة، قال: «حدثنى شيخ لهم - يعنى الرافضة - قال: «كنا إذا اجتمعنا واستحسنا شيئًا جعلناه حديثًا».

وقال الحاكم: «كان محمد بن القاسم الطايكانى من رءوس المرجئة، وكان يضع الحديث على مذهبهم».

---

(١) الموضوعات لابن الجوزى: ١/٣٨، ٣٩.

ثم روى بسنده عن المحاملى قال: «سمعت أبا العيناء يقول: «أنا والجاحظ وضعنا حديث فَدَك، وأدخلناه على الشيوخ ببغداد فقبلوه، إلا ابن أبى شيبة العلوى، فإنه قال: «لا يشبه آخر هذا الحديث أوله، وأبى أن يقبله»(١).

وإذا كانت هذه الفرق المبتدعة قد وضعت كل هذه الأحاديث لخدمة أغراضها فإن علماء المسلمين أصحاب العقيدة السليمة قد تنبهوا لها منذ مولدها وكانوا لها بالمرصاد.

روى الإمام مسلم فى مقدمة صحيحه عن ابن سيرين قال:

«لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا سموا لنا رجالكم فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم»(٢).

* * *

ثالثًا: التعصب الممقوت للمذاهب الفقهية

بعض الجهلة ممن أعماهم التعصب المذموم لمذهب فقهى قلدوه أساءوا إلى أئمتهم - رضى الله عنهم - أكثر مما أحسنوا إليهم، ولم يتأدبوا بأدب المسلم إذا خالف غيره فى الرأى، لاسيما وإن كان هذا الرأى قد صدر بعد بذل الطاقة، واستفراغ الجهد، ولم يأخذ هؤلاء الجهلة بالمبدأ الذى اتفق عليه هؤلاء الأئمة، ونادى به كل صاحب مذهب، وهو «إذا صح الحديث فهو مذهبى».

فراح هؤلاء يشنعون على من خالفهم فى المذهب، وغايرهم فى

---

(١) تدريب الرواى: ١/ ٢٨٥.

(٢) المقدمة: ١/ ٧١ - ط. الشعب.

الفروع الفقهية، ولم يـراعوا فى ذلك إلاً ولا ذمة، حتى ولو أدى ذلك إلى الكذب على رسول الله ﷺ.

ومن هؤلاء من حدثنـا عنه السيوطى بقوله: «قيـل للمأمون بن أحمد الهروى: ألا ترى إلى الشافعى ومن تبعه بخراسان؟ فقال: حدثنا أحمد ابن عبـد الله، حدثنا عبيـد الله بن معدان الأزدى، عن أنس مـرفوعًا: يكون فى أمـتى رجل يقال له محـمد بن إدريس، أضر علـى أمتى من إبليس، ويكون فى أمتى رجل يقال له أبو حنيفة، هو سراج أمتى، هو سراج أمتى.

وقيل لمحمـد بن عكاشة الكـرمانى: «إن قومًا يـرفعون أيديـهم فى الركوع، وفـى الرفع منـه، فقال: «حدثـنا المسيـب بن واضح ثـنـا ابن المبارك، عن يونس ين يزيد، عن الزهرى، عن أنس مرفوعًا: «من رفع يديه فى الركوع فلا صلاة له»[١].

ومن هذه الأحاديث الموضوعة أيضًا حديث:

«يكون فى أمتى رجل يقال له النعمـان بن ثابت، يكنى أبا حنيفة، يحيى الله على يديه دينى وسنتى».

قال عنـه ابن الجوزى: «المتهم بوضـعه سليمان بن عيـسى قال أبو حاتم بن حبان: «كان كذابًا»، وقال ابن عدى: «يضع الحديث»[٢].

❊ ❊ ❊

---

(١) تدريب الراوى ١/ ٢٧٧، ٢٧٨.

(٢) الموضوعات، لابن الجوزى: ٢/ ٤٩.

رابعًا التقرب إلى الخلفاء واسترضاؤهم

فقد بلغ من بعض النفوس الضعيفة التى أحبت الدنيا وعشقت زينتها، ورغبت فى متاعها الزائل، وزخرفها الفانى أن وضعت الأحاديث، ورأت أن ذلك خير وسيلة للتزلف إلى الأمراء، والتقرب إلى الخلفاء، لما يوافق هواهم، ويساير رغباتهم.

مثال ذلك: ما ورد عن غياث بن إبراهيم، حيث وضع للمهدى فى حديث: «لا سبق إلا فى نصل، أو خف، أو حافر»[١] فزاد فيه: «أو جناح»!!، وكان المهدى إذ ذاك يلعب بالحمام، فتركها بعد ذلك، وأمر بذبحها، وقال: «أنا حملته على ذلك»!!!

وذكر أنه لما قام قال: «أشهد أن قفاك قفا كذاب».

وقد يحمل هذا النوع بعداً سياسيًا، كما حكى أبو عبيد الله وزير المهدى، قال:

«قال لى المهدى: «ألا ترى ما يقول لى مقاتل؟.. قال: «إن شئت وضعت لك أحاديث فى العباس». قلت: «لا حاجة لى فيها»[١].

⁂ ⁂ ⁂

خامسًا: الترغيب والترهيب، مع حسن الطوية وسلامة النية:

وذلك أن قومًا من العباد والزهاد رأوا الناس قد انصرفوا عن القرآن إلى دراسة المذاهب الفقهية، وغيرها، فأرادوا أن يصرفوهم إلى قراءة القرآن صرفًا، وإن كانت الوسيلة فى ذلك غير مشروعة، وتتمثل فى الكذب على رسول الله ﷺ.

---

(١) أخرجه أصحاب السنن الأربعة.

(٢) الموضوعات: جـ ١/ ٤٢، وتدريب الراوى: ١/ ٢٨٥، ٢٨٦، والباعث الحثيث: ٧١.

ولكن هذا العمل منهم مردود غير مقبول؛ لأن النصوص الشرعية فيها من الترغيب والترهيب ما يجعلنا فى غنى عن هذا الكذب على رسول الله ﷺ وإن كان الشعور نبيلاً، والقصد حسنًا؛ لأن هذا كأنه استدراك على الله تعالى، ويتنافى مع قوله عز وجل: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتى، ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾(١).

فهذه الآية وما شابهها من آيات متعددة، وأحاديث كثيرة تبطل وسيلتهم، وتفند حجتهم التى تتمثل فى قولهم: إنما نكذب لرسول الله ﷺ لا عليه، فهذا فيه من القدح أضعاف أضعاف ما فيه من المدح - إن كان - لو كانوا يعقلون!! ولذلك يصفهم الإمام النووى بقوله: «إنهم أعظم الوضاعين ضررًا؛ لكون الناس يثقون فيهم»(٢).

ويمثل السيوطى لهذا النوع بقوله:

«ومن أمثلة ما وضع حسبة ما رواه الحاكم بسنده إلى أبى عمار المروزى، أنه قيل لأبى عصمة، نوح بن أبى مريم من أين ذلك عن عكرمة عن ابن عباس، فى فضائل القرآن سورة سورة، وليس عند أصحاب عكرمة هذا؟

فقال: «إنى رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن، واشتغلوا بفقه أبى حنيفة، ومغازى ابن إسحق، فوضعت هذا الحديث حسبة!!».

وكان يقال لأبى عصمة «نوح الجامع»، قال ابن حبان: «جمع كل شئ إلا الصدق».

وروى ابن حبان فى الضعفاء، عن ابن مهدى قال:

«**قلت لميسرة بن عبد ربه:** «من أين جئت بهذه الأحاديث من قرأ

---

(١) سورة المائدة: آية ٣.

(٢) تدريب الراوى: ١/ ٢٨١، ٢٨٢.

كذا فله كذا؟».

قال: «وضعتها أرغب الناس»[١].

* * *

سادسًا: تفضيل بعض الشعوب أو البلدان أو ذمهما..
بدافع من التعصب المذموم:

فلقد ضل قوم بتعصبهم لحب بلد معين، أو كراهتهم لبلد آخر، وكان من نتيجة جهلهم وتعصبهم الأعمى أن وضعوا فى ذلك أحاديث، نسبوها زورًا وبهتانًا إلى رسول الله ﷺ.

ومن أمثلة ما جاء فى تفضيل بعض الشعوب:

حديث: «إن كلام الله حول العرش بالفارسية، وإن الله إذا أوحى أمرًا فيه لين أوحاه بالعربية».

قال عنه الشوكانى: «رواه ابن عدى، عن أبى أمامة مرفوعًا، وهو موضوع، قال ابن حبان: «هذا الحديث باطل، لا أصل له، انتهى، وكل ما ورد فى هذا المعنى فهو موضوع، وقد تعسف من زعم غير هذا»[٢].

حديث: «أربعة أبواب من أبواب الجنة مفتحة فى الدنيا أولها الإسكندرية، وعسقلان، وقزوين، وفضل جدة على هؤلاء كفضل بيت الله الحرام على سائر البيوت».

قال عنه الشوكانى: «رواه ابن حبان عن علىٍّ مرفوعًا، وفى إسناده عبد الملك بن هارون، وهو كذاب.

قال فى الميزان: «والسند ظلمة إليه، فما أدرى من افتعله»[٣].

---

(١) تدريب الراوى: ١/ ٢٨٢، ٢٨٣.
(٢) الفوائد المجموعة: ٣١٤.
(٣) المصدر السابق: ٤٢٩.

ومن الأحاديث التى جمعت بين تفضيل بعض البلدان وذم بلدان أخرى حديث:

«أربع مدائن من مدن الجنة، مكة، والمدينة، وبيت المقدس، ودمشق».

وأربع مدائن من مدن النار فى الدنيا، القسطنطينية، والطبرانية، وأنطاكية المحترقة، وصنعاء».

قال عنه ابن الجوزى: «هذا حديث لا أصل له، قال أحمد بن حنبل: «الوليد ليس بشئ» وقال يحيى: «كذاب».

وعن هذا الحديث يقول الشوكانى:

«رواه ابن عدى عن أبى هريرة مرفوعًا، وفى إسناده الوليد بن محمد الموقرى، وهو كذاب، قال ابن عدى: «هذا منكر، لا يرويه عن الزهرى غير الموقرى».

وقد رواه أيضًا ابن عساكر، من وجه آخر، قال عبد الله السقطى: ليس فيها صنعاء اليمن، وإنما هى صنعاء بأرض الروم، وذكر البلاذرى أن أنطاكية المحترقة بأرض الروم أحرقها العباس بن الوليد، انتهى، والحديث أورده ابن الجوزى فى الموضوعات، فأصاب»[1].

❊ ❊ ❊

سابعًا: حب الذكر والشهرة والسمعة بين الناس:

وفى هذا المجال كثيرًا ما يلجأ أحدهم إلى قلب سند الحديث حتى يستغرب وحينئذ يرغب الناس فى سماعه منه.

وهذا حدث لجماعة اشتهر منهم ابن أبى حية، وحماد النصيبى وبُهلول بن عبيد، وأصرم بن حوشب[2].

---

(١) الفوائد المجموعة ٤٢٨.   (٢) تدريب الراوى: ١/ ٢٨٦.

ويورد لنا ابن الجوزى مثالاً لذلك فيقول:

«روى مسلم بن الحجاج أن يحيى بن أكثم دخل مع أمير المؤمنين حمص فرأى كل من بها شبيه الثيران، فدخل شيخ على رأسه دية، وله جبة فأدناه، وقال: يا شيخ من أنت؟ قال: استغنيت عن جميع الناس بشيخى. قال: ومن لقى شيخك؟ قال الأوزاعى، قال الأوزاعى عمن؟ قال: عن مكحول، قال ومكحول عمن؟ قال: عن سفيان بن عيينة، قال: وسفيان عمن؟ قال: عن عائشة، فقال له يحيى: يا شيخ أراك تعلو إلى أسفل».

❊ ❊ ❊

ثامنًا: الارتزاق بذكر غرائب القصص وأعاجيب الروايات:

فقد استغل بعض القصاص ميول الفطرة إلى استماع ما كان غريبًا عن الطبائع، أو عجبًا لم تألفه الناس، فضربوا على هذا الوتر، مستخدمين فى ذلك أبشع الطرق!، ألا وهى الكذب على رسول الله ﷺ.

ولقد بلغت طريقتهم هذه من الوقاحة ما يعجز اللسان عن وصفه والقلم عن تسطيره، وبالمثال يتضح المقال:

روى ابن الجوزى فى الموضوعات بسنده إلى جعفر بن محمد الطيالسى قال: «صلى أحمد بن حنبل ويحيى بن معين فى مسجد الرصافة، فقام بين أيديهم قاص فقال:

«حدثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين قالا: حدثنا عبد الرزاق، عن معمر عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ:

«من قال لا إله إلا الله خلق الله من كل كلمة منها طيرًا، منقاره

---

(١) الموضوعات لابن الجوزى: ١/ ٤٣، ٤٤.

من ذهب وريشه من مرجان»، وأخذ فى قصة نحو عشرين ورقة، فجعل أحمد بن حنبل ينظر إلى يحيى بن معين، ويحيى ينظر إلى أحمد، فقال له: أنت حدثته بهذا؟ فقال: والله ما سمعت بهذا إلا الساعة!!، فلما فرغ من قصصه وأخذ القطيعات ثم قعد ينتظر بقيتها قال له يحيى بن معين بيده: تعال، فجاء متوهمًا النوال، فقال له يحيى: من حدثك بهذا الحديث؟ فقال: أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، فقال: أنا يحيى بن معين، وهذا أحمد بن حنبل، ما سمعنا بهذا قط فى حديث رسول الله ﷺ!!، فإن كان لابد والكذب فعلى غيرنا، فقال له: أنت يحيى بن معين؟ قال: نعم، قال: لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق، ما تحققته إلا الساعة، قال له يحيى: كيف علمت أنى أحمق؟ قال: كأن ليس فى الدنيا يحيى بن معين وأحمد بن حنبل غيركما!!، قد كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، فوضع أحمد كمه على وجهه وقال: دعه يقوم، فقام كالمستهزئ بهما[1]!!

ويروى ابن الجوزى فى الموضوعات أيضًا، عن حاتم البستى قال: دخلت بأجروان - مدينة بين الرقة وحران - فحضرت الجامع فلما فرغنا من الصلاة قام بين أيدينا شاب فقال: حدثنا أبو خليفة قال: حدثنا الوليد، حدثنا شعبة، عن قتادة، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قضى لمسلم حاجة فعل الله به كذا وكذا»، فلما فرغ دعوته، فقلت: رأيت أبا خليفة؟ قال: «لا»، قلت: «كيف تروى عنه ولم تره»؟ فقال: «إن المناقشة معنا من قلة المروءة!!، أنا أحفظ هذا الإسناد الواحد، وكلما سمعت حديثًا ضممته إلى هذا الإسناد!!»[1].

---

(١) الموضوعات لابن الجوزى: ١/٤٦.

(٢) المصدر السابق: ١/٤٧.

تاسعًا: أن يعرض لأحدهم داع ما فيضطر إلى..

الكذب على رسول الله ﷺ :

كأن يفتى فى مسألة ولا يجد لها دليلاً، فلا يجد - فى نظره - سبيلاً غير الوضع.

وفى ذلك يقول السيوطى - رحمه الله تعالى -:

«وضرب يُلجأون إلى إقامة دليل على ما أفتوا به بآرائهم فيضعون!، وقيل إن الحافظ أبا الخطاب ابن دحية كان يفعل ذلك، وكأنه الذى وضع الحديث فى قصر المغرب»(١).

ومن ذلك ما رواه ابن الجوزى عن سعيد بن طريف أنه رأى ابنه يبكى فقال: مالك؟ فقال: «ضربنى المعلم»، فقال: «أما والله لأخزينهم، حدثنى عكرمة، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ قال: «معلمو صبيانكم شراركم»(٢).

❊ ❊ ❊

عاشرًا: ما ذكره السيوطى بقوله:

«وضرب امتحنوا بأولادهم، أو ربائب، أو وراقين، فوضعوا لهم أحاديث، ودسوها عليهم، فحدثوا بها من غير أن يشعروا!!».

كعبد الله بن محمد بن ربيعة القدامى، وكحماد بن سلمة ابتلى بربيبه ابن أبى العوجاء، فكان يدس فى كتبه، وكعمر، كان له ابن أخ رافضى، فدس فى كتبه حديثًا عن الزهرى، عن عبيد الله بن عبد الله بن عباس قال: «نظر النبى ﷺ إلى علىّ فقال: «أنت سيد فى الدنيا، وسيد فى الآخرة، ومن أحبك فقد أحبنى، وحبيبى حبيب

---

(١) تدريب الراوى: ١/ ٢٨٦.

(٢) الموضوعات: ١/ ٤٢.

الله، وعدوك عدوى، وعدوى عدو الله، والويل لمن أبغضك بعدى»، فحدث به عبد الرزاق عن معمر، وهو باطل موضوع، كما قال ابن معين»[(١)].

* * *

قرائن الحديث الموضوع

وبعد أن تحدثنا - باختصار - عن أبرز أسباب الوضع يجمل بنا أن نشير - كذلك - إلى أبرز العلامات التى بها نعرف أن الحديث موضوع.

وهذه العلامات منها ما هو خاص بالراوى، ومنها ما هو خاص بالمروى، ومنها ما يشمل الأمرين معًا.

فمن القرائن الموجودة فى الراوى:

أن يقر الراوى بأنه - هو - الذى وضع الحديث.

كما أقر ميسرة بن عبد ربه الفارسى أنه وضع أحاديث فى فضائل القرآن، وأنه وضع فى فضل على سبعين حديثًا.

وكما أقر أبو عصمة نوح بن أبى مريم - الملقب بنوح الجامع - أنه وضع على ابن عباس أحاديث فى فضائل القرآن، سورة سورة، وكما اعترف عمر بن صبح بوضع خطبة على النبى ﷺ»[(٢)].

وهناك قرينة تتنزل منزلة إقرار الواضع.

وقد تحدث عنها الحافظ العراقى بقوله:

«كأن يحدث بحديث عن شيخ، ويسأل عن مولده فيذكر تاريخًا

---

(١) تدريب الراوى: ١/ ٢٨٦.

(٢) انظر تدريب الراوى: ١/ ٢٧٤، ٢٧٥، والباعث الحثيث: ٦٧، ٦٨.

يعلم منه وفاة ذلك الشيخ قبله، ولا يعرف ذلك الحديث إلا عنده.

فهذا لم يعترف بوضعه، ولكن اعترافه بوقت مولده يتنزل منزلة إقراره بالوضع، لأن ذلك الحديث لا يعرف إلا عن ذلك الشيخ، ولا يعرف إلا برواية هذا عنه»[١].

القرائن الخاصة بحال المروى

أما عن القرائن الخاصة بالمروى ذاته فكثيرة، نذكر منها ما يلى:

١ - أن يكون الحديث مخالفًا للقرآن الكريم:

مثاله: حديث: «إذا روى عنى حديث فاعرضوه على كتاب الله، فإذا وافقه فاقبلوه، وإن خالفه فردوه».

قال عنه الإمام الشوكانى: «قال الخطابى: «وضعته الزنادقة، ويدفعه حديث: «أوتيت الكتاب ومثله معه»، كذا قال الصغانى، قلت: «وقد سبقهما إلى نسبة وضعه إلى الزنادقة يحيى بن معين، كما حكاه عنه الذهبى، على أن فى هذا الحديث الموضوع نفسه ما يدل على رده!!، لأنا إذا عرضناه على كتاب الله عز وجل خالفه!، ففى كتاب الله عز وجل: ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾[٢]، ونحو هذا من الآيات»[٣].

٢ - أن يكون الحديث مخالفًا للسنة:

ومثل له أستاذنا الفاضل الأستاذ الدكتور/ عبد الوهاب فايد بحديث: «إذا حدثتم عنى بحديث يوافق الحق فخذوا به، حدثت به أو لم أحدث».

---

(١) تدريب الراوى: ١/ ٢٧٥، والباعث الحثيث: ٦٨.

(٢) سورة الحشر: آية ٧.

(٣) الفوائد المجموعة: ٢٩١.

فهو مناقض لقول الرسول ﷺ فى الحديث المتواتر: «من كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[١].

٣ - أن يكون الحديث مخالفًا للإجماع:

لأنه من المحال أن ينعقد إجماع الأمة على ضلالة، لا سيما وأن الإجماع لابد وأن يكون مستندًا إلى أى شئ شرعى.

مثاله: حديث: «من قضى صلاة من الفرائض فى آخر جمعة من شهر رمضان كان ذلك جابرًا لكل صلاة فاتته فى عمره إلى سبعين سنة».

قال القارى عن هذا الحديث: «باطل؛ لأنه مناقض للإجماع، على أن شيئًا من العبادات لا يقوم مقام فائتة سنوات، ثم لا عبرة بنقل النهاية، ولا ببقية شرح الهداية؛ فإنهم ليسوا من المحدثين، ولا أسندوا الحديث إلى أحد من المخرجين»[٢].

٤ - أن يكذبه الحس، وتدفعه المشاهدة:

مثاله: حديث: «إنما الباذنجان شفاء من كل داء، ولا داء فيه».

قال عنه ابن الجوزى: «هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ، فلا سقى الغيث قبر من وضعه؛ لأنه قصد شين الشريعة بنسبة رسول الله ﷺ إلى غير مقتضى الحكمة والطب، ثم نسبه إلى ترك الأدب فى أكل باذنجانة فى لقمة!»، إلى أن يقول:

«والمتهم بهذا الحديث أحمد بن محمد بن حرب، قال ابن عدى: «كان يتعمد الكذب، ويلقن فيتلقن، وهو مشهور بالكذب، ووضع الحديث»[٣].

---

(١) الدخيل لفضيلة أ. د/ عبد الوهاب فايد: ٢/ ٢٦، والحديث أخرجه مسلم فى صحيحه فى المقدمة: ١/ ٥٥ - ط. الشعب.

(٢) كشف الخفاء: ٢/ ٣٧٥. (٣) الموضوعات: ٢/ ٣٠١.

٥ - أن يكون الحديث مخالفًا للعقل:

ومثل له السيوطى بقوله: «ومن المخالف للعقل ما رواه ابن الجوزى من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه عن جده مرفوعًا: إن سفينة نوح طافت بالبيت سبعًا، وصلت عند المقام ركعتين، وأسند من طريق محمد بن شجاع البلخى عن حسان بن هلال عن حماد بن سلمة، عن أبى المهزم، عن أبى هريرة مرفوعًا: «إن الله خلق الفرس فأجراها فعرقت، فخلق نفسه منها»، هذا لا يضعه مسلم ولا عاقل، والمتهمك به محمد بن شجاع، كان زائغًا فى دينه، وفيه أبو المهزم، قال شعبة: رأيته ولو أعطى درهمًا وضع خمسين حديثًا»(١).

٦ - أن يكون الحديث مخالفًا لما ثبت من حقائق تاريخية:

وذلك كالحديث الذى رواه ابن الجوزى فى الموضوعات فى فضائل السيدة فاطمة الزهراء - رضى الله تعالى عنه - وأرضاها، حيث ورد من طريقين عن عمر - رضى الله عنه -، ومن أربعة طرق عن عائشة - رضى الله عنها.

وينص هذا الحديث على.. «أن النبى ﷺ كان كثيرًا ما يقبل نحر فاطمة فقالت له السيدة عائشة: يارسول الله أراك تفعل شيئًا لم تفعله، قال: أو ما علمت يا حميراء أن الله عز وجل لما أسرى بى إلى السماء أمر جبريل فأدخلنى الجنة، ووقفنى على شجرة، ما رأيت أطيب منها رائحة، ولا أطيب ثمرًا، فأقبل جبريل يفرك ويطعمنى، فخلق الله عز وجل فى صلبى منها نطفة، فلما صرت إلى الدنيا واقعت خديجة فحملت بفاطمة، كلما اشتقت إلى رائحة تلك الشجرة شممت نحر فاطمة، فوجدت رائحة تلك الشجرة منها، وأنها ليست من نساء أهل الدنيا، ولا تعتل كما يعتل أهل الدنيا».

---

(١) تدريب الراوى: ١/ ٢٧٨.

قال عنه ابن الجوزى:

«هذا حديث موضوع، لا يشك المبتدئ فى العلم فى وضعه، فكيف بالمتبحر؟، ولقد كان الذى وضعه أجهل الجهال بالنقل والتاريخ؛ فإن فاطمة ولدت قبل النبوة بخمس سنين، وقد تلقفه منه جماعة أجهل منه، فتعددت طرقه، وذكره الإسراء كان أشد لفضيحته؛ فإن الإسراء كان قبل الهجرة بسنة، بعد موت خديجة، فلما هاجر أقام بالمدينة عشر سنين، فعلى قول من وضع هذا الحديث يكون لفاطمة يوم مات النبى ﷺ عشر سنين وأشهر»(١).

وقال عنه الحافظ ابن حجر:

«فاطمة ولدت قبل ليلة الإسراء بالإجماع».

وقال الذهبى:

«فاطمة ولدت قبل النبوة، فضلاً عن الإسراء»(٢).

٧ - أن يكون الخبر مخالفًا لسنة الله فى كونه:

ومثل له أستاذنا الفاضل، فضيلة الأستاذ الدكتور/ إبراهيم خليفة بخبر:

«ابنتى فاطمة حوراء آدمية، لم تحض ولم تطمث، وإنما سماها الله تعالى فاطمة لأن الله تعالى فطمها ومحبيها عن النار».

وعنه قال ابن عراقى - رحمه الله تعالى -:

«أخرجه الخطيب من حديث ابن عباس، وقال: «ليس بثابت، وفيه غير واحد من المجهولين»(٣).

---

(١) الموضوعات: ١/٤٠٩ - ٤١٣.

(٢) الفرائد المجموعة: ٣٨٩.

(٣) الدخيل لفضيلة أ.د/ إبراهيم خليفة.

٨ - أن يكون الخبر ركيكًا:

والمقصود بالركة هنا ركة المعنى، وإن لم يكن فيه ركة فى اللفظ، فإن انضمت إلى ركة المعنى ركة اللفظ كانت القرينة من القوة بمكان.

قال الربيع بن خُثَيم: «إن للحديث ضوءًا كضوء النهار تعرفه، وظلمة كظلمة الليل تنكره»[١].

ويقول السيوطى:

«**وقال البلقينى:** «وشاهد هذا أن إنسانًا لو خدم إنسانًا سنين، وعرف ما يحب ويكره، فادعى إنسان أنه كان يكره شيئًا يعلم ذلك أنه يحبه، فبمجرد سماعه يبادر إلى تكذيبه.

وقال شيخ الإسلام: المدار فى الركة - على ركة المعنى، فحينما وجدت دلت على الوضع، وإن لم ينضم إليها ركة اللفظ؛ لأن هذا الدين كله محاسن، والركة ترجع إلى الرداءة.

وقال: أما ركاكة اللفظ فقط فلا تدل على ذلك؛ لاحتمال أن يكون رواه بالمعنى، فغير ألفاظه بغير فصيح، نعم إن صرح بأنه من لفظ النبى ﷺ فكاذب»[٢].

مثال ذلك: حديث..

«ركعتان من المتزوج أفضل من سبعين ركعة من الأعزب».

قال عنه الإمام الشوكانى:

«رواه العقيلى عن أنس مرفوعًا، وقال: «مجاشع حديثه منكر، غير محفوظ»، وقد رواه تمام فى فوائده من حديث أنس بلفظ: «ركعتان من المتأهل خير من اثنتين وثمانين ركعة من الأعزب».

---

(١) الموضوعات لابن الجوزى: ١/ ١٠٣.

(٢) تدريب الراوى: ١/ ٢٧٦.

وفى سنده مسعود بن عمرو، قال الذهبى فى الميزان: «لا أعرفه، وخبره باطل».

وأخرجه الضياء من طريق بقية.

وقد تعقبه ابن حجر فى أطرافه، وقال:

«هذا حديث منكر، ما لإخراجه معنى».

وقد روى من حديث أبى هريرة بمعنى اللفظ الأول، قال ابن عدى: «موضوع، آفته من يوسف بن السفر»(١).

ومن هذا القبيل أيضًا حديث: «عليكم بالوجوه الملاح، والحدق السود؛ فإن الله يستحيى أن يعذب وجهًا مليحًا».

رواه ابن عدى عن أنس مرفوعًا، وهو موضوع، فى إسناده وضاع، قاله الشوكانى(٢).

٩ - الإفراط الشديد، والمجازفات المبالغ فيها ثوابًا وعقابًا:

فقد يتضمن الحديث وعدًا عظيمًا لا تحيط بكنهه العقول، على عمل يسير، أو يحتوى على وعيد شديد لا تتخيل قدره القلوب، على فعل صغائر الذنوب، وأكثر ما يكون ذلك فى أخبار القصاص، وحكايات المتصوفين.

مثال ذلك حديث:

«من سمع سورة يس عدلت له عشرين دينارًا فى سبيل الله، ومن قرأها عدلت له عشرين حجة، ومن كتبها وشربها أدخلت جوفه ألف يقين، وألف نور، وألف بركة، وألف رحمة، وألف رزق، ونزعت منه كل غل».

---

(١) الفوائد المجموعة: ١٢٠.

(٢) المصدر السابق: ٢١٨.

قال عنه الإمام الشوكانى:

«رواه الخطيب عن على رضى الله عنه مرفوعًا، وهو موضوع»[١].

ومن هذا القبيل الأحاديث الموضوعة فى ثواب من قال لا إله إلا الله، حيث اشتملت على مجازفات ومبالغات لم تصدر عن طريق معصوم.

١٠ - ومن هذه القرائن الخاصة بحال المروى:

التصريح بتكذيب رواة جمع المتواتر، أو يتضمن الخبر حديثًا عن أمر جسيم، تتوافر الدواعى على نقله بمحضر الجمع، ثم لا ينقله منهم إلا واحد[٢].

يقول ابن الجوزى:

«ما أحسن قول القائل: إذا رأيت الحديث يباين المعقول، أو يخالف المنقول، أو يناقض الأصول فاعلم أنه موضوع».

قال: «ومعنى مناقضته للأصول أن يكون خارجًا عن دواوين الإسلام، من المسانيد، والكتب المشهورة»[٣].

١١ - أن يكون راوى الحديث ذا بدعة..

ويضع الحديث فى مدح بدعته، وتفضيل معتنقيها على من سواهم.

وذلك مشروط بأن لا يكون الراوى مشهودًا له بالثقة، معترفًا بالعدالة، وحسن الورع.

وقد بز الرافضة فى هذا النوع، فغالوا غلوًا شنيعًا فى وضع

---

(١) الفوائد المجموعة: ٣٠٠.

(٢) انظر فى ذلك: تدريب الراوى ١/ ٢٧٦، والباعث الحثيث: ٦٩.

(٣) تدريب الراوى ١/ ٢٧٧.

الأحاديث فى حب سيدنا على رضى الله تعالى عنه وأرضاه.

مثال ذلك حديث:

«إذا كان يوم القيامة قال الله لى ولعلى بن أبى طالب: أَدْخِلا الجنة من أحبكما، وأدخلا النار من أبغضكما»، فذلك قوله تعالى: ﴿أَلقيا فى جهنم كل كفار عنيد﴾(١).

قال عنه الشوكانى:

«فى إسناده يحيى بن عبد الحميد الحمانى، وهو كذاب، وإسحاق بن محمد بن أبان النخعى، وهو الواضع له»(٢).

ومثال ذلك أيضًا:

«يا علىّ: إن الله قد غفر لك، ولذريتك، ولوالديك ولشيعتك، ولمحبى شيعتك».

قال عنه الشوكانى: «فى إسناده وضاع»(٣).

* * *

القرائن الموجودة فى الراوى والمروى معًا

وهذه القرائن تدرك بسهولة إذا نظرنا إلى حال الراوى النفسية وشخصيته ومذهبه، وإلى متن الرواية.

ومن هذا القبيل ما ذكرناه عن سعيد بن طريف حينما جاء ابنه يبكى من ضرب المعلم، فوضع حديث: «معلموا صبيانكم شراركم».

وكذلك حديث: «يكون فى أمتى رجل يقال له محمد بن إدريس أضر على أمتى من إبليس، ويكون فى أمتى رجل يقال له أبو حنيفة،

---

(١) سورة ق: آية ٢٤.

(٢) الفوائد المجموعة: ٣٨٢.

(٣) المصدر السابق: ٣٨٤.

هو سراج أمتى»[١].

فالحالة النفسية للراوى فى الحديث الأول، وتعصبه الأعمى فى الحديث الثانى، ومتن الحديثين كل ذلك قرائن تدل على أنهما مكذوبان على رسول الله ﷺ.

❊ ❊ ❊

حكم رواية الحديث الموضوع

إذا كنا قد عرفنا أن الحديث الموضوع هو الذى اختلق كذبًا وزورًا على رسول الله ﷺ فمن البدهى إذًا أن نقرر - بل نؤكد - خاصة بعد هذه الأحاديث المتواترة التى تحذر من الكذب على رسولل الله ﷺ من البدهى إذًا أن نؤكد أنه لا يجوز رواية الحديث الموضوع، . إلا إذا جاء مقترنًا ببيان وضعه، والنص على كذبه، حتى لا يعتقد الناس صحته، ويعملوا بمقتضاه.

ويأخذ ابن الجوزى - رحمه الله - على بعض العلماء رواية الموضوع من غير تبيين لدرجته، ويعتبره من تلبيس إبليس عليهم.

يقول رحمه الله: «ومن تلبيس إبليس على علماء المحدثين رواية الحديث الموضوع، من غير أن يبينوا أنه موضوع، وهذه جناية منهم على الشرع، ومقصودهم ترويج أحاديثهم، وكثرة رواياتهم وقد قال ﷺ: «من روى عنى حديثًا يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين»[٢].

بل لقد وصل الأمر ببعض الأئمة الكرام كالإمام أحمد بن حنبل، والحميدى شيخ البخارى، والصيرفى الشافعى، إلى أن رواية الكاذب على رسول الله ﷺ لا تقبل، حتى ولو تاب!!

---

(١) الباعث الحثيث: ٦٨.

(٢) تلبيس إبليس: ١٥٥ - ط. المنيرية.

ولقد مال الحافظ السيوطى - رحمه الله - إلى هذا الرأى حيث قال:

«ولقد وجدت فى الفقه فرعين يشهدان لما قاله الصيرفى والسمعانى، فذكروا فى باب اللعان: أن الزانى إذا تاب وحسنت توبته لا يعود محصنًا، ولا يحد قاذفه بعد ذلك، لبقاء ثلمة عرضه، فهذا نظير أن الكاذب لا يقبل خبره أبدًا.

وذكروا أنه لو قذف ثم زنى بعد القذف قبل أن يحد القاذف لم يحد؛ لأ الله تعالى أجرى العادة أنه أنه لا يفضح أحدًا من أول مرة، فالظاهر تقدم زناه قبل ذلك، فلم يحد له القاذف.

وكذلك نقول فيمن تبين كذبه، الظاهر تكرر ذلك منه حتى ظهر لنا، ولم يتعين لنا ذلك فيما روى من حديثه، فوجب إسقاط الكل، وهذا واضح بلا شك، ولم أر واحدًا تنبه لما حررته، ولله الحمد»[1].

* * *

(١) تدريب الراوى: ١/ ٣٣١.

المبحث الثانى

الإســــرائيليـات

تمهيد:

ومن أخطر الأمور فى التفسير بالمأثور الإسرائيليات.

والإسرائيليات مفردها إسرائيلية، وهى فى أصل إطلاقها حكاية أو قصة تذكر عن مصدر إسرائيلى، نسبة إلى بنى إسرائيل.

وبنو إسرائيل ينسبون إلى جدهم الأعلى إسرائيل عليه السلام، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله.

وبنو إسرائيل يشمل اليهود والنصارى.

فمن إطلاقه على اليهود قوله تعالى مخاطبًا موسى وهارون:

﴿فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين، أن أرسل معنا بنى إسرائيل﴾[1].

ومن إطلاقه على النصارى قوله تعالى **﴿وإذ قال عيسى بن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقًا لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد﴾**[1].

ولكن غلب إطلاق لفظ اليهود على المنتسبين لشريعة موسى، ولفظ النصارى على المنتسبين لشريعة عيسى، عليهما السلام.

أما من شرح الله صدره للإسلام من هؤلاء وأولئك فأصبحوا يعرفون باسم: مسلمى أهل الكتاب.

ومعلوم أن لليهود مصادر دينية وغير دينية، وعلى رأس تلك المصادر التوراة، التى تضم الأسفار الموسوية الخمسة وغيرها، وتعرف

---

(١) الشعراء: ١٧ـ. (٢) الصف: ٦.

بالعهد القديم، وإضافة إلى التوراة شـروحها التى تعرف باسم التلمود، كما أن هناك مصادر تاريخية وأدبية وغير ذلك.

ومعلوم أيـضًا أن للنصارى مصـادر خاصة، على رأسهـا الأناجيل ورسائل الرسل، ويطلق عليها جميعًا اسم العهد الجديد، ومن مجموع العـهديـن يتكـون الكتـاب المقـدس لدى النـصارى، الذيـن يؤمـنون بالعهدين، بخلاف اليهود الذين لا يؤمنون إلا بالعهد القديم.

وعلى ذلك فإن الإسرائـيلايت تطلق على كل ما تـسرب إلى ثقافة المسلمين من مـصادر يهودية أو نصرانية، بل إن بعض علـماء المسلمين توسع فى ذلك وأضاف إلـى ذلك كل ما اندس إلى ثقافة المســلمين من أعدائهم، يريدون تشويه الإسلام والمسلمين، كقصة الغرانيق وغيرها.

والحديث عن الإسـرائيليات متشعب الجوانب، ولا نريـد فى هذا المقام أن نتناولها جميعها، وإنما نركز الضوء على أبرز هذه الجوانب التى يظهر منها خطر تلك الإسرائيليات، وكيفية التعامل معها.

وبناء عليه، فإن حديثنا هنا يقتصر على النواحى الآتية:

١ - *متى تسللت الإسرائيليات إلى ثقافة المسلمين.*

٢ - *خطورة تلك الإسرائيليات.*

٣ - *أقسام الإسرائيليات من حيث القبول والرد.*

٤ - *حكم رواية الإسرائيليات.*

فإلى الحديث عن هذه النواحى، وبالله التوفيق.

❊ ❊ ❊

١ - متى تسللت الإسرائيليات إلى ثقافة المسلمين؟

تسللت الإسرائيليات إلى ثقافة المسلمين منذ عهد مبكراً جداً، يرجع إلى عهد صحابة رسول الله ﷺ.

وكان السبب الأكبر فى ذلك هو وجود قدرك مشترك بين ثقافة المسلمين، وثقافة بنى إسرائيل فى بعض الأمور وكان أبرز هذه الأمور على الإطلاق، هو ما جاء فى شأن قصص السابقين.

فالملاحظ أن الثقافتين تحدثتا عن هذا القصص، إلا أن ثقافة المسلمين تحدثت عنه بإجمال، بينما تحدثت عنه ثقافة بنى إسرائيل بإطناب.

ومن هنا تاقت نفوس بعض الصحابة إلى معرفة هذا القصص بصورة تفصيلية، فجلسوا إلى من أسلم من أهل الكتاب يسمعون منهم هذا التفصيل.

ولكن هؤلاء الصحابة كان لهم ميزان خاص فى سؤال أهل الكتاب، وفى تصديقهم.

وقد سبق أن أوضحنا ذلك أثناء حديثنا عن عبد الله بن عباس رضى الله عنه، والرد على تلك الشبهة التى اتهمته بالرجوع إلى أهل الكتاب ليستمد منهم علمه، فليرجع إلى هذا الموضع حتى لا نطيل بالإعادة.

❋ ❋ ❋

٢ - خطورة الإسرائيليات

تشكل الإسرائيليات على المسلمين خطرًا داهمًا، وتحريفًا عظيمًا فى العقيدة والعبادة، فهى تهز الصورة الحقيقة التى يعتقدها المسلم فى الله تعالى، وفى رسله عليهم السلام، وهى فى الجملة تهدف إلى صرف الناس عن القرآن الكريم، ومبادئه، تصورًا وشعورًا وسلوكًا، وسأكتفى فى هذا المقام بذكر خطورتها على نواح أربع:

أولاً: من ناحية تشويه عقيدة المسلم، فى الله، وفى رسله.

فبالنسبة لله تعالى: نجد هذه الإسرائيليات تصفه بصفات هى خاصة بخلقه، ومستحيلة فى حقه.

فهى تصفه بالتعب بعد أداء العمل!، فقد جاء فى سفر التكوين الإصحاح الثانى، ص٥:

«وفرغ الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمل، فاستراح فى اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل، وبارك الله اليوم السابع وقدسه؛ لأنه فيه استراح من جميع عمله، الذى عمل الله خالقًا».

والقرآن الكيرم ينفى لحوق أى تعب بالله تعالى، إذ يقول الله فيه:

﴿ولقد خلقنا السموات والأرض فى ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾(١).

وهذه الإسرائيليات تصف الله تعالى بالندم على خلقه الإنسان، لكثرة ما ارتكب من شرور وآثام.

جاء فى سفر التكوين، الإصحاح السادس، ص: ١٠، ١١ ما نصه:

«ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر فى الأرض، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم، فحزن الرب أنه عمل الإنسان فى

---

(١) سورة ق: الآية ٣٨.

الأرض، وتأسف فى قلبه، فقال الرب: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذى خلقته، الإنسام مع بهائم ودبابات وطيور السماء، لأنى حزنت أنى عملتهم».

هذيان ما بعده هذيان، فالله سبحانه وتعالى قبل أن يخلق آدم علم بأنه سيكون فى الأرض سفك للدماء، وانتهاك للحرمات، وإفساد فى الأرض، فلماذا يحزن بعد أن أوجده ووقع منه ذلك؟.

يقول تعالى: **﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة. قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إنى أعلم ما لا تعلمون﴾**[1].

ومعلوم من أحاديث الرسول ﷺ أن الإنسان قبل أن يولد يأتيه الملك وهو جنين فى بطن أمه فيؤمر من قبل الله بكتابه أجله، ورزقه، وشقى أو سعيد.

وهذه الإسرائيليات تصف الله تعالى بأنه ينزل من السماء إلى الأرض، ويكلم البشر!!

جاء فى سفر التكوين الإصحاح الثامن عشر، ص: ٢٥، ٢٦ فى شأن الكلام عن إهلاك قوم لوط ما نصه:

«وظهر له[2] الرب عند بلوطات مَمرا، وهو جالس فى باب الخيمة، وقت حر النهار، فرفع عينيه ونظر، وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه، فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة، وسجد إلى الأرض، وقال: ياسيد إن كنتُ قد وجدت نعمة فى عينيك فلا تتجاوز عبدك، ليؤخذ قليل ماء، واغسلوا أرجلكم، واتكئوا تحت الشجرة،

---

(١) سورة البقرة: الآية ٣٠.

(١) أى لإبراهيم الخليل عليه السلام.

فآخذ كسرة خبز، فتسندون قلوبكم، ثم تجتازون، لأنكم قد مررتم على عبدكم، فقالوا: هكذا تفعل كما تكلمت.

فأسرع إبراهيم إلى الخيمة، إلى سارة، وقال: أسرعى بثلاث كيلات دقيقًا سميذًا، اعجبنى واصنعى خبز ملة، ثم ركض إبراهيم إلى البقر، وأخذ عجلاً رَخْصًا وجيدًا، وأعطاه للغلام، فأسرع ليعمله، ثم أخذ زبدًا ولبنًا، والعجل الذى عمله ووضعها قدامهم، وإذ كان هو واقفًا لديهم تحت الشجرة أكلوا»!!

﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبًا﴾(١).

هذا قل من كثير فيما وصفوا الله تعالى به.

فإذا ما جئنا إلى جانب الأنبياء عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه فإننا نجد النصوص قد امتلأت بالعبارات التى تحط من قدرهم، وتغمطهم حقهم من الطهر والعفاف والشرف والكرامة.

مع أن هؤلاء الأنبياء هم أطهر البشر على الإطلاق، اصطفاهم الله على خلقه واصطنعهم لنفسه على عينه.

فهذه الإسرائيليات لا ترى حرجًا فى أن يشرب رسول من رسل الله خمرًا فيسكر ويتعرى!!

جاء فى سفر التكوين، الإصحاح التاسع، ص١٥:

«وابتدأ نوح يكون فلاحًا، وغرس كرمًا، وشرب من الخمر، فسكر وتعرى داخل خبائه».

وهذه النصوص لا تجد حرجًا أيضًا فى أن يترك الله لوطًا عليه السلام لابنتيه، تسقيانه خمرًا، ليضطجع معهما ولتحملا منه وتنجبا منه نسلاً.

---

(١) سورة الكهف: ٥.

جاء فى سفر التكوين، الإصحاح التاسع عشر، ص٢٩، ما نصه:

«وصعد لوط من صوغر، وسكن فى الجبل، وابنتاه معه، لأنه خاف أن يسكن فى صوغر، فسكن فى المغارة هو وابنتاه وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ، وليس فى الأرض رجل ليدخل علينا، كعادة كل الأرض، هلم نسقى أبانا خمرًا ونضطجع معه، فنحيى من أبينا نسلاً، فسقتا أباهما خمرًا، فى تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها، ولا بقيامها. وحدث فى الغد أن البكر قالت للصغيرة: إنى قد اضطجعت البارحة مع أبى، نسقيه خمرًا الليلة أيضًا، فادخلى اضطجعى معه، فنحيى من أبينا نسلاً، فسقتا أباهما خمرًا فى تلك الليلة أيضًا، وقامت الصغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. فحبلت ابنتا لوط من أبيهما، فولدت البكر ابنًا، ودعت اسمه موآب، وهو أبو الموآبيين إلى اليوم، والصغيرة أيضًا ولدت ابنًا، ودعت اسمه بَنْ عَمِّى، وهو أبو بنى عَمُّون إلى اليوم».

ولا تعليق لنا على هذه النصوص الكاذبة التى تصف هذا النبى بارتكاب الفاحشة، التى ما بعث إلا لمحاربتها والقضاء عليها، وإن اتخذت صورًا متعددة وأصنافًا مختلفة.

وإذا كانت هذه الإسرائيليات قد نسبت الزنا للوط عليه السلام رغمًا عنه، فإنها تنسبه لداود عليه السلام بمحض إرادته، ووفق مشيئته.

جاء فى سفر صموئيل الثانى، فى الإصحاح الحادى عشر، ص٤٩٨ ما نصه:

«وأما داود فأقام فى أورشليم، وكان فى وقت المساء أن داود قام عن سريره، وتمشى على سطح بيت الملك، فرأى من على السطح امرأة تستحم، وكانت المرأة جميلة المنظر جدًا، فأرسل داود وسأل عن المرأة

فقال واحد: أليست هذه بَثْشَبَعَ، بنت أليعام، امرأة أوريا الحثِّى؟ فأرسل داود رسلاً وأخذها، فدخلت إليه، فاضطجع معها وهى مطهرة من طمثها، ثم رجعت إلى بيتها، وحبلت المرأة!! فأرسلت وأخبرت داود، وقالت: إنى حبلى».

إلى أن تنص تلك النصوص على أن داود - عليه السلام - احتال على أوريا، حتى تزوج بامرأته تلك، بعد أن جعله فى مقدمة الجيش الذى حارب به أعداءه، وقتل فى هذه المعارك.

ومن هذه الإسرائيليات أيضًا ما روى فى شأن يوسف عليه السلام وعن همه بامرأة العزيز همًا يخجل لسان العفيف أن ينطق به، ويعجز قلم الشريف أن يسطره.

ولم تكتف هذه الإسرائيليات بإلصاق مثل هذه الكبائر بالأنبياء، بل بلغت بها الوقاحة حدًا جعل من نبى الله هارون يصنع لقومه عجلاً يعبدونه من دون الله!!

وانظر فى ذلك نهاية الإصحاح الثانى والثلاثين من سفر الخروج ص١٤٣:

لقد نسى أو تناسى كاتبو هذه النصوص ومحرفوا الكلم عن موضعه أن الأنبياء معصومون عن ارتكاب هذه الموبقات من زنا وشرب خمر وتحريض على عبادة الأصنام.

هل يعقل أن يترك الله أنبياءه يفعلون كل هذا؟ وهل يعقل أن يكون للأنبياء نسل من طريق سفاح؟

إن النبوة لا تتنزل إلا على قلب خاص، قد أعد لاستقبالها أشرف إعداد، قال تعالى ﴿ولتصنع على عينى﴾[1]. وقال تعالى ﴿الله أعلم

---

(١) سورة طه: ٣٩

حيث يجعل رسالته﴾[١].

ويقول فى شأن نبى من الأنبياء:

﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾[٢].

ويخبرنا الله تعالى أن الشيطان لا سلطان له على المؤمنين المتوكلين، فيقول: **﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾**[٣]. بل إن الشيطان نفسه يعترف بذلك، حيث يقول:

﴿رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلصين﴾[٤].

أفبعد كل ذلك تأتى هذه الإسرائيليات، وتلحق بأفضل الخلق ما لا يليق بعوام الناس!!

إن هذا لمنكر من القول وزور، ننزه عنه ساحة الأنبياء والمرسلين فهم المنزهون فى الأولين والآخرين، وسلام عليهم أجمعين والحمد لله رب العالمين.

ثانيًا: هذه الإسرائيليات تمثل سدًا يمنع الناس من الدخول فى الإسلام، بما تشتمل عليه من خرافات، فيتصورون أنه دين أوهام وشريعة أباطيل..

ومن ذلك: ما ذكره بعضهم فى تفسير قوله تعالى: **﴿ق . والقرآن المجيد﴾**.

حيث قال: «خلق الله من وراء هذه الأرض بحرًا محيطًا بها، ثم خلق من وراء ذلك البحر جبلاً يقال له «قاف»، سماء الدنيا مرفوعة

---

(١) سورة الأنعام: ١٢٤. (٢) سورة يوسف: ٢٤.

(٣) سورة النحل: ٩٩. (٤) سورة الحجر: ٣٩، ٤٠.

عليه، ثم خلق الله تعالى من وراء ذلك الجبل أيضًا مثل تلك الأرض سبع مرات، واستمر على هذا حتى عد سبع أرضين، وسبعة أبحر، وسبعة أجبل، وسبع سموات».

وقالوا أيضًا فى تفسير هذا الحرف:

«خلق الله تعالى جبلاً يقال له «قاف»، محيط بالعالم وعروقه إلى الصخرة التى عليها الأرض، فإذا أراد الله تعالى أن يزلزل قرية أمر ذلك الجبل، فحرك العرق الذى يلى تلك القرية، فيزلزلها ويحركها، ثم تحرك القرية دون القرية».

قال ابن كثير: «وقد روى عن السلف أنهم قالوا:

«ق جبل محيط بجميع الأرض، يقال له جبل قاف، وكأن هذا - والله أعلم - من خرافات بنى إسرائيل التى أخذها عنهم بعض الناس، لما رأى من جواز الرواية عنهم مما لا يصدق ولا يكذب، وعندى أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يلبسون به على الناس أمر دينهم»[١].

ومن ذلك أيضًا ما جاءفى تفسير قوله تعالى:

﴿ن والقلم وما يسطرون﴾.

من أنه الحوت، الذى على ظهره الأرض.

ومن هذا القبيل حديث:

«إن الأرض على صخرة، والصخرة على قرن ثور، فإذا حرك الثور قرنه تحركت الصخرة»[٢].

إلى غير ذلك من الروايات التى لو صحت نسبتها إلى الشرع لما

---

(١) انظر تفسير القرطبى وابن كثير لسورة «ق».

(٢) المصدر السابق تفسير سورة (ن).

دخل أحد فى ديـن الله، لأنه يرى أن هذا الدين ديـن خرافات وأوهام وأباطيل.

ثالثًا: أنها تصرف المسلمين عن الانتفاع بهداية القرآن.

فمن البـدهى أن القرآن الكريم نـزل لغرضين أساسيين، الإعجاز والهداية، وعـلى ذلك فأى شئ لا صلة لـه بهذين الغرضيـن فلا خير فيه، إذ من شأنه أن يصرف العقول عن الـتفكير، والقلوب عن التدبر، والإسرائيليات شر ما يقوم بهذه المهمة.

ولقد وجدنا فى معـظم كتب التفسير أشياء كثيـرة من هذا القبيل. ويلقيـها الخطباء على مـسامع المسلمين مـن فوق المنبر، ويضيـعون بها الأوقات، ويسمعها العـامة فيذهبون إلى العلماء ليمتـحنوهم بها، فإذا أجاب فهو عالـم عظيم وإلا فهو جاهل أحمق، ولا يـدرى هذا السائل أنه هو الجاهل الأحمق.

إننا لا نرى فـائدة فى الكلام عن سفـينة نوح، طولهـا وعرضها، وارتفاعـها، وأسماء الأشيـاء الموجودة بها، ولا نرى قـيمة علمـية فى معرفة اسم كلب أهل الكهف، ولونه، ولا نرى ثمرة فى تفصيل الكلام عن مائدة عيسى عليه السلام، وأى الطعام كان عليها.

كذلك لا نرى أهمية فى تعيين اسم الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها، ولا فى تحديد أنواع الطيور وأسماء الموتى الذين أحياهم عيسى بإذن الله تعالى.

وغير ذلك مما سكت عنه الـقرآن، حيث لا ثمرة من ذكره، لأنه لا يتعلق بموطن العبرة ومكمن الموعظة.

رابعًا: أنها تشكك المسـلمين فى علماء السـلف الصالح رضى الله عنهم، حيث تروى مـنسوبة إليهم، وعلى ذلك فإنهـا تصورهم بصورة

من لاهم لـهم إلا الأباطيل، وبالـتالى تزعزع الـثقة فى كل ما يـنسب إليهم.

مما سبق يتبين لنا كيف أن الإسرائـيليات تعتبر خطراً داهماً، وشراً مستطـيراً يجب بتره من حـقل الثقافة الإسـلامية، حتى يصفـو للناس دينهم، ويبدو الإسلام بكل كماله وجلالـه، فإذا بالمسلمين يضمون فى عقولهم وقـلوبهم علماً صحيحًـا، وثقافة نقية تساعـدهم على ذكر الله وشكره وحسن عبادتـه؛ وإذا بغير المسلمين لا يجدون ما يـحول بينهم وبين الإسلام، لو خلى بينهم وبين هذا الدين النقى الصحيح.

* * *

٣ - أقسام الإسرائيليات من حيث القبول والرد

إذا كنا قد ذكرنا طرفًا من الإسرائيليات، وقررنا أنها شر مستطير يجب بتره، فليس معنى هذا أن ثقافة القوم كلها على هذه الوتيرة.. أو على هذا النمط، وعلى هذا فليس كل رواية إسرائيلية نرفضها، وكذلك أيضًا ليس كل رواية إسرائيلية نتقبلها..

وبناء على ذلك فإننا نستطيع أن نقسم هذه الإسرائيليات من حيث القبول والرد إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما جاء موافقًا لما فى كتابنا..

فهذا نؤمن به ونصدقه، ولا نرفضه أو نتوقف فيه.

مثاله: ما أخرجه ابن جرير والبخارى وغيرهما:

«عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو فقلت: أخبرونى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة، قال: والله إنه لموصوف فى التوراة كصفته فى القرآن: يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وحرزًا للأميين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب فى الأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا «لا إله إلا الله»، ويفتح به قلوبًا غلفًا، وآذانًا صمًا، وأعينًا عميًا.

قال عطاء: «ثم لقيت كعبًا، فسألته عن ذلك، فما اختلفا حرفًا، إلا أن كعبًا قال بلغته، قال قلوبًا غلوفيا، وآذانًا صموميًا، وأعينًا عموميًا»(١).

---

(١) رواه البخارى بنحوه، فى كتاب التفسير، سورة الفتح ٣/١٨٩، وفى كتاب البيوع، باب كراهية السخب فى السوق: ٢/ ١٤، وانظر تفسير ابن كثير: ٣/ ٤٨٤.

ومن هذا القسم أيضًا:

ما رواه البخارى فى صحيحه عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى قال: قال النبى ﷺ : «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة، يتكفؤها الجبار بيده، كما يكفأ أحدكم خبزته فى السفر، نزلاً لأهل الجنة، فأتى رجل من اليهود فقال: بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم، ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة؟ قال: «بلى، قال: تكون الأرض خبزة واحدة. . . كما قال النبى ﷺ . فنظر النبى ﷺ إلينا، ثم ضحك حتى بدت نواجذه. الحديث[1].

القسم الثانى: ما جاء مخالفًا فى شريعتنا.

وقد مضى له عدة أمثلة قريبًا أثناء الحديث عن خطورة الإسرائيليات.

مثل الروايات التى تنص على أن الله لما فرغ من الخلق استراح فى اليوم السابع، والتى تذكر أن الرب حزن لأن عمل الإنسان فى الأرض، وتأسف فى قلبه لما كثرت ذنوب الإنسان، ومثل ما ورد فى شرب نوح الخمر فسكر وتعرى، وما ورد فى شأن لوط وزناه بابنتيه وحملهما وإنجابهما منه، ومثل ما ورد فى شأت داود عليه السلام وزناه بامرأة أوريا، وحملها منه سفاحًا، ثم احتياله على زوجها ليتزوجها، وبالفعل خلا له الجو وتزوجها بعد أن أقحمه فى مقدمة جيشه المحارب وقتله فى المعركة، ومثل ما ورد بأن هارون هو الذى صنع العجل الذى عبده بنو إسرائيل.

فهذا القسم ينافى عقيدة الإسلام والمسلمين ولذلك فهو مرفوض، مردود على وجه صاحبه، إلى أن يلقى الله، فيجازيه بما هو أهله، من

---

(١) صحيح البخارى، كتاب الرقاق، باب يقبض الله الأرض: ٤/ ١٣٢.

خزى مقيم وهوان عظيم.

القسم الثالث: ما هو مسكوت عنه.

أى لا دليل فى شرعنا يؤيد صدقه، ولا برهان فى ديننا ينص على كذبه.

وذلك مثل ما يروى عن اسم الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها، وعن عدد الذين أحياهم عيسى بإذن الله، وأسمائهم، وعن أنواع الطعام التى كانت على مائدة عيسى عليه السلام، وعن بعض البقرة الذى ضرب به قتيل بنى إسرائيل.

وغالب ذلك - كما يقول ابن تيمية رحمه الله[١] - مما لا فائدة فيه، تعود إلى أمر دينى.

فهذا القسم نتوقف فى الحكم عليه، فلا نصدقه، ولا نكذبه لعدم وجود دليل بيِّنٍ يبين درجة صدقه أو كذبه.

وفيه يقول الرسول ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم»[٢].

❊ ❊ ❊

---

(١) مقدمة فى أصول التفسير لابن تيمية: ٣٤.

(٢) صحيح البخارى، كتاب التفسير، باب وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه: ٣/ ١٠٠.

٤ - حكم رواية الإسرائيليات

من استعراضنا للنصوص الشرعية والخاصة بالتحديث عن بنى إسرائيل وجدنا بعضها ينص على المنع، وبعضها الآخر يدل على الإباحة . .

أما النصوص الدالة على المنع فكثيرة . . وكثير منها يدل بصراحة على أن بنى إسرائيل حرفوا كتبهم وعبثوا بها، ومادام الأمر كذلك فإن ثقافتهم الدينية لا وزن لها فى ميزان الثقة، ولا قيمة لها فى باب القبول .

من نصوص القرآن فى ذلك:

- قول الله تعالى عليهم: **﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾**(١).
- ويقول عنهم أيضًا: **﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه﴾**(٢).
- ويقول عنهم أيضًا: **﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه﴾**(٣).
- ويقول عن النصارى: **﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظًا مما ذكروا به﴾** الآية(٤).
- ويقول عن الفريقين جميعًا: **﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرًا مما كنتم تخفون من الكتاب﴾**(٥).

---

(١) البقرة: ٧٥.
(٢) النساء: ٤٦.
(٣) المائدة: ١٣.
(٤) المائدة: ١٤.
(٥) المائدة: ١٥.

ومن نصوص السنة فى ذلك أيضًا:

- ما رواه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال:

كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل... الآية»(١).

ومن الآثار عن الصحابة:

- ما رواه البخارى أيضًا عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: «كيف تسألون أهل الكتاب عن شئ وكتابكم الذى أنزل على رسول الله ﷺ أحدث؟ تقرءونه محضًا، لم يُشَب وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا هو من عند الله، ليشتروا به ثمنًا قليلاً، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ لا والله، ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذى أنزل عليكم»(٢).

ومنها ما روى عن ابن مسعود بإسناد حسن - كما ذكر الحافظ ابن حجر - أنه قال: «لا تسألوا أهل الكتاب فإنهم لن يهدوكم وقد أضلوا أنفسهم، فتكذبوا بحق، أو تصدقوا بباطل»(٣).

❊ ❊ ❊

أما النصوص الدالة على الجواز وإباحة الاطلاع على ما عند أهل الكتاب فكثيرة.

فمن القرآن: قوله تعالى:

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير، باب وقالوا اتخذ الله ولدًا سبحانه: ٣/ ١٠٠.

(٢) صحيح البخارى، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبى ﷺ لا تسألوا أهل الكتاب: ٤/ ٢٧١.

(٣) فتح البارى: ٨/ ١٠٣ - ط. الفنية المتحدة.

١ - ﴿سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة﴾[١].

٢ - ﴿واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر﴾[٢].

٣ - ﴿فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك﴾[٣].

٤ - ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾[٤].

ومن المعلوم أن الأمر للرسول ﷺ، أمر للأمة، ما لم يرد دليل يخصصه.

ومن الأحاديث تلك الأحاديث التى تدل على أن الرسول ﷺ كانت تستدعيه بعض المواقف فيستمع لما عند اليهود.

مثال ذلك: ما جاء فى مسند الإمام أحمد حيث يقول:

«حدثنا إسماعيل عن الجرير، عن أبى صخر العُقَيلى حدثنى رجل من الأعراب قال: جلبت جَلوبة إلى المدينة فى حياة رسول الله ﷺ فلما فرغت من بيعتى قلت: لألقين هذا الرجل فلأسمعن منه، قال: فتلقانى بين أبى بكر وعمر يمشون فتبعتهم فى أقفائهم حتى أتوا على رجل من اليهود، ناشراً التوراة يقرؤها يعزى بها نفسه على ابن له فى الموت، كأحسن الفتيان وأجمله، فقال رسول الله ﷺ: «أنشدك بالذى أنزل التوراة هل تجد فى كتابك ذا صفتى ومخرجى؟ فقال برأسه هكذا، أى: لا، فقال ابنه: إى، والذى أنزل التوراة إنا لنجد فى كتابنا صفتك ومخرجك، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فقال:

---

(١) البقرة: ٢١١.
(٢) الأعراف: ١٦٣.
(٣) يونس: ٩٤.
(٤) الزخرف: ٤٥.

«أقيموا اليهودى عن أخيكم»، ثم ولى كفنه والصلاة عليه».

قال عنه ابن كثير:

«هذا حديث جيد، قوى، له شاهد فى الصحيح عن أنس»(١).

- ومن أحاديث الجواز أيضًا:

قول الرسول ﷺ: «بلغوا عنى ولو آية، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علىّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار»(١).

التوفيق بين النصوص

وهكذا وجدنا نصوصًا تمنع الأخذ عن بنى إسرائيل، ووجدنا بجوارها نصوصًا أخرى تبيح ذلك.

مما قد يظن جاهل أن نصوص الشرع متعارضة، والواقع أنه لا تعارض ولا تناقض، فمن البدهى أن ثقافة بنى إسرائيل لم تسلم من التغيير، ولم تنج من التحريف والتبديل.

ومن البدهى أيضًا أنها لم تخل من بقايا أمور قد ثبت صدقها.

فثقافتهم - إذًا - اشتملت على الغث والسمين، واختلط فيها الحق بالباطل، والحابل بالنابل.

وعلى ذلك فإننا لا نستطيع أن نقول إن كل ما ورد عنهم ليس صدقًا، كما لا يسعنا أن ندعى بأن كل ما يروى عنهم محض صدق، وعين حق.

ومن هنا، وبناء على تقسيمنا للإسرائيليات إلى ثلاثة أقسام، موافق لشريعتنا، ومخالف لها، ومسكوت عنه - فإننا نستطيع أن نقرر ما يلى:

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٤٨١.

(٢) صحيح البخارى، كتاب الأنبياء، انظر فتح البار: ٦/ ٤٩٦ - ط. السلفية.

١ - إن ما جاء موافقًا لشريعتنا فإنه مقبول، وتجوز روايته، وعليه تحمل النصوص القرآنية التى تحمل فى طياتها جواز الرجوع إليهم.

وعليه أيضًا يحمل حديث: «بلغوا عنى ولو آية، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج».

فمن غير المعقول أن يمنع الرسول ﷺ التحديث بما شهد له شرعنا، وجاء مصدقًا له.

٢ - أما ما جاء مخالفًا لشريعتنا فلا يعقل أن نحمل عليه النصوص الشرعية، الدالة على الرجوع إليهم والتحديث عنهم، لأن هذا كذب، ورواية المكذوب غير جائزة، إلا إذا كانت الرواية مقترنة ببيان كذب ما فيها.

٣ - أما القسم الثالث، وهو ما سكتت عنه شريعتنا، فلا وسيلة لنا للجزم بتصديقه، أو بتكذيبه، وعليه فلا يسعنا إلا التوقف فى أمره، وعليه ينطبق حديث: «لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم».

هذا من ناحية الحكم على هذا المسكوت عنه.

أما من ناحية روايته فإن بعض العلماء، كابن تيمية - رحمه الله- أجاز روايته؛ استنادًا لما فهمه من الإباحة من حديث «... وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج»[1].

وقد وافقه فى ذلك، وسار على منواله فضيلة الأستاذ الدكتور محمد الذهبى - رحمه الله - حيث يقول:

«وما سكت عنه شرعنا توقفنا فيه، فلا نحكم عليه بصدق ولا بكذب، وتجوز روايته، لأن غالب ما يروى من ذلك راجع إلى القصص والأخبار، لا إلى العقائد والأحكام، وروايته ليست إلا مجرد

---

(١) انظر مقدمة فى أصول التفسير: ٣٤.

حكاية له، كما هو فى كتبهم، أو كما يحدثون به، بصرف النظر عن كونه حقًا، أو غير حق»(١).

ولكنى فى هذا المجال لا أرى فرقًا بين القبول والرواية، فما دمنا قد توقفنا فى قبوله فلماذا نجيز روايته، وفيه من الإبهام بتصديقها ما فيه؟

إن ذلك يفتح علينا بابًا يصعب غلقه، ويترك للإسرائيليات أن تفعل فعلها فى واقع المسلمين، وهذا ما حدث بالفعل نتيجة حشو كتب التفاسير بهذا الكم المتراكم من الخرافات والأباطيل.

وما أنفع وما أروع ما كتبه أستاذى الفاضل فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الوهاب فايد - أطال الله بقاءه وعم النفع به - بخصوص رواية المسكوت عنه.

حيث يقول - بارك الله فيه:

«ولكننى أرى أن هذا القسم المسكوت عنه - وهو الذى لا نعلم صدقه ولا كذبه - لا تجوز روايته، بل يجب أن نتوقف فى روايته، كما توقفنا فى قبوله؛ لأن روايته توهم قبوله والتصديق به، ومادمنا قد توقفنا فى قبوله فمن الأحوط أن نتوقف كذلك فى روايته.

إذًا فالمقياس فى القبوى والرواية واحد، وهو ما ورد من نصوص فى القرآن أو السنة.

فما كان من الإسرائيليات موافقًا كذلك قبلناه، وأجزنا روايته، وما كان منها مخالفًا لذلك رددناه أخذًا، وأبطلناه رواية.

وما كان مسكوتًا عنه فى ديننا بحيث لا يكون فى نصوص القرآن أو السنة ما يوافقه، ولا ما يخالفه توقفنا فى قبوله عملاً بالحديث

---

(١) الإسرائيليات فى التفسير والحديث - د/ محمد الذهبى: ٨٦. ٨٧.

الشريف، وأرى كذلك أن نتوقف في روايته؛ قياساً على توقفنا في قبوله، وسداً للزريعة.

إلى أن يقول فضيلته:

«ويعجبني في هذا المقام ما ذكره أستاذنا الدكتور محمد أبو زهو في شرح هذا الحديث - حديث «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج». فقد قال:

«ويرى بعضهم أن معنى حديث عبد الله بن عمرو حدثوا عن بني إسرائيل بما لم يثبت لديكم كذبه في المواعظ والقصص، ولا في العقائد والأحكام، وحمل الحديث على هذا المعنى غير مرضي عندنا، وذلك لأن ما لم يثبت كذبه نوعان: أحدهما ما ثبت صدقه، وهذا تجوز حكايته باتفاق، ولا ينبغي أن يخص بالمواعظ والقصص.

وثانيهما ما لم يثبت صدقه ولا كذبه، ولا فائدة تعود على المسلمين من التحديث بهذا النوع، بعد قوله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم».. الحديث - وشرعنا - والحمد لله - مكتف بنفسه، وليس بحاجة إلى مثل هذا، ففيه من العقائد والأحكام والأخلاق والآداب والمواعظ والأمثال ما فيه كفاية وذكرى لكل من كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد»[1].

٤ - أن العلة تدور مع المعلول، وعليه فبقدر ثقافة المسلم بقدر ما يسمح له بالاطلاع على ثقافة أهل الكتاب، وغيرها من ثقافة أهل الكفر والإلحاد، فمن غير الجائز أن نسمح لإنسان لا يعرف عن الإسلام إلا اسمه، وعن القرآن، إلا رسمه بأن يقرأ ثقافة الكفار، ويتعمق فيها ويتأثر بما تحمل من مبادئ هدامة، ومذاهب إلحادية شيوعية،

---

(١) الدخيل - د/ عبد الوهاب فايد: ١/ ١٥٧، ١٥٨.

تحارب الإسلام، وتضمر الحقد للمسلمين.

أما من رسخ قدمه فى الإسلام، وتمسك بالعروة الوثقى عن علم ويقين وبصيرة، بحيث لا يخشى عليه من الفتنة والضلال فجائز له أن يطلع على ثقافتهم، وبأدنى تأمل وتدبر سيكشف زيفها، ويدحض باطلها.

وبناء على هذه القاعدة - قاعدة العلة تدور مع المعلول - فقد وفق الحافظ ابن حجر بين نصوص المنع، ونصوص الجواز حيث يقول: «وكأن النهى وقع قبل استقرار الأحكام الإسلامية، والقواعد الدينية، خشية الفتنة، ثم لما زال المحذور وقع الإذن فى ذلك؛ لما فى سماع الأخبار التى كانت فى زمانهم من الاعتبار»[1].

٭ ٭ ٭

---

(١) فتح البارى: ٢٦١/١٣ - ط. الفنية المتحدة.

تنبيهان

وقبل أن أختم الحديث عن الإسرائيليات أود أن أذكر هنا أمرين أراهما فى غاية الأهمية، ألا وهما:

الأمر الأول: أرى أنه لا يجوز ما يفعله كثير من المفسرين رحمهم الله ، حيث يأتون بالإسرائيليات المسكوت عنها، ويفسرون بها النص القرآنى؛ لأن ذلك يعنى تفصيلاً لما أجمل، وتبيينا لما أبهم، وذلك يتنافى مع حديث رسول الله ﷺ : «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم».

وهل هناك تصديق لهذه المرويات أكثر من الإتيان بها، وجعلها تفسيرًا للنص القرآنى؟

يقول الشيخ أحمد محمد شاكر رحمه الله -:

«إن إباحة التحدث عنهم - أى عن أهل الكتاب - فيما ليس عندنا دليل على صدقه ولا كذبه شئ، وذكر ذلك فى تفسير القرآن وجعله قولاً أو رواية فى معنى الآيات، أو فى تعيين ما لم يعين فيها، أو فى تفصيل ما أجمل فيها شئ آخر؛ لأن فى إثبات مثل ذلك بجوار كلام الله ما يوهم أن هذا الذى لا نعرف صدقه ولا كذبه مبين لمعنى قول الله سبحانه، ومفصل لما أجمل فيه، وحاشا لله ولكتابه من ذلك، وإن رسول الله ﷺ إذ أذن بالتحدث عنهم أمرنا أن لا نصدقهم ولا نكذبهم فأى تصديق لرواياتهم أقوى من أن نقرنها بكتاب الله، ونضعها منه موضع التفسير، أو البيان؟ اللهم غفرًا»[١].

الأمر الثانى: أن الرواية الإسرائيلية قد يكون سندها صحيحًا، ومع ذلك فإننا لا نستطيع الجزم بتصديق مضمونها بل قد يكون مضمونها

---

(١) عمدة التفسير: ١/١٥ - ط. دار المعارف.

غير صحيح، وذلك لأنها لم ترد من طريق معصوم، ولكن أتت عن مصدر إسرائيلى، وحكاه بعض من عرف بالأخذ عن ثقافتهم.

وفى ذلك يقول فضيلة الدكتور محمد أبو شهبة:

«ولعل قائلاً يقول: أما ذكرت من احتمال أن تكون هذه الروايات الإسرائيلية مختلقة موضوعة على بعض الصحابة والتابعين فهو إنما يتجه فى الروايات التى فى سندها ضعف، أو مجهول، أو وضاع، أو متهم بالكذب، أو سئ الحفظ، يخلط بين المرويات، ولا يميز، أو نحو ذلك.

ولكن بعض هذه المرويات حكم عليها بعض حفاظ الحديث بأنها صحيحة السند، أو حسنة السند، أو إسنادها جيد، أو ثابت، ونحو ذلك، فماذا تقول فيها؟

والجواب: أنه لا منافاة بين كونها صحيحة السند، أو حسنة السند، أو ثابتة السند، وبين كونها من إسرائيليات بنى إسرائيل وخرافاتهم وأكاذيبهم.

فهى صحيحة السند إلى ابن عباس، أو عبد الله بن عمرو بن العاص أو إلى مجاهد، أو عكرمة، أو سعيد بن جبير، وغيرهم ولكنها ليست متلقاة عن النبى ﷺ لا بالذات، ولا بالواسطة، ولكنها متلقاة عن أهل الكتاب الذين أسلموا.

فثبوتها إلى من رويت عنه شئ، وكونها مكذوبة فى نفسها أو باطلة، أو خرافة شئ آخر!!

ومثل ذلك الآراء والمذاهب الفاسدة اليوم، فهى ثابتة عن أصحابها، ومن آرائهم ولا شك، ولكنها فى نفسها فكرة باطلة، أو مذهب فاسد»[1].

---

(١) الإسرائيليات والموضوعات - د/ محمد أبو شبهة: ١٣٦.

المبحث الثالث

حذف الأسانيد

زكّى الله صحابة رسول الله ﷺ، وشهد لهم بالتقوى، وألزمهم كلمتها، كما أخبر الرسول ﷺ أنهم خير القرون على الإطلاق واعتبر حبهم دليلاً على حبه هو، وبغضهم دليلاً على بغضه هو.

وقد ذكرنا بعض النصوص فى ذلك، أثناء حديثنا عن تفسيرهم رضى الله عنهم.

لذا أجمع علماء الأمة سلفًا وخلفًا على عدالة هؤلاء الصحب الكرام.

ومن ثم كان الواحد منهم إذا سمع حديثًا من الآخر عن رسول الله ﷺ لم يسأله عن الإسناد، استنادًا إلى هذه الثقة المطلقة.

وإذا كان قد حدث من بعضهم أحيانًا طلب شاهد يشهد على صحة ما قال، فذلك لم يكن للشك فى ذمته، أو للطعن فى عدالته، وإنما كان زيادة للتثبيت، من باب: ولكن ليطمئن قلبى.

كما صرح بذلك عمر بن الخطاب فى حديث سمعه من أبى موسى الأشعرى فى الاستئذان حيث قال:

«إنما سمعت شيئًا فأحببت أن أتثبت».

أخرجه بهذا اللفظ مالك فى موطئه(١).

وفى رواية لمسلم أن عمر قال لأبى موسى: «أما إنى لم أتهمك ولكن خشيت أن يتقول الناس على رسول الله ﷺ»(٢).

---

(١) موطأ مالك، كتاب الاستئذان، باب (١).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الآداب، باب (٣٧).

فلما جاء عصر التابعين، وبعد الناس شيئًا ما عن عهد النبوة، ظهر الوضع، وانتشر الكذب، ومن هنا دعت الحاجة إلى التوثيق والسؤال عن الإسناد.

روى الإمام مسلم في مقدمة صحيحه عن ابن سيرين أنه قال:

«لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم»[1].

واستمر الحال على هذا الوضع، من التثبت والتوثيق، وذكر الإسناد في عهد التابعين وبعده، فلم يقبل حديث إلا بإسناد، ولم يقبل إسناد إلا بعد ثبوت صدق رجاله وعدالتهم.

إلى أن تغير الحال، ووجد من كان همه جمع الأقوال، دون ذكر السند وبيان حال الرجال، فاختلط الحابل بالنابل، والصحيح بالعليل، والأصيل بالدخيل.

يقول السيوطي بعد أن تحدث عن أشهر مفسري التابعين:

«فهؤلاء قدماء المفسرين، وغالب أقوالهم تلقوها عن الصحابة، ثم بعد هذه الطبقة ألفت تفاسير تجمع أقوال الصحابة، والتابعين، كتفسير سفيان بن عيينة، ووكيع بن الجراح، وشعبة بن الحجاج، ويزيد ابن هارون، وعبد الرزاق، وآدم بن أبي إياس، وإسحاق بن راهوية، وروح بن عبادة، وعبد بن حميد، وسعيد وأبي بكر بن أبي شيبة وآخرون.

وبعدهم ابن جرير الطبري، وكتابه أجل التفاسير وأعظمها، ثم ابن أبي حاتم، وابن ماجه والحاكم، وابن مردويه، وأبو الشيخ بن حبان، وابن المنذر في آخرين، وكلها مسندة إلى الصحابة والتابعين وأتباعهم، وليس فيها غير ذلك، إلا ابن جرير، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال،

---

(١) صحيح مسلم، المقدمة.

وترجيح بعضها على بعض، والإعراب والاستنباط، فهو يفوقها بذلك.

ثم ألف فى التفسير خلائق، فاختصروا الأسانيد، ونقلوا الأقوال تترا، فدخل من هنا الدخيل، والتبس الصحيح بالعليل، ثم صار كل من يسنح له قول يورده، ومن يخطر بباله شئ يعتمده، ثم ينقل ذلك عنه من يجيء بعده ظانًا أن له أصلاً غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف الصالح ومن يرجع إليهم فى التفسير»(١).

إن خطورة حذف الإسناد تتمثل فى أن الناس لا يميزون بين الصحيح والمكذوب، أو بين الأصيل والدخيل.

ومن هنا يأخذ المكذوب حكم الصحيح، ويعامل الدخيل معاملة الأصيل، وهنا تكون الطامة الكبرى، إذ يتعبد الناس بما لا أصل له، وبما لم ينزل الله، أو يشرعه رسول الله ﷺ.

إن هناك من المفسرين - كابن جرير الطبرى وغيره - مَنْ ضمنوا تفاسيرهم بعض الإسرائيليات، وبعض الأساطير والخرافات، وإن كان هذا شيئًا يؤخذ عليهم، إلا أنهم فى المقابل أعطوا العلماء الفرصة للتمييز بين المقبول والمردود، والأصيل والدخيل حينما ذكروا ما ذكروه بالإسناد، وذلك جريًا منهم على قاعدة: من أسند لك فقد حملك، أى خرج من العهدة، وألقى التبعة عليك، فعليك البحث والتنقيب، لتميز الصحيح من المريض.

أما من يحذفون الأسانيد، فإنما يوقعون الناس فى أمر خطير وشر مستطير.

لذا عُدَّ حذف الإسناد من أخطر الأمور فى التفسير بالمأثور.

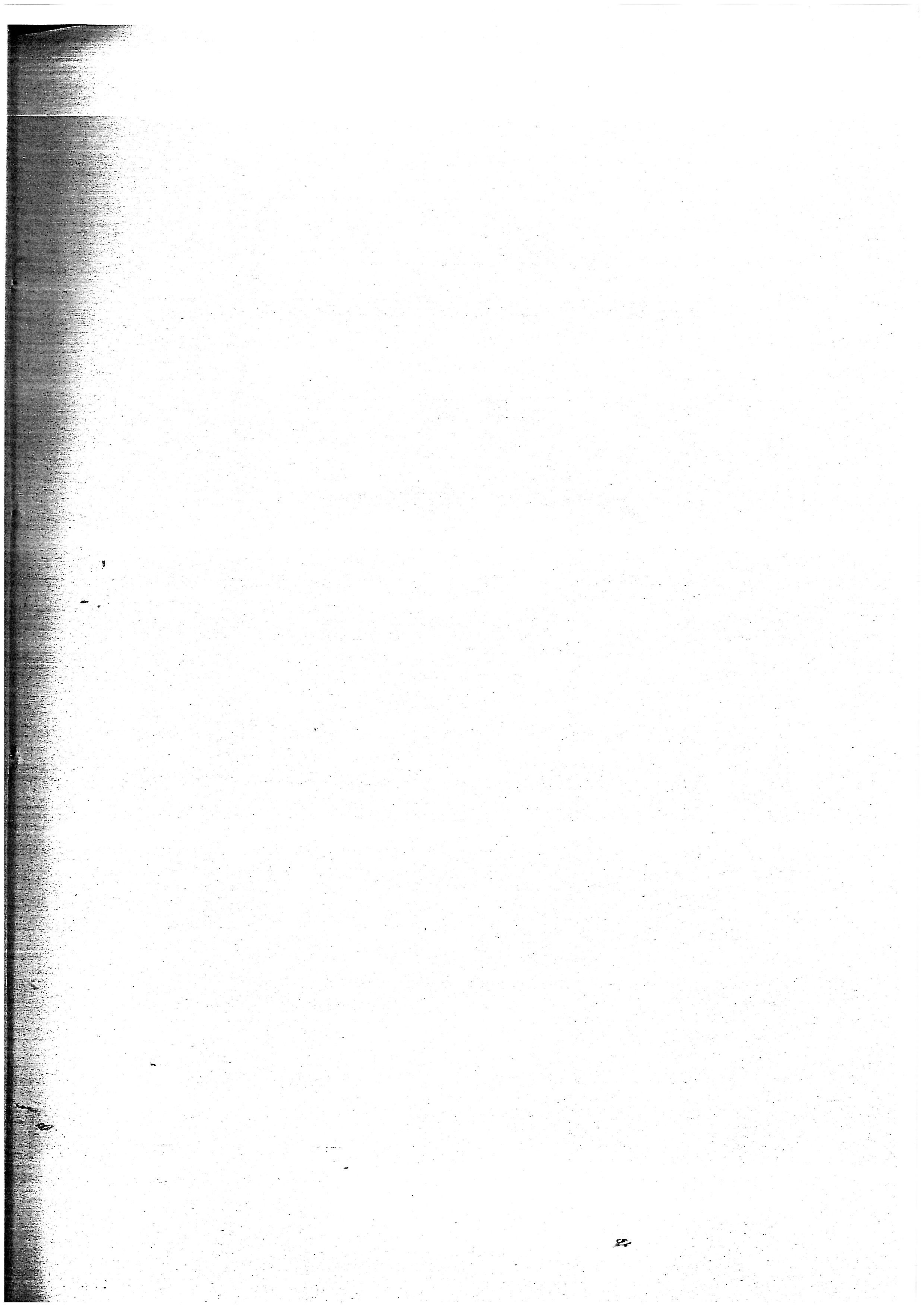
---

(١) الإتقان: ٢/ ٤٩٠.

الفصل الثامن

أهم كتب

التفسير بالمأثور



أهم كتب التفسير بالمأثور

تمهيد:

سبق أن قلنا إن التفسير المأثور هو: ما جاء فى القرآن الكريم نفسه، أو فى الأحاديث النبوية، أو فى أقوال الصحابة والتابعين، لبيان مراد الله عز وجل من كلامه، ونحب نشير هنا إلى أمرين:

الأمر الأول: أن التفسير بالمأثور لم يدون كتابة فى أول الأمر، بل ظل يتناقل شفهيًا من شخص لشخص ومن جيل لجيل، حتى بدأ عهد تدوين العلوم، فى أواخر عهد الأمويين وأول عهد العباسيين.

الأمر الثانى: أن تدوين التفسير لم يدون فى البداية على أنه علم مستقل برأسه، بل على أنه جزء من علم الحديث، فكان الذين يدونون حديث رسول الله ﷺ يجمعون الروايات فى التفسير على أساس كونها بابًا من أبواب الحديث، ولذلك رأينا أصحاب كتب السنة يخصصون فى كتبهم قسمًا خاصًا للتفسير، يسمونه كتاب التفسير.

إلى أن أصبح فيما بعد علمًا مستقلاً برأسه، يهتم العلماء به اهتمامًا خاصًا، كيف لا، وهو الأساس لهذا الدين؟

لذا رأينا العلماء يفردون له كتبًا خاصة، يتناولون فيها تفسير القرآن كله، من أوله إلى آخره، سورة سورة وآية آية.

وكان فى مقدمة هؤلاء: ابن ماجه، صاحب السنن المتوفى سنة ٢٧٣ هـ، وابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ، وابن أبى حاتم المتوفى سنة ٣٢٧، وأبو بكر بن مردويه المتوفى سنة ٤١٠ هـ، وغيرهم.

ثم توالى العلماء فى وضع كتب خاصة فى المأثور، كابن كثير

المتوفى سنة ٧٧٤ هـ، والسيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ والشوكانى، المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ.

وإذا أردنا الاقتصار على ثلاثة منها، فإن أهم ثلاثة فى نظرى، هى تفاسير:

١ - ابن جرير.

٢ - ابن كثير.

٣ - السيوطى.

ولنفرد لكل تفسير حديثًا خاصًا، فنقول وبالله التوفيق:

* * *

المبحث الأول

جامـــع البيـــــان
عــن تأويـل القــرآن
لابــن جــرير الطبــرى

ونحن فى مقام الحديث عن هذا التفسير لابد لنا من التحدث عن صاحبه أولا: ثم عن تفسيره ثانيًا: فنقول وبالله التوفيق:

أولاً: مؤلف هذا التفسير

اسمه ونسبه: هــو - كما يقول ابن خلكان -: «أبو جــعفر محمد ابن جــرير بن يــزيد بن خــالد الطــبرى[١]، وقيــل يزيد بــن كثيــر بن غالب»[٢].

وقد يظن ظان أنه كــنى بأبى جعفر، لأن ابنه الأكبـر اسمه جعفر، كما هو المعهود عمن لديه ولد، ولكن الأمر على غير ذلك، فابن جرير الطبرى لم يتــزوج أبدًا، وبالتالى ليس له ولد، ولكنــه جريًا على عادة العرب فى الاعتزاز بالكنية كنى بها نفسه، ولذلك نراه دائمًا فى تفسيره يقول: قال أبو جعفر.

ومما يدل على عدم تزوجه، قوله فيما يرويه ياقوت الحموى:

«ما حللت سراويلى على حرام ولا حلال قط»[٣].

مولده: ولد سنة أربع وعشرين ومائتين (٢٢٤ هـ) بآمل طبرستان.

وبينما يذهب بعض العلـماء إلى أنه أعجمى الأصل، يرى آخرون

---

(١) الطبري نسبة إلي طبرستان، أما الطبراني فنسبة إلي طبرية.

(٢) وفيات الأعيان: ٤/ ١٩١.

(٣) معجم الأدباء: ١٨/ ٥٥.

أنه عربى الأصل، انحدر آباؤه وأجداده من جزيرة العرب إلى تلك البلاد التى دخلها نور الإسلام، ويستشهد هؤلاء بسلامة لغته وفصاحته فى مصنفاته، فضلاً عن عروبة أسماء آبائه وأجداده إلى عصر الفتوحات، وربما يكون لأصحاب هذا الرأى الثانى نصيب من الصحة، وإن كانت أدلتهم لا تفيد اليقين.

ورغم أنه ولد فى طبرستان إلا أنه لم يركن إلى الراحة، بل رحل إلى أماكن العلم شرقًا وغربًا، وطوف الأقاليم فى طلب العلم - كما يقول ابن السبكى رحمه الله[1].

ومن أبرز تلك الأقاليم التى طوف فيها مصر والشام، والعراق، التى استقر بها حتى توفى ببغداد سنة ٣١٠ هـ.

من صفاته الجسمية: كان رحمه الله أسمر إلى الأدمة، أَعْيَن - أى واسع العينين - نحيف الجسم، مديد القامة، توفى وكان السواد فى رأسه ولحيته كثيراً[2].

أخلاقه:

اتصف رحمه الله بما ينبغى أن يتصف به العلماء العاملون، ومن أهم تلك الصفات ما يلى:

١ - **عزة نفسه:** فما كان يحب أن يكون لأحد عنده يد، جاء فى معجم الأدباء: «وكان إذا أهدى إليه مُهْدٍ هدية مما يمكنه المكافأة عليه قبلها، وكافأه، وإن كانت مما لا يمكنه المكافأة عليه ردها واعتذر إلى مهديها»[3].

---

(١) طبقات الشافعية الكبري: ٣/ ١٢٠.

(٢) طبقات الشافعية الكبري: ٣/١٢٦ - ط. عيسي الحلبي.

(٣) معجم الأدباء: ١٨/٨٧ - ط. دار المأمون.

ومن مظاهر عزة نفسه ما يرويه هو بنفسه لما كان فى طلب العلم: «أبطأت عنى نفقة والدى، واضطررت إلى أن فتقت كُمَّى القميص فبعتهما»(١).

٢ - زهده: ومع عزة نفسه أيضًا كان زاهدًا، فقد يكون الإنسان عزيز النفس، ولكنه لا يكون زاهدًا فى الدنيا، إلا أن إمامنا رحمه الله جمع بين الحسنيين.

ومما يروى عنه فى ذلك أن المكتفى الخليفة قال للحسن بن العباس أريد أن أوقف وقفًا تجتمع أقاويل العلماء على صحته، ويسلم من الخلاف قال: فأحضر ابن جرير الطبرى فأملى عليهم كتابًا لذلك، فأخرجت له جائزة سنية، فأبى أن يقبلها، فقيل له: لابد من جائزة، أو قضاء حاجة، فقال: نعم، الحاجة، أسأل أمير المؤمنين أن يتقدم إلى الشرط، أن يمنعوا السؤال من دخول المقصورة يوم الجمعة، فتقدم بذلك، وعظم فى نفوسهم(٢).

ومن مظاهر زهده أيضًا: أن العباس بن الحسن الوزير أرسل إليه: قد أحببت أن أنظر فى الفقه، وسأله أن يعمل له مختصرًا، فعمل له كتاب «الخفيف» وأنفذه، فوجه إليه ألف دينار، فلم يقبلها، فقيل له: تصدق بها، فلم يفعل»(٣).

وعن زهده يقول الفرغانى: «فأما أهل العلم والدين فغير منكرين علمه وزهده فى الدنيا، ورفضه لها، وقناعته بما كان يرد عليه من حصة خَلّفَها له أبوه بطبرستان يسيرة، ولما تقلد الخاقانى الوزارة وجه

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ٣/ ١٢٥.

(٢) المصدر السابق: ٣/ ١٢٤.

(١) الموضع السابق.

إليه بمال كثير، فأبى أن يقبله، فعرض عليه القضاء فامتنع، فعاتبه أصحابه، وقالوا له: لك فى هذا ثواب، وتحيى سنة قد دَرَسَتْ، وطمعوا فى أن يقبل ولاية المظالم، فانتهرهم وقال: كنت أظن أنى لو رغبت فى ذلك لنهيتمونى عنه»[١].

نبوغه العلمى المبكر:

ومنذ نعومة أظفاره تظهر عليه أمارات النبوغ والذكاء، فقد حفظ القرآن والسنة، وصار إمامًا، ولم يزل طفلاً لم يبلغ الحلم بعد.

وكان ذلك تحقيقًا لبشارة بشر بها أبوه من قبل رسول الله ﷺ فى المنام.

يقول ابن جرير:

«حفظت القرآن ولى سبع سنين، وصليت بالناس وأنا ابن ثمانى سنين، وكتبت الحديث وأنا ابن تسع سنين».

ورأى لى أبى فى النوم أننى بين يدى رسو الله ﷺ، وكان معى مخلاة مملوءة حجارة، وأنا أرمى بين يديه، فقال له المعبر: إنه إن كبر نَصَح فى دينه، وذبّ عن شريعته فحرص أبى على معونتى على طلب العلم، وأنا حينئذ صبى صغير»[٢].

قوة حافظته:

وكان رحمه الله يتمتع بحافظة قوية تكاد تكون منقطعة النظير.

فإذا كان قد حفظ القرآن والسنة فى وقت مبكر جدًا كما سبق، فإن العلوم الأخرى لم تكن عسيرة عليه، بل كانت هينة لينة تجاه حافظته القوية.

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ٣/ ١٢٥.

(٢) معجم الأدباء: ١٨/ ٤٩.

يحكى لنا بنفسه عن موقف حدث له يشهد بذلك، فيقول:

«لما دخلت مصر لم يبق أحد من أهل العلم إلا لقينى وامتحننى فى العلم الذى يتحقق به، فجاءنى يومًا رجل فسألنى عن شئ من العروض، ولم أكن نشطت له قبل ذلك.

فقلت له: علىّ قول ألا أتلكم اليوم فى شئ من العروض، فإذا كان فى غدٍ فصِرْ إلىّ.

وطلبت من صديق لى العروض للخليل بن أحمد، فجاء به، فنظرت فيه ليلتى، فأمسيت غير عروضى، وأصبحت عروضيًا»(١).

ويقول أيضًا عن شيخه أبى كريب:

«حضرت باب داره مع أصحاب الحديث، فاطّع من باب خَوْخَةٍ له(٢)، وأصحاب الحديث يلتمسون الدخول ويضجون، فقال: أيكم يحفظ ما كتب عنى؟ فالتفت بعضهم إلى بعض، ثم نظروا إلىّ وقالوا: أنت تحفظ ما كتبت عنه؟ قال: قلت نعم، فقالوا هذا، فَسَلْهُ، فقلت: حدثتنا فى يوم كذا بكذا، وفى يوم كذا بكذا»(٣).

طلبه للعلم:

وكان رحمه الله نموذجًا للحرص على العلم وطلبه، يحدث عن نفسه فيقول:

«كنا نمضى إلى أحمد بن حماد الدولابى، وكان فى قرية من قرى الرى، بينها وبين الرى قطعة، ثم نعدو كالمجانين، حتى نصير إلى ابن

---

(١) معجم الأدباء: ١٨/ ٥٦.

(٢) أى كوة فى الحائط ينفذ منها الضوء إلى البيت.

(٣) معجم الأدباء: ١٨/ ٥١.

حَمِيدٍ، فنلحق مجلسه»[١].

وعنه يقول مسلمة بن قاسم: «رحل من بلده فى طلب العلم وهو ابن اثنتى عشرة سنة، فلم يزل طالبًا للعلم مولعًا به، إلى أن مات»[٢].

مكانته العلمية:

وقد أتت تلك الجهود المضنية لتحصيل العلم ثمارها المرجوة، حتى تبوأ ذلك المجاهد مكان الصدارة فى عصره، فى مختلف العلوم.

قال عنه ابن خزيمة: «ما أعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير»[٣].

وقال عنه ابن خلكان:

«كان إمامًا فى فنون كثيرة، منها التفسير والحديث، والفقه والتاريخ وغير ذلك، وله مصنفات مليحة فى فنون عديدة تدل على سعة علمه، وغزارة فضله»[٤].

وقال عنه الخطيب البغدادى:

«كان ابن جرير أحد الأئمة، يحكم بقوله، ويرجع إلى رأيه، لمعرفته وفضله جَمَعَ من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، فكان حافظًا لكتاب الله بصيرًا بالمعانى، فقيهًا فى أحكام القرآن، عالمًا بالسنن وطرقها، صحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفًا بأقوال الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من المخالفين فى الأحكام، ومسائل الحلال والحرام، عارفًا بأيام الناس وأخبارهم، وله الكتاب المشهور فى تاريخ الأمم والملوك، وكتاب فى التفسير لم يصنف أحد

---

(١) معجم الأدباء: ١٨/ ٥٠.

(٢) لسان الميزان لابن حجر العسقلانى: ٥/ ١٠٢ - ط. مؤسسة الأعلمى ببيروت.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى: ٣/ ١٢٤.

(٤) وفيات الأعيان: ٤/ ١٩١.

مثله، وكتاب سماه تهذيب الآثار، لم أر سواه فى معناه، إلا أنه لم يتمه، وله فى أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة»[١].

وقال عنه الحسن بن على الأهوازى:

«كان أبو جعفر الطبرى عالمًا بالفقه والحديث والتفاسير والنحو واللغة والعروض، له فى جميع ذلك تصانيف فاق بها على سائر المصنفين وله فى القراءات كتاب جليل كبير رأيته فى ثمانى عشرة مجلدة، إلا أنه كان بخطوط كبار، ذكر فيه جميع القراءات من المشهور والشواذ، وعَلَّلَ ذلك وشرحه»[٢].

وجاء فى معجم الأدباء: «وكان أبو جعفر قد نظر فى المنطق والحساب والجبر والمقابلة، وكثير من فنون أبواب الحساب، وفى الطب وأخذ منه قسطًا وافرًا، يدل عليه كلامه فى الوصايا.

وكان عازفًا عن الدنيا، تاركًا لها ولأهلها، يرفع نفسه عن التماسها، وكان كالقارئ الذى لا يعرف إلا القرآن، وكالمحدث الذى لا يعرف إلا الحديث، وكالفقيه الذى لا يعرف إلا الفقه، وكالنحوى الذى لا يعرف إلا النحو، وكالحاسب الذى لا يعرف إلا الحساب، وكان عالمًا بالعبادات، جامعًا للعلوم، وإذا جمعت بين كتبه وكتب غيره وجدت لكتبه فضلاً على غيرها»[٣].

مصنفاته:

له مصنفات عديدة أشهرها:

كتاب التفسير الذى نحن بصدده، وكتاب فى التاريخ، أسماه تاريخ الأمم والملوك، وكتاب «الخفيف» فى الفقه، وكتاب التبصير فى أصول

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ٣/ ١٢٢.

(٢) معجم الأدباء: ١٨/ ٤٥.

(٣) معجم الأدباء: ١٨/ ٦١.

الدين، وكتاب تهذيب الآثار، إلى غير ذلك من الكتب.

غير أن أهم كتبه على الإطلاق، كتاب التفسير والتاريخ فهما اللذان حظيا بالبقاء والشهرة والذيوع إلى يومنا هذا[١].

عقيدته:

يندرج ابن جرير الطبرى - رحمه الله - ضمن علماء أهل السنة والجماعة، وإن قال عنه بعض العلماء فيه تشيع يسير، لأنه رحمه الله لم يسر على مبادئ الشيعة، بل على مذهب أهل السنة، ويتضح ذلك بجلاء، من قراءة كتبه، خاصة كتابه فى التفسير.

قال عنه ابن حجر فى لسان الميزان: «ثقة صادق، فيه تشيع يسير، وموالاة لا تضر»[٢].

خلط ظالم:

هذا وقد حدث بينه وبين أحد الروافض خلط فى الاسم، مما جعل الناس يرمون ابن حجر الطبرى بالكذب.

قال ابن حجر: «أقذع أحمد بن على السليمانى الحافظ فقال: كان يضع للروافض، كذا قال السليمانى.

وهذا رجم بالظن الكاذب، بل إن ابن جرير من كبار أئمة الإسلام المعتمدين، وما ندعى عصمته من الخطأ، ولا يحل لنا أن نؤذيه بالباطل والهوى، فإن كلام العلماء بعضهم فى بعض ينبغى أن يتأنى فيه، ولا سيما فى مثل إمام كبير فلعل السليمانى أراد الآتى (أى محمد بن جرير بن رستم أبو جعفر الطبرى الرافضى).

ثم قال ابن حجر: «ولو حلفت أن السليمانى ما أراد إلا الآتى -

---

(١) انظر طبقات الشافعية: ٣/ ١٢١.

(٢) لسان الميزان: ٥/ ١٠٠.

أى ابن جرير بن رستم السابق ذكره - لبررت، والسليمانى حافظ متقن، كان يدرى ما يخرج من رأسه، فلا أعتقد أنه يطعن فى مثل هذا الإمام بهذا الباطل، والله أعلم»[١].

وقال الخطيب البغدادى مشيراً إلى سبب اللبس: «وإنما ضره الاشتراك فى اسمه واسم أبيه، ونسبه وكنيته، ومعاصرته، وكثرة تصانيفه»[٢].

جاء فى معجم الأدباء:

«وكان أبو جعفر يعتقد أن ما أخطأه ما كان ليصيبه، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن جميع ما فى العالم لا يكون إلا بمشيئة الله، وأن الله عز وجل لم يزل موصوفاً بصفاته التى هى علمه وقدرته، وكلامه غير محدث.

قال أبو على، الحسن بن على الأهوازى:

«وكان أبو جعفر يذهب فى الإمامة، إلى إمامة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى، رضى الله عنهم، وما عليه أصحاب الحديث فى التفضيل.

وكان يكفر من كفر أصحاب رسول الله ﷺ من الروافض والخوارج ولا يقبل أخبارهم، ولا شهاداتهم»[٣].

وقال حين حضرته الوفاة:

«كل من عادانى وتكلم فى حِلٍّ إلا رجلاً رمانى ببدعة»[٤].

مذهبه الفقهى:

أما مذهب الفقهى: فقد بدأ حياته مقلداً للإمام الشافعى رحمه الله

---

(١) لسان الميزان: ٥/ ١٠٠.

(٢) الموضع السابق.

(٣) معجم الأدباء: ١٨/ ٨٣.

(٤) معجم الأدباء: ١٨/ ٨٤.

تعالى، وأفتى به في بغداد، وعن هذه الفترة من حياته يقول:

«أظهرت فقه الشافعي، وأفتيت به ببغداد عشر سنين، وتلقنه مني ابن بشار الأحول، أستاذ أبي العباس ابن سريج»(١).

ولكن ابن جرير سرعان ما أصبح مجتهدًا مستقلاً، وانصرف عن التقليد.

يقول ابن خلكان: «وكان من الأئمة المجتهدين، لم يقلد أحدًا وكان أبو الفرج، المعافى بن زكرياء النهرواني، المعروف بابن طرارا على مذهبه».

إلى أن قال: «وذكره الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في طبقات الفقهاء، في جملة المجتهدين»(٢).

ولكن هذا المذهب الذي كان له أتباع ومقلدون يقال لهم الجريرية توارى بمرور الزمان، شأنه شأن غيره من المذاهب التي درست، ولم يعد لها بقاء.

أمانته العلمية وثقة العلماء فيه:

وكان رحمه الله أمينًا في العلم، ونقله، متصفًا بالصدق والعدالة، حاز ثقة العلماء فيه.

قال ابن خلكان: «وكان ثقة في نقله، وتاريخه أصح التواريخ وأثبتها»(٣).

وقال عنه ابن حجر: «ثقة صادق»(٤).

وفاتـــه:

وبعد حياة عامرة بالكفاح توفي رحمه الله تعالى عشية الأحد،

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ٣/ ١٢٣.

(٢) وفيات الأعيان: ٤/ ١٩١.

(٣) وفيات أعيان: ٤/ ١٩١.

(٤) لسان الميزان: ٥/ ١٠٠.

ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاثمائة (٣١٠ هـ)، ودفن فى داره بِرَحْبَة يعقوب ببغداد، واجتمع عليه من لا يحصيه إلا الله تعالى، وصلى على قبره عدة شهور، ليلاً ونهاراً، ورثاه خلق كثير من أهل الدين والأدب[١].

تفسير الطبرى

وبعد الحديث عن المفسر نتقل إلى الحديث عن تفسيره، فنقول:

اسم التفسير: أسمى ابن جرير تفسيره «جامع البيان عن تأويل القرآن».

وقد كان هذا التفسير فى عداد الكتب المفقودة، إلا أن الله عز وجل أراد الانتفاع به فأظهره، وسخر له من يطبعه، لينتفع به أهل الدنيا كلها.

لقد وجدت منه نسخة كاملة مخطوطة فى مكتبة أمير حائل الأمير حمود ابن الأمير عبد الرشيد من أمراء نجد، أخذت وطبعت فى القاهرة.

يقول جولدزيهر: «كان مفاجأة سارة للعالم العلمى فى المشرق والمغرب أن صدرت طبعة كاملة فى القاهرة لهذا الكتاب الضخم فى ٣٠ جزءاً فى نحو ٥٢٠٠ صفحة، معتمدة على نسخة كاملة مخطوطة، وجدت فى مكتبة أمير حائل، كما طبعت بعد ذلك منقحة سنة ١٩١١م»[٢].

ويبدو من المراجع التى تضمها المكتبة الإسلامية أن تفسير الطبرى، وكذلك تاريخه كانا أكبر حجماً مما هما عليه الآن، إلا أن الطبرى

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ٣/١٢٦.

(٢) المذاهب الإسلامية فى التفسير: ١٠٨، ١٠٩، وانظر التفسير والمفسرون: ١/٢٠٤.

اختصرهما، خوفًا من أن تدركه المنية قبل إتمام إملائهما على الناس، كما نصحه الناصحون.

جاء فى طبقات الشافعية الكبرى أن أبا جعفر قال لأصحابه:

«أتنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا كم يكون قدره؟ فقال: ثلاثون ألف ورقة، فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه، فاختصره فى نحو ثلاثة آلاف ورقة.

ثم قال: هل تنشطون لتاريخ العالم، من آدم إلى وقتنا هذا؟ قالوا: كم قدره؟ فذكر نحوًا مما ذكره فى التفسير، فأجابوه بمثل ذلك، فقال: «إنا لله ماتت الهمم»، فاختصره فى نحو ما اختصر التفسير»[1].

قيمة هذا التفسير

تأتى أهمية هذا التفسير من ناحيتين، من الناحية الزمانية ومن الناحية التخصصية.

أما من الناحية الزمانية: فإنه يعتبر أقدم كتاب فى التفسير وصل إلينا وذاع وانتشر فى العالم كله.

أما من ناحية التخصص: فلأن الطبرى سلك فيه مسلكًا بديعًا لم يسلكه أحد قبله، ولا بعده، حيث لم يقتصر فيه على المأثور فقط، وإنما أعمل فيه عقله، فاستنبط الأحكام، ووجه الأقوال، ورجح بعضها على بعض، ترجيحًا قائمًا على الدليل المجرد من الهوى والتعصب، مما يدل على شخصية مفسر حرّ عالم نزيه، ينشد الحق، أيًا كان قائله.

يقول جولدزيهر: «ولدينا فى هذا الكتاب دائرة معارف غزيرة الثروة من التفسير المأثور، يقدمها لنا الطبرى نفسه.

---

(١) طبقات الشافعية: ٣/ ١٢٣.

وهو لا يفتأ تجاه آراء التفسير الأميل إلى الاستقلال، والذاتية الصادرة عن الرأى، والتى لا يعيرها اهتمامًا، يؤكد التصويب المطلق للعلم، المؤسس على صحابة الرسول وتابعيهم، والرواية التى يؤيدها التوارث المتسلسل والذيوع المطرد، على أنهما الطابع الوحيد لصواب التفسير.

وإلى جانب ذلك يتطلب الطبرى لإجماع الأمة فى التفسير أيضًا أعلى مراتب الحجية.

وفى هذا المعنى يرتب من آية إلى أخرى وجوه التفسير المروية عن دائرة الثقات المعتد بهم فحسب، منسقة بعضها إلى جانب بعض، حسب اختلاف الإسناد الذى رواها عن طريقته.

ولا يفعل ذلك فى مجرد سرد آلى، بل يستخدم فى توسع حق النقد المعمول به فى الإسلام منذ عهد جد مبكر، تجاه سلاسل رجال السند»[١].

من أجل هذا نال تفسير ابن جرير الطبرى إعجاب العلماء وثناءهم عليه.

يقول عنه أبو حامد الإسفراينى: «لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل له كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيرًا»[٢].

وقال النووى فى التهذيب[٣]: «كتاب ابن جرير فى التفسير لم يصنف أحد مثله».

وقال ابن خزيمة بعد أن قرأه فى سنوات: «نظرت فيه من أوله إلى

---

(١) المذاهب الإسلامية فى التفسير: ١٠٩، ١١٠.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى: ٣/ ١٢٢، ولسان المكيزان: ٥/ ١٠٢.

(٣) نقلاً عن الإتقان: ٢/ ١٩٠.

آخره، وما أعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير»[١].

وقال ابن تيمية: «وأما التفاسير التى فى أيدى الناس فأصحها تفسير ابن جرير الطبرى، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين، كمقاتل بن بكير والكلبى»[٢].

ويقول السيوطى: «وكتابه أجل التفاسير وأعظمها»[٣].

منهج الطبرى فى تفسيره

كما سبق أن قلنا إن تفسير الطبرى لم يقتصر على المأثور فقط، وإنما اتسع ليتناول أشياء أخرى، كالاستنباط والإعراب، وذكر الأقوال وترجيح بعضها على بعض.

وعلى هذا فهو وإن احتل المرتبة الأولى من ناحية المأثور، فإنه يعتبر مرجعًا فى غاية الأهمية فى التفسير بالرأى المحمود أيضًا.

وبذلك فاق التفاسير التى اقتصرت على المأثور فقط كتفاسير ابن أبى حاتم وابن ماجه والحاكم وابن مردويه وابن حبان وابن المنذر.

ولذلك يعلق السيوطى على هذه التفاسير فى موازنة بينها وبين تفسير ابن جرير الطبرى فيقول:

«وكلها - أى التفاسير المشار إليها - مسندة إلى الصحابة والتابعين وأتباعهم، وليس فيها غير ذلك، إلا ابن جرير، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، والإعراب والاستنباط، فهو يفوقها بذلك»[٤].

وقد جرت عادة ابن جرير الطبرى فى تفسيره من أوله إلى آخره أن

---

(١) طبقات الشافعية: ٣/ ١٢٤.

(٢) ينظر مقدمة في أصول التفسير. وفتاوى ابن تيمية: ٢/ ١٩٢.

(٣) الإتقان: ٢/ ١٩٠. (٤) الإتقان: ٢/ ١٩٠.

يقول: «القول فى تأويل قوله تعالى كذا».

ثم يقول قال أبو جعفر: «... ثم يفسر الآية بما يراه صحيحًا من وجهة نظره، ثم يستشهد لصحة تفسيره بما يراه مؤيدًا لها، من القرآن أو السنة، أو أقوال الصحابة والتابعين، أو الشعر العربى، أو استعمالات العرب وغير ذلك.

وإذا كان فى الآية أكثر من قول ذكر ذلك وتعرض لكل قول بالتوجيه، ورجح ما يراه راجحًا بأى وجه من وجوه الترجيح المعروفة لدى المفسرين وعلماء الأصول.

ونستطيع أن نبرز أهم ملامح منهجه فى النقاط التالية:

أولاً: تفسيره القرآن بالقرآن:

فهو حينما يفسر الآية يأخذ الرسول ﷺ المثل الأعلى له، حينما كان يفسر القرآن بالقرآن، كما أوضحنا فى موضعه فى أول هذا الكتاب، حينما فسر الظلم فى سورة الأنعام فى قوله تعالى ﴿**الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم**﴾ بالشرك الوارد فى سورة لقمان فى قوله تعالى ﴿**إن الشرك لظلم عظيم**﴾.

ومن هذه الأمثلة ما يأتى:

١ - **فى تفسير الاستعاذة قال**: تأويل قوله ﴿**من الشيطان**﴾.

قال أبو جعفر: «والشيطان فى كلام العرب: كل متمرد من الجن والإنس والدواب وكل شئ، وكذا قال ربنا جل ثناؤه ﴿**وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن**﴾[(١)]، فجعل من الإنس شياطين مثل الذى جعل من الجن.

وقال عمر بن الخطاب رحمة الله عليه، وركب برذونا فجعل

---

(١) الأنعام: ١١٢.

يتبختر به فجعل يضربه فلا يزداد إلا تبختراً، فنزل عنه وقال: ما حملتمونى إلا على شيطان، ما نزلت عنه حتى أنكرت نفسى[(١)].

٢ - وفى تفسير قوله تعالى ﴿**صراط الذين أنعمت عليهم**﴾ من سورة الفاتحة يقول: «صراط الذين أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك، من ملائكتك وأنبيائك والصديقين والشهداء والصالحين» ثم يقول: «وذلك نظير ما قال ربنا جل ثناؤه فى تنزيله ﴿**ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين**﴾[(٢)].

٣ - وفى تأويل قوله تعالى ﴿**ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة**﴾ يذهب إلى أن الختم على القلوب والأسماع دون الأبصار، ويستشهد على ذلك بالقرآن فيقول:

«ختم غير موصوفة به العيون فى شئ من كتاب الله، ولا فى خبر عن رسول الله ﷺ، ولا موجود فى لغة أحد من العرب، وقد قال تبارك وتعالى فى سورة أخرى ﴿**وختم على سمعه وقلبه**﴾ ثم قال ﴿**وجعل على بصره غشاوة**﴾[(٣)] فلم يدخل البصر فى معنى الختم»[(٤)].

٤ - وفى تفسير قوله تعالى ﴿**أو أكننتم فى أنفسكم**﴾[(٥)].

يقول: «أو أخفيتم فى أنفسكم فأسررتموه من خطبتهن وعزم نكاحهن وهن فى عددهن فلا نكاح عليكم أيضًا فى ذلك.

يقال: «أكن فلان هذا الأمر فى نفسه فهو يكنه إكنانًا وكَنَّه إذا

---

(١) جامع البيان: ١/ ٧٦ - ط. دار الكتب العلمية.

(٢) النساء: ٦٩.   (٣) الجاثية: ٢٣.

(٤) جامع البيان: ١/ ١٤٧.

(٥) البقرة:

ستره، وإنما يقال كننته فى البيت أو فى الأرض إذا خبأته فيه، ومنه قوله تعالى ذكره: ﴿كأنه بيض مكنون﴾(١)، أى مخبوء»(٢).

وكان ابن جرير قدوة للمفسرين بالمأثور بعده، وأبرز من تأثر به فى هذه الناحية ابن كثير عليهما رحمة الله.

فقد توسع فى ذلك توسعًا شديدًا أكثر من الطبرى، الذى كان يقتصر على آية أو آيتين، ليقوى صحة ما يذهب إليه.

ثانيًا: تفسيره القرآن بالسنة

ومن منهجه رحمه الله أنه كان يلجأ إلى السنة فى التفسير إذا لم يجد فى القرآن ما يستشهد به، أو أراد زيادة الأدلة لما يذهب إليه.

ومن أمثلة ذلك ما يلى:

١ - فى تفسير قوله تعالى ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدًا آمنًا﴾(٣)، ذكر اختلاف العلماء فى الوقت الذى ابتدأ فيه تحريم مكة، وجعلها للناس آمنًا هل من يوم خلق السموات والأرض أم من ساعة أن دعا إبراهيم ربه بذلك، ثم قال: «والصواب من القول فى ذلك عندنا أن الله تعالى ذكره جعل مكة حرمًا حين خلقها وأنشأها كما أخبر النبى ﷺ: «أنه حرمها يوم خلق السموات والأرض»(٤) بغير تحريم منه لها على لسان أحد من أنبيائه ورسله»(٥).

٢ - وفى تفسير قوله تعالى ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم

---

(١) الصافات: ٤٩.

(٢) جامع البيان: ٢/ ٥٣٤.

(٣) البقرة: ١٢٦.

(٤) أخرجه البخارى وغيره، انظر صحيح البخارى، كتاب الحج، باب لا يحل القتال بمكة.

(٥) جامع البيان: ١/ ٥٩٢.

آياتك﴾[1] قال: «قال أبو جعفر: وهذه دعوة إبراهيم وإسماعيل لنبينا محمد ﷺ خاصة، وهى الدعوة التى كان نبينا محمد ﷺ يقول: «أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى»[2].

وذكر أكثر من رواية بأسانيدها فى ذلك.

٣ - وفى تفسير قوله تعالى ﴿يا أخت هارون﴾[3]. يذكر اختلاف العلماء فيمن كان هارون هذا الذى ذكره الله، وأخبر أنهم نسبوا مريم إلى أنها أخته.

ثم يقول: «والصواب من القول فى ذلك ما جاء به الخبر عن رسول الله ﷺ الذى ذكرناه وأنها نسبت إلى رجل من قومها»[4].

وهو يشير بذلك إلى حديث المغيرة بن شعبة الذى ذكره قبل نصه هذا بقليل، حيث جاء فيه أن المغيرة بن شعبة قال:

«بعثنى رسول الله ﷺ إلى أهل نجران، فقالوا لى: ألستم تقرءون ﴿يا أخت هارون﴾؟ قلت: بلى، وقد علمتم ما كان بين عيسى وموسى، فرجعت إلى رسول الله ﷺ، فأخبرته فقال: «ألا أخبرتم أنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم»[5].

ثالثًا: تفسيره بأقوال الصحابة والتابعين

كما نجد أن ابن جرير رحمه الله يستشهد بأقوال الصحابة والتابعين بكثرة لا يجاريه فيها أحد، إلى درجة الإطالة التى تفضى إلى الملل، خاصة حينما تكون الروايات كلها تحمل معنى واحداً.

---

(١) البقرة: ١٢٩.
(٢) جامع البيان: ١/٦٠٦.
(٣) مريم: ٢٨.
(٤) جامع البيان: ٨/٣٣٦.
(٥) أخرجه مسلم فى كتاب الآداب، باب (٩).

وربما نجد له عذرًا فى ذلك، فلعله أراد بتلك الكثرة حفظ تلك الروايات من الضياع أو النسيان فى كتابه هذا، لكى يستفيد منه العلماء فى مختلف اختصاصاتهم، سواء المفسرون أم المحدثون أم الفقهاء أم النحويون وغير ذلك، وقد كان كتابه بالفعل كذلك. فصار خزينة لعلوم كثيرة، يرجع إليها العلماء على اختلاف فنونهم.

وأعتقد أننا فى غنى عن ذكر نماذج لتفسيره بأقوال الصحابة والتابعين، إذ لا تخلو آية من ذكر ذلك.

رابعًا: الإسرائيليات فى تفسيره

ونحن فى هذه الزاوية - زاوية التفسير بأقوال الصحابة والتابعين نأخذ عليه الإكثار من ذكر الإسرائيليات التى تصل فى بعض الأحيان إلى أنها تقدح فى العقيدة أو تتنافى مع عصمة أنبياء الله عز وجل.

وهو بهذا السلوك يفتح المجال واسعًا أمام أعداء الله تعالى لينالوا من هذا الدين، ويصوروا الإسلام على أنه دين خرافات وأساطير.

ونستطيع أن نشير إلى بعضها فى عجالة.

١ - فى تفسير سورة الأنعام، وعند قوله تعالى: ﴿**ومن أظلم ممن افترى على الله كذبًا أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شئ**﴾ يذكر روايتين فى سبب نزولها، وأنها نزلت فى عبد الله بن مسعود بن أبى سرح، حيث كان يكتب للنبى ﷺ فكان إذا أملى عليه «سميعًا عليمًا» كتب هو «عليمًا حكيمًا» وإذا قال «عليمًا حكيمًا» كتب «سميعًا عليمًا» فشك وكفر، وقال: إن كان محمد يوحى إليه فقد أوحى إلىّ، وإن كان الله ينزله فقد أنزلت مثل ما أنزل الله.

وفى الرواية الأولى: «وكان فيما يملى «عزيز حكيم» فيكتب

«غفور رحيم، فيغيره ثم يقرأ عليه «كذا وكذا» لما حوّل فيقول «نعم، سواء».

إن مثل هاتين الروايتين مهما بلغ من صحة السند - وإن كان لعلماء الحديث فى بعض رجال سنديهما كلام، كابن جريج فى الرواية الأولى وأسباط فى الثانية: أقول مهما بلغ من صحة السند فلا نسلم بصحة المتن، لأن هذا يعنى أن النص القرآنى يجوز فيه التصرف من قبل الخلق، وهذا مردود من خلال القرآن نفسه.

قال تعالى ﴿**قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ**﴾[١].

بل إن السنة نفسها لا يجوز التصرف فى نصوصها، وها هو الرسول ﷺ حينما قال الرجل الحديث المأثور عند النوم (ورسولك الذى أرسلت) قال له النبى ﷺ: «ونبيك الذى أرسلت»[٢]. وها هو ابن مسعود رضى الله عنه يحدث ذات يوم بحديث، فجرى على لسانه قال رسول الله ﷺ، فعلاه الكرب، حتى تحدر العرق عن جبهته، ثم قال: إن شاء الله، إما فوق ذاك، وإما قريب من ذاك، وإما دون ذلك»[٣].

أفيأتى رسول الله ﷺ ويقر ابن أبى سرح على تغيير النص القرآنى، وبالذات فى الفاصلة.

إن الفاصلة بالذات لها دور عظيم فى الإعجاز القرآنى، بحيث لا تؤدى لفظة معنى اللفظة التى أنزلها الله تعالى.

---

(١) يونس: ١٥.

(٢) أخرجه البخارى فى مواضع متعددة منها فى البخارى: كتاب الدعوات باب(٦).

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ ١٥٦.

وصدق ابن عطيه رحمه الله، حينما قال: «وكتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب فى أن يوجد أحسن منها لم يوجد»(١).

والأغرب من إيراد ابن جرير لهذه الروايات أنه علق عليها بكلام يفهم منه تصديقه إياها، حيث قال معلقًا: «ولا تمانع بين علماء الأمة أن ابن أبى سرح كان ممن قال: «إنى قد قلت مثل ما قال محمد.. إلى أن قال: فإن كان ذلك كذلك فقد دخل فى هذه الآية كل من كان مختلقا على الله كذبًا»(٢).

نعم لا تمانع بين علماء الأمة أن ابن أبى سرح قد قال مثل هذا، ولكن الذى تمنعه الأمة كلها أن يكون الرسول ﷺ قد أقره على تغيير النص القرآنى.

إن هذا الكلام فى هذا الوقت لو صح لا يمكن تصديقه، لأنه كلام من مرتد يطعن فى الإسلام كذبًا وزورًا، بدليل أنه رجع إلى الإسلام مرة أخرى.

إنه لو كان مقتنعًا بأن الرسول كذاب، لما دخل فى الإسلام مرة أخرى بعد ارتداده.

أقول: إن ابن جرير قد فتح المجال للمستشرقين للطعن فى القرآن من أمثال جولدزيهر وغيره.

يقول جولدزيهر معلقًا على رواية مثل هذه لابن جرير الطبرى:

«وهو رأى انتهى - فيما يتعلق بتلاوة القرآن ومراسيم العبادة - إلى القول بجواز قراءة النص المطابق للمعنى، وإن لم يطابق حرفية اللفظ».

---

(١) المحرر الوجيز: ١/ ٧٢ - ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(٢) جامع البيان: ٥/ ٢٦٩.

ثم يقول: «وإلى هذا أيضًا مثال أوضح فإن عبد الله بن أبى سرح. . . »[1].

ثم ذكر قصته التى رواها ابن جرير الطبرى.

أرأينا لو أن إمامنا ابن جرير عليه رحمة الله لو نظف تفسيره من مثل هذه الروايات، أو أنه علق عليها مشيرًا إلى كذبها بالمرة.

إذًا لاستراح، ولسد الباب من هذه الناحية، أمام أولئك الطاعنين الأفاكين.

٢ - ومن أمثال الإسرائيليات التى تشوه العقيدة أيضًا ما يذكره ابن جرير الطبرى فى آيات خلق السموات والأرض، والكائنات جميعًا.

ومن أمثلة ذلك:

فى تفسير قوله تعالى فى سورة البقرة ﴿**هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعًا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات**﴾ يطرح سؤالاً ويجيب عليه بالإسرائيليات فيقول:

فإن قال لنا قائل: فما صفة تسوية الله جل ثناؤه السموات التى ذكرها فى قوله ﴿**فسواهن**﴾ إذ كن قد خلقن سبعًا قبل تسويته إياهن؟ وما وجه ذكر خلقهن بعد ذكر خلق الأرض، ثم يقول:

قيل: قد ذكرنا ذلك فى الخبر الذى رويناه عن ابن إسحاق، ونؤكد تأكيدًا بما نضم إليه من أخبار بعض السلف المتقدمين وأقوالهم.

ثم ذكر الآتى: «إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء، ولم يخلق شيئًا غير ما خلق قبل الماء، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانًا فارتفع فوق الماء، فسما عليه، فسماه سماء.

---

(١) مذاهب التفسير الإسلامى: ٤٩-٥١.

ثم أيبس الماء، فجعله أرضًا واحدة، ثم فتقها، فجعل سبع أرضين في يومين، فى الأحد والاثنين، فخلق الأرض على حوت، والحوت هو النون الذى ذكره الله فى القرآن ﴿ن والقلم....﴾، والحوت فى الماء والماء على ظهر صفاة[1]، والصفاة على ظهر مَلَك، والملك على صخرة، والصخرة فى الريح، وهى الصخرة التى ذكر لقمان - ليست فى السماء ولا فى الأرض، فتحرك الحوت فاضطرب، فتزلزلت الأرض، فأرسى عليها الجبال فقرَّت فالجبال تفخر على الأرض... إلى آخر تلك الرواية[2].

إن هذه الإسرائيليات تشوه العقيدة الإسلامية، إذ أنها تصور الإسلام على أنه دين خرافات، تقوم فيه عقيدة المسلمين على أوهام لا أساس لها، وعلى أساطير لا واقع لها.

ومن تلك الروايات الباطلة التى تحط من قدر الأنبياء، وتتنافى مع مقام النبوة، والتى أوردها ابن جرير فى تفسيره.

١ - ما ذكره فى فتنة سليمان عليه السلام، من إسرائيليات باطلة حيث ذكر تلك الروايات التى تنص على أن داود قال يارب: إن الخير كله قد ذهب به آبائى الذين كانوا قبلى، فأعطنى مثل ما أعطيتهم وافعل بى مثل ما فعلت بهم، قال: فأوحى الله إليه: إن آباءك ابتلوا ببلايا لم تبتل بها. . إلى أن قال: فأوحى إليه إنك مبتلى فاحترس، قال: فمكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث، إذ جاءه الشيطان قد تمثل فى صورة حمامة من ذهب حتى وقع عند رجليه وهو قائم يصلى، فمد يده ليأخذه، فتنحى فتبعه، فتباعد حتى

(١) أى صخرة ملساء، كما فى لسان العرب.

(٢) جامع البيان: ١/ ٢٣٠، ٢٣١.

وقع فى كـوة، فذهب ليأخذه فطار من الكـوة، فنظر أيـن يقع، فيبعث فى أثره، قال: فأبصر امرأة تـغتسل على سطح لها، فرأى امرأة من أجمل الناس خـلقًا، فحانت منها التفاتة فـأبصرته فألقت شعرها فاستترت به، فزاده ذلك فيـها رغبة، فسأل عنها، فأخبر أن لها زوجًا، وأن زوجها غائب بمسلحة كذا وكذا.

فبعث إلى صـاحب المسلحة أن يبعث أوريـا إلى عدو كذا وكذا، فبعثه ففتح له، وكتب إليه بذلك.

فكتب إلـيه أيضًا أن ابعثه إلـى عدو كذا وكذا، أشد منـهم بأسًا، فبعثه ففتـح له أيضا، فكتب إلى داود بذلك، فكتـب إليه أن ابعثه إلى عدو كذا وكذا، فبعثه فقتل المرة الثالثة، وتزوج امرأته[1].

واضح تمام الوضوح بطـلان هذه الرواية، لتنافيها مـع مقام النبوة، حيث إن مـا فيها من مـضمون لا يليـق بعوام الناس، فـضلاً عن صالحيهم، فما بـالك بالصفوة التى اختارها الله ليـكونوا رسلاً منه إلى الناس؟ ومع ذلك لا يعقب عليها ابن جرير بكلمة واحدة.

لقد أبطل العلماء هذه الرواية وأضرابـها، فليرجع إلى تفاسيرهم. خشية الإطالة هنا.

٢ - ومثل هذه الـرواية ما ذكره فى فتنة سـليمان عند قوله تـعالى من السورة نفسها ﴿**ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيـه جسداً ثم أناب**﴾.

٣ - كذلك ما ذكره فى حق صفوة الخلق سيدنا محمد ﷺ فى تفسير سورة الأحزاب، عند قوله تعالى ﴿**وإذتقول للذى أنـعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك**﴾، وقصة زينب بـنت جحش

---

(١) جامع البيان: ١٠/ ٥٧١.

رضى الله عنها.

إن هذه الروايات وأمثالها لو حذفها ابن جرير من تفسيره أو ضعفها لكانت تحسب له فى رصيده الطيب، ولكنها كانت ضده، واتخذ منها الأفاكون أدلة طعن وتشهير بالإسلام وأنبياء الله تعالى.

وقد يعتذر معتذر للطبرى ويقول إنه كان يذكر الروايات بأسانيدها ولا لوم عليه، لأن من أسند لك فقد حملك، أى إذا كان الطبرى ذكر إسناد الرواية فعلى القارئ دراسة الإسناد فإن كان صحيحًا قبل الرواية وإلا ردها.

ونقول: أولاً: هذا مسلك غير سوى، لأن من عندهم القدرة على دراسة الإسناد قلة فى غاية الندرة، أما غيرهم فإنهم يعتبرون تلك الروايات التى لم ينص على ضعفها، يعتبرونها صحيحة، ويروونها فى مساجدهم ونواديهم، وأمكنة دروسهم ومحاضراتهم.

ثانيًا: ليس كل رواية إسنادها صحيح يكون متنها صحيحًا. فقد يكون السند صحيحًا والمتن فى غاية الضعف، وقد أبان العلماء ذلك غاية الإبانة، كما وضحناه فى نهاية الحديث عن الإسرائيليات.

خامسًا: اعتناؤه بذكر الأسانيد

ومن مزايا هذا التفسير العظمى اعتناء صاحبه بذكر الأقوال بأسانيدها، ولكن مما يؤخذ عليه فى ذلك، عدم تعقب الإسناد الضعيف ببيان ضعفه فى غالب الأحوال، مما يوقع القارئ فى خطر تصديقها، خاصة لو كانت مما يمس العقيدة، أو عصمة الأنبياء، وقد دافع بعض العلماء عن ابن جرير فى هذه الناحية، بأنه سار على طريقة من أسند لك فقد حملك ولكن هذه الطريقة لا يستطيعها معظم المسلمين الذين يقرءون هذا التفسير.

سادسًا: عنايته بالقراءات

وفى سبيل تفسير القرآن بالقرآن، وتوصلاً أيضًا للرأى الراجح من بين عدة آراء، نرى الإمام الطبرى رحمه الله يعتنى بالقراءات، ويوليها اهتمامًا خاصًا، لا سيما وأنه إمام فيها، وله فيها مؤلف مستقل بلغ ثمانية عشر مجلدًا، وإن كان الآن يعد فى ضمن المفقود.

وهو فى إيراده إياها نلاحظ عليه ما يلى:

١ - نسبة كل قراءة إلى أصحابها فى الغالب، حيث يعبر بقوله: «هذه قراءة أهل المدينة، أو أهل الكوفة، أو أهل الحجاز، وهكذا.

٢ - توجيه كل قراءة.

٣ - قد يقبل أكثر من قراءة، ولكنه يميل إلى قراءة دون الأخرى معللاً بأنها أفصح، أو أخف على اللسان، ونحو ذلك.

٤ - قد يذكر القبيلة التى يرجع إليه أصل القراءة.

٥ - يربط أحيانًا بين القراءة فى موضع، وكيفية نطقها فى موضع آخر.

٦ - يرد القراءة التى لم تثبت عن الرسول ﷺ، أو غير مقبولة من ناحية العربية.

٧ - يرد فى بعض الأحيان قراءة متواترة أو فى حكم المتواترة.

وهذه الملاحظة السادسة فى غاية الخطورة.

وهذه بعض الأمثلة لتلك الملاحظات السابقة:

١ - فى قوله تعالى ﴿وهذا كتاب مصدق لسانًا عربيًا لينذر الذين ظلموا﴾[1].

يقول: «واختلف القراء فى قراءة ﴿لينذر﴾ فقرأ ذلك عامة قراء الحجاز ﴿لتنذر﴾ بالتاء، بمعنى: لتنذر أنت يا محمد، وقرأته عامة

---

(١) الأحقاف: ١٢.

قراء العراق بالياء، بمعنى لينذر الكتاب، وبأى القراءتين قرأ ذلك القارئ فمصيب»[1].

٢ - وفى قوله تعالى ﴿**فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم**﴾[2].

يقول: «قرأ عامة قراء المدينة والبصرة ﴿**لا تَرَى إلا مساكنَهم**﴾ بالتاء نصبًا، بمعنى: فأصبحوا لا ترى أنت يا محمد إلا مساكنهم وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة ﴿**لا يُرى إلا مساكنُهم**﴾ بالياء فى ﴿**يُرى**﴾، ورفع المساكن، بمعنى ما وصفت قبل أنه لا يرى فى بلادهم شئ إلا مساكنهم.

وروى الحسن البصرى ﴿**لا تُرَى**﴾ بالتاء.

ثم علق على القراءات الثلاث بقوله:

«وبأى القراءتين اللتين ذكرت من قراءة أهل المدينة والكوفة قرأ ذلك القارئ فمصيب».

«وأما التى حكيت عن الحسن فهى قبيحة فى العربية وإن كانت جائزة، وإنما قبحت لأن العرب تُذَكِّر الأفعال التى قبل إلا، وإن كانت الأسماء التى بعدها أسماء إناث، فتقول: ما قام إلا أختك، ما جاءنى إلا جاريتك، ولا يكادون يقولون ما جاءنى إلا جاريتك، وذلك أن المحذوف قبل إلا أحد، أو شئ، وأحد وشئ يُذَكِّر فعلَهما العربُ، وإن عنى بهما المؤنث فتقول إن جاءك منهن أحد فأكرمه، ولا يقولون إن جاءتك وكان الفراء يجيزها على الاستكراه»[3].

٣ - فى تفسير قوله تعالى ﴿**قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينًا قيمًا**﴾[4].

---

(١) جامع البيان: ١١/ ٢٨٣. (٢) الأحقاف: ٢٥.

(٣) جامع البيان: ١١/ ٢٩٤. (٤) الأنعام: ١٦١.

قال: «وقرأ ذلك عامة قرأة المدينة وبعض البصريين (دينًا قَيِّمًا) بفتح القاف، وتشديد الياء، إلحاقًا منهم ذلك بقول الله ﴿**ذلك الدين القيم**﴾[١] وبقوله ﴿**ذلك دين القيمة**﴾[٢].

وقرأ ذلك عامة قرأة الكوفيين ﴿**دينًا قِيمًا**﴾ بكسر القاف، وفتح الياء، وتخفيفها، وقالوا: القَيِّم والقِيَم بمعنى واحد، وهما لغتان، معناهما الدين المستقيم.

قال أبو جعفر: والصواب من القول فى ذلك عندى أنهما قراءتان مشهورتان فى قراءة الأمصار، متفقتا المعنى، فبأيتها قرأ القارئ فهو للصواب مصيب، غير أن فتح القاف وتشديد الياء أعجب إلىّ، لأنه أفصح اللغتين وأشهرهما»[٣].

٤ - وفى تفسير قوله تعالى ﴿**فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة**﴾[٤].

يقول: «وأما ما روى عن أبى بن كعب وابن عباس من قراءتهما ﴿**فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى**﴾ فقراءة بخلاف ما جاءت به مصاحف المسلمين، وغير جائز لأحد أن يُلحق فى كتاب الله تعالى شيئًا لم يأت به الخبر القاطع العذر عمن لا يجوز خلافه»[٥].

٥ - ولعل أخطر ما يتعلق بالقراءات التى يتعرض لها ابن جرير الطبرى، أنه أحيانًا يرد القراءات المتواترة، أو التى تأخذ حكم التواتر.

---

(١) التوبة: ٣٦، ويوسف: ٤، والروم: ٣٠.

(٢) البينة: ٥.

(٣) جامع البيان: ٥/ ٤١٩.

(٤) النساء: ٢٤.

(٥) جامع البيان: ٤/ ١٥.

ومن أمثلة ذلك ما يأتي:

أ - *في تفسير قوله تعالى:* ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾[(١)].

رد قراءة «والأرحامِ» بالخفض، عطفًا على الهاء في «به» ثم قال:

«والقراءة التي لا نستجيز لقارئ أن يقرأ غيرها في ذلك النصب ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾ بمعنى واتقوا الأرحام أن تقطعوها، لما قد بينا أن العرب لا تعطف بظاهر من الأسماء على مكني في حال الخفض، إلا في ضرورة شعر، على ما قد وصفت قبل»[(٢)].

فهذه القراءة التي ردها ابن جرير الطبري، قراءة ثابتة عن رسول الله ﷺ، وهي قراءة حمزة، أحد القراء السبعة.

أما ما ذكره الطبري من أنها خاصة بالشعر، فذلك غير صحيح وقد رد العلماء عليه في ذلك، وقد أجاد وأفاد كل من أبي حيان في تفسيره البحر المحيط، والألوسي في تفسيره روح المعاني، حينما ردا عليه قوله هذا، فليرجع من أراد التفصيل إلى تفسيرهما في هذه الآية.

ب - *في تفسير قوله تعالى في سورة العنكبوت:*

﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتًا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون، إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شئ وهو العزيز الحكيم﴾ [الآيتان: ٤١، ٤٢].

يقول: «اختلف القراء في قراءة قوله ﴿إن الله يعلم ما تدعون﴾ فقرأته عامة قراء الأمصار «تدعون» بالتاء، بمعنى الخطاب لمشركي قريش، وقرأ ذلك أبو عمرو ﴿إن الله يعلم ما يدعون﴾ بالياء،

---

(١) النساء: ١. (٢) جامع البيان: ٣/ ٥٦٨ - ٥٧٠.

بمعنى الخبر عن الأمم، إن الله يعلم ما يدعون هؤلاء الذين أهلكناهم من الأمم من دونه من شئ.

والصواب من القراءة فى ذلك عندنا، قراءة من قرأ بالتاء، لأن ذلك لو كان خبرا عن الأمم الذين ذكر الله أنه أهلكهم لكان الكلام: إن الله يعلم ما كانوا يدعون، لأن القوم فى حال نزول هذا الخبر على نبى الله لم يكونوا موجودين، إذ كانوا قد هلكوا فبادوا، وإنما يقال إن الله يعلم ما تدعون إذا أريد به الخبر عن موجودين، لا عمن قد هلك»[1].

فابن جرير الطبرى يرد قراءة أبى عمرو، أحد القراء السبعة، المشهود لهم بالثقة والصدق والأمانة، وقد تلقت الأمة قراءته بالقبول فكيف يجوز لنا رد قراءته، وفى ردها رد لقراءة ثابتة عن رسول الله ﷺ؟

أما ما علل به رده إياها فتعليل غير وجيه، بل تعليل عجيب لا ندرى كيف صدر ذلك من إمام فى التفسير واللغة والتوجيه، لقد بنى رده لهذه القراءة على أن المعنى فى قراءة «يعلمون» تخص السابقين الذين أهلكهم الله، بينما الأمر على غير ذلك.

فسياق الآيات يبين أن المعنى يعود على الذين اتخذوا من دون الله أولياء وفى مقدمتهم مشركو قريش.

فالفعل «يدعون» جاء فاعله غائبًا، لأنه عائد على غائب وهو قوله ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء﴾. فلا غرابة فى ذلك.

---

(١) جامع البيان: ١٤٣/١.

سابعًا: اهتمامه بمسائل العقيدة

كذلك يهتم ابن جرير بمسائل العقيدة اهتمامًا مؤسسًا على نصرة مذهب السلف، ورد عقائد أهل البدع.

فنراه فى آيات الأسماء والصفات، يثبت لله ما أثبته من غير تعطيل أو تمثيل.

ولننظر فى كلامه عند قوله تعالى **﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾** نراه يذكر أقوالاً مختلفة للعلماء فى المراد باليد، ويركز على مذهب السلف، ويستطرد فى أقوالهم، وفى رده على من يقول إن المراد باليد القوة، أو الملك والخزائن أو النعمة، ونراه يكاد يصرح تصريحًا قويًا بصحة قول من قال إن يد الله هى له صفة لتظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ بذلك، وذهاب أهل العلم والتأويل إليه[1].

وفى تفسير قوله تعالى من سور "ص" **﴿قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى﴾** [الآية: ٧٥].

يقول: «يخبر تعالى ذكره بذلك أنه خلق آدم بيديه، كما حدثنا ابن المثنى، قال: ثنا محمد بن جعفر، قال: ثنا شعبة، قال: أخبرنى عبيد المكتب قال: سمعت مجاهدًا يحدث عن ابن عمر: قال: خلق الله أربعة بيده، العرش وعدن، والقلم، وآدم». ثم قال لكل شئ كن فكان»[2].

ومن الأمثلة التى يرد فيها على مخالفى أهل السنة والجماعة.

١ - فى تفسير قوله تعالى **﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾** يذهب إلى أن المراد: مسألة العبد ربه التوفيق لأداء ما كلف به من فرائضه فيما

---

(١) انظر جامع البيان: ٦٤٠ - ٦٤٢.

(٢) جامع البيان: ٦٠٦/١٠.

يستقبل من عمره، ويدلل لصحة ذلك، ثم يقول:

«وفى صحة ذلك فساد قول أهل القدر الزاعمين أن كل مأمور بأمر، أو مكلف فرضًا، فقد أعطى من المعونة عليه ما قد ارتفعت معه فى ذلك الفرض حاجته إلى ربه، لأنه لو كان الأمر على ما قالوا فى ذلك لبطل معنى قول الله جل ثناؤه ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم**﴾، وفى صحة ذلك على ما بينا فساد قولهم»(١).

٢ - وفى تفسير قوله تعالى ﴿**غير المغضوب عليه ولا الضالين**﴾ يرد على القدرية - الذين يصفهم بأنهم أهل الغباء - يرد عليهم قولهم بأن فى إضافة الله تعالى الضلال إلى الضالين دون إضافة إضلالهم إلى نفسه، وتركه وصفهم بأنهم المضلَّلون، كما وصف اليهود بأنهم المغضوب عليهم، دليلاً على أن الله لا يضل أحدًا، يرد عليهم بأن القرآن عربى، وقد نزل بلسان العرب وأسلوبهم، ومن عادتهم إضافة الفعل إلى من وجد منه، وإن كان مسبِّبُه غير الذى وجد منه، كما نقول تحركت الشجرة إذ حركتها الريح، واضطربت الأرض، إذ حركتها الزلزلة، كما يرد عليهم، بأن القرآن فى كثير من آياته ينص على أنه تعالى هو الهادى المضل دون غيره»(٢).

٣ - وفى تفسير قوله تعالى ﴿**ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين**﴾ يرد على مبدأ من مبادئ الجهمية، الذين يقولون إن الإيمان إقرار باللسان، ليس إلا.

فيقول: «وفى هذه الآية دلالة واضحة على بُطُول ما زعمته الجهميةُ أن الإيمان هو التصديق بالقول، دون سائر المعانى غيره،

---

(١) جامع البيان: ١/١٠٣.

(٢) جامع البيان: ١/١١٥.

وقد أخبر الله جل ثناؤه عن الذين ذكرهم في كتابه من أهل النفاق أنهم قالوا بألسنتهم ﴿آمنا بالله وباليوم الآخر﴾ ثم نفى عنهم أن يكونوا مؤمنين، إذ كان اعتقادهم غير مصدِّق قيلهم ذلك»(١).

٤ - وبالنسبة لرؤية الله تعالى يقرر مذهب أهل السنة والجماعة فى جواز رؤية الله ﷺ تعالى، ووقوعها بالفعل للمؤمنين فى الآخرة، مخالفًا بذلك مذهب المعتزلة النافين لها.

أ - ففى تفسير قوله تعالى ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ من سورة يونس يقول:

«ومن الزيادة على إدخالهم الجنة أن يكرمهم بالنظر إليه»(١).

ب - وفى سورة القيامة، وعند تفسيره لقول الله تعالى ﴿وجوه يومئذ ناضرة، إلى ربها ناظرة﴾ يذكر قولين أحدهما يقول إن المعنى: أنها تنظر إلى ربها نظرًا، وثانيهما يقول: بل المعنى: أنها تنتظر الثواب من ربها.

ثم يقول: «وأولى القولين فى ذلك عندنا بالصواب القول الذى ذكرناه عن الحسن وعكرمة من أن معنى ذلك تنظر إلى خالقها، وبذلك جاء الأثر عن الرسول ﷺ.

ثم ذكر حديثًا مسندًا فى ذلك، حيث جاء فيه:

«إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر فى ملكه ألفى سنة، وأن أفضلهم منزلة لمن ينظر فى وجه الله كل يوم مرتين، ثم تلا ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾(١).

---

(١) جامع البيان: ١/ ١٥١.

(٢) جامع البيان: ٦/ ٥٥٣.

(٣) جامع البيان: ١٢/ ٣٤٤.

ثامنًا: اهتمامه بالفقه وأصوله

ولأن ابن جرير الطبرى إمام فى الفقه، كما هو إمام فى غيره، وله مذهب خاص وأتباع ومقلدون يقال لهم الجريرية، وإن كانوا قد انقرضوا فانقرض مذهبه من واقع الناس، لأنه كذلك فإن تفسيره قد تضمن آراءه الفقهية، ومناقشاته للآراء الأخرى وترجيح رأى على آخر، مبنيًا على قواعد علمية، وأصول فقهية تدل على إمامته فى الفقه وأصوله.

ومن أمثلة ذلك ما يأتى:

١ - فى تفسير قوله تعالى **﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾**.

يقول: «اختلف أهل التأويل فى هذه الآية: هل نزلت مرادًا بها كل مشركة، أم مراد بحكمها بعض المشركات دون بعض؟ وهل نسخ منها بعد وجوب الحكم بها شئ أم لا؟.

فقال بعضهم: نزلت مرادًا بها تحريم نكاح كل مشركة على كل مسلم من أى أجناس الشرك كانت، عابدة وثن كانت، أو كانت يهودية أو نصرانية أو مجوسية، أو من غيرهم من أصناف الشرك ثم نسخ تحريم نكاح أهل الكتاب بقوله **﴿يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات﴾** إلى قوله **﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾**[1].

ثم ذكر من قال بذلك:

ثم قال: «وقال آخرون: بل أنزلت هذه الآية مرادًا بحكمها

---

(١) البقرة: ٢٢١.

مشركات العرب، لم ينسخ منها شئ، ولم يستثن، وإنما هى آية عام ظاهرها، خاص تأويلها.

ثم ذكر من قال بذلك:

ثم قال: وقال آخرون: «بل أنزلت هذه الآية مرادًا بها كل مشركة من أى أصناف الشرك كانت، غير مخصوص منها مشركة دون مشركة، وثنية كانت أو مجوسية، أو كتابية، ولا نسخ منها شئ.

ثم ذكر من قال بذلك:

ثم قال: «وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية ما قاله قتادة من أن الله تعالى ذكره عنى بقوله ﴿**ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن**﴾ من لم يكن من أهل الكتاب من المشركات، وأن الآية عام ظاهرها، خاص باطنها، لم ينسخ منها شئ، وأن نساء أهل الكتاب غير داخلات فيها، وذلك أن الله تعالى ذكره أحل بقوله ﴿**و المحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم**﴾ للمؤمنين، من نكاح محصناتهن، مثل الذى أباح لهم من نساء المؤمنات.

وقد بينا فى غير هذا الموضع من كتابنا هذا، وفى كتابنا «كتاب اللطيف من البيان» أن كل آيتين أو خبرين كان أحدهما نافيًا حكم الآخر فى فطرة العقل، فغير جائز أن يقضى على أحدهما بأنه ناسخ حكم الآخر، إلا بحجة من خبر قاطع للعذر مجيئه، وذلك غير موجود، أن قوله ﴿**والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب**﴾ ناسخ ما كان قد وجب تحريمه من النساء بقوله ﴿**ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن**﴾.

فإذ لم يكن ذلك موجودًا كذلك، فقول القائل «هذه ناسخة هذه» دعوى لا برهان له عليها، والمدعى دعوى لا برهان عليها متحكم،

(١) المائدة: ٤، ٥.

والتحكم لا يعجز عنه أحد»[١].

ب - وفى تفسير قوله تعالى ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾[٢].

يقول: «واختلف أهل التأويل فى تأويل «القرء» الذى عناه الله بقوله ﴿يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾.

فقال بعضهم: هو الحيض، ثم ذكر من قال بذلك.

ثم قال: «وقال آخرون: بل «القرء» الذى أمر الله تعالى ذكره المطلقات أن يعتددن به، الطهر» ثم ذكر من قال بذلك.

ثم بين أن القرء فى أصل اللغة يطلق على الوقت لمجئ الشئ المعتاد مجيئه لوقت معلوم، والإدبار الشئ المعتاد إدباره لوقت معلوم ولذلك سمى بعض العرب وقت مجئ الحيض قرءًا، إذ كان دمًا يعتاد ظهوره من فرج المرأة فى وقت، وكُمُونُه فى آخر، فسمى وقت مجيئه قرءًا، كما سمى الذين سَمَّوا وقت مجيء الرياح لوقتها قرءا، وسمى آخرون من العرب وقت مجئ الطهر قرءًا، إذ كان وقت مجيئه وقتًا لإدبار الدم، دم الحيض، وإقبال الطهر المعتاد مجيئه لوقت معلوم».

وبعد أن بين ابن جرير السبب الذى من أجله اختلف العلماء فى المراد بالقرء هنا، قال: «فإذا كان معنى «القرء» ما وصفنا لما بينا، وكان الله تعالى ذكره قد أمر المريد طلاق امرأته أن لا يطلقها إلا طاهرًا غير مجامعة، وحرم عليه طلاقها حائضًا، كان اللازم المطلقة المدخول بها إذا كانت ذات أقراء، تربص أوقات محدودة المبلغ بنفسها، عقيب طلاق زوجها إياها، أن تنظر إلى ثلاثة قروء، بين طهرى كل قرء منهن قرءٌ،

---

(١) جامع البيان: ٢/ ٣٨٩، ٣٩٠.

(٢) البقرة: ٢٢٨.

هو خلاف ما احتسبتـه لنفسها قروءًا تتربصهن فإذا انقـضين فقد حلت للأزواج، وانقضت عدتها، وذلك أنهـا إذا فعلت ذلك فقد دخلت فى عداد من تربص من المـطلقات بنفسها ثلاثة قروء، بـين طهرى كل قرء منهـن قرء له مخالف، وإذا فـعلت ذلك كانـت مؤدية ما ألزمهـا ربها تعالى ذكره بظاهر تنزيله.

فقد تـبين إذًا إذا كان الأمر عـلى ما وصفـنا أن القرء الثـالث من أقرائها عـلى ما بينا الـطهر الثالث، وأن بـانقضائه ومجئ قرء الحيض الذى يتلوه انقضاء عدتها».

ثم قال:

«فإن ظن ذوغـباء أنا إذْ كنـا قد نسمى وقـت مجىء الطـهر قرءًا، ووقت مجـىء الحيض قرءًا، أنـه يلزمنـا أن نجعل عدة المـرأة منقضـية بانقضـاء الطهر الثانـى، إذ كان الطهر الذى طلـقها فيه والحيـضة التى بعده، والطهر الذى يتلوها «أقراءً» كلها فقد ظن جهلاً.

وذلك أن الحكم عندنا فى كل ما أنزله الله فى كتابه على ما احتمله ظاهـر التنزيل، . ما لـم يبيـن الله تعالـى ذكره لعباده أن مراده مـنه الخصوص. إما بتنزيل فى كتابه، أو على لسان رسول الله ﷺ، فإذا خص منه البعض كان الذى خص من ذلـك غير داخل فى الجملة التى أوجب الحكم بها، وكان سائرها على عمومها.

فالأقـراء التى هـى أقراء الحيـض بين طُـهْرى أقراء الـطهر، غـير محتسبة من أقراء المتربصة بنفسها بعد الطلاق، لإجماع الجميع من أهل الإسلام أن الأقراء التى أوجـب الله عليها تربصن ثلاثـة قروء، بين كل قرء منـهن أوقات مخالفـات المعنى، لأقرائـها التى تربصـهن، وإذ كن مستحقات عندنا اسم أقراء، فإن ذلـك من إجماع الجميع، لم يجز لها

التربص إلا على ما وصفنا قبل»[١].

إن هذين المثالين من تفسير الطبرى لا يمثلان قطرة من بحر بالنسبة لجميع آرائه الفقهية، فى هذا التفسير، وهى ماز الت متناثرة فيه، لتدل على إمامته فى الفقه وأصوله..

وهاك آيات الأحكام فاقرأها واقرأ تفسيره إياها لتسلم بصحة ما نقول، بل بما يقول به علماء الأمة فى كل عصر، من أن هذا الإمام فى كل فرع من فروع العلم، بلغ قمته، وكان فريد عصره دون منازع.

تاسعًا: عنايته بالمباحث العربية

كذلك يعتنى ابن جرير الطبرى بالمباحث العربية اعتناءًا خاصًا، ويجعلها أساسًا لتفسيره، لأن القرآن عربى، فلابد فيه من مراعاة لغة العرب.

ونستطيع أن نبرز أهم تلك المباحث العربية، التى اهتم بها على النحو الآتى:

١ - احتكامه إلى شعر العرب، الذى هو ديوان لغتهم.

٢ - احتكامه إلى المشهور من كلام العرب.

٣ - التحليل اللغوى، لمفردات العربية.

٤ - التعرض لأوجه الإعراب.

٥ - مراعاة سياق الآيات.

فأما احتكامه إلى الشعر القديم، فسلفه فى هذا عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عباس رضى الله عنهما، فكانا يريان أن شعر العرب يجب أن يرجع إليه عند التفسير لأنه ديوان كلام العرب، الذى نزل القرآن بلغتهم.

---

(١) جامع البيان: ٢/ ٤٥٢ - ٤٥٩.

والذى نريد أن نقوله هنا إن استشهاده بالشعر العربى لم يقتصر فقط على مجرد بيان أصل الكلمة اللغوى، وإنما كان لاعتبارات متعددة.

١ - فبالإضافة إلى ذلك:

٢ - نراه يستشهد بالشعر لترجيح إعراب على إعراب.

٣ - أو لبيان أن هذا اللفظ إنما هو موافق للغة قبيلة كذا من العرب.

٤ - أو للتفرقة بين المعانى المتقاربة، لبعض الألفاظ.

٥ - أو لترجيح رأى على رأى.

وإذا أردنا ضرب أمثلة فى ذلك، فالأمر هين ويسير، لأنه لا تكاد تخلو آية فسرها، إلا واستشهد بالشعر، فلذلك أرى أنه لا حاجة بنا إلى التمثيل، خشية الإطالة.

أما احتكامه إلى المشهور من كلام العرب واستعمالاتهم، فيبدو ذلك بكثرة عند:

١ - المجاز.

٢ - أو عند الإيجاز والحذف.

٣ - أو عند شذوذ قول من الأقوال.

ومن أمثلة ذلك:

١ - ما ذكره فى تفسير قوله تعالى: ﴿**فما ربحت تجارتهم**﴾.

حيث قال: «فإن قال قائل: هل التجارة مما تربح أو توكس فيقال ربحت أو وُضعت؟

قيل: إن وجه ذلك على غير ما ظننت، وإنما معنى ذلك: فما ربحوا فى تجارتهم، لا فيما اشتروا ولا فيما شروا، ولكن الله جل ثناؤه خاطب بكتابه عربًا فسلك فى خطابه إياهم، وبيانه لهم مسلك خطاب بعضهم بعضًا، وبيانهم المستعمل بينهم، فلما كان فصيحًا لديهم قول

القائل لآخر: خاب سعيك ونـام ليلك وخسر بيعـك، ونحو ذلك من الكلام الذى لا يخفى عـلى سامعه ما يريد قائله - خاطـبهم بالذى هو فى منطقهـم من الكلام، فقال ﴿**فما ربحت تجارتهم**﴾ إذ كان معقولاً عندهم أن الربح إنما هو فى التجارة، كما النوم فى الليل، فاكتفى بفهم المخاطبين. . . الخ»[1].

٢ - وعند قوله تعالى ﴿**كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم**﴾ من سورة البقرة.

يقول: فإن قال لنا قائل: إنك ذكرت أن معنى قول الله تعالى ذكره ﴿**كمثل الـذى استوقد ناراً فلما أضـاءت ما حوله**﴾ خمدت وانطفأت، وليس ذلك بموجود فى القرآن، فما دلالتك على أن ذلك معناه؟

قيل: قد قلنا إن من شأن العرب الإيـجاز والاختصار، إذا كان فيما نطقت به الدلالة الـكافية على ما حذفت وتركت». ثم استشـهد ببيتين من الشعر لذلك[2].

٣ - وفى تفسير سـورة هود، ، وعند قوله تعالى ﴿**وفار الـتنور**﴾ يذكر أربعة أقوال فى المراد من التنور، وهى:

١ - وجه الأرض.

٢ - تنوير الصبح.

٣ - أعلى الأرض وأشرف مكان فيها.

٤ - الذى يختبز فيه.

وبعد أن ذكر هذه الأقوال الأربعة، ونسبها إلى قائليها قال:

«وأولى هذه الأقوال عندنا بتأويل قوله ﴿**التنور**﴾ قول من قال: هو

---

(١) جامع البيان: ١/ ١٧٣.

(٢) جامع البيان: ١/ ١٧٩.

التنور الذى يخبز فيه، لأن ذلـك هو المعروف من كلام العرب، وكلام الله لا يوجه إلا إلى الأغلـب الأشهر، من معانيه عـند العرب، إلا أن تقوم حجة على شئ منه بخلاف ذلـك فيسلم لها، وذلك أنه جل ثناؤه إنما خاطبهم بما خاطبهم به لإفهامهم معنى ما خاطبهم به»[١].

- أما التحـليل اللغوى لمفـردات العربية، وكذلك الـتعرض لأوجه الإعراب، فذلك فاش فـى تفسيره، فلا تكاد آية تخـلو من ذلك، وها هو تفسيره ماثل بين أيدينا، ولا نريد الإطالة.

- أما مراعاتـه سياق الآيات، فذلك كثـير فى تفسيره أيـضًا، فقد يلجأ إلى ذلك ابتداء، وقد يلجأ إليه عند ترجيح رأى على ما عداه.

ومن أمثلة ذلك: ما ذكره فى تفسيره تعالى ﴿**فإن فاءوا فإن الله غفورٌ رحيم، وإن عزموا الطلاق فـإن الله سميع عليم**﴾ حيث ذكر عدة أقوال، ورجح قول من قال إن معناه: فإن فاءوا بعد وقف الإمام إياهم من بعد انقضاء الأشهر الأربعة، فرجعوا إلى أداء حق الله تعالى عليهم لنسائهم اللائى آلـوا منهن، فـإن الله لهم غفـور رحيم ﴿**وإن عزمـوا الطـلاق**﴾ فطلقوهن، ﴿**فإن الله سميع**﴾ لطلاقهم إذا طلقوا. ﴿**عليم**﴾ بما أتوا إليهن.

ثم قال: وإنما قلنا ذلك أشبه بتأويل الآية، لأن الله تعالى ذكره ذكر حين قال ﴿**وإن عزموا الـطلاق**﴾ ﴿**فإن الله سميع عـليم**﴾، ومعلوم أن انقضـاء الأشهر الأربعـة غير مسـموع وإنما هو مـعلوم، فلـو كان عزم الطلاق انقضاء الأشهر الأربعة لم تكن الآية مختومة بذكر الله الخبر عن الله تعالى ذكره ﴿**انه سميع عليم**﴾ كما أنه لم يختم الآية التى ذكر فيها الفئ إلى طاعته، فى مراجعة المولـى زوجته التى آلى منها، وأداء حقها إليها، بذكر الخبر عن وصفه نفسه تعالى ذكره بأنه ﴿**غفور رحيم**﴾، إذ

---

(١) جامع البيان: ٤١/٧.

كان موضع وعد المنيب على إنابته إلى طاعته، فكذلك ختم الآية التى فيها ذكر القول والكلام، بصفة نفسه، بأنه للكلام ﴿سميع﴾ وبالفعل ﴿عليم﴾، فقال تعالى ذكره: وإن عزم المؤلون على نسائهم على طلاق من آلوا منه من نسائهم ﴿فإن الله سميع﴾ لطلاقهم إياهن إن طلقوهن ﴿عليم﴾ بما أتوا إليهن، مما يحل لهم ويحرم عليهم»(١).

إلى غير ذلك مما هو مبثوث فى تفسيره من المباحث العربية التى لا نريد الإطالة بالحديث عنها.

عاشرًا: تعرضه أحيانًا لإظهار البلاغة القرآنية

ومن الأمور التى اهتم بها ابن جرير الطبرى أحيانًا إظهار البلاغة القرآنية وهذه الناحية وإن كانت غير بارزة فى التفسير بروز غيرها إلا أنها تدل على أن تفسيره وإن كان فى المقام الأول تفسيرًا بالمأثور فإنه أيضًا على قدر كبير من الأهمية ببيان وجوه أخرى غير المأثور، ومنها تلك الناحية البلاغية ومن أمثلة ذلك ما يلى:

١ - هذا المثال السابق، فإنه وإن فسر الآية بالسياق، إلا أنه راعى فى ذلك الناحية البلاغية للقرآنية، حيث أبرز لنا سر التذييل بقوله تعالى ﴿سميع عليم﴾ دون غيره من الألفاظ الأخرى.

٢ - فى تفسير قوله تعالى ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم﴾.

يقول: «فإن قال لنا قائل: وكيف يختم على القلوب، وإنما الختم طبع على الأوعية والظروف والغلف؟

قيل: فإن قلوب العباد أوعية لما أودعت من العلوم، وظروف لما جعل فيها من المعارف بالأمور، فمعنى الختم عليها وعلى الأسماع التى

---

(١) جامع البيان: ٢/٤٥١.

بها تدرك المسموعات ومن قِبَلها يوصل إلى معرفة حقائق الأنباء عن المغيبات نظير معنى الختم على سائر الأوعية والظروف»(١).

٣ - وانظر إلى تفسيره لقوله تعالى ﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم﴾(٢).

وكيف بين لنا سر التعبير بإلى دون الباء.

فله كلام طويل فى ذلك، وفى نهايته يقول: «ولـ «إلى» فى كل موضع دخلت من الكلام حكم، وغير جائز سلبها معانيها فى أماكنها»(٣).

حادى عشر: احتجاجه بالإجماع

ومن أبرز منهجه رحمه الله إعطاؤه الإجماع مكانة بالغة، بعد كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فبه يرجح قولاً على قول، أو يضعف قولاً، أو قراءة، مشيراً إلى شذوذه أو شذوذهما عن إجماع الأمة، أو القراء.

ومن أمثلة ذلك ما يأتى:

١ - فى تفسير قوله تعالى **﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾**.

يقول: «وقد زعم بعضهم أن معنى قوله **﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾** أسلكنا طريق الجنة فى المعاد، أى قدمنا له وامض بنا إليه، كما قال جل ثناؤه **﴿فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾**(٤)، أى أدخلوهم النار، كما تهدى المرأة إلى زوجها.

ثم يعقب على ذلك مضعفًا فيقول: «وفى قول الله جل ثناؤه **﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾** ما ينبئ عن خطأ هذا التأويل، مع شهادة

---

(١) جامع البيان: ١٤٥.

(٢) البقرة: ١٤.

(٣) جامع البيان: ١/ ١٦٤، ١٦٥.

(٤) الصافات: ٢٣.

الحجة من المفسرين على تخطئته، وذلك أن جميع المفسرين من الصحابة والتابعين مجمعون على أن معنى الصراط فى هذا الموضع، غير المعنى الذى تأوله قائل هذا القول، وأن قوله ﴿إياك نستعين﴾ مسألة العبد ربه المعونة على عبادته، فكذلك قوله ﴿اهدنا﴾ إنما هو مسألة الثبات على الهدى، فيما بقى من عمره»[١].

٢ - وفى تفسير قوله تعالى ﴿وقالوا قلوبنا غُلْف﴾[٢].

يقول: والقراءة التى لا يجوز غيرها فى قوله ﴿قلوبنا غلف﴾ هى قراءة من قرأ ﴿غُلْف﴾ بتسكين اللام، بمعنى أنها فى أغشية وأغطية لاجتماع الحجة من القرأة وأهل التأويل على صحتها، وشذوذ من شذ عنهم بما خالفه، من قراءة ذلك بضم اللام.

وقد دللنا على أن ما جاءت به الحجة متفقة عليه حجة على من بلغه، وما جاء به المنفرد، فغير جائز الاعتراض به على ما جاءت به الجماعة التى تقوم بها الحجة، نقلاً وقولاً وعملاً، فى غير هذا الموضع، فأغنى ذلك عن إعادته فى هذا المكان»[٣].

ثانى عشر: عدم اهتمامه بسفاسف الأمور

كذلك نجد ابن جرير لا يعير اهتمامًا تلك الأمور التافهة التى يعتبر الانشغال بها ضربًا من العبث، ومضيعة للوقت، ولا طائل من العلم بها، ولا ضرر من الجهل بها.

وتبرز تلك الناحية بوضوح عند تفسيره لآيات قصص الأنبياء والسابقين، ومن ذلك ما يلى:

١ - فى تفسيره لقوله تعالى ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ من سورة

---

(١) جامع البيان: ١/١٠٣.

(٢) البقرة: ٨٨.

(١) جامع البيان: ١/٤٥٢.

البقرة يذكر الأقوال التى عينت تلك الشجرة، ثم يعقب قائلاً:

«ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين، لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك فى القرآن، ولا فى السنة الصحيحة، فأنّى يأتى ذلك؟ وقد قيل كانت شجرة البر، وقيل كانت شجرة العنب، وقيل كانت شجرة التين، وجائز أن تكون واحدة منها، وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به»[1].

٢ - وعند تفسيره لقوله تعالى ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ يذكر عدة أقوال فى السبب الذى من أجله قال بنو إسرائيل لموسى هذا القول.

ثم يعقب بما ملخصه «فهذا ما روى فى السبب الذى من أجله قالوا لموسى ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾، ولا خبر عندنا بصحة شئ مما قاله من ذكرنا قوله فى سبب قيلهم ذلك لموسى تقوم به حجة ولا حاجة لمن انتهت إليه إلى معرفة السبب الداعى لهم إلى قيل ذلك»[2].

٣ - وفى تفسير قوله تعالى فى قصة بقرة بنى إسرائيل ﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾ يذكر عدة أقوال فى تعيين هذا البعض الذى ضرب به القتيل ثم يعقب قائلاً:

«ولا دلالة فى الآية، ولا فى خبر تقوم به حجة، على أى أبعاضها التى أمر القوم أن يضربوا القتيل به، وجائز أن يكون الذى أمروا أن يضربوه به هو الفخذ، وجائز أن يكون ذلك الذَّنَب، وغضروف الكتف، وغير ذلك من أبعاضها، ولا يضر الجهل بأى ذلك ضربوا القتيل ولا ينفع العلم به، مع الإقرار بأن القوم قد ضربوا القتيل ببعض

---

(١) جامع البيان: ١/ ٢٧١.

(٢) جامع البيان: ١/ ٣٣٢.

البقرة بعد ذبحها فأحياه الله»[1].

ثالث عشر: إنكاره التفسير بالرأى المذموم

وابن جرير الطبرى من أول صفحات تفسيره إلى آخرها ينعى دائمًا على من يفسر القرآن برأيه المجرد، الذى لم يعتمد على دليل، أو يكون مخالفًا للمشهور فى استعمال القرآن أو لغة العرب.

يقول فى مقدمة تفسيره: «ما كان من تأويل آى القرآن الذى لا يدرك علمه إلا بنص بيان رسول الله ﷺ، أو بنصبه الدلالة عليه فغير جائز لأحد القيل فيه برأيه، بل القائل فى ذلك برأيه وإن أصاب الحق فيه فمخطئٌ فيما كان من فعله بقيله فيه برأيه لأن إصابته ليست إصابة موقن أنه محق، وإنما هو إصابة خارص وظان، والقائل فى دين الله بالظن قائل على الله ما لم يعلم وقد حرم الله جل ثناؤه ذلك فى كتابه على عباده»[2].

وبهذا المسلك رد كل الآراء التى قالها أصحابها، دون أن يكون لهم دلالة من الشرع أو اللغة، أو العرف، ونحو ذلك.

ومن أمثلة ذلك:

١ - عند تفسير قوله تعالى **﴿وأتوا به متشابهًا﴾** فى سورة البقرة[3].

يقول: «وقد زعم بعض أهل العربية أن معنى قوله ﴿وأتوا به متشابهًا﴾ أنه متشابه فى الفضل، أى كل واحد منه له من الفضل فى نحوه، مثل الذى للآخر فى نحوه.

ثم يقول: «وليس هذا قولاً نستجيز التشاغل بالدلالة على فساده،

---

(١) جامع البيان: ١/٤٠٣، ٤٠٤.

(٢) جامع البيان: ١/٥٨، ٥٩.

(٣) البقرة: ٢٥.

لخروجه عن قول جميع علماء أهل التأويل، وحسب قول بخروجه عن قول جميع أهل العلم، دلالة على خطئه»[١].

٢ - وعند تفسير قوله تعالى ﴿يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾[٢].

يذكر قول من يقول إن المراد بالأبناء هنا الرجال، لا الأطفال، لأن الله قرن بهم النساء، ولأن المذبَّحين لو كانوا هم الأطفال لوجب أن يكون المستحيون هم الصبايا، وفى إخبار الله تعالى ذكره أنهم النساء ما بين أن المذبحين هم الرجال.

وبعد أن يذكر هذا القول وشبهة القائلين به يضعفه بقوله: «قال أبو جعفر: «وقد أغفل قائلو هذه المقالة - مع خروجهم من تأويل أهل التأويل من الصحابة والتابعين - موضع الصواب، وذلك أن الله تعالى جل ثناؤه قد أخبر عن وحيه إلى موسى أنه أمرها أن ترضع موسى، فإذا خافت عليه أن تلقيه فى التابوت، ثم تلقيه فى اليم، فمعلوم بذلك أن القوم لو كانوا إنما كانوا يقتلون الرجال ويتركون النساء، لم يكن بأم موسى حاجة إلى إلقاء موسى فى اليم، أو لو أن موسى كان رجلاً لم تجعله أمه فى التابوت»[٣].

❊ ❊ ❊

---

(١) جامع البيان: ١/ ٢١١.

(٢) البقرة: ٤٩.

(٣) جامع البيان: ١/ ٣١٣.

وبالجملة

فإن هذا التفسير الذى بلغ إملاؤه فقط من ابن جرير على أصحابه سبع سنوات كاملة - كما حدث أبو بكر بن بَالوُيه أحد تلاميذ الطبرى، وأحد كتبة هذا التفسير عنه[١] - هذا التفسير يعتبر موسوعة فى كل فن من فنون العلم، وأستطيع أن أقول بلا مبالغة: إن هذا التفسير يمكن توزيعه على كل الكليات الإسلامية، لتجد فيه كل كليلة ما يستحق تخصيصه لطلاب الماجستير والدكتوراه فيها، وقد حدث بالفعل.

ولا أريد الإشادة به أكثر مما أشاد أصحاب الفضل، الذين يقدرون العلم حق قدره، وقد نقلت بعض أقوالهم فى ذلك قريبًا.

وها هو التفسير بين أيدينا يشهد بأكثر ما قلنا وما قال غيرنا، ولا يعيبه كثيرًا بعض المآخذ التى أخذناها عليه، فسبحان من له الكمال وحده، عز وجل.

* * *

---

(١) جاء فى طبقات الشافعية الكبرى: ٣/ ١٢٤.

«قال الحاكم: سمعت أبا بكر بن بالويه يقول: قال لى ابن خزيمة: بلغنى أنك كتبت التفسير عن ابن جرير، قلت نعم، إملاء، قال: كله؟ قلت: نعم، قال: فى كم سنة؟ قلت: من ثلاث وثمانين إلى سنة تسعين، قال: فاستعاره منى ابن خزيمة، ثم رده بعد سنين، ثم قال: نظرت فيه من أوله إلى آخره، وما أعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير».

المبحث الثانى

تفسير القرآن العظيم
لابن كثير

ومن أهم ما ألف فى التفسير بالمأثور، كتاب «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير رحمه الله.

ولنبدأ بالحديث عن المؤلف، ثم عن تفسيره، باختصار.

أولاً: المؤلف(١)

هو الحافظ الكبير أبو الفداء، عماد الدين: إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن زرع، القيسى، البصروى، ثم الدمشقى الفقيه الشافعى.

ولد سنة سبعمائة أو بعدها بيسير، ومات أبوه سنة سبعمائة وثلاث، قدم دمشق، وله سبع سنين، سنة ست وسبعمائة، مع أخيه، بعد موت أبيه.

سمع من ابن الشحنة، وابن الزراد، وإسحاق الآمدى، وابن عساكر وابن الرضى وغيرهم.

وأجاز له من مصر الدوبوسى، والوانى والختنى، وغيرهم.

ومن أعظم الذين تأثر بهم اثنان، المزى وابن تيمية، أما المزى فقد لازمه، وقرأ عليه تهذيب الكمال، وصاهره على ابنته، وأما ابن تيمية، فقد أخذ عنه كثيراً، وكان له به صلة أكثر من غيره، ومن أبرز الفتاوى التى تأثر به فيها فتواه فى الطلاق.

---

(١) انظر ترجمته فى شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى - ط. المكتب التجارى ببيروت -: ٦/ ٢٣١، ٢٣٢، والدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلانى: ١/ ٣٩٩، ٤٠٠ - ط. دار الكتب الحديثة بالقاهرة.

جاء فى شذرات الذهب عن ابن قاضى شهبة أنه قال عن ابن كثير: «كانت له خصوصية بابن تيمية، ومناضلة عنه، واتباع له فى كثير من آرائه، وكان يفتى برأيه فى مسألة الطلاق، وامتحن بسبب ذلك وأوذى»[1].

فقد بصره فى أواخر حياته، وتوفى فى شعبان سنة ٧٧٤ هـ، ودفن بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية رحمهما الله تعالى.

منزلته العلمية

بلغ ابن كثير من العلم مبلغًا عظيمًا، وصنف فيه مؤلفات قيمة، وصار ذا شأن عظيم بين العلماء.

وكان من أبرز ما نبغ فيه علوم التفسير، والحديث ورجاله، والفقه، ومازالت مؤلفاته تشهد بإمامته فى تلك الفنون، التى ذاع صيتها، وعم الانتفاع بها، وشهد لها القاصى والدانى.

يقول ابن حجر رحمه الله:

«اشتغل بالحديث مطالعة فى متونه ورجاله، فجمع التفسير وشرع فى كتاب كبير فى الأحكام لم يكمل، وجمع التاريخ الذى سماه البداية والنهاية، وعمل طبقات الشافعية، وشرح أحاديث أدلة التنبيه، وأحاديث مختصر ابن الحاجب الأصلى، وشرع فى شرح البخارى، ولازم المزى وقرأ عليه تهذيب الكمال، وصاهره على ابنته وأخذ عن ابن تيمية، ففتن بحبه، وامتحن بسببه، وكان كثير الاستحضار، حسن المفاكهة.

سارت تصانيفه فى البلاد فى حياته، وانتفع بها الناس بعد وفاته، ولم يكن على طريق المحدثين فى تحصيل العوالى، وتمييز العالى من

---

(١) شذرات الذهب: ٦/ ٢٣٢.

النازل، وإنما هو من محدثى الفقهاء، وقد اختصر مع ذلك كتاب ابن الصلاح، وله فيه فوائد.

ثم ينقل ابن حجر عن الذهبى قوله عن ابن كثير، فيقول: «قال الذهبى فى المعجم المختص: «الإمام المفتى المحدث البارع فقيه متفنن، محدث متقن، مفسر نقال، وله تصانيف مفيدة»(١).

ويقول عنه ابن العماد الحنبلى فى شذرات الذهب:

«حفظ التنبيه، وعرضه سنة ثمان عشرة، وحفظ مختصر ابن الحاجب، وتفقه بالبرهان الفزارى، والكمال بن قاضى شهبة، ثم صاهر المزى، وصحب ابن تيمية وقرأ فى الأصول على الأصبهانى، وألف فى صغره أحكام التنبيه، وكان كثير الاستحضار، قليل النسيان، جيد الفهم، يشارك فى العربية، وينظم نظمًا وسطًا.

قال ابن حبيب فيه: «إمام روى التسبيح والتهليل، وزعيم أرباب التأويل، سمع وجمع، وصنف وأطرب الأسماع بالفتوى وشنف، وحدث وأفاد، وطارت أوراق فتاويه إلى البلاد، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهت إليه رياسة العلم فى التاريخ والحديث والتفسير».

كما ينقل ابن العماد الحنبلى عن ابن حجى أحد تلاميذ ابن كثير قوله فيه:

«أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث، وأعرفهم بجرحها ورجالها، وصحيحها وسقيمها، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك، وما أعرف أنى اجتمعت به على كثرة ترددى إليه إلا واستفدت منه»(٢).

وإن كان ابن كثير رحمه الله قد برع فى علوم كثيرة، فإن أعظم ما

---

(١) الدرر الكامنة: ١/ ٣٩٩، ٤٠٠.

(٢) شذرات الذهب: ٦/ ٢٣١، ٢٣٢.

برع فيه، وكان أكثر ما انتفع به الناس ولا يزالون علم التفسير وعلم التاريخ، ولا يزال كتاباه فى ذلك يتمتعان بشهرة وذيوع وإقبال من الناس، ولله الحمد والمنة.

ثانيًا: تفسيره

قيمة هذا التفسير: يحتل تفسير ابن كثير المرتبة الثانية بين كتب التفسير بالمأثور بعد تفسير ابن جرير الطبرى رحمهما الله تعالى.

ويرجع سبب ذلك إلى اعتنائه الشديد بالمأثور، قرآنًا وسنة، وأقوالاً للصحابة والتابعين، بالإضافة إلى جوانب أخرى على النحو التالى:

منهجه في التفسير

بدأه صاحبه بمقدمة معظمها منقول عن شيخه ابن تيمية رحمه الله من «مقدمة فى أصول التفسير» حيث تحدث فيها عن أحسن طرق التفسير: فذكر القرآن أولاً، ثم السنة ثانيًا، ثم أقوال الصحابة والتابعين بعد ذلك، ثم تحدث عن التفسير بالرأى، وبين أنه قسمان، قسم بمجرد الرأى فذلك حرام ومذموم، وقسم قائم على العلم، وذلك مقبول، محمود، ولا ضير فى ذلك.

ثم ما سرعان أن انتقل إلى تفسير القرآن، من أول سورة الفاتحة إلى نهاية القرآن.

وطريقته فى كل سورة أن يقدم لها ببعض المقدمات، فيتعرض لكونها مكية أو مدنية، وعدد آياتها، وأسمائها، وما ورد فى فضلها ونحو ذلك، ثم يبدأ فى تفسير الآيات.

وطريقته فى تفسير الآيات: أنه يذكر الآية، ثم يبين المراد منها بعبارة سلسلة موجزة للغاية، وإن رأى للآية صلة أو شبهًا بآيات أخرى، أتى بها.

ثم يستشهد بعد تلك الآيات التى أتى بها بالأحاديث المرفوعة إلى رسول الله ﷺ ، ويكثر فى ذلك إلى حد قد يصل فى بعض الأحيان إلى الملل، حينما يأتى بأحاديث تحمل مضموناً واحداً، وربما يكون له عذر فى ذلك، حيث يريد تكثير مصادر حديثه بأسانيدها، ثم بعد ذلك يأتى بأقوال السلف من الصحابة ثم التابعين.

وهذه بعض النماذج لبيان منهجه:

أولاً: عنايته بتفسير القرآن بالقرآن

١ - فمثلاً عند تفسير قوله تعالى من سورة الفاتحة: ﴿**صراط الذين أنعمت عليهم**﴾.

قال: «و ﴿**الذين أنعمت عليهم**﴾ هم المذكورون فى سورة النساء، حيث قال: ﴿**ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا**﴾.

٢ - وفى تفسير قوله تعالى ﴿**فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه**﴾ من سورة البقرة، يقول ما نصه:

«قيل إن هذه الكلمات مفسرة بقوله تعالى ﴿**قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين**﴾.

فهو وإن صدر كلامه بقوله قيل: فإنه يدل على اهتمامه بتفسير القرآن بالقرآن، وبنقله الأقوال التى تهتم بتلك الناحية.

٣ - وفى سورة البقرة، وعند قوله تعالى ﴿**وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة**﴾ يقول: «وهى المذكورة فى الأعراف فى قوله تعالى ﴿**وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر**﴾.

٤ - وفى سورة المائدة، وفى الآية الأولى منها وعند قوله تعالى

﴿أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى﴾، يبين المراد من المستثنى بآية أخرى، فيقول:

«والظاهر - والله أعلم - أن المراد بذلك قوله ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع﴾[1].

أما عن تقوية كلامه في تفسير الآية بالآيات المشابهة فالأمثلة في ذلك أكثر من أن تحصى، حيث لا تكاد تخلو آية من تفسيره إلا واستشهد لها بما يماثلها.

مثال ذلك: عند تفسير قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾[2].

يقول ما نصه: «يقول الله تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته، فإن الله يستبدل به من هو خير لها منه، وأشد منعة وأقوم سبيلاً، كما قال تعالى ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾[3]، وقال تعالى ﴿إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين﴾[4]، وقال تعالى ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد، وما ذلك على الله بعزيز﴾[5]، أي بممتنع ولا صعب، وقال تعالى ههنا ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه﴾ الخ[6].

وتفسيره القرآن بالقرآن لا يقتصر على مجرد الاستشهاد بالآيات المماثلة بل يشمل ما كان من قبيل تقييد المطلق وتخصيص العام، وبيان الناسخ والمنسوخ، ونحو ذلك، ويتضح ذلك بجلاء عند تفسيره لآيات الأحكام.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، والآية رقم (٣) من سورة المائدة.

(٢) المائدة: ٥٤.

(٣) محمد: ٣٨.

(٤) النساء: ١٣٣.

(٥) إبراهيم: ١٩، ٢٠.

(٦) تفسير ابن كثير: ٣/١٢٧ - ط. الشعب.

ثانيًا: تفسيره القرآن بالسنة

أما تفسيره القرآن بالسنة فالأمر فيه أوسع، إذ السنة مبينة للقرآن، وهو فى هذا المقام قد يأتى بالأحاديث التى لولاها ما ظهر المراد من الآية وقد يأتى بالأحاديث لمجرد تأكيد مضمون الآيات التى يفسرها.

مثال ذلك:

١ - الأحاديث التى أتى بها فى بيان المراد من المغضوب عليهم والضالين فى تفسير سورة الفاتحة، وأن المراد منهما: اليهود، والنصارى.

٢ - الأحاديث التى أتى بها فى بيان المراد من الصلاة الوسطى وأنها صلاة العصر.

أما الأحاديث التى يأتى بها لمجرد صلتها بمعنى الآية فلا تكاد تخلو آية من ذلك مما يجعل تفسيره أيضًا، مرجعًا من مراجع الحديث الموضوعى، إضافة لكونه مرجعًا مهمًا من مراجع التفسير الموضوعى.

ثالثًا: تفسيره بأقوال الصحابة والتابعين

كذلك تجده فى منهجه هذا يلتزم التزامًا كاملاً بإيراد ما روى عن السلف من الصحابة والتابعين فى تفسير الآيات، فلا يترك آية إلا ويأتى بأقوالهم فيها، وغالبها مذكور بالإسناد.

رابعًا: اهتمامه بذكر الأسانيد

وابن كثير رحمه الله تظهر عليه صنعته فى التفسير، فهو بجوار كونه مفسرًا - محدث حافظ، فمعظم المأثور الذى يذكره إنما يذكره بإسناده، وفى كثير من الأحوال يتعقب تلك الأسانيد إن كان فيها

ضعف، أو عليها ملاحظات، وهو بذلك لا يقع فيما وقع فيه ابن جرير الطبرى، الذى يترك القارئ حائرًا فيما أورده من أحاديث أو روايات.

خامسًا: تعقبه الإسرائيليات

وإذا كان ابن جرير الطبرى رحمه الله يذكر لنا الإسرائيليات ولا يعقب عليها فى الغالب فإن ابن كثير رحمه الله على عكس ذلك، فهو فى الغالب يتعقبها، بما يظهر للقارئ بيان صحتها من ضعفها.

ومن أمثلة ذلك ما يلى:

١ - فى قصة هاروت وماروت من سورة البقرة يقول:

«وقد روى فى قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين، كمجاهد والسدى والحسن وقتادة، وأبى العالية، والزهرى والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم، وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين، وحاصلها راجع فى تفصيلها إلى أخبار بنى إسرائيل، إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق، المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فيها، فنحن نؤمن بما ورد فى القرآن على ما أراده الله تعالى، والله أعلم بحقيقة الحال»(١).

٢ - فى بداية تفسيره سورة (ق) يقول:

«وقد روى عن بعض السلف أنهم قالوا: ق جبل محيط بجميع الأرض يقال له جبل قاف».

ثم قال: «وكأن هذا والله أعلم من خرافات بنى إسرائيل التى أخذها عنهم بعض الناس، لما رأوا من جواز الرواية عنهم مما لا يصدق

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢٠٣/١ - ط. دار الشعب.

ولا يكذب، وعندى أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يلبسون به على الناس أمر دينهم كما افترى فى هذه الأمة مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها أحاديث عن النبى ﷺ، وما بالعهد من قدم فكيف بأمة بنى إسرائيل مع طول المدى وقلة الحفاظ النقاد فيهم، وشرب الخمور، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه، وتبديل كتب الله وآياته.

وإنما أباح الشارع الرواية عنهم فى قوله: «وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج» فيما قد يجوزه العقل، فأما فيما تحيله العقول ويحكم فيه بالبطلان، ويغلب على الظنون كذبه، فليس من هذا القبيل والله أعلم»(١).

سادسًا: سلوكه مسلك السلف
فى أسماء الله وصفاته

وقد سلك ابن كثير رحمه الله تعالى فى مسائل أسماء الله وصفاته مسلك السلف، الذين يثبتون لله ما أثبته، من غير تعطيل أو تمثيل أو نفى، بل يثبتون لله ما أثبته لنفسه، على وجه يليق بكمال الله وجلاله.

وذلك مبثوث فى تفسيره لآيات الأسماء والصفات، ومن أمثلة ذلك ما يلى:

١ - فى تفسير قوله تعالى: ﴿ثم استوى على العرش﴾ من سورة الأعراف، يقول ما نصه:

«للناس فى هذا المقام مقالات كثيرة جدًا، ليس هذا موضع بسطها، وإنما يسلك فى هذا المقام مذهب السلف الصالح مالك والأوزاعى والثورى والليث بن سعد، والشافعى وأحمد بن حنبل

(١) المصدر السابق: ٤/٢٢١ - ط. عيسى الحلبى.

وإسحاق بن راهويه وغيرهم، من أئمة المسلمين قديمًا وحديثًا، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفى عن الله، فإن الله لا يشبهه شئ من خلقه، و ﴿ليس كمثله شئ وهو السميع البصير﴾.

بل الأمر كما قال الأئمة - منهم نعيم بن حماد الخزاعى شيخ البخارى - «من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر».

وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة، على الوجه الذى يليق بجلال الله تعالى، ونفى عن الله تعالى النقائص، فقد سلك سبيل الهدى»(١).

٢ - وفى تفسير قوله تعالى ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ من سورة طه يقول ما نصه:

«المسلك الأسلم فى ذلك طريقة السلف، إمرار ما جاء فى ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تحريف، ولا تشبيه ولا تعطيل، ولا تمثيل»(٢).

سابعًا: عنايته بالأحكام الفقهية

ولأن ابن كثير حافظ محدث، فهو حينما يمر بآيات الأحكام، لا يمر بها مرورًا عابرًا، وإنما يربط بينها وبين ما ورد فى شأنها من أحاديث ويذكر أقوال المذاهب،، وتوجيه كل مذهب.

والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى، فليرجع إليها فى مواطنها

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/٤٢٢ - ط. دار الشعب.

(٢) تفسير ابن كثير: ٥/٢٦٨.

كآيات النكاح والطلاق والميراث، والزكاة، والصيام، والطهارة، وغير ذلك.

ولكنه فى هذه الناحية يتوسط فى بيان الأحكام، فلا هو بالذى يستطرد فيها استطراداً واسعًا، كما فعل القرطبى، ولا هو بالذى يهملها أو يتعرض لها بإيجاز شديد، كما فعل آخرون.

وتلك تعتبر ميزة طيبة فى تفسيره على ما أراه. والله أعلم.

ثامنًا: قلة تعرضه للقراءات

ومن ملامح تفسيره رحمه الله قلة تعرضه للقراءات، فهو لا يكاد يتعرض لها، إلا على ندرة، وهو حينما يذكرها يوجهها ومن أمثلة ذلك:

١ - فى تفسير قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعبًا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء﴾[١].

يقول: «وقرأ بعضهم ﴿والكفار﴾ بالخفض عطفًا، وقرأ آخرون بالنصب، على أنه معمول ﴿لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هر وًا ولعبًا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ تقديره: «ولا الكفار أولياء» أى لا تتخذوا هؤلاء ولا هؤلاء أولياء»[٢].

٢ - وفى تفسير قوله تعالى ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت﴾[٣].

---

(١) المائدة: ٥٧.

(٢) المصدر السابق: ٣/١٣١.

(٣) المائدة: ٦٠.

يقول: «وقرئ ﴿وعبد الطاغوت﴾ على أنه فعل ماض، والطاغوت منصوب به، أى وجعل منهم من عبد الطاغوت وقرئ ﴿وعَبَدَ الطاغوت﴾ بالإضافة على أن المعنى وجعل منهم خدم الطاغوت، أى خدامه وعبيده، وقرئ ﴿وعُبُد الطاغوت﴾ على أنه جمع الجمع، عبد وعبيد، وعُبُد، مثل ثمار وثمر، حكاها ابن جرير عن الأعمش، وحكى عن بُرَيْدَة الأسلمى أنه كان يقرأها ﴿وعابد الطاغوت﴾، وعن أبى وابن مسعود ﴿وعبدوا الطاغوت﴾.

وحكى ابن جرير عن أبى جعفر القارئ أنه كان يقرأها ﴿وعُبِد الطاغوت﴾ على أنه مفعول ما لم يسم فاعله، ثم استبعد معناها، والظاهر أنه لا بعد فى ذلك لأن هذا من باب التعريض بهم، أى وقد عبدت الطاغوت فيكم، وكنتم أنتم الذين تعاطوا ذلك»(١).

تاسعًا: تعرضه أحيانًا للمباحث العربية

كذلك نجد ابن كثير رحمه الله يتعرض أحيانًا للمباحث العربية من ناحية تحليل المفردات والإعراب وإظهار براعة الإعجاز القرآنى ونحو ذلك.

ومن أمثلة ما تعرض له:

١ - فى تفسير قوله تعالى **﴿أولئك شر مكانًا وأضل عن سواء السبيل﴾** يقول(٢):

«وهذا من باب استعمال أفعل التنضيل، فيما ليس فى الطرف الآخر مشاركة، كقوله **﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن**

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ١٣٤.

(٢) المائدة: ٦٠.

مقيلاً﴾[(١)(٢)].

٢ - وفى تفسير قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم﴾[(٣)].

يقول فى إعراب ﴿اثنان﴾: هذا هو الخبر لقوله ﴿شهادة بينكم﴾ فقيل تقديره «شهادة اثنين» حذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، وقيل دل الكلام على تقدير أن يشهد اثنان.

وقوله ﴿ذوا عدل﴾ وصف الاثنين بأن يكون عدلين»[(٤)].

عاشراً: موقفه من التفسير بالرأى

وإذا كان ابن كثير يهتم فى المقام الأول بالتفسير بالمأثور فإن هذا لا يعنى توقفه عند ذلك، وعدم الاجتهاد فيما لم يرد فيه مأثور.

فإن الرأى عنده قسمان: رأى مجرد، أى ليس قائمًا على الدليل، وإنما الهوى والاستحسان ونحو ذلك فلا يجوز لمن كان صفته كذلك أن يقول فى القرآن برأيه.

وهذا القسم مذموم، وعليه تحمل كل النصوص التى تذم القول بالرأى.

أما القسم الثانى: فهو الرأى المبنى على شروط خاصة، ويشترط فى صاحبه الإلمام بعلوم معينة، وضوابط محددة، وهذا القسم محمود، لا غبار عليه بل يذم من كان عنده المقدرة على إظهار العلم وكتمه، ويستحق العقاب الشديد لكتمانه العلم، فكما لا يجوز التكلم بالجهل، لا يجوز كتمان العلم.

---

(١) الفرقان: ٢٤. (٢) تفسير ابن كثير: ٣/ ١٣٥.

(٣) المائدة: ١٠٦.

(٤) تفسير ابن كثير: ٣/ ٢١٠.

وقد أبدى ابن كثير موقفه هذا من التفسير بالرأى فى أول صفحات تفسيره، وقبل أن يبدأ تفسير سورة الفاتحة، حيث ضمن مقدمته التى اقتبس معظمها من شيخه ابن تيمية آراءه فى عدة نواح، ومنها رأيه فى التفسير بالرأى.

حادى عشر: انصرافه عما لا فائدة فيه

ومن ملامح منهجه رحمه الله عدم اهتمامه غالبًا بما لا طائل تحته، وإن أورد أقوالاً فى ذلك، فغالبًا ما يعقب عليه بعبارة تدل على عدم تصديقها، كقوله والله أعلم ونحو ذلك.

ومن أمثلة ذلك:

١ - فى تفسير قوله تعالى ﴿**فقلنا اضربوه ببعضها**﴾ من سورة البقرة يقول:

«هذا البعض أى شئ كان من أعضاء هذه البقرة فالمعجزة حاصلة به، وخرق العادة به كائن، وقد كان معينًا فى نفس الأمر، فلو كان فى تعيينه لنا فائدة تعود علينا فى أمر الدين أو الدنيا لبينه الله تعالى لنا، ولكن أبهمه، ولم يجئ من طريق صحيح عن معصوم بيانه، فنحن نبهمه كما أبهمه الله»(١).

٢ - وفى تفسير قوله تعالى ﴿فخذ أربعة من الطير﴾(٢).

يقول: «اختلف المفسرون فى هذه الأربعة، ما هى؟ وإن كان لا طائل تحت تعيينها، إذ لو كان فى ذلك مُهِمٌّ لنص عليه القرآن»(٣).

٣ - وفى قصة أصحاب الكهف يقول عن مكان الكهف:

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ١٦٠.

(٢) البقرة: ٢٦٠.

(٣) تفسير ابن كثير: ١/ ٤٦٦.

«ولم يخبرنا الله تعالى بمكان هذا الكهف فى أى البلاد من الأرض إذ لا فائدة لنا فيه، ولا قصد شرعى، وقد تكلف بعض المفسرين فذكروا فيه أقوالاً»(١).

وفى القصة نفسها يقول عن كلب أهل الكهف:

«واختلفوا فى لونه على أقوال لا حاصل لها، ولا طائل تحتها ولا دليل عليها، ولا حاجة إليها، بل هى مما ينهى عنه فإن مستندها رجم بالغيب»(٢).

ثانى عشر: ترجيحه بين الأقوال

وإذا كان تفسيره رحمه الله تفسيراً بالمأثور فى المقام الأول، فإنه لا يقتصر على هذه الناحية، وإنما يرجح فى كثير من الأحيان بين الأقوال التى يوردها، ترجيحًا يدل على عقلية واسعة تضم فى ثناياها علومًا غزيرة.

وهو فى هذا الترجيح يعتمد على أمور كثيرة، فبجانب ترجيحه بالقرآن والسنة، يرجح بالسياق تارة وباللغة ثانية وبالتاريخ ثالثه وغير ذلك.

ومن أمثلة ذلك ما يلى:

١ - فمن ترجيحه بالسياق، ما جاء فى تفسير قوله تعالى ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم﴾ من سورة المائدة.

حيث يذكر سبعة أقوال فى المراد من لغو اليمين، وهى:

١ - قول الرجل فى الكلام من غير قصد، لا والله، وبلى والله.

٢ - الهزل. ٣ - فى المعصية. ٤ - على غلبة الظن.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٥/١٣٩.

(٢) تفسير ابن كثير: ٥/١٤١.

٥ - اليمين فى غضب. ٦ - النسيان.

٧ - الحلف على ترك المأكل والمشرب والملبس ونحو ذلك.

ثم يقول: «والصحيح أنه اليمين من غير قصد، بدليل قوله ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾ أى بما صممتم عليه من الأيمان، وقصدتموها»[١].

٢ - ومن الترجيح باللغة: ما ذكره فى تفسير قوله تعالى من المحرم أكله ﴿ولحم الخنزير﴾[٢].

فيقول: «واللحم يعم جميع أجزائه حتى الشحم، ولا يحتاج إلى تحذلق الظاهرية فى جمودهم ههنا، وتعسفهم فى الاحتجاج بقوله ﴿فإنه رجس أو فسقًا﴾ يعنون قوله ﴿إلا أن يكون ميتة أو دمًا مسفوحًا أو لحم خنزير فإنه رجس﴾[٣] أعادوا الضمير فيما فهموه على الخنزير، حتى يعم جميع أجزائه، وهذا بعيد من حيث اللغة، فإنه لا يعود الضمير إلا إلى المضاف دون المضاف إليه.

والأظهر أن اللحم يعم جميع الأجزاء كما هو المفهوم من لغة العرب، ومن العرف المطرد»[٤].

٣ - ومن ترجيحه بالتاريخ:

أ - ما ذكره فى تفسير قوله تعالى ﴿والله يعصمك من الناس﴾[٥]، حيث ذكر حديثًا فى سبب نزولها، وأن رسول الله ﷺ كان إذا خرج بعث معه أبو طالب من يكلؤه، حتى نزلت هذه الآية،

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ١٦٣.

(٢) المائدة ٣.

(٣) الأنعام: ١٤٥.

(٤) تفسير ابن كثير: ٣/ ١٣، ١٤.

(٥) المائدة: ٦٧.

فذهب ليبعث معه، فقال: ياعم، إن الله قد عصمنى، لا حاجة لى إلى من تبعث».

ثم علق على ذلك بقوله:

«وهذا حديث غريب، وفيه نكارة، فإن هذه الآية مدنية، وهذا الحديث يقتضى أنها مكية»[1].

ثم ذكر بعد ذلك حديثًا مثل هذا، وعقب عليه بمثل هذا التعقيب.

ب - وفى تفسير قوله تعالى ﴿لتجدن أشد الناس عداوة...﴾[2] الآيات.

يقول: «قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: نزلت هذه الآيات فى النجاشى وأصحابه، الذين حين تلا عليهم جعفر بن أبى طالب بالحبشة القرآن، بكوا حتى أخضلوا لحاهم».

ثم عقب بقوله: «وهذا القول فيه نظر، لأن هذه الآية مدنية، وقصة جعفر مع النجاشى قبل الهجرة»[3].

جـ - وفى تفسير قوله تعالى ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾ من سورة الأنعام.

يقول: «وقال الضحاك عن ابن عباس: «هذه فى المنافقين».

ثم عقب بقوله: «وفى هذا نظر، فإن هذه الآية مكية، والمنافقون إنما كانوا بالمدينة، والتى نزلت فى المنافقين آية المجادلة ﴿يوم يبعثهم الله جميعًا فيحلفون له﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ١٤٥.

(٢) المائدة: ٨٢.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣/ ١٥٧.

ثالث عشر: تأثره الشديد بمفسرى المأثور

ومن ملامح هذا التفسير أيضًا: شدة تأثر صاحبه بالمفسرين السابقين، الذين يهتمون بالمأثور، حيث ينقل كثيرًا عنهم.

وعلى رأس هؤلاء شيخ المفسرين، ابن جرير الطبرى، وابن أبى حاتم، وابن مردويه.

رابع عشر: أدبه الجم فى مناقشاته واستدراكاته

ومن مزايا هذا التفسير أيضًا: أدب صاحبه الجم فى مناقشة العلماء، وفى استدراكاته عليهم.

ويبدو هذا بوضوح فى تفسيره لآيات الأحكام، فهو وإن كان شافعى المذهب إلا أننا لا نشم فيه رائحة للتعصب، ولا نلمس فيه أى لمخالفيه.

كما أننا نراه يستدرك فى كثير من الأحيان على ابن جرير الطبرى، ولكن استدراكاته تلك يحفها أدب عظيم لذوى الفضل، ويسودها تقدير كريم لأهل العلم.

وبالجملة:

فإن تفسير ابن كثير يحتل المرتبة الثانية فى التفسير بالمأثور بعد تفسير ابن جرير الطبرى، ويمتاز بمزايا عديدة، جعلته أهلاً لذلك.

وقد كتب الله له القبول بين الناس جميعًا، وربما فاق تفسير ابن جرير فى الذيوع والاشتهار، وانتفاع الناس به. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وقد وصف السيوطى هذا التفسير فى ذيل تذكرة الحفاظ، والزرقانى فى شرح المواهب بأنه «لم يؤلف على نمطه مثله»[1].

---

(١) الرسالة المستطرفة للكتانى: ١٤٦، نقلاً عن التفسير والمفسرون للذهبى: ١/ ٢٣٨.

المبحث الثالث

الدر المنثور فى التفسير المأثور

للسيوطى

ومن أعظم وأجمع ما ألف فى التفسير المأثور، كتاب الحافظ السيوطى «الدر المنثور فى التفسير المأثور».

ولنا كلمة عن المؤلف، ثم كلمة أخرى عن تفسيره، فنقول وبالله التوفيق:

أولاً: المؤلف(١)

هو جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد بن، سابق الدين أبى بكر بن عثمان بن محمد بن خضر بن أيوب بن محمد - ابن الشيخ همام الدين الخضيرى السيوطى الشافعى، المسند المحقق المدقق.

مولده: ولد مغرب ليلة الأحد مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة.

كنيته: لما عرض محافيظه على العز الكنانى الحنبلى، قال له: ما كنيتك؟ فقال: لا كنية لى، فقال: أبو الفضل، وكتبه بخطه.

نشأته العلمية

توفى والد السيوطى، وللسيوطى من العمر خمس سنوات وسبعة أشهر، وقد وصل فى القرآن إذ ذاك إلى سورة التحريم.

وأسند وصايته إلى جماعة، منهم الكمال بن الهمام، فقرره فى وظيفة الشيخونية، ولحظه بنظرة، وختم القرآن وله من العمر دون ثمان

---

(١) هذه الترجمة منقولة بشئ من التصرف من شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى - ٨/ ٥١ - ٥٤ - ط. المكتب التجارى ببيروت.

سنين.

ثم حفظ عمدة الأحكام، ومنهاج النووى، وألفية ابن مالك، ومنهاج البيضاوى، وعرض ذلك على علماء عصره وأجازوه.

وأخذ عن الجلال المحلى، والزين العقبى، وأحضر والده مجلس الحافظ ابن حجر.

وشرع فى الاشتغال بالعلم من ابتداء ربيع الأول سنة أربع وستين وثمانمائة، فقرأ على الشمس السيرامى صحيح مسلم إلا قليلاً منه، والشفا، وألفية ابن مالك، فما أتمها إلا وقد صنف، وأجازه بالعربية، وقرأ عليه قطعة من التسهيل، وسمع عليه التوضيح، وشرح الشذور، والمغنى فى أصول فقه الحنفية، وشرح العقائد للتفتازانى.

وقرأ فى الفرائض والحساب على علامة زمانه الشهاب الشارمساحى وقرأ فى الميقات على مجد الدين ابن السباع، والعز بن محمد الميقاتى، وفى الطب على محمد بن إبراهيم الدوانى لما قدم القاهرة من الروم.

كثرة شيوخه ومصنفاته

ولقد كثر شيوخه كثرة لم تتوافر لكثير غيره رحمه الله، وكان هؤلاء الشيوخ مختلفى المشارب، متعددى العلوم والمواهب.

لذا نبغ فى العلوم كلها، وصنف فيها كلها، فلم يترك مجالاً إلا صنف فيه وأبدع، وكتب الله لتلك المؤلفات الذيوع والانتشار، فعم نفعها، وساد قبولها.

وقد ذكر تلميذه الداودى فى ترجمته أسماء شيوخه إجازة وقراءة وسماعًا، مرتين، على حروف المعجم، فبلغت عدتهم واحدًا وخمسين شيخًا، كما استقصى مؤلفاته الحافلة المتقنة المحررة المعتمدة فزادت على خمسمائة مؤلف. وشهرتها تغنى عن ذكرها.

وقد اشتهر أكثر مصنفاته فى حياته، فى أقطار الأرض شرقًا وغربًا، وكان آية كبرى فى سرعة التأليف، حتى قال تلميذه الداودى: عاينت الشيخ وقد كتب فى يوم واحد ثلاثة كراريس تأليفًا وتحريرًا.

وكان مع ذلك يملى الحديث، ويجيب عن المتعارض منه بأجوبة حسنة.

وكان أعلم أهل زمانه بعلم الحديث وفنونه، رجالاً وغريبًا، ومتنًا وسندًا، واستنباطًا للأحكام منه.

قوة حافظته

وكان رحمه الله يتمتع بحافظة قوية، مما جعله فى عداد الحفاظ المتقنين، أخبر عن نفسه بأنه يحفظ مائتى ألف حديث، وقال:

ولو وجدت أكثر لحفظته، قال: ولعله لا يوجد على وجه الأرض الآن أكثر من ذلك.

زهده في الحياة

وكان رحمه الله زاهدًا فى الحياة، عفيف النفس، حتى مع أهل الجاه والسلطان.

فقد كان الأمراء والأغنياء يأتون إلى زيارته، ويعرضون عليه الأموال النفيسة فيردها.

وأهدى إليه الغورى خصيًا وألف دينار، فرد الألف، وأخذ الخصى فأعتقه، وجعله خادمًا فى الحجرة النبوية، وقال لقاصد السلطان:

لا تعد تأتينا بهدية قط، فإن الله تعالى أغنانا عن مثل ذلك.

وطلبه السلطان مرارًا فلم يحضر إليه.

شيخ السنة والحديث

يذكر صاحب شذرات الذهب: أن النبى ﷺ رُئى فى المنام والشيخ السيوطى يسأله عن بعض الأحاديث، والنبى ﷺ يقول له: هات ياشيخ السنة.

ورأى هو بنفسه هذه الرؤيا، والنبى ﷺ يقول له: هات ياشيخ الحديث.

سلفي المعتقد

وكان رحمه الله سلفى المعتقد، فى آيات الأسماء والصفات الخاصة بالله عز وجل، فقد كان يثبت لله ما أثبته من غير تعطيل ولا تشبيه، ولا نفى، ولا تأويل.

وقد نظم فى ذلك أبياتًا - فقد كان شاعرًا جيدًا، له شعر كثير، غالبه فى الفوائد العلمية - يقول رحمه الله:

فوض أحاديث الصِّفَا ... تِ ولا تشبه أو تعطل

الا رمت إلا الخوض في ... تحقيق معضلة فأول

إن المفوض سالم ... مما تكلفه المؤول

اعتزاله الدنيا في الأربعين

ولما بلغ أربعين سنة أخذ فى التجرد للعبادة، والانقطاع إلى الله تعالى، والاشتغال به صرفًا، والإعراض عن الدنيا وأهلها، كأنه لم يعرف أحدًا منهم.

وشرع فى تحرير مؤلفاته، وترك الإفتاء والتدريس واعتذر عن ذلك فى مؤلف سماه بالتنفيس، وأقام فى روضة المقياس، فلم يتحول منها إلى أن مات، ولم يفتح طاقات بيته التى على النيل من سكناه.

قال صاحب الشذرات:

«ومناقبه لا تحصى كثرة، ولو لم يكن له من الكرامات إلا كثرة المؤلفات، مع تحريرها، وتدقيقها، لكفى ذلك شاهداً لمن يؤمن بالقدرة.

وفاته

توفى فى سحر ليلة الجمعة تاسع عشر جمادى الأولى، فى منزله بروضة المقياس، بعد أن تمرض سبعة أيام، بورم شديد فى ذراعه الأيسر، عن إحدى وستين سنة، وعشر أشهر، وثمانية عشر يومًا، ودفن فى حوش قوصون خارج باب القرافة.

ثانيًا: تفسير الدر المنثور

نستطيع من خلال قراءة ما جاء فى آخر كتاب الإتقان للسيوطى وما جاء فى مقدمة تفسيره الدر المنثور أن نقف على مبتدأ فكرة هذا التفسير ومنتهاها.

حيث إنه ابتدأه بحجم كبير ثم انتهى بحجم أصغر على النحو الموجود الآن، وكان الحجم الأكبر يحمل اسمًا خاصًا، فلما اختصره اختار له اسمًا آخر، هو المعروف به الآن.

يقول السيوطى فى آخر كتاب الإتقان:

«وقد جمعت كتابًا مسندًا فيه تفاسير النبى ﷺ والصحابة، فيه بضعة عشر ألف حديث، ما بين مرفوع وموقوف، وقد تم ولله الحمد فى أربع مجلدات، وسميته ترجمان القرآن،، ورأيت وأنا فى أثناء تصنيفه النبى ﷺ فى المنام، فى قصة طويلة، تحتوى على بشارة حسنة»[1].

---

(١) الإتقان: ٢/ ١٨٣.

وفى مقدمة تفسير الدر المنثور يقول:

«لما ألفت كتاب ترجمان القرآن، وهو التفسير المسند عن رسول الله ﷺ كان ما أوردته فيه من الآثار بأسانيد الكتب المخرجة منها واردات[١]، رأيت قصور أكثر الهمم عن تحصيله، ورغبتهم فى الاقتصار على متون الأحاديث دون الإسناد وتطويله، فلخصت منه هذا المختصر، مقتصرًا فيه على متن الأثر، مصدرًا بالعزو والتخريج إلى كل كتاب معتبر، وسميته بالدر المنثور فى التفسير المأثور»[٢].

وعلى ذلك فإن الدافع لهذا الاختصار هو ترغيب الناس فى قراءته بدلاً من الملل الذى سيلحقهم، لو ترك على طوله.

مزايا هذا التفسير

ولهذا التفسير عدة مزايا من أبرزها ما يلى:

١ - أنه تفسير جامع لمعظم ما ورد من مأثور فى تفسير الآيات، فنادرًا ما نجد روايات بالمأثور خارجة عنه.

إذ أن السيوطى نظر إلى مصادر المأثور، وجمع منها، فمن أراد كتابًا جامعًا فى المأثور فعليه باقتناء الدر المنثور.

٢ - ومن مزايا هذا التفسير أيضًا أنه التفسير الوحيد، الذى ينطبق عليه اسم التفسير المأثور تمام الانطباق.

والسبب فى ذلك أنه لا يضم بجوار المأثور أى شئ غيره، فلا إعراب، ولا بيان أحكام، ولا استنباط، ولا ترجيح ولا أى شئ غير المأثور.

---

(١) أى أسانيد كثيرة.

(٢) الدر المنثور: ١/ ٢ - بشئ من الاختصار.

أما التفاسير الأخرى التى يطلق عليها اسم التفسير بالمأثور، فلا تنطبق عليها تلك التسمية تمام الانطباق وإنما أطلق عليها ذلك على سبيل التغليب، إذ أن المأثور هو الغالب عليها، وغير المأثور قليل بالنسبة للمأثور، فالمأثور هو الأهم، أما غيره فهو أمر فى المرتبة التالية.

٣ - ومن مزايا هذا التفسير أيضًا نسبة الروايات إلى مصادرها فهو وإن حذف الأسانيد، إلا أن فى ذكر نسبتها لمصدرها تسهيلاً على الباحث للرجوع إلى مصدر الرواية والبحث عما يتعلق بها.

والعيب الأكبر فى هذا التفسير هو عدم الاقتصار على الأحاديث والروايات الصحيحة، وعدم تعقب الضعيف منها والموضوع فالحافظ السيوطى فى هذا التفسير وإن أبرز فيه موهبته فى الجمع، إلا أنه لم يبرز لنا موهبته الأخرى فى النقد، وبيان الصحيح من الضعيف، وبذلك يوقع القارئ فى حيرة من أمره، حيث لا يفرق بين المقبول والمردود.

ولعل الله سبحانه وتعالى يسخر له من يقوم بهذه المهمة، حتى يتم به النفع، ويقف القارئ على صحيحه وضعيفه.

تنبيه

ذكر السيوطى فى آخر الإتقان ما نصه:

«وقد شرعت فى تفسير جامع لجميع ما يحتاج إليه من التفاسير المنقولة، والأقوال المعقولة، والاستنباطات والإشارات والأعاريب واللغات، ونكت البلاغة ومحاسن البدائع، وغير ذلك، بحيث لا يحتاج معه إلى غيره أصلاً، وسميته بمجمع البحرين ومطلع البدرين، وهو الذى جعلت هذا الكتاب مقدمة له، والله أسأل أن يعين على

إكماله».

هذه الفقرة من الإتقان تدل دلالة واضحة على أن كتاب «مجمع البحرين ومطلع البدرين» الذى كان السيوطى يريد تأليفه شئ آخر تمامًا، غير الدر المنثور، لاختلاف المنهجين تمامًا، فمجمع البحرين بهذا الوصف الذى وصفه السيوطى هو عبارة عن موسوعة ضخمة فى التفسير بالمأثور، والتفسير بالرأى الموسع، الذى يشمل جميع النواحى، التى تجعل القارئ يستغنى به عن غيره، بينما الدر المنثور لا شئ فيه إطلاقًا إلا الأحاديث والروايات الواردة عن السلف، ولا شئ وراء ذلك، مما وصف به مجمع البحرين.

لذا أردنا أن نشير إلى هذه الملاحظة، حتى لا يظن ظان أن الدر المنثور هو مجمع البحرين.

* * *

الخاتمــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد بن عبد الله المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين.

وبعــد

فهكذا عشنا مع أهم قضايا التفسير بالمأثور، حيث تعرضنا لكل مصدر من مصادره، وبينا قيمة كل مصدر وتناولنا أهم مباحث كل مصدر بشئ من التفصيل، كما تحدثنا عن أبرز شخصيات المفسرين في عهد الصحابة وطرق رواياتهم، وأهم مدارس التفسير في عهد التابعين وأبرز رجال كل مدرسة، كما تعرضنا لدفع بعض الشبه التي أثيرت حول أهم المفسرين، وبينا أن المراد من هذه الشبه إنما هو التشكيك في علماء السلف، حتى تنقطع الصلة بين خلف الأمة وسلفها، الذين حملوا إلينا هذا الدين، فيسهل التخلص من الدين نفسه.

كما تعرضنا لأخطر الأمور على التفسير بالمأثور، والتي تتمثل في الأحاديث الموضوعة والإسرائيليات، وحذف الأسانيد، وبينا وجه الخطورة وكيفية توقيها.

ثم تعرضنا لأهم ثلاثة كتب في التفسير بالمأثور، ألا وهي:

تفسير ابن جرير، وابن كثير، والسيوطي، بما يكشف أهم الملامح لكل مفسر منهم، وأبرز خصائص كل تفسير من هذه التفاسير.

إلى غير ذلك مما تعرضنا له في فصول ثمانية، ضمت ثلاثين مبحثًا.

وفي ختام هذا الكتاب أرجو أن أكون قد ألممت بأهم ما يحتاج في

مجال التفسير بالمأثور، فما كان فيه من صواب فمن الله وحده، فله الحمد والشكر، وما كان فيه من غير ذلك، فمن نفسى والشيطان.

والله أسأل العفو والمغفرة، وأن يجعل ذلك فى ميزان حسناتى وحسنات والدىّ الكريمين، وجميع أساتذتى وجميع كل من ساهم فى نشر هذا الكتاب.

مع وعد إن شاء الله تعالى بإصدار كتاب آخر يتضمن أهم قضايا التفسير بالرأى، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى الدين، صلاة وسلامًا وبركة عدد خلق الله ورضا نفسه وزنة عرشه، كلما ذكر الله الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

أهم المراجع والمصادر

١ القرآن الكريم

٢ الإتقان للسيوطى

٣ الإحكام لابن حزم - ط. دار الجيل ببيروت.

٤ الإحكام فى أصول الأحكام للآمدى - ط. محمد صبيح.

٥ إحياء علوم الدين - للغزالى.

٦ إرشاد العقل السليم - لأبى السعود.

٧ إرشاد الفحول - للشوكانى - ط. مصطفى الحلبى

٨ أسد الغابة - لابن الأثير

٩ الإسرائيليات فى التفسير والحديث للدكتور الذهبى - ط. مجمع البحوث الرسلامية

١٠ الإسرائيليات والموضوعات للدكتور محمد أبو شهبة

١١ الإصابة فى تمييز الصحابة - لابن حجر العسقلانى - ط. دار الفكر

١٢ أصول السرخسى - ط. دار الكتاب العربى بالقاهرة.

١٣ أعلام الموقعين لابن القيم - ط. دار الجيل ببيروت.

١٤ الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث - لأحمد شاكر.

١٥ البحر المحيط لأبى حيان.

١٦ البداية والنهاية لابن كثير.

١٧ البرهان للزركشى.

١٨ تاج العروس للزبيدى.

١٩ التحبير فى علم التفسير للسيوطى.

٢٠ تدريب الراوى للسيوطى.
٢١ تذكرة الحفاظ للذهبى.
٢٢ تفسير القرآن العظيم لابن كثير.
٢٣ تفسير النسائى - ط. مكتبة السنة.
٢٤ التفسير والمفسرون للذهبى - ط. الفنية المتحدة.
٢٥ التقييد والإيضاح - شرح مقدمة ابن الصلاح للعراقى.
٢٦ تقييد العلم - للخطيب البغدادى.
٢٧ تلبيس إبليس لأبى الفرج ابن الجوزى.
٢٨ تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى.
٢٩ التيسير فى علم التفسير لعمر النسفى.
٣٠ جامع أحكام القرآن للقرطبى.
٣١ جامع بيان العلم وفضله - لابن عبد البر - ط. المنيرية.
٣٢ جامع البيان عن تأويل القرآن لابن جرير الطبرى.
٣٣ جماع العلم للشافعى - ط. دار المعارف.
٣٤ حجية السنة - د. عبد الغنى عبد الخالق - ط. المعهد العالى للفكر الإسلامى
٣٥ حلية الأولياء لأبى نعيم - ط. دار الكتاب العربى - بيروت.
٣٦ خلاصة تهذيب التهذيب - للخزرجى.
٣٧ الدخيل فى التفسير - د/ إبراهيم خليفة.
٣٨ الدخيل فى التفسير - د/ عبد الوهاب فايد.
٣٩ دراسات فى مناهج المفسرين - د/ إبراهيم خليفة.
٤٠ الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة - لابن حجر العسقلانى.
٤١ الدر المنثور فى التفسير المأثور - للسيوطى.

٤٢ الرسالة للإمام الشافعى - تحقيق أحمد شاكر.

٤٣ رفع الملام عن الأئمة الأعلام - لابن تيمية.

٤٤ سنن الترمذى.

٤٥ سنن الدارمى.

٤٦ سنن أبى داود.

٤٧ السنن الكبرى للبيهقى.

٤٨ سنن ابن ماجة

٤٩ سيرأعلام النبلاء - للذهبى.

٥٠ الشفاء للقاضى عياض - ط. مصطفى الحلبى.

٥١ شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى - ط. المكتب التجارى.

٥٢ صحيح البخارى.

٥٣ صحيح مسلم.

٥٤ طبقات الشافعية الكبرى - لابن السبكى.

٥٥ طبقات القراء للذهبى.

٥٦ الطبقات الكبرى لابن سعد.

٥٧ طبقات المفسرين للداودى.

٥٨ العدة فى أصول الفقه لأبى يعلى الفراء - ط. مؤسسة الرسالة.

٥٩ علوم الحديث لابن الصلاح.

٦٠ عمدة التفسير لأحمد شاكر - ط. دار المعارف.

٦١ غاية النهاية لابن الجزرى.

٦٢ فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر.

٦٣ فتح القدير للشوكانى.

٦٤ فجر الإسلام - لأحمد أمين.

٦٥ الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة - للشوكانى.

٦٦ فواتح الرحموت - لعبد الله الأنصارى.

٦٧ القاموس المحيط للفيروزابادى.

٦٨ الكتاب المقدس.

٦٩ كشف الخفاء للعجلونى.

٧٠ الكفاية فى علم الرواية - للخطيب البغدادى.

٧١ لسان العرب - لابن منظور

٧٢ لسان الميزان لابن حجر العسقلانى - ط. مؤسسة الأعلمى.

٧٣ المحرر الوجيز تفسير الكتاب العزيز - لابن عطية.

٧٤ المذاهب الإسلامية فى التفسير - لجولدزيهر - ط. دار إقرأ.

٧٥ المستدرك للحاكم النيسابورى.

٧٦ المستصفى لأبى حامد الغزالى.

٧٧ مسلم الثبوت شرح فواتح الرحموت - لابن عبد الشكور.

٧٨ مسند الإمام أحمد.

٧٩ المصاحف لابن أبى داود.

٨٠ معجم الأدباء لياقوت الحموى.

٨١ معرفة علوم الحديث - للحاكم النيسابورى.

٨٢ مقدمة جامع التفاسير للأصفهانى - ط. دار الدعوة.

٨٣ مقدمة فى أصول التفسير لابن تيمية - عدة طبعات.

٨٤ مناهل العرفان للزرقانى.

٨٥ الموافقات للشاطبى - ط. محمد صبيح.

٨٦ الموضوعات - لابن الجوزى.

٨٧ موطأ الإمام مالك.

٨٨ المسائل والأجوبة - لابن قتيبة.

٨٩ ميزان الإعتدال - للذهبى.

٩٠ وفيات الأعيان لابن خلكان.

* * *

فهرس الموضوعات

الموضـــــــوع	الصفحة

الفصل الثالث

المصدر الثالث فى التفسير بالمأثور

الفصل الرابع

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضـــــــوع الصفحة

الفصل الثامن

الموضــــــــوع	الصفحة
٢ - تفسيره القرآن بالسنة	٤٠٣
٣ - تفسيره بأقوال الصحابة والتابعين	٤٠٥
٤ - الإسرائيليات فى تفسيره	٤١١
٥ - اعتناؤه بذكر الأسانيد	٤١١
٦ - عنايته بالقراءات، وخطؤه فى رد القراءات المتواترة	٤١٢
٧ - اهتمامه بمسائل العقيدة	٤١٧
٨ - اهتمامه بالفقه وأصوله	٤٢٠
٩ - عنايته بالمباحث العربية	٤٢٤
١٠ - تعرضه أحيانًا للبلاغة القرآنية	٤٢٨
١١ - احتجاجه بالإجماع	٤٢٩
١٢ - عدم اهتمامه بسفاسف الأمور	٤٣٠
١٣ - إنكاره التفسير بالرأى المذموم	٤٣٢
المبحث الثانى: تفسير القرآن العظيم لابن كثير	٤٣٥
- ترجمة ابن كثير	٤٣٥
- منزلته العلمية	٤٣٦
- منهجه فى تفسيره	٤٣٨
- عنايته بتفسير القرآن بالقرآن	٤٣٩
- عنايته بتفسير القرآن بالسنة	٤٤١
- عنايته بتفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين	٤٤١
- اهتمامه بذكر الأسانيد	٤٤١
- تعقبه الإسرائيليات	٤٤٢
- سلوكه مسلك السلف فى أسماء الله وصفاته	٤٤٣
- عنايته بالأحكام الفقهية	٤٤٤

الموضـــــــوع	الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية

١٩٩٨/٤٧٤٧

تحريراً في ٢٣/ ٣/ ١٩٩٨

مطبعة الحسين الإسلامية
٢٥ حارة المدرسة خلف الجامع الأزهر
ت : ٥١٠٦٧٢٤